تراجم مغربيّة من مصادر مشرقيّة

جمعها ورتّبها وقدّم لها وعلّق عليها

الدكتور محمد بن شريفة
عضو اكاديميّة المملكة المغربيّة

تراجم مغربية
من
مصادر مشرقية

جمعها ورتبها وقدم لها وعلق عليها
الدكتور محمد بن شريفة
عضو أكاديمية المملكة المغربية



الطبعة الأولى 1996/1417

تقديم(*)

أود التذكير في البداية بأن عددا كبيرا من تراجم أعلام المغرب ـــ وأعلام الغرب الإسلامي عامة ـــ يوجد في المصادر المشرقية، ولاسيما كتب الطبقات، سواء منها العامة أم الخاصة. وقد ظهر هذا بوضوح بعد أن نشر معظم هذه الطبقات، ولهذا أكتفي بالإشارة إلى بعضها على سبيل المثال، فمن كتب الطبقات المشرقية العامة : «وفيات الأعيان» لابن خِلّكان، وذيولها المتعددة، مثل «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي، و«الوافي بالوفيات» لخليل بن أَيْبَك الصفَدي و«المستوفى بعد الوافي» لابن تَغْري بَرْدى، و«المقفى» للمقريزي وغيرها.

ومن كتب الطبقات العامة أيضا «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي و«العِبر في خبر من غبر» له أيضا، و«شذرات الذهب» لابن العِماد الحنبلي وغيرها.

وأما كتب الطبقات الخاصة فمنها ما هو خاص بأهل علم من العلوم مثل «إنباه الرواة على أنباء النحاة» للقِفْطي و«إخبار العلماء بأخبار الحكماء» له أيضا، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أُصَيْبِعة و«غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزَري، وغيرها كثير، ومنها ما هو خاص بأهل قرن من القرون مثل «الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حَجَر العسقَلاني، و«الضوء اللاّمع في أعيان القرن التاسع» للسخَاوي وغيرهما كثير أيضا، ومنها ما هو خاص بغير ذلك. وقد فصل الكلام في هذا من القدماء السخاوي في كتابه «التوبيخ لمن ذمّ التاريخ» وغيره.

وفي جميع هذه الطبقات المشرقية نجد أعلاما مغربية بنسب متفاوتة فهم يعدون بالمئات في «الوافي بالوفيات» للصفَدي، وهم دون ذلك في كتب الطَّبقات الأخرى. وأظن أن تجريد التراجم المغربية واستخراجها من كتب الطبقات المشرقية عمل مطلوب، لأن من شأنه أن يقربها إلى الباحثين ويبرزها أمام أنظارهم، وأقول ـــ على سبيل المثال ـــ إنه لا يخطر ببال الدارس أن يبحث عن ترجمة المولى إدريس

(*) أصل هذا التقديم مقالة منشورة في مجلة أكاديمية المملكة المغربية.

الأزهر في «معجم الشعراء» للمرزُباني[1]، وهي موجودة فيه، أو يلتمس شعر أبي الخطار أمير الأندلس في حماسة البُحتري وحماسة ابن الشجَري، وهو موجود فيهما[2]. على حين أن الاهتداء إلى مثل هذا يكون سهلا لو جُرِّدَتْ هذه التراجم وجُمِعت في معجم أو معاجم خاصة بها.

وأعود بعد هذا التذكير إلى كتاب ابن الشّعّار الذي استخرجت منه ومن غيره هذه التراجم المغربية فأقول إن هذا الكتاب يسمى في بعض المصادر «عقود الجُمان في شعراء هذا الزمان»، وهذا هو العنوان الموجود في غلاف النسخة الخطية الوحيدة، وبهذا العنوان ذكر في «وفيات الأعيان» و«الوافي بالوفيات»[3]، وذهب ناشر الكتاب الدكتور سِزْكين إلى أنه عنوان غير صحيح وأن الصواب هو ما ورد في مقدمة المؤلف إذ يقول : «وقد وسمت هذا الكتاب بقلائد الجُمان في فرائد شعراء هذا الزمان، أعني بذلك زماني، ومن أدركه من الشعراء عياني»[4]. ويذكر ابن الشعار أنه ألفه بعد انتهائه من كتابه «تحفة الوزراء» الذي ذيل به «معجم الشعراء» للمرْزُباني، ولما كان «الذيل» يشتمل على شعراء من قرون متعددة فقد بدا له أن يخصص «القلائد» لشعراء زمانه، وهو النصف الأول من القرن السابع الهجري، وخرج في عشرة أجزاء مرتبة على حروف المعجم، وقد ضاع منها الثاني والثامن أما الأجزاء الباقية فتحتوي على ما يقرب من ألف ترجمة، يقع بعضها في بعض الحالات في 80 صفحة، ولا يتعدى نصيب بعضها أحيانا صفحة واحدة، وتطول التراجم أو تقصر بحسب ما تيسر لابن الشعار من أخبار وأشعار لأصحابها، وهي أخبار وأشعار «التقطها من الشِّفاه وتلقفها من الأفواه» كما يقول[5]، ومعنى هذا أنه اعتمد كثيرا على الرواية الشفوية وهو ما نجده في معظم التراجم، ويقول ابن الشعار إنه اقتفى في تأليف كتابه أثر من تقدمه في هذا الشأن واقتدى بهم كالثعالبي في «يتيمة الدهر» والباخَرزي في «دُمية القصر» والخطيري في «زينة الدهر»

(1) الوافي بالوفيات 8 : 314.

(2) الحماسة الشجرية 1 : 9.

(3) وفيات الأعيان 6 : 65، 138، 7 : 38، 93، 236، والوافي بالوفيات 1 : 54.

(4) قلائد الجمان 1 : 4.

(5) نفسه.

والأصفهاني في «خريدة القصر» وغيرهم من مؤلفي معاجم الشعراء حسب العصور.

أما عدد التراجم المغربية ـــ بالمدلول الجغرافي الواسع لكلمة المغرب ـــ وهو مدلول القرن السابع الهجري، فيبْلُغ أزيد من 60 ترجمة فيها الطوال وفيها القصار، ومنها المعروف الذي يوجد في مصادر أخرى، ومنها ما لا يوجد إلا في هذه العقود أو القلائد، وهي جميعا غنية بالأخبار المفيدة والأشعار الجديدة، والمترجمون كلهم من أهل القرن السابع الهجري وكلهم لهم أشعار، وهذا هو شرط المؤلف، وهنا نتذكر أن لابن سعيد الأندلسي كتابا خصصه لبعض شعراء المائة السابعة من المغاربة والمشارقة[6]، ولكنه صغير الحجم. وربما كان كتاب «الإشادة» للعزفي كذلك وهو مفقود[7].

والمترجمون عند ابن الشعار ينتمون إلى مدن مغربية وأندلسية متعددة فمنهم السبتي والمراكشي والسّلاوي والفاسي والقصري والآسفي والقيرواني والوهراني والبجائي والقُسنطيني والزواوي والتلمساني والقرطبي والإشبيلي والغرناطي والبلنسي والمالقي والجياني والشريشي والبيغي والمريي والميورقي والبجاني، وفي هؤلاء المترجمين يهودي من أهل طليطلة، والقاسم المشترك كما يقال بينهم هو الشعر، وابن الشعار يروي أشعار بعضهم عنهم مباشرة ويروي أشعار آخرين عن مغاربة رووها عن أصحابها في بلاد المغرب قبل أن يرحلوا. وينص ابن الشعار دائما على مكان اللقاء والرواية، فهو دمشق تارة وحلب تارة أخرى ودنيسر مرة وإربل مرات، وبغداد حينا والموصِل حينا آخر.

فقد ولد مؤلف الكتاب أبو البركات المبارك بن أحمد المعروف بابن الشعار في الموصل سنة 593هـ وتنقل بين المدن المذكورة إلى أن توفي بحلب سنة 654هـ[8].

---

(6) هو الغصون اليانعة، في محاسن شعراء المائة السابعة، وهو مطبوع.

(7) كتاب الإشادة، بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإجادة ألّفه أبو القاسم عبد الرحمن العزفي برسم الوزير أبي عبد الله ابن الحكيم وقد نقل المقري شذرات منه في كتابه أزهار الرياض.

(8) انظر ترجمة ابن الشعّار في معجم ابن الفوطي 5 ترجمة 485 وتاريخ إربل، ترجمة رقم 292 وانظر حاشية محقق هذا الكتاب (2 : 597-599).

لعلنا نعجب اليوم حين نرى عددا لابأس به من أعلام الأندلس والمغرب ينتهي بهم المطاف إلى مدن نائية ويلقون عصا التّرحال بهذه المدن المذكورة وغيرها في ذلكم الزمن الذي كان السفر فيه مغامرة كبرى، ولكن الشرق كانت له دائما جاذبيته، ولهذا كان مقصد المغاربة في كل العصور، ومن المعروف أن الأسباب التي كانت تدعوهم إلى الرحلة متعددة، منها ما هو ديني، ومنها ما هو علمي، ومنها ما هو تجاري، ومنها ما هو سِفَاري، ومنها ما هو سياسي، ونذكر بخصوص هذا السبب الأخير أن القرن السابع الهجري كان مليئا بالأحداث الداعية إلى الهجرة سواء في الأندلس أم في المغرب، ففي الأندلس كانت نُذُر السقوط بادية للعيان، وساءت الأحوال في أواخر دولة الموحدين، وقد حمل هذا أعلاما كثيرين على الهجرة إلى المشرق، وأظن أن ارتحال ابن اليسع وابن الأشيري وعبد الواحد التميمي المراكشي وغيرهم من المؤرخين الجغرافيين كان لأسباب سياسية. ولعل مما كان يشجع سفر بعض طلبة العلم إلى المشرق ما كان يتناهى إلى أسماعهم عن المدارس المعدة لسكنى العلماء والجامكيات المخصصة لنفقاتهم، وهذا يذكر في بعض التراجم التي بين أيدينا، فالحاجة كانت أيضا من بواعث الترحال، وكما يقول الشاعر :

يُقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمي النوى بالمقتِرين المراميا

وبعض هؤلاء المغتربين كانوا يحصلون على مراتب سامية ودرجات عالية لدى الناس وعند الولاة نظرا لعلمهم وكفايتهم وأمانتهم، ومعظمهم كانوا يقومون بالإقراء والتدريس والتأليف، ومنهم من عين على رئاسة المدارس والخانقاهات والبيمارستانات المنتشرة يومئذ في مصر والشام والعراق[9]. ويمكن القول بأن القرنين السادس والسابع الهجريين عرفا انتشارا واسعا لعلماء بلاد المغرب في المشرق، وقد بلغ هؤلاء إلى ما وراء النهر ووصلوا إلى الهند والصّين وسبقوا ابن بطوطة إلى دخول تلك الأراضي النائية[10]. ومن الغريب أن أخبار التتر المخيفة

---

(9) من أشهر الأمثلة في هذا ولاية الحافظ أبي الخطاب ابن دحية وأخيه الحافظ أبي عمرو على دار الحديث الكاملية في القاهرة.

(10) نذكر من هؤلاء أبا الحسن سعد الخير بن محمد الأنصاري البلنسي الذي ركب البحار وقاسى المشاق ودخل الصّين واشتهر بالبلنسي الصيني وبهذا كان توقيعه وقد سكن أصبهان مدة =

لم تكن تصرفهم عن وجهتهم، وقد سمى ابن الشعار بعض الذين قتلهم التتر[11]، ويبدو أن من أسباب اقتحامهم تلك المخاطر الوصول إلى مواطن المدَوِّنين الأولين للحديث كبُخارَى وقَزْوين ونَسَا ونيسابور وتِرْمِذ وغيرها.

ويمكن القول أيضا ــ بالاعتماد على استقراء تراجم ابن الشعار وغيره ــ أن هؤلاء العلماء كان لهم أثر كبير في الحركة العلمية بالمشرق لاسيما خلال القرن السابع الهجري، فابن الشعار يذكر في تراجم بعضهم أنهم حملوا معهم مؤلفات مغربية ونشروها هناك وأقرأوها، ومنها الجَزُولية المعروفة في النحو وألفية ابن مُعْط الزواوي في النحو أيضا والشاطبية في القراءات[12]، وفي هذا القرن ألف ابن مالك الجيَّاني في دمشق الألفية التي غطت على ألفية ابن مُعط تلميذ أبي موسى الجزولي، وسيأتي بعد هؤلاء أبو حيّان الغرناطي فيملأ المشرق نحوا ولغة وتفسيرا.

ويمكن أن نعرف مبلغ التأثير الذي كان لهؤلاء الأعلام إذا ذكرنا أن من بينهم ابن عربي الحاتمي وابن دِحْية وغيرهما من أمثالهما. فالفتح بن موسى بن حَمّاد الذي شاهده ابن الشعار بإِرْبِل وهو من القصر الكبير ــ كابن رُشَيْد صاحب الوِتْرِيّات[13] ــ تولى التدريس بالمدرسة النّظَامِية على الفِرَق الأربع ثم فوض إليه أمر ديوانها، وكان يتقن علوماً كثيرة، وقال ابن الشعار إنه نظم «المفصّل» للزمخشري و«الإشارات» لابن سينا وغير ذلك، وقد أورد بعض شعره وخطبه وهو نموذج لغيره[14].

وقد وقعت الإشارة في بعض الكتابات إلى أن شعر المغاربة لم ينتشر في المشرق، وهذا غير صحيح، فإننا عندما نستقرىء معاجم الأعلام ومعاجم الشعر المشرقية

= وتزوج بها وولدت له بنته فاطمة وهي محدثة معروفة ثم انتهى به المطاف إلى بغداد حيث توفي سنة 541هـ، راجع التكملة رقم 2011 والذيل والتكملة 4 : 16–18. ونفح الطيب 2 : 632.

(11) في ترجمة أبي عبد الله الزهري الاشبيلي الآتية أنه استوطن بروجرد وتأهّل بها وأقام هناك إلى أن دخل التتر فقتلوه في جملة من قتلوا سنة 617هـ، وفي ترجمة عبد الرحمن بن سعيد العنسي أنه قتل ببخارى حين دخلها التتر.

(12) انظر ص 105، 160 من هذا المجموع.

(13) انظر ترجمة ابن رشيد هذا في الذيل والتكملة 8 : 274–280.

(14) انظر ترجمته في هذا المجموع ص 105.

بدءا من «يتيمة الدهر» وما تلاها، نجد أن أشعار الأندلسيين والمغاربة أيضا رُوِيت وحُفِظت وأثّرت تأثيرا ملحوظا في البيئات الشعرية المشرقية خلال القرن السابع في مصر وغيرها، وهذا شيء قرره النقاد والبحاث، ومنهم إحسان عباس في «تاريخ النقد العربي»[15]. وأذكر على سبيل المثال أنّ ابن الشعار قرّر أن ابن سَنَاء المُلك «عاشر رجلا مغربيا كان يتعاطى الموشّح المغربي والأزْجال فَوقفه على أسرارهما وباحثه فيهما وكثر حتى انقدح له في عملهما ما زاد على المغاربة حسنا واتقانا»[16]. وقد روي عن أحد المترجمين وهو أبو الروح التاكرني شيء كثير من أشعار الأندلسيين والمغاربة[17] وجمع بعض هؤلاء للمشارقة مختارات من ذلك في مواضيع مختلفة[18].

ذكر ابن الشعّار في ترجمة محمد بن علي البلنْسي أنه لقيه بمدينة إرْبِل وقالَ إنه كانت «على ذهنه قطعة صالحة من أشعار الأندلسيين». ومن تصانيفه «كتاب الروض الممطور، في أوصاف الخمور، وما يتعلق بها من الشذور»[19] ويبدو أنه خاص بأشعار الأندلسيين في هذا الموضوع.

أما أشعار المغاربة والأندلسيين الواردة في معجم ابن الشعار فإنها لو جمعت لكان منها ديوان ضخم، وهي أشعار تتسم في جملتها بسلامة التعبير ولطافة المعاني.

وثمّة طابع طبع جل شعر الأندلسيين والمغاربة الذين أقاموا في المشرق، وهو الحنين والشكوى، وقد سئل أحدهم ــ وهو أبو الحسن علي بن أحمد الإشبيلي المعروف بالقسطار ــ عن شوقه للأهل كيف هو ؟ فقال :

يا سائلي كيفَ شَوْقي الأهلَ والوطَنا   هَيّجتَ والله لي ما كانَ قد سَكَنا
كيفَ اشتياقُ غريبِ الدَّارِ مُنْقَطِعٌ   عِشْرِينَ عاماً يُقَاسِي غُرْبَةً وَضَنا

---

(15) انظر ص 532، 578.

(16) انظر ص 181 وما بعدها من هذا المجموع.

(17) انظرها من ص 181 إلى ص 187 في هذا المجموع.

(18) ص 62 من هذا المجموع.

(19) ص 122 من هذا المجموع.

شَوْقِي إليهِمْ شديدٌ لاَ ٱنْفِصَامَ لَهُ   والقَلْبُ ذُو حُرَقٍ مُذْ فارقَ السَّكَنا[20]

ويبدو أن هذا الاشبيلي الذي ترك سكناً له في إشبيلية قَدْ تزوج، ولعله طلق بعد أن ولد له، فهو يقول حينَ ذهب بابنه كرها إلى جدته وكان يقول له : دعني عندك اليوم وغدا ابعثني إليهم :

لَهَفِي علَى الوَلَدِ العزيزِ وقَدْ غدا   كَرْها يُفارقني إلَى بَيْتِ الْعِدَى
ويقولُ يا مَوْلاَيَ : تُسْلِمُني إلَى   مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُنِي وَيُورِدُنِي الرَّدَى
مَوْلاَيَ دَعْنِي عِنْدَكُم مُتَنَعِّماً   يَوْمِي، وَيَنْتَقِمونَ مِنِّي هُمْ غَدا
مَوْلاي كَيْفَ تُسَرُّ وابْنُكَ مُوثَقٌ   في أَسر باغيةٍ، عليه تمردا
فأجبتهُ والدَّمعُ مُنْهَلٌّ عَلَى   خَدٍّ نَحيلٍ أصفرٍ : نَفْسِي ٱلْفِدَا
نَفْسِي فِداؤُكَ مِنْ أَذىً جُرِّعْتَهُ   طِفْلاً فَسَاعَدَكَ ٱلإِلَهُ وَأَسْعَدَا[21]

ومن أشعارهم في التغرّب قصيدةٌ لأبي الوليد يونس بن موسى السلاوي يقول فيها :

تَغرُّبٌ ومَشيبٌ نازِلٌ وَأَسىً   بَرْحٌ وَفَقْدُ حَبِيبٍ غَيْرِ مَرْدُودِ[22]

وقد ألف أحدهم وهو أبو موسى عيسى بن سليمان المالَقي كتابا في الموضوع سماه : «كتاب الحنين إلى الأحباب والأوطان، الغالب على النفس هواه والهوى سلطان»[23]. وفي وصف هذا الكتاب يقول :

هذا كتابُ قَصِيِّ الدَّارِ مُمْتَحَنٍ   بِفُرْقَةِ ٱلأَهْلِ وَٱلأخدانِ وَالْوَطَنِ
صَبٍّ مَشوقٍ بَرَاهُ ٱلْبَيْنُ فَاضْطَرَمَتْ   أَحْشَاؤُهُ فَغَدَا وَٱلْهَمَّ فِي شَطَنِ
تَصْنِيفُ مَنْ قَرِحَتْ بِٱلدَّمْعِ مُقْلَتَهُ   وَخَدَّ فِي ٱلْخَدِّ سَيْلُ ٱلْعَارِضِ ٱلْهتِنِ
كَذَاكَ كُلُّ غَرِيبِ ٱلدَّارِ مُنْتَزِحٍ   مَا إِنْ لَهُ حَيْثُمَا قَدْ حَلَّ مِنْ سَكَنِ
طَالَ ٱلثَّواءُ بِأَرْضِ ٱلشَّامِ وَا أَسَفِي   مَاذَا مُنِيتُ بِهِ مِنْ غَدْرَةِ ٱلزَّمَنِ

---

(20) ص 60 من هذا المجموع.
(21) ص 61 من هذا المجموع.
(22) ص 167 من هذا المجموع.
(23) ص 97 من هذا المجموع.

فَٱللَّهُ يَجْبُرُ ثُكْلِي ثُمَّ يَجْمَعُنِي قَبْلَ ٱلْمَمَاتِ بِمَنْ أَهْوَى بِلاَ مِحَنِ[24]

وذكر ابن الشعار أنه جعل هذا الكتاب في عشرين بابا. والباب الأول منها هو باب في ذم الغربة والاغتراب، وبيان كون الغريب أذل من التراب، وقد أورد له أشعارا في الاشتياق إلى شتل[25] وهو اسم ضيعة من ضياع مالقة كان بها أهله وولده. ومن أطرف ما له قوله في كلمة : غربة.

مَنْ لَمْ تَنَلْهُ غُرْبَةٌ أَمِنَ الرَّدى فَهْوَ ٱلْقَنَاةُ وَتِلْكَ حَدُّ سِنَانِ
وَحُرُوفُهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ رُكِّبَتْ لِتَعُمَّ مَنْ تَغْشَاهُ بِالأَشْجَانِ
فَٱلْغَيْنُ مِنْ غَمٍّ وَغَبْنٍ دَائِمٍ وَٱلرَّاءُ مِنْ رُزْءٍ عَلَى ٱلأَوْطَانِ
وَٱلْبَاءُ مِنْ بَرْحٍ وَبَيْنٍ أَوْ بِلًى وَٱلْهَاءُ مِنْ هَمٍّ وَهُلْكٍ دَانِ[26]

وهذا شاعر طنْجي ـــ من المغاربة الذين أقاموا بإربل ـــ يقول متشوقا إلى بلده :

يا طَنْجَةً جَمَعَتْ رِيماً وَغِزْلاَنا تُراكِ جامِعَةً شَمْلِي كَمَا كَانَا
لَئِنْ أَنَا عِشْتُ حَتَّى تَرْتَوِي مُقَلِي مِمَّنْ أُحِبُّ بِهَا أَهْلاً وَجِيرَانَا
لأَشْكُرَنَّ إِلٰهَ ٱلْعَرْشِ خَالِقَنَا وَأَقْطَعُ ٱلدَّهْرَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا[27]

وعلى ذكر إربل أقول إن معظم المترجمين عند ابن الشعار استقروا بهذه المدينة التي وصفها أحدهم وهو الفتح بن موسى بن حماد من مواليد القصر الكبير، وسماها جنة الدنيا، قال :

يا إِرْبِلَ مَا أَنْتِ إِلاّ جَنَّةٌ خُصَّتْ بِأَكْرَم جِيرَةٍ وَقَرَارِ
لَوْ لَمْ تَكُونِي جَنَّةَ الدُّنْيَا لَمَا كَانَ السِّرَاطُ إِلِيكِ بَيْتَ النَّارِ
سُلْطانُها المَلْكُ المَعَظَّمُ قَدْرُهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُعَظَّمٍ جَبَّارِ

(24) ص 100 من هذا المجموع.
(25) ضبطت في الأصل ثلاث مرّات بضم الشين وفتح التّاء مع تشديدها وفتح اللام ولم أجد لها ذكرا أو رسما فيما وقفت عليه من مصادر وخرائط ولعلها هي **Sudella**.
(26) ص 99 من هذا المجموع.
(27) ص 177 من هذا المجموع.

يَكْفِيهِ عِنْدَ ٱللَّهِ وَهْيَ عَظِيمَـةٌ   تَعْظِيمُ مَوْلِدِ أَحْمَدَ ٱلْمُخْتَـارِ[28]

وقد اجتذبت هذه المدينة التي لا تبعد كثيرا عن الموصل عددا من المغاربة الذين لَقُوا قَبولا عند أهلها وحُظوة لدى سلطانها، ومن ذلك ما ذكره ابن الشعار أن أبا زكرياء يحيى الخُشني ورد إربل بعد سنة 619هـ وعقد بها مجالس للوعظ وكان له من العامة قبول عظيم، وقد أمر العامة أن يطلبوا من السلطان أن يقيم عندهم فأجابهم إلى ذلك.

وذكر ابن المستوفى معاصر ابن الشعار وصاحبه في كتابه «تاريخ إربل» أن سلطانها كوكبْري استخلص لنفسه مغربيا وبقي معه إلى أن توفي ودفن بإربل[29]. ونذكر هنا أن المنصور الموحّدي وفد عليه قوم من هؤلاء الأتراك فخصص لهم جامكيات كما يقول صاحب «المعجِب» وولاّهم على ولايات في الأندلس[30].

لقد ترجم ابن خلّكان للملك كوكبْري ــ ومعناه الذئب الأزرق ــ وأطنب في محاسن سيرته وذكر غرائب من أعماله في الخير والإحسان. فقد كان يفرق كل يوم قناطر مقنطرة من الخبز على المحتاجين ويوزع كذلك كساوى حسب الفصول ومعها صلات من الدنانير وَبَنى خانقاهات للزمني والعميان ودورا للأرامل ودورا للأيتام ودورا للقطاء رتب بها المراضع وبنى بيمارستانا عجيبا وخانقاهَيْن للصوفية ووقف عليهما أوقافا كثيرة أيضا. وأما احتفاله بالمولد الذي أشار إليه شاعرنا القصري «فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به» كما يقول ابن

---

(28) ص 105 من هذا المجموع، وراجع ما قيل في مدح إربل وهجائها في معجم البلدان لياقوت، وبيت النار الوارد ذكره في الأبيات هو اسم قرية كبيرة من قرى إربل من جهة الموصل، وفي إربل يقول بعضهم هاجيا :

إِرْبِـلُ دارُ ٱلْـفِسْقِ حَقّـاً فَـلاَ   يَعْتَمِـدُ ٱلْعَاقِـلُ تَعْزِيزَهَـا
لَوْ لَـمْ تَكُـنْ دَارَ فُسُوقٍ لَمَـا   أُصْبِـحَ بَـيْتُ ٱلنَّـارِ دِهْلِيزَهَـا

انظر معجم البلدان.

(29) ص 177 من هذا المجموع.

(30) المعجب : 365-368.

خلّكان[31]، وقد أطنب في وصفه. ولهذا السلطان ألف ابن دِحْيَة كتابه في المولد النبوي[32]، ومن المعروف أن العَزَفِيِّينَ بسبتة قاموا هم أيضا فيما يقرب من هذا التاريخ بالاحتفال بالمولد النبوي[33].

ولعل في هذا كله ما يفسر لنا سبب إقبال المغاربة على إرْبِل في عهد سلطانها العجيب، وقديما قال الشاعر :

يسقط الطير حيث ينتثر الحبـ ـــبُ وتُغشى منازل الكرماء

وقد خالف ياقوت الحَمَوي ابن خلكان في نظرته إلى سلطان إرْبِل. فقد وصف هذه المدينة في وقته وصفا مطولا، ومما جاء في وصفه قوله : «وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم حتى صارت مصرا كبيرا من الأمصار». وقال في السلطان كوكبْري : «وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة فإنه كثير الظلم عسوف بالرعية راغب في أخذ الأموال من غير وجهها، وهو مع ذلك مفضل على الفقراء كثير الصدقات على الغرباء، يسير الأموال الجمة الوافرة يفتك بها الأسارى من أيدي الكفار»[34].

وأعود بعد هذا إلى تراجم هؤلاء المغاربة والأندلسيين فأقول إنها تنقسم إلى قسمين : قسم رحل إلى المشرق وأقام به وقسم آخر لم يرحل إلى المشرق ولكن أخباره وأشعاره رويت هنالك بواسطة أولئك الراحلين ومن هؤلاء على سبيل المثال الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي.

كما أن بعض هؤلاء المترجمين موجود في مصادر أخرى وبعضهم الآخر لا يوجد في أي مصدر آخر، وسآتي بنماذج محدودة، فمن النوع الثاني ترجمة لولد أبي جعفر أحمد بن عطية. ومن المعروف أن هذا الكاتب نكب في عهد عبد المؤمن وأعدم هو وأخوه عقيل وكان لهذا ثلاث وعشرون سنة ولأخيه أبي جعفر ست وثلاثون،

---

(31) وفيات الأعيان 4 : 117.

(32) ص 76 من هذا المجموع.

(33) البيان المعرب : 446 وأزهار الرياض 2 : 375 والدر المنظم، في مولد النبي المعظم (مخطوط).

(34) معجم البلدان (مادة إربل).

ومن جملة ما توسل به إلى عبد المؤمن في استعطافه المشهور أطفاله الذين يقول فيهم :

وَصِبْيَةٍ كَفِراخِ الوُرْقِ مِنْ صِغَرٍ   لَمْ يَأْلُفوا النَّوْحَ في فَرْعٍ وَلاَ فَنَنِ[35]

ولم يتحدث أحد ممن ترجم لابن عَطية عن مصير هؤلاء الصبية. وكان الظن أن بني عَطية انقرضوا بموت الكاتبين المذكورين لولا أن ابن الشعار دوَّن لنا ترجمة مفيدة تدل على استمرار هذا البيت، وقد نقلها عن ابن حمويه السفير الذي له فضل كبير في تعريف المشارقة بأدب المغاربة، قال ابن الشعار :

«أبو القاسم بن أبي جعفر ابن عطية الوزير الكاتب. حدثني شيخ الشيوخ ابن حمويه[36] قال :

أبو القاسم هذا كان كاتبا للشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر[37]، وكان أحد أشياخ الموحدين وأركان دولتهم. رأيته ــ يعني أبا القاسم ــ بمراكش وهو يتولى أكثر أموره، إليه الترسل والإنشاء في كتابة رقاعه ودرجه، وولاية نفقات دخله وخرجه، وهو المستولي على أمره، والمستودع لسره، وله كتابة حسنة، ورسائل وجيزة، وأشعار يسيرة، وكان من ذوي المروءات، ومن المسارعين إلى إغاثة الملهوف وقضاء الحاجات، وكان والده أبو جعفر وزير آل عبد المؤمن نهض بأعباء الدولة في مباديها، وإحكام قواعدها ومبانيها، وله الكتب البليغة في الجمع والتأليف والاحتجاج للدولة المستقلة، والادحاض للدولة الماضية، والمبالغات في الترغيب والترهيب، والاقتدار التام في حسن التدبير وعلى التبعيد والتقريب.

وأما وَلَدُهُ هذا فهو متوسط في فنه، موافق طبقة سنه، وكانت بيني وبينه

(35) البيان المعرب ــ قسم الموحدين ــ : 60.

(36) انظر في ابن حمّويه هذا نفح الطيب 3 : 99 وما بعدها.

(37) هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر إينتي الذي ولاه الخليفة محمد الناصر على إفريقية ثمّ وَلِيها بعد ذلك ولده أبو زكرياء مؤسّسُ الدولة الحفصية، وقد ورد ذكر أبي محمد عبد الواحد في المصادر التاريخية كالمعجب والبيان المعرب وتاريخ الدولتين والعبر وغيرها وترجم له التيفاشي في كتابه الدرّة الفائدة، في محاسن الأفارقة وهو مفقود الآن. ويبدو أن استكتاب أبي محمد عبد الواحد المذكور ولد ابن عطية كان لماتّةٍ قديمة، فمن المعروف أنّ أبا جعفر ابن عطية كتب أول الأمر عن أبي حفص عمر إينتي.

بمراكش مجاورة ومزاورة». ثم قال : «وأنشدني يوما لنفسه وقد جرت مفاوضة في اختيار العزلة والخمول وإيثار الانزواء فقال :

تُنازِعُنِي ٱلنَّفْسُ أَعْلَى الأُمُـورِ ... وَلَيْسَ مِنَ الْعَجْـزِ لاَ أَنْشَطُ
وَلَكِنْ بِمقـدار قُـرْبِ المكـانِ ... تَكُونُ سَلامَةُ مَنْ يَسْقُـطُ»[38]

فهذه ترجمة اشتملت على جملة فوائد تتعلق بابن عطية وولده، وهي تدل على أن المخزن أو الدولة لا تفرط في أبناء خدامها مهما يكن أمر آبائهم. ويدلنا شعر ولد ابن عطية على أن نكبة والده عالقة بذهنه، ولذلك كان يؤثر الخمول على الطموح. وهذه ترجمة كاتب آخر من كتاب الموحدين لا توجد في مكان آخر، وقد رواها ابن الشعار عن ابن حمويه أيضا قال :

«أبو الحسن علي بن أحمد بن فشتال الكاتب الفاضل الأديب أخبرني شيخ الشيوخ قال : «أظنه من أهل الأندلس، رأيته بمراكش وكان متعطلا عن العمل، حاليا بفضائله وإن كان في العطل، وله رسائل حسنة وألفاظ بديعة معتبرة، وكان يميل في رسائله وشعره إلى طريقة أهل المشرق[39]، وحصل من عندي كثيرا من ترسل القاضي الفاضل والعِماد الكاتب وغيرهما رحمه الله، وكتب إلي بإحسان تجدد لي من السيد أبي يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن، وهو تمليك بستان بناحية أغْمات[40]. ثم أثبت المذكورُ له هذين البيتين، ولعله يشير فيهما إلى إنعام الخليفة :

رَأَيْتُ بِعيْني الْيومَ في صُحُف الْمُنى ... لِمجدكَ ما تُعْطَى من الحظِّ في غَد
فصرْتُ أُمنّي النفْسَ تَجديدَ ما عَفا ... مِنَ العِزّ لي في عِزِّكَ ٱلْمُتَجَدِّدِ[41]

ونحن لا نعرف عن هذا الكاتب إلا ما ورد هنا نقلا عن ابن حمويه الذي زار المغرب رسولا من مخدومه صلاح الدين في عهد المنصور وبقي في المغرب فترة مكنته من تدوين رحلة ذكر فيها جملة من علماء الأندلس والمغرب لقيهم

(38) راجع ص 111 من هذا المجموع، وفي البيت الثاني إشارة إلى مثل مولد.
(39) في هذا إشارة إلى وجود طريقتين في النثر والشعر إحداهما مشرقية والأخرى مغربية.
(40) هذا يدل على عادة ملوكية مغربية وهي الإنعام على بعض السفراء ونحوهم بمثل ما ذكر هنا.
(41) راجع ص 58 من هذا المجموع.

في هذه الرحلة، وقد وقف المقرّي على هذه الرحلة ونقل عنها في «نفح الطيّب» فوائد متعددة[42]، ومن جملتها فائدة تتعلّق بالكاتب المذكور أيضاً، وهي قوله :
«وحدثني الشيخ أبو الحسن ابن فشتال الكاتب وقد أنشدته :

أَوْحَشْتَنِي وَلَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَى الَّذِي لَكَ فِي ضَمِيرِي لَمْ تَكُنْ لِيَ مُوحِشا

فقال : أنشدت هذا البيت في مجلس السيد أبي الحسن[43] فقال لي ولمن حضر، هل تعرفون لهذا البيت ثانيا ؟ فما فينا من عرفه، فأنشدنا :

أَتُرَى رُشِيتَ عَلَى ٱطِّراحِ مودَّتِي وَلَقَدْ عَهِدتك لَيْسَ تَثْنِيكَ الرُّشَا
أَوْحَشْتَنِي...»[44].

ويدل هذا الكلام على عدة أمور منها تقرير الفرق بين طريقة أهل المغرب وطريقة أهل المشرق في الترسل، ومنها عادة ملوك المغرب في إقطاع السفراء وتمليكهم أملاكا مبالغة في الإكرام، ومنها أخيرا المستوى الثقافي الرفيع لبعض السادة الموحدين كأبي الحسن المذكور وأبي الربيع وغيرهما. ويستفاد من النص الأخير أن الكاتب ابن فشتال كان في خدمة السيد أبي الحسن، ومن المعروف أن هذا كان واليا على تلمسان. أما ما ظنه ابن حمويه من أندلسية ابن فشتال فعلّه ليس كذلك لأننا لم نجد له ذكرا في كتب التراجم الأندلسية ولأن فشتال اسمٌ مغربي، وهو قريب من فشتالة التي ينسب إليها الفشتاليون[45].

ومن هؤلاء الذين انفرد بهم ابن الشعار شاعر من سَلا اسمه يونس ابن موسى الأنصاري السلاوي، كان شاعرا نحويا فاضلاً وقد قذفته النوى إلى حَلَب فانتجع بشعره أمراء الشام، وقد أورد ابن الشعار بعض مدائحه فيهم، ويبدو أنه صارت

(42) نفح الطيب 3 : 101-111.
(43) هو السيد أبو الحسن علي بن أبي حفص عمر بن عبد المومن، له ذكر في المصادر التاريخية كالمعجب والبيان المعرب وروض القرطاس وغيرها، وخصّه ابن سعيد بترجمة لطيفة ختم بها الغصون اليانعة وبدأها بقوله : «وقفت على ترجمته في معجم الشقندي ومعجم والدي ورحلة ابن حموية»، الغصون اليانعة : 150-154.
(44) انظر نفح الطيب 3 : 109.
(45) منهم عبد العزيز الفشتالي وغيره من الأدباء والفقهاء الذين ينتسبون إلى قبيلة فشتالة.

له مكانة عندهم أو أنه كان فضوليا، ويبدو هذا مما رواه ابن الشعار، فقال رواية عن بعضهم :

«أنشدني أبو الوليد يونس بن موسى الأنصاري السلاَوي لنفسه لما رجع الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف من محاصرة دمشق إلى حَلَب خائبا، وكان معه ابن الحصين الوزير، وابن أخته أبو المؤيد محمد بن الحسين الطغرائيَّ، والقاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ويعرفه الفقهاء بالأحمر، وكان الوزير ابن الحصين أجهر العينين :

قُلْ لِلْمليكِ الظَّاهِرِ اسْتَبْصِرِ دُهِيتَ في المُلْكِ وَلَمْ تَشْعُرِ
بِٱلأَجْهَرِ المطْرُودِ مِنْ وَاسِطٍ وَٱلأَحْوَلِ ٱلْمَشْؤُومِ وَٱلأَحْمَرِ
ثَلاَثَةٌ لَوْ بَرَزُوا دَفْعَةً لِلشَّمْسِ أَوْ لِلْبَدْرِ لَمْ تَظْهَرِ
لَوْ تَوَلَّى وَاحِدٌ مِنْهُمُ تَدْبِيرَ ذَي ٱلْقَرْنَيْنِ لَمْ يُنْصَرِ»[46]

وأما التراجم التي نجدها في مصادر أخرى فإنها عند ابن الشعار متميزة ببعض الزيادات والإضافات التي لا توجد عند غيره، فمن ذلك ترجمته لابن عربي الحاتمي فقد اعتمد فيها على ما سمعه منه، سواء من أخباره أم من أشعاره، ولست متحققا الآن من استفادة الدارسين منها، ومن الجديد فيها أن الشيخ الأكبر — كما يُدْعَى — بدأ حياته جنديا، يقول ابن الشعار :

«وكان أهله أجنادا في خدمة المستولين على البلاد وبقي مدة جنديا ثم رجع عن الجندية في سنة ثمانية وخمسمائة، وحدثني من لفظه قال : كان سبب انتقالي عن الجندية ونبذي لها وسلوكي هذه الطريقة وميلي إليها أنني خرجت صحبة مخدومي الأمير أبي بكر بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي[47] بقرطبة قاصدين المسجد الجامع، فنظرته في ركوع وسجود وخشوع كثير الابتهال إلى الله عز وجل، فخطر في خاطري أن قلت في نفسي إذا كان هذا ملك البلاد خاضعا

(46) راجع ص 168 من هذا المجموع، وذو القرنين هنا هو الاسكندر المقدوني المشهور بفتوحاته وانتصاراته.

(47) لعلَّه السيد أبو يحيى الذي كان في التاريخ المذكور واليا على قرطبة، انظر بعض أخباره في البيان المعرب والمعجب.

متذللا يصنع هذا بين يدي الله تعالى عز وجل فما الدنيا بشيء، ففارقته من ذلك اليوم وما عدت رأيته أبدا ثم لزمت هذه الطريقة»[48].

وهذا الخبر لا نجده في مصدر آخر، فقد اقتصر ابن عبد الملك في ترجمته ــ وهي من أوفى الترجمات ــ على القول بأنه «كتب بالأندلس عن بعض الأمراء، ثم تخلى عن ذلك زهدا فيه ورغبة عنه». وتفصيل هذا المجمل هو ما ورد عند ابن الشعار، وفي ترجمة أبي موسى الجزولي عند ابن الشعار نقف على أنه كان يقرض الشعر، ونجد له عنده ثمانية أبيات من نظمه أو شعره وهي :

أَقُولُ قَوْلاً مَا لَهُ مُنْكِرُ ... إِلاَّ أمْرُؤ أحْمَقُ مُسْتَكْبِرُ
إِنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ مِمَّنْ بِهِ ... يُسْتَنْزَلُ الرِّزْقُ وَيُسْتَمْطَرُ
بَقِيَّةٌ مِنْ سَلَفٍ صَالِحٍ ... كَانَ كَمَا كَانُوا فَمَا يَكْدُرُ
كُنْتُ لَعَمْرِي إِنْ جَرَى ذِكْرُهُ ... أَظُنُّهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ يُذْكَرُ
وَٱلْيَوْمَ لاَ أَرْتَابُ فِي فَضْلِهِ ... صَدَّقَ عِنْدِي ٱلْخَبَرَ ٱلْمَخْبَرُ
جَالَسْتُ مِنْهُ الشَّمْسَ فِي قدرِه ... وَأَبْحُراً فِي ٱلْعِلْمِ لاَ تُعْبَرُ
هَمَّ بَنُو الدُّنْيَا بِمَا نَالَهُ ... فِي ٱلْعِلْمِ وَالتَّقْوَى فَلَمْ يَقْدِرُوا
أَبْصَرَ مَا لَمْ يُبْصِرُوا بَعْدَمَا ... شَارَكَهُمْ فِي كُلِّ مَا أَبْصَرُوا»[49]

وهذه القطعة تكشف لنا عن رأي عالم من علماء الشريعة في عالم من علماء الحقيقة هنا هو القنجايري الصوفي المعروف الذي كان أشبه ما يكون بوزير الأوقاف في عهد المنصور، وهو الذي ذكر صاحب «المعجب» أنه أخبره ــ وهما بحجر الكعبة ــ أن المنصور لم يكن يقول بعصمة المهدي بن تومَرْت[50]، ولأبي العباس هذا ترجمة مطولة في «الذيل والتكملة» وغيره[51]، وهو جد الأمراء العزفيين أولاد أبي القاسم من جهة الأم[52] فإذا أضفنا إلى هذه الأبيات الثمانية

(48) راجع ص 128 من هذا المجموع.
(49) راجع ص 103 من هذا المجموع.
(50) المعجب : 291.
(51) الذيل والتكملة 1 : 58.
(52) نفسه.

أبياتاً أخرى رواها له مشرقي آخر هو ابن خلّكان وهي هذه :

لَسْتُ لِلنَّحْوِ جِئْتُكُمْ لاَ وَلاَ فِيهِ أَرْغَبُ
خَلِّ زَيْداً لِشأنِهِ أَيْنَ مَا شَاءَ يَذْهَبُ
أَنَا مَا لِي وَلِامْرِىءٍ أَبَدَ الدَّهْرِ يَضْرِبُ[53]

جاز لنا أن نزعم أن الذي قال هاتين القطعتين لابد أنه قال غيرهما، وما ذلك منه بغريب، فهو متمرّسٌ بتدريس الشعر وتفسيره، فقد شرح «بانت سُعاد»[54]، واختصر شرح ابن جِنّي على شعر المتنبّي[55].

وفي ترجمة ابن دِحْية عند ابن الشعار أيضا نجد إضافات كثيرة من أخباره وآثاره الشعرية والنثرية، فقد أطنب في وصف رحلته في خُراسان وزياراته لإرْبِل واتصاله بملكها كوكَبْري وتأليفه له «كتاب التنوير، في مولد السراج المنير»، وقد انفرد ابن الشعار برواية كلام طويل قبيح لأبي الروح التاكرني في ابن دحية لا يمكن ذكره، وهو يرجع إلى أثر المعاصرة، ويدل على المنافسات والمنافرات التي كانت تقع بين أولئك المغاربة في ديار الغربة، وقد أوصى أحدهم آخر بوصية أشار إليها بقوله :

وَأَوْصانِي الرَّضِيُّ وَصَاةَ نُصْحٍ وَكَانَ مُهَذَّباً شَهْماً أَبِيّا
بِأَنْ لاَ تُحْسِنَنْ ظَنّاً بِشَخْصٍ وَلاَ تَصْحَبْ حَيَاتَكَ مَغْرِبِيّاً[56]

والرّضِيّ المذكور هو رضي الدين الشاطبي المعروف.

ومن الإضافات التي نجدها في ترجمة أبي الربيع سليمان الموحدي قصيدة لا توجد في الديوان المطبوع وهي قصيدة في مدح السيد أبي عمران الموحدي[57] :

---

(53) وفيات الأعيان 3 : 490-491.

(54) نشره المستعرب الفرنسي روني باسيه عام 1910.

(55) وفيات الأعيان 3 : 489.

(56) درة الحجال 2 : 253.

(57) هو السيد أبو عمران زكرياء بن عبد المومن كان «من أولاد الخلفاء النجباء الطلبة الأدباء والخطباء الشعراء» ولي على تلمسان مدة واستخلفه أخوه على مراكش لما توجّه إلى الجهاد في الأندلس سنة 566هـ وقد توفي في زمن الطاعون الذي نزل بمدينة مراكش سنة 571هـ، راجع البيان المغرب : 117، 126، 136.

لِقَاؤُكَ صَيَّرَ ٱلأَيَّامَ عِيداً وَأَنْشَأَ حُسْنَهَا خَلْقاً جَدِيدَا
وَقَدْ مَسَّ ٱلنَّسِيمُ لَهَا مُلاَءً تَمَايَسَتِ ٱلْمُنَى فِيهَا قُدُودَا
وَزَانَ مِنَ ٱلظَّلاَمِ عَرُوسَ زِنْجٍ تَحَلَّتْ مِنْ كَوَاكِبِهِ عُقُودَا
فَقَالَ ٱلْعَاقِلُونَ : أَلَمَّ مُوسَى وَقَالَ الجاهِلُ : الْعِيدُ اسْتُعِيدَا
وَكُلُّهُمُ أَثَارَ قَطَاةَ صِدْقٍ يُقِيمُ بِهَا لِدَعْوَاهُ شُهُودَا
تَعَطَّرَ تُرْبُ مَسْرَاهُ فَدَاسَتْ بِهِ ٱلْفُرْسَانُ مِسْكاً لاَ صَعِيدَا
وَهَمَّتْ أَنْ تَخِرَّ لَهُ ٱلدَّرَارِي فَتَلْقَاهُ رُكُوعاً أَوْ سُجُودَا
وَلَوْ حُذِيَتْ مَطَايَاهُ ذَرُوراً وَأَرْضَاهُ حَذَوْنَاهُ خُدُودَا
تُحَيِّي مِنْ أَبِي عِمْرَانَ بَدْراً يُلَقِّي فِي مَطَالِعِهِ السُّعُودَا
تَأَنَّقَتِ ٱلْفَضَائِلُ فِيهِ لَمَّا أَتَاحَ ٱللَّهُ مِنْهُ لَهَا ٱلْوُجُودَا
وَرَامَتْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ حُسْناً فَلَمْ يَدَعِ الْكَمَالُ لَهَا مَزِيدَا
يُفَنِّدُ مَنْ يَرُومُ لَهُ لَحَاقاً وَيُعْذَرُ مَنْ يَبِيتُ بِهِ مَسُودَا
وَمَا عَدِمَتْ بِهِ ٱلأَيَّامُ شَيْئاً نُسَرُّ بِهِ سِوَى أَلاَّ يَبِيدَا
لَعَلَّ مُصَيِّرَ ٱلدُّنْيَا جِنَاناً بِهِ يَقْضِي لَهُ فِيهَا ٱلْخُلُودَا(58)

ومن التراجم التي انفرد فيها ابن الشعار بإضافات في الأخبار وزيادات في الأشعار ترجمة ناهض الوادي آشي، قال :

«ناهض بن إدريس الوادي آشي، ينسب إلى وادي آش من أعمال غرناطة، كان شاعر قُطْرِه، وأشعر من ذكر في عصره، يقول في قصر أبي يحيى :

أَلاَ حَبَّذَا ٱلْقَصْرُ ٱلَّذِي ٱرْتَفَعَتْ بِهِ عَلَى ٱلْمَاءِ مِنْ تَحْتِ ٱلْحِجَارَةِ أَقْوَاسُ
هُوَ ٱلْمَصْنَعُ ٱلأَعْلَى ٱلَّذِي أَنِفَ ٱلثَّرَى وَرَفَّعَهُ عَنْ لَثْمِهِ ٱلْمَجْدُ وَالْبَاسُ
فَأَرْكَبَ مَتْنَ النَّهْرِ عِزّاً وَرِفْعَةً وَفِي مَوْضِعِ ٱلأَقْدَامِ لاَ يُوجَدُ ٱلرَّاسُ
فَلاَ زَالَ مَعْمُورَ ٱلْجَنَابِ، وَبَابُهُ يَغَصُّ وَصَافِي أُفْقِهِ الدَّهْرَ أَعْرَاسُ»(59)

---

(58) راجع ص 34، 192 من هذا المجموع.

(59) راجع ص 143 من هذا المجموع، وقد وردت الأبيات أيضا في نفح الطيب 1 : 470 نقلا عن ابن سعيد قال : «ومن أبدع القصور خارج قرطبة قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المومن، وهو على متن النهر الأعظم تحمله أقواس، وقيل للسيد : كيف تأنقت

فهذه الترجمة وهذه القطعة تغنيان ترجمته القصيرة والوحيدة في «المُغرب» لابن سعيد[60]، وفيها قطعة من شعره غير هذه، ولا يخفى ما فيها من فائدة تاريخية وأثرية.

ومن التراجم التي لم ترد إلا عند ابن الشعار وابن المستوفى فيما يظهر ترجمة اليهودي الطليطلي يهودا الحريزي، ولا أظن أنها توجد في مصدر آخر، ونظراً لما تشتمل عليه من أخبار وأشعار فسأنقلها فيما يلي :

«يحيى بن سليمان بن شَؤول أبو زكرياء الحريزي اليهودي من أهل طليطلة، كان شاعرا قوي القريحة غزير المادة، له شعر كثير في المدح والهجاء، وكان رديء اللسان خبيث الطوية، ما مدح أحدا إلا وعاد هجاهُ، وصنف مصنفات باللسان العبري كثيرة منها «كتاب المقامات»، ومقامة سماها «الروضة الأنيقة» باللسان العربي، وكان ذا قدرة في الشعر، وكان يعمل قصائد أنصاف أبياتها الأول بالعبري والأنصاف الأواخر بالعربي، وكان قد طاف البلدان وجال في أقطارها ثم سكن بآخرة حَلَب، ولم يزل بها إلى أن مات ليلة الأربعاء لليلة بقيت من ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وستمائة ذكره الصاحب الوزير أبو البركات المستوفى رحمة الله تعالى، وقال ورد إربل في العشر من محرم من سنة سبع عشرة وستمائة، وحدثني أن اسمه بالعبرانية يهودا وإنما نقله إلى العربية وكان طويلا أشيب ثطا (أي كوسجا)، سألته عن مولده فقال عمري إلى هذه السنة خمس وخمسون سنة فانظر متى يكون مولدي، ثم حسب معي فأخطأ في تنزيله. وكان يسكن بين ظهراني الفرنج، وكلامه مغربي قريب عهد بالخروج من بلده، تراه كأنه يعتريه سهو، وكنت أخبرت بوروده، وأثنى عليه رجل من اليهود، وأنشدني قال أنشدني الحريزي لنفسه في التاريخ المتقدم ذكره :

= في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة فقال : علمت أنهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم» قال ابن سعيد أيضا : «واخبرني والدي أن ناهض بن إدريس شاعر وادي آش في عصره أنشده لنفسه في هذا القصر» ثم أورد الأبيات المذكورة، وقد نزل يعقوب المنصور في هذا القصر عند حلوله بقرطبة سنة 586هـ، البيان المغرب ـــ قسم الموحدين ـــ: 203.

أَمَـا إِنَّـه لَـوْلاَ مُحَجَّبَـةُ ٱلْخِـدْرِ
لَمَا فَضَحَتْ أَنْدَى ٱلْمَدَامِعِ مِنْ سِرِّي»[60]

وهي قصيدة في المدح تتألف من 21 بيتا، وقد أورد له بعدها 9 أبيات في مدح الملك الأشرف الأيوبي :

بِسُيُوفِ عَزْمَتِك الْقَضاءُ يَصُولُ وَمَضَاءُ بَأْسِكَ فِي يَدَيْهِ نُصُولُ

وختم ترجمته بإيراد قصيدة من 27 بيتا في المدح أيضا مطلعها :

أَرْضٌ سَمَتْ غِيطَانَهَا أَغْصَانُهَـا وَزَهَتْ عَلَـى كُثْبَانِهَا قُضْبَانُهَـا

ولما وصل أبو البركات إلى قول الحريزي في القصيدة الأولى :

لَثَمْتُ بِهَا هَيْفَاءَ رِيمِيَّةَ الطَّلَى مُدَامِيَّـةَ ٱلأَلْمَى حَبَابِيَّـة ٱلثَّغْـرِ

قال : قال أبو البركات هذا منقول من قول المعتمد محمد بن عبّاد ملك الأندلس :

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّ أَنْعِمُ جُنْحَها بِمُخْصِبَةِ ٱلأَرْدَافِ طَيِّبَةِ ٱلنَّشْرِ[61]

ويدلّ هذا التعليق على أمرين :

أولهما أن هذا اليهودي الطليطلي كان متشبعا بأشعار الأندلسيين.

وثانيهما أن هذه الأشعار بلغت درجة من الشهرة في المشرق بحيث يكتشف أخذها أو نقلها حسب تعبير أبي البركات. ولا أريد أن أطيل هنا بتحليل ما ورد في هذه التراجم لأني أقصد إلى إيراد النماذج.

ويمكن القول باختصار إن تراجم ابن الشعّار هذه وكذلك التّراجم التي ألحقتها بها تخدم موضوعين كبيرين :

أولهما موضوع التواصل الأدبي بين المغرب والمشرق، وثانيهما موضوع قنوات

(60) انظر ص 148 من هذا المجموع.

(61) البيت من قصيدة المعتمد التي أولها :

أَلاَ حَيِّ أَوْطَانِي بِشِلْبٍ، أَبَا بَكْرِ وَسَلْهُنَّ هَلْ عَهْدُ ٱلْوِصَالِ كَمَا أَدْرِي

انظرها في قلائد العقيان وغيرها.

هذا التواصل، وأشير هنا على سبيل المثال إلى عمل رائد في هذا المجال قام به الشيخ المرحوم رضا الشبيبي من خلال الخريدة للعماد الأصفهاني(62).

لقد أضفت إلى هذه التراجم المستخرجة من قلائد الجمان لابن الشعّار تراجم مأخوذة من تاريخ إربل لابن المستوفي(63) وأخرى من بغية الطلب لابن العديم(64) ومجموعة رابعةً مقتطفة من مسالك الأبصار للعمري(65)، وجلّها تراجم جديدة أو فيها شيء جديد وهي في عمومها نماذج من التراجم المغربية التي تشتمل عليها المصادر المشرقية المتعدّدة، وإني أرجو أن أكون بهذا العمل المتواضع قد قرّبت هذه التراجم إلى القراء المغاربة الذين لا يقرأون الخطوط المشرقية التي طبع بها كتاب ابن الشعار وكتاب ابن العديم وكتاب مسالك الأبصار، والحمد لله أولا وأخيراً.

(62) انظر دراسته : أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية.

(63) اسم هذا التاريخ نباهة البلد الخامل، بمن ورده من الأماثل، ومؤلفه هو شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد الإربلي المعروف بابن المستوفي (564-637هـ)، انظر ترجمته في وفيات الأعيان 4 : 147-152 وقد طبع الموجود من هذا التاريخ في العراق بتحقيق وتعليق سامي ابن السيد خماس الصقار.

(64) هو الكمال عمر بن هبة الله بن أبي جرادة الحلبي المعروف بابن العديم (586-666هـ)، انظر ترجمته في فوات الوفيات 2 : 200-203 ومعجم الأدباء : 2068-2091 وبغية الطلب نشرها بالتصوير فؤاد سزكين ثم أخرجها بعد ذلك سهيل زكّار ولكنني كنت نقلت التراجم من النشرة المصوّرة.

(65) هو شهاب الدين أحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله العمري (700-749) وكتابه مسالك الأبصار طبع كاملاً بالتصوير في 27 سفراً ضمن المنشورات المصورة التي يصدرها فؤاد سزكين.

تراجم مغربيّة

من قلائد العقيان لابن الشعّار

1 ــ إبْراهيم بْنُ يَعْقوب

أبو إسحاق ٱلكانِمي[1] الأَديب النّحْويّ الشّاعر الأَسود؛ وكانِم اسْمُ بلد بنَواحي غانَة[2]، وهِيَ دَارُ ملك السّودان الذينَ بجَنُوب المغرب[3]. أَخْبرني شيْخُ الشّيوخ عبدُ الله بْنُ عُمَرِ الجُوَيْني الدّمَشْقِي[4] بِهَا رَحِمهُ الله تعالى، قَالَ : رَأَيْتُه وقَدْ قَدِم إلى مُرّاكش في أَيّام السّيّد[5] أبي يوسُف يَعْقوب بْنِ عَبْد المؤمِن، ومدَح كُبَراء الدّولة واخْتَلط بِساداتِهِمْ، وارْتَزَق وانْتَفع بجاهاتِهِمْ[6]، وَكَانَتْ العُجْمةُ في لِسانِه، لكنّه يُعْرِب عنْ شِعْر فَصيح، ولفْظٍ صَحيح، ووزْنٍ مُستقيم، ومَعْنًى قَويم، وكانَ يَحْفَظُ الجُمَل[7] في النّحو وكثيراً من أشعار الْعَرب. قال : وذكَر لي أنه اشْتغَلَ في بَلَدِ غانة، وتخَرّج بِها، معَ أنها بلَدُ كُفْر وَجَهْل، وقدْ تردّد إليّ كثيرا، وذاكَرَني، وجالسَني إلاّ أَنّي لَمْ أَجِدْ في تَعاليقِي حينَ أَلّفتُ هذا المَجْموع سِوَى هذا الْقَدر الّذي عَلّقْتُه. فمنْهُ قولُه يمْدحُ أبا إِسْحاق إبراهيم بن يَعقوب[8]، وكانَ قد انقطعَ إليه وَلاَزَمَهُ، وَحَسَدَهُ قومٌ من أَصْحابه عَلَى ذلِك :

(1) انظر دراستنا حول إبراهيم الكانمي، وهي من منشورات معهد الدراسات الافريقية بالرباط سنة 1991.

(2) تعبير غير دقيق، وكانم اسم مملكة مشهورة.

(3) يقصد أن غانة هي عاصمة المملكة المعروفة بهذا الإسم.

(4) ترجمته في مرآة الزمان : 748-749 وذيل الروضتين 174 وشذرات الذهب 5 : 214 وانظر أخبار وفادته على المغرب في عهد الموحدين في نفح الطيب 3 : 99 وما بعدها.

(5) كانت كلمة السيد في زمن الموحدين لا تطلق إلا عليهم ولكن كان حقه هنا أن يقول : الخليفة.

(6) جمع جاهة، يقال جاه وجاهة.

(7) كتاب الجمل للزجاجي مطبوع بتحقيق ابن أبي شنب وقد عني الأندلسيون والمغاربة بدراسته ولهم عليه شروح متعدّدة.

(8) انظر التعريف بهذا الأمير الموحدي في معلمة المغرب 1 : 94-95.

ما بَعْدَ بـابِ أَبِـي إسْحَـاقَ مَنْزِلَـةٌ
ــ يَسْمو إلَيْها فَتَى مِثْلِي ــ وَلاَ شَرَفُ
أَبَعْـدَ مَـا بَـرَكَتْ عَـنْسي بِساحَتِـهِ
وَصِرْت مِنْ بَحْـره اللُّجّي أَغْتَـرِفُ
هَمّوا بِصَرْفي وَقَدْ أَصبَحْتُ مَعْرِفَـةً
فَكَيْفَ ذَلِكَ وَآسْمِي لَيْسَ يَنْصَرِفُ ؟

يَعْني إبراهيم[9]. وقولُه يخاطِبُه على عَادَتِهِمْ في الْمُخاطَبة بلَفْظ الجَمْع[10]، ويذْكُر السّواد، وأَنْشدَه لنَفْسِه :

سَمِعْتُ بِأَنْ تُهْدَى الطَّرائِفُ نَحْوَكُم فَسُقْتُ وليداً شاعراً، وهْوَ أَعْجَمُ
وأنّ الْجِيادَ الشُّقْرَ أَسْبَقُ خَيْلِكُمْ فَهاكَ طِمِرّاً سَابِقاً، وهْوَ أَدْهَـمُ

وَلَهُ يتغزَّلُ وَيَذْكُر زَوْجَته الّتي زَوّجَهَا له بعْضُ السّادة :

غَيْرِي عَلَيْكُنَّ يَا زَهْراءُ يَصْطَبِرُ لأنّ صَبْرِي عَلَى ذاكَ الْهَوَى صَبِرُ
لَوْنِي بِلَوْنِكِ مُزْدانٌ إذَا اجْتَمَعا كَمَا يَزِينُ سَوَادَ الْمُقْلَةِ آلْحَوَرُ
وَإنْ شَكَكْتِ فَقِيسِي قَيْسَ تَجْرِبَةٍ فَفي آخْتِبارِكِ مَا يُنْسَى بِهِ آلْخَبَرُ
وَلاَ يَسُؤْكِ مِنَ آلأَغْمادِ حالِكُها إنْ كَانَ كَامِنَهَا الصَّمْصَامَةُ الذّكَرُ

وقال : وأَنْشَدَني لَهُ مُحَمّد بْن مُحَمّد بْن خَميس[11] :

وَقَائِلٍ : لِمَ لا تَهْجُو ؟ فقلْتُ لَهُ : لأَنّني لا أَرَى مَنْ خافَ مِنْ هَاجِي
فلَيْسَ ذَمُّ كِرام النّاسِ مِنْ شِيَمِي ولَيْسَ ذَمّ لِئام النّاس مِنْهَاجِـي

قالَ : وأَنْشَدَني [خِلالَ] مُذاكرة [قال] : لَمّا دخَلْتُ إلى السّيّد يَعْقوب بْن أَبِي يَعْقوب، أَنْشدتُ :

أَزالَ حِجابَـهُ عنّـي وعَيْنـي تَرَاهُ مِـن الْمهابَـةِ في حِجَـاب

(9) هو ممنوع من الصرف للعَلَمِيّة والعُجْمة.

(10) انظر ما كتبناه في هذا الموضوع في كتابنا : أبو المطرف ابن عميرة : 82-183.

(11) في الأعلام أكثر من واحد يعرف بابن خميس ولم أجد بينهم من ينطبق عليه الاسم.

وقَرّبنـــي تَفضُّلُـــه، ولكِـــنْ بَعُـدْتُ مهابةً عِنْـدَ اقْتِرابِــي[12]

وأنشدني شَيْخُ الشّيوخ، قالَ : أنشَدَني آلكانِمي لنَفْسِهِ مِنْ أبيات في السّواد :

بكُلِّ لَوْنٍ يَنـالُ الْمَــرْءُ سُؤْدَدَهُ مَهْما تَجَرّدَ مِنْ أَخْلاَقِهِ السُّود

(1 : 38–41)

2 ــ أَحْمَد بْن عَبْد آلواحِد

ابْن أَبي الأَصْبغ الكاتِب أبو العَبّاس المرّاكشي اللّخمي المَعْروف بابْن الشّريشي[13]، عالمٌ مُتْقنٌ بارعٌ أخذَ في كُلّ جنْسٍ منَ العُلوم، كالفِقْه والْحَديث والأدب والتّفْسير والطّب والمَنْطِق والنُّجوم والهَنْدسَة والأُصُولَيْن[14] والْخِلاف، وَلَمْ يُرَ مِثْلُه في تفَنُّنِه وكمالِ فَضَائِلِه.

خرجَ عَنْ وطنِهِ، ونزلَ الدّيارَ المِصْريّة، وهُو بِهَا مُقيم يُقْرىء الْعُلوم.

أَنْشدَني أبو عبد الله محمّد بْن يَحْيَى المَغْربي الفَقيه القُسطنطيني[14م]، قال : أَنْشدني أبو العَبّاس ابن الشّريشي لِنَفْسِهِ، وزَعَمَ أنّه عَمِلَها بَديهةً :

يُكَلّفُنـي كِتْمـانَ أَمْـرِ صَبَابَتِــي وَفي مُقْلَتـي عُنْوانُهـا ودَليلُهــا
وَيَخْشَى عليْها إنْ شُهِرْتُ بِحُبِّها مَقَالَةَ أَهْلِ الْحَيّ: إنّي خَلِيلُهــا
فَتَهْجُرُني والْهَجْرُ لأَشَكّ قَاتِلِـي وإنْ متُّ قالوا: إنَّ هذا قَتيلُها
وَقَالُوا: أَمَا تَشْفي فؤادَك مِنْ جَوىً وَروحَكَ مِنْ بَلْوَى يُذِيبُ غَليلُها
وَأَنْتَ ــ كَمَا قَدْ قِيلَ ــ في الطِّبِّ أَوْحَدٌ تُبـاشِرُ أَدْواءَ الْـوَرَى وتُزِيلُهــا
فقلْتُ لهُمْ: إنّ الصَّبَابَةَ حُكْمُها ــ مَعَ السُّقْم ــ أَنْ لاَ يَسْتَفِيقَ عَلِيلُها

(12) ورد هذان البيتان في مصادر متعددة من بينها كتاب الاستقصا.

(13) لم أقف على ترجمته في مصدر آخر.

(14) كذا في الأصل، والمفهوم أنهما أصول الفقه وأصول الكلام.

(14م) ستأتي ترجمته في هذا المجموع (ص 125).

وعِنْدِي إذا حَدَّثْتُ نَفْسِيَ سَلْوَةً ... غَرامٌ يُنَافِيهَا وَشَوْقٌ يُحِيلُها
وَبَايَعْتُها طَوْعاً، فَلَسْتُ أُقِيلُها ... وَلَوْ أَنَّها جارَتْ وَلاَ أَسْتَقِيلُها

وقالَ :

يَا غائِبا يَبْغِي بِذَاكَ تَمَنُّعاً ... هَيْهَاتَ ! شَخْصُكَ فِي ٱلْفُؤَادِ مُقيمُ
سِرْ حَيْثُ شِئتَ تَكَفَّلَت بكَ لَوْعَةٌ ... طَيْرُ ٱلْفُؤَادِ بِها عَلَيْكَ يَحُومُ

وقَوْله مِنْ أَبْيَات :

عُمْرُكَ يَا ذَا النُّهَى قَصِيرُ ... فَاعْلَمْ وإنْ طالَ أَوْ تَمادا
يَزِيدُ نَقْصاً إنْ زِدْتَ يَوْماً ... وَأَنْتَ تَفْنَى بِأَنْ تُزَادَا

(1 : 206–208)

3 ــ أَحْمَد بْنُ مَسْعود بْنِ مُحمّد

أَبو العَبّاس القُرْطُبي الخَزْرَجي[15]. كانَ إماماً فَقيهاً شافِعِيّاً مُدَرّساً مُتَفَنّناً في عُلُوم كَثيرة، وَلَهُ الْيَدُ الْبَيْضاء في عِلْم ٱلْحِسَاب والْفَرَائِض والْحَديث وتَفْسير ٱلْقرآن والْقِراءات والْكَلام والأُصول مَعَ مَعْرِفَته باللّغَة والنَّحْو والْعَروض وضُروب الأَدَب.

وصَنع أُرْجوزَةً في الطِّب نَحْو ثَمان مِئَةِ بَيْت، وصنّف كتاباً آخَر في الأُصولِ نَحو ثماني مُجَلّدات سمّاه : (تَقْريب الْمَطَالِب والْقَوانين، في أُصُولِ الدِّين) وَلَهُ كتابٌ في النَّحْو، وكتابٌ سَمّاه (الأَخْبار، في عِلْم الأخبار)، نَزَلَ دُنَيْسِر[16] وَسَكَنَهَا، وانْتَفَعَ بِهِ أَهْلُها، واسْتَفَادُوا مِنْهُ إلَى أَنْ تُوفِّي بِهَا سَنَةَ إحْدَى وَسِتِّ مِئَةٍ.

(15) له ترجمة في بغية الطلب لابن العديم 3 : 130 ونفح الطيب 2 : 614–615.

(16) قال ياقوت : دنيسر بضم أوله، بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين، بينهما فرسخان. وقال ابن خلّكان في الوفيات (5 : 147) : «ودنيسر : بضمّ الدال المهملة وفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وبعدها راء. وهي مدينة بالجزيرة الفراتية بين نصيبين ورأس عين، تطرقها التجار من جميع الجهات وهي مجمع الطرقات، ولهذا قيل لها دنيسر، وهو لفظ مرَكّبٌ عجمي، وأصله دنياسر، ومعناه رأس الدنيا».

أَنْشَدَنِي أَبو الْعَبَّاسِ لِنَفْسِهِ مِنْ أَبْياتٍ :

وَقَعَ الْمَـلامُ مَواقِـعَ ٱلأَشْوَاقِ فَـأَصَابَ فِيكَ مَقَاتِـلَ ٱلْـعُشّاقِ
ذَكَّرْ فَدَيْتُكَ يَا عَـذُولُ مُعَاتِبـاً إِنَّ التَّذَكُّـرَ رَاحَـةُ ٱلْمُشْتَـاقِ

وَمِنْهَا :

جَارَتْ عَلَيْهِ الرّاحُ، وَهْوَ مُحادِثِي فَكَبا، وأَطْرافُ الْحَـدِيثِ بَـوَاقي

وَمِنْ مَديحِها :

ما جادَ حِرْصاً أَنْ يُقالَ هُو الْجَوا دُ، وَلاَ تَوَقَّفَ خَشْيَةَ ٱلأَمْلاَقِ
لَكِنَّـهُ يُعْطِـي وَيَمْنَـعُ عالِمـاً بِمَوَاقِـعِ ٱلإِمْساكِ وَٱلإِطْـلاقِ

وَقَالَ أَيْضاً :

أَرَى نَفَحَاتِ ٱلرَّوْضِ جَاءَتْ بِرَيَّاكُمْ لَعَلَّ نَسِيمَ الرِّيحِ مَرَّ بِمَغْنَاكُـمْ
إِذَا ما شَمِمْنَاهَا طَرِبْنَا كَأَنَّنـا نَشَاوَى فَعَلَّلْنَا ٱلْقُلُوبَ بِذِكْرَاكُمْ
يُذَكِّرُنِي عَرْفُ ٱلصَّبَّا زَمَنَ الصِّبَا فَأَرْتَاحُ لِلذِّكْرَى ارْتِيَاحِي لِلُقْياكُمْ
أَلاَ ضَوِّعوا ذَيْلَ النَّسيمِ بنَشْرِكُمْ وَحَيُّوا لِتُحْيوا في الْهَوَى بَعْضَ قَتْلاَكُمْ
وَإِلاّ ٱئْذَنُوا لِي فِي ٱلْكَرَى عَلَّ طَيْفَكُمْ يَزُورُ، فَحَقٌّ أَنْ تُعِينوا مُعَنَّاكُـمْ
تَمَثَّلْتُمْ في كُـلِّ شَيْءٍ لِنَاظِـرِي فَحَيْثُ الْتَفَتْنَا أَوْ نَظَرْنَا رَأَيْنَاكُمْ
وَكُنْتُ أُمَنِّي النَّفْسَ قَبْلَ فِراقِكُمْ تَصَبُّرَهَا عَنْكُمْ إِلَى حِينِ لُقْيَاكُمْ
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الصَّبْرَ عَنْكُمْ يَخُونُنِي وَأَنَّ مُنَى ٱلآمـالِ أَنْ أَتَمَنَّاكُـمْ

قالَ أبو الفَتْح مَسْعُود النَّقّاش[17] : أَنْشَدَنِي أَحْمَد بْن مَسْعُودٍ لِنَفْسِهِ فِي يَوْم الْخَميس الْحَادِي عَشَرَ مِنْ رَبيع الآخِر سَنَةَ سِتّ مِئة بِظاهِرِ حَلَب :

أُعَانِقُـهُ غُصْنـاً وَأَلْثُمُـهُ بَـدْرا وَأَرْشُفُ وَهْناً مِنْ لَمَى فَمِهِ خَمْرا
وَأَهْصِرُ مِنْه حيـنَ تَثْنيـهِ نَشْوَةٌ تَهَادَتْ بِهِ تِيهاً وَمَاسَتْ بِهِ سُكْرا
كَتِمْثَالِ نُورٍ فِي ظَلاَمِ ذَوَائِبٍ إِذَا مَا تَوَارَتْ شَمْسُه أَطْلَعَ ٱلْبَدْرَا

---

(17) هو أبو الفتح مسعود بن أبي الفضل، يعرف بالنقاش الحلبي ويلقب بالتاج، انظر ترجمته في بغية الطلب 10 : 294.

وَمِنْها :

وَنَمَّتْ بِنَا فِي ٱللَّيْلِ أَنْوَارُ وَجْهِهِ فَمَدَّ عَلَيْنَا مِنْ ذَوَائِبِه سِتْرا

وقالَ مِنْ أَبْيَاتٍ :

رَاضٍ بِحُكْمِ هَوَاكَ وَاجِدْ فَعَلاَمَ أَنْتَ عَلَيَّ وَاجِدْ
مَا كَانَ لِي ذَنْبٌ سِوَى أَنِّي سَهِرْتُ وَأَنْتَ رَاقِدْ

أَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْحَسَن عَلي بْن يوسُف بْن مُحَمّد بن الصَّفّار الماردينيّ الشّاعِر[18]، قال : أَنْشَدَني أبو العبّاس الخَزْرَجي لِنَفْسِه :

وَفِي ٱلْوَجَناتِ مَا فِي ٱلرَّوْضِ لَكِنْ لِرَوْنَقِ زَهْرِهَا مَعْنًى عَجِيبُ
وَأَعْجَبُ مَا التّعَجّبُ مِنْهُ أَنّي أَرَى الْبُسْتَانَ يَحْمِلُه قَضِيبُ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ أَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْعَبَّاس لِنَفْسِه :

يَا ظَبْيَ سِنْجارٍ[19] أَمَا تَرْثِي لِمَنْ قَدْ صَارَ مِنْ أَجْلِكَ فِي كَفِّ الأَجَلْ
قَدْ كانَ مَشْغولاً بِدَرْسِ عِلْمِهِ فَالْيَوْمَ لاَ عِلْمٌ بَقَى وَلاَ عَمَلْ

(1 : 208–211)

4 ــ أَحْمَد بْن يوسُف بن عَبْد الرَّحْمَن

ابْن مَرْوان بْن عَبْد الجَبَّار أَبو العَبَّاس اللّخْمي الْفُرِيانِي، يُنْسَبُ إِلَى فُرِّيَانَة[20] مَوْضِع مِنْ نَواحي الْقَيْروان. أَنشدني أبو محَمّد عَبْدُ الله وَلَدُه[21]، قال : أَنْشَدَنِي والِدِي لِنَفْسِهِ :

---

(18) من شعراء وكتاب عصره، انظر ترجمته وشعره مع الاحالة على مصادر ترجمته في الوافي بالوفيات 22 : 347–351.

(19) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، انظر ما قيل فيها من شعر ومَن نسب إليها في معجم البلدان.

(20) جاء في معجم البلدان : «فُرِّيانة : بضم أوّله وتشديد ثانيه وكسره ثم ياء مثناة من تحت، وبعد الألف نون : قرية كبيرة من نواحي إفريقية قرب صفاقس».

(21) توجد ترجمة لمن اسمه أبو محمّد عبد الله بن عبد الرحمن الفُرِيَّاني وهو إشبيلي في الوافي بالوفيات =

أَمّا رَجاء فَاسْمٌ لاَ يُبَاحُ بِـهِ   مَا أَقْسَمَ النّاسُ بِآلآياتِ والصُّحُفِ
فَنُقْطَةُ آلْجِيم مِنْ فَوْقٍ أَحَقُّ بِها   وَالرَّاءُ تُنْقَلُ بَيْن الْخَاءِ وَالأَلِفِ[22]
(1 : 292-293)

5 ـــ أَحْمَد بْن يوسُف

ابن محَمّد بْن عَبْد آلْوَهّاب القَيْسي أبو مُحَمّد الْجَيّانِي[23]، كَانَ فيهِ فَضْلٌ وَأَدَبٌ، وَلَه شِعْرٌ حَسَنٌ، أَنْشَدَنِي الصّاحِب أَبُو آلْبَرَكَات الْمُسْتَوْفِي رَضِيَ آللّهُ عَنْه، قَال : أَنْشَدَنِي مُحَمَّد بْن أحمد بن يوسُف، أَنْشَدَني والِدِي لِنَفْسِهِ :

أأَحْبَابَ قَلْبِي وَالْمَـزَارُ بَعِيــدُ   لمَن يَشْتَكِي مِمّا يَجِنُّ عَمِيـدُ
كَفَى حَزَناً أَنّي عَلَى آلنَّأْيِ عَنْكُمُ   فَرِيدٌ عَلَى كَرْهِ آلْجَلِيسِ وَحِيدُ
وَقُلْتُمْ بِأَنِّي قَدْ تَسَلَّيْتُ عَنْكُـمُ   وَكَيْـفَ وَوُدِّي لاَيَـزَالُ يَزِيــدُ
وَيَأْلَفُ قَلْبِي غَيْرَكُـمْ، وَهَوَاكُـمُ   عَلَيْـهِ رَقِـيبٌ لاَيَـزَالُ عَتِيــدُ
فَمَا زِلْتُمُ مَذْ شَطَّتِ الدَّارُ بَيْنَنا   يُمَثِّلُكُـمْ شَوْقٌ لَـدَيَّ شَدِيــدُ
نَأَيْتُمْ فَبَـانَ الصَّبْرُ مُنْذُ نَأَيْتُـمُ   وَعِنْدِي عَلَى مَا أَدَّعِيهِ شُهُـودُ
سقَامٌ بِجِسْمِي لاَيـزالُ يشفُّــه   وَعَيْنٌ كَمَا شَاءَ السُّهَادُ تَجُـودُ
ظَمِئْتُ لِلُقْياكُـمْ فهَـاجَ تَشَوُّقِـي   عَليـلٌ، ولكـنْ لا يُبَـاحُ وُرُودُ
(1 : 293)

= 17 : 248 كما توجد ترجمة أخرى لشاعر آخر يتوافق معه في الاسم والأب والنسب وهو الذي يقول فيه التجاني في رحلته (83) : «ومن شعراء صفاقس أيضا ثم من الفُريانيين ورؤسائها عبد الله بن عبد الرحمن بن علي الفرياني ممن تقدم عصرنا قليلا، مولده بمالقة من بلاد الأندلس وأبوه هو المنتقل إليها من صفاقس، له رحلة أبعد النّجعة فيها شرقا وغربا».

(22) من الواضح أن البيتين في هجاء شخص اسمه رجاء، وهما كقول بعضهم فيمن اسمه رجاء أيضا (معجم الأدباء : 284) :

أمّا رَجـاءُ فأرْجَـا مـا أَمَرْت بِـهِ   فَكَيْف إنْ كُنْتَ لَمْ تَأْمُرْه يأْتِمـرُ
بـادِرْ بجودِكَ مَهْمـا كُنْتَ مُقْتـدراً   فَلَيْسَ في كُلِّ حـالٍ أَنْت مُقْتَـدِرُ

(23) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.

6 ــ سُلَيْمانُ بْنُ عَبْدِ الله

ابْن عَبْد المُومن بْن علي : الأَميرُ السَّيِّد الفاضِلُ أَبو الرَّبيع[24]، وَجَدُّه المُسْتَوْلي عَلَى بِلادِ الْمَغْرِب[25]، تُوُفِّي سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّ مِئَة. حَدَّثَنِي شَيْخُ الشُّيوخ ابْن حَمُّويَه بِمَدينَةِ دِمَشْق سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِئة، قالَ : لَمّا وَرَدْت إلى مرّاكش كانَ الأَميرُ أبو الرّبيع فِي تلْكَ الْمُدّة يِلِي مَدينة سِجِلْماسَة[26] وَأَعْمَالَها، واجْتَمَعْتُ بِهِ حِينَ قَدِم إلى مراكش بَعْدَ وفاةِ السَّيِّد أَبِي يوسُف يَعْقوب بن يوسُف لِمُبايعَةِ وَلَدِه مُحَمَّد، وزُرْتُه فِي دارِه لِعِلْمِهِ وَفَضْلِه، فَرَأَيْتُ شَيْخاً بَهِيّ الْمَنْظَر، حَسَن المَخْبَر، فصيحَ الْعِبارة بِاللُّغَتَيْن، متمكّناً من الْبَرَاعَة والْبَلاَغَتَيْن.

بَلَغَنِي أَنَّهُ كانَ يُمْلِي عَلَى كاتِبِه الرّسائِلَ الصَّنِيعَة بغَيْر تَوَقّف، وإذَا عَرَضَ لَهُ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْخطَابَةِ ٱخْتَرَعَهُ بِلاَ تَكَلّف، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ فِي اللُّغَة الْبَرْبَرِيّة، إلاّ أَنَّنِي لَمْ أَسْمَعْهُ يَتَكَلَّمُ إلاّ بِالْعَرَبِيّة. فَمِنْ كَلاَمِهِ قَوْلُهُ فِي جَوَابِ رِسَالَةٍ إِلَى مَلِكِ ٱلسُّودانِ بِغَانَة وَأَعْمَالِهَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ تَعْوِيقَ تُجّارٍ وَرَدوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَغْرِب، قال لِكاتِبِهِ : أَجِبْهُ عَنْ كِتابِهِ، وَاكْتُبْ إِلَيْهِ فِي أَثْنَائِه : «نَحْنُ نَتَجَاوَرُ بِالإِحْسَانِ، وإنْ تَخَالَفْنَا فِي ٱلأَدْيَانِ، وَنَتّفِقُ عَلَى السِّيرة ٱلْمَرْضِيّة، ونتألّف على الرِّفْقِ بِالرَّعِيّةِ، وَمَعْلومٌ أَنَّ العَدْلَ مِنْ لَوَازِمِ ٱلْمُلُوكِ فِي حُكْمِ السّياسَةِ ٱلْفَاضِلَةِ، وَٱلْجَوْرُ لاَ يُعَانِيه إلاَّ النُّفُوسُ الشِّرِّيرَة الْجَاهِلَة، وَقَدْ بَلَغَنَا احْتِبَاسُ مَسَاكِينِ التُّجّار، وَمَنْعُهُمْ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ فيما هُمْ بِصَدَدِه، وَتَرَدُّد ٱلْجَلاَّبَة إِلَى ٱلْبِلاَدِ مُفِيدٌ لِسُكّانِها ومُعِينٌ عَلَى التَّمَكُّنِ مِن اسْتِيطانِها، وَلَوْ شِئْنا لاَحْتَبَسْنا فِي جِهاتِنا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ النّاحِية لكِنّنا

---

(24) كان هذا الأمير الشاعر موضوع رسالة الزميل الدكتور عباس الجراري، وعنوانها : الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحّدي، وقد طُبعت مرّتين، ولم تكن ترجمة ابن الشعّار معروفة وقتئذ، وانظر كذلك ديوان الأمير أبي الربيع، وهو مطبوع ودراستنا حول ابن عبد ربه الحفيد كاتب هذا الأمير.

(25) يقصد عبد المومن بن علي.

(25م) كانت ولاية سجلماسة من أهم الولايات في عهد الموحّدين.

(26) المقصود باللغتين هنا العربية والبربرية.

لاَ نَسْتَصْوِبُ فِعْلَه، وَلاَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَنْهَى عَنْ خُلُقٍ وَنَأْتِي مِثْلَه والسَّلام»[27].

وَوَقَّعَ إِلَى عَامِلٍ لَهُ كَثُرَتْ ٱلشَّكَاوِي مِنْهُ : «قَدْ كَثُرَتْ فِيكَ ٱلأَقْوَالُ، وَإِغْضَائِي عَنْكَ رَجَاءَ أَنْ تَتَيَقَّظَ فَتَنْصَلِحَ ٱلْحَال، وَفِي مُبَادَرَتِي إِلَى ظُهُورِ ٱلإِنْكَارِ عَلَيْكَ نِسْبَةٌ إِلَى سُوءِ الاِخْتيار، [وَعَدَم الاخْتِبار][28] فاحذر فإنّكَ عَلَى جُرُفٍ هارٍ».

وَمِنْ شِعْرِه المَشْهور قَصيدَةٌ يَمْدَح فِيهَا السّيد يَعْقوب بْنَ يُوسُف، وهُوَ ابْنُ عَمّه وَوَلِيُّ نِعْمَتِه :

هَبَّتْ بِنَصْرِكُمُ الرِّيَاحُ الأَرْبَعُ ... وَجَرَتْ بِسَعْدِكُمُ النُّجُومُ الطُّلَّعُ
فَأَمَدَّكَ الرَّحْمَنُ بِالفَتْحِ الَّذِي ... مَلأَ البَسِيطَةَ نُورُهُ المُتَشَعْشِعُ
لِمَ لاَ ؟ وَأَنْتَ بَذَلْتَ فِي مَرْضَاتِهِ ... نَفْساً تُفَدِّيهَا الخَلاَئِقُ أَجْمَعُ
وَمَضَيْتَ فِي نَصْرِ ٱلإِلَهِ مُصَمِّماً ... بِعَزِيمَةٍ كَالسَّيْفِ بَلْ هِيَ أَقْطَعُ
لِلَّهِ جَيْشُكَ، وَالصَّوَارِمُ تُنْتَضَى ... وَالخَيْلُ تَجْرِي وَالأَسِنَّةُ تَلْمَعُ
مِنْ كُلِّ مَنْ تَقْوَى الإِلَهِ سِلاَحُهُ ... مَا إِنْ لَهُ غَيْرَ التَّوَكُّلِ مَفْزَعُ
لاَ يُسْلِمُونَ إِلَى النَّوَازِلِ جَارَهُمْ ... يَوْماً إِذَا أَضْحَى الجِوَارُ يُضَيَّعُ

يَقُولُ فِيهَا وَيَصِفُ انْهِزَامَ العَدُوِّ :

إِنْ ظَنَّ أَنَّ فِرَارَهُ مُنْجٍ لَهُ ... فَبِجَهْلِهِ قَدْ ظَنَّ مَا لاَ يَنْفَعُ
أَيْنَ المَفَرُّ وَلاَ فِرَارَ لِهَارِبٍ ... وَٱلأَرْضُ تُنْشَرُ فِي يَدَيْكَ وَتُجْمَعُ
أَخَلِيفَةَ ٱللَّهِ ٱلرَّضِي هُنِّيتَهُ ... فَتْحٌ يُمَدُّ بِمَا سِوَاهُ وَيُشْفَعُ
فَلَقَدْ كَسَوْتَ الدِّينَ عِزّاً شَامِخاً ... وَلَبِسْتَ مِنْهُ أَنْتَ مَا لاَ يُخْلَعُ
هَيْهَاتَ سِرُّ ٱللَّهِ أُودِعَ فِيكُمُ ... وَٱللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ
لَكُمُ الهُدَى لاَ يَدَّعِيهِ سِوَاكُمُ ... وَمَنِ ادَّعَاهُ يَقُولُ مَا لاَ يَسْمَعُ
إِنْ قِيلَ : مَنْ خَيْرُ ٱلْخَلاَئِقِ كُلِّهَا ؟ ... فَإِلَيْكَ يَا يَعْقُوبُ تُومِي الأُصْبُعُ
إِنْ كُنْتَ تَتْلُو السَّابِقِينَ فَإِنَّمَا ... أَنْتَ المُقَدَّمُ وَٱلْخَلاَئِقُ تُبَّعُ

(27) نقل هذا الكلام المقري في نفح الطيب 3 : 105.

(28) من نفح الطيب 3 : 105.

خُذْهَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَدِيحَةً مِنْ قَلْبِ صِدْقٍ لَمْ يَشُبْهُ تَصَنُّعُ
فَالمَدْحُ مِنِّي فِي عُلاَكَ طَبِيعَةٌ وَالمَدْحُ مِنْ غَيْرِي إِلَيْكَ تَطَبُّعُ
واسْلَمْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لأُمَّةٍ أَنْتَ المَلاَذُ لَهَا وَأَنْتَ المَفْزَعُ
وَعَلَيْكَ يَا عَلَمَ الْهُدَاةِ تَحِيَّةٌ يَفْنَى الزَّمَانُ وَعَرْفُهَا يَتَضَوَّعُ[29]

وَأَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ الفِرِيَّانِي[30]، قَالَ : أَنْشَدَنِي عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ ابْنُ مُحَمَّدٍ الجَزُولِيُّ[30م]، قَالَ : أَنْشَدَنِي السَّيِّدُ أَبُو الرَّبِيعِ لِنَفْسِهِ فِي مَدْحِ أَبِي عِمْرَان مُوسَى[30] :

لِقَاؤُكَ صَيَّرَ الأَيَّامَ عِيدا وَأَنْشَأَ حُسْنَهَا خَلْقاً جَدِيدا
وَقَدْ هَشَّ ٱلنَّسِيمِ لَهَا مُلاَءً تَمَايَسَتِ الْمُنَى فِيهَا قُدُودَا
وَزَفَّ مِن الظَّلاَمِ عَرُوسَ زِنْجٍ تَحَلَّتْ مِنْ كَوَاكِبِهِ عُقُودا
فَقَالَ الْعَاقِلُونَ أَلَمَّ مُوسَى وَقَالَ الْجَاهِلُ: الْعِيدُ اسْتُعِيدَا
وَكُلُّهُمُ أَثَارَ قَطَاةَ صِدْقٍ يُقِيمُ بِهَا لِدَعْوَاهُ شُهُودَا
تَعَطَّرَ تُرْبُ مَسْرَاهُ فَدَاسَتْ بِهِ ٱلْفُرْسَانُ مِسْكاً لاَ صَعِيدَا
وَهَمَّتْ أَنْ تَخِرَّ لَهُ الدَّرَارِي فَتَلْقَاهُ رُكُوعاً أَوْ سُجُودَا
وَلَوْ حُذِيَتْ مَطَايَاهُ خُدُوداً وَأَرْضَاهُ حَذْوَنَاهُ الْخُدُودَا
نُحَيِّي مِنْ أَبِي عِمْرَانَ بَدْراً مُلَقَّى فِي مَطَالِعِهِ السُّعُودَا
تَأَنَّقَتِ الْفَضَائِلُ فِيهِ لَمَّا أَتَاحَ ٱللَّهُ مِنْهُ لَهَا الْوُجُودَا
وَرَامَتْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ حُسْناً فَلَمْ يَدع الْكَمَالُ لَهَا مَزِيدَا
يُفَنِّدُ مَنْ يَرُومُ بِهِ لَحاقاً وَيُعْذَرُ مَنْ يَبِيتُ لَهُ مَسُودَا
وَمَا عَدِمَتْ بِهِ ٱلأَيَّامُ شَيْئاً تُسَرُّ بِهِ سِوَى أَلاَّ يَبِيدَا

(29) القصيدة ممّا ينسب إليه وهي في الديوان : 20–22، ونفح الطيب 3 : 106 وقد قيلت في تهنئة الخليفة يعقوب المنصور بفتح قفصة سنة 583.
(30) هو ولد المُعَرَّف به آنفا، راجع ص 30.
(30م) لم أقف على ترجمة له.
(30) راجع الحاشية رقم 57 في التقديم.

لَعَلَّ مُصَيِّرَ الدُّنْيا جِنَاناً بِهِ يَقْضِي لَهُ فِيهَا الْخُلُودَا[31]

وله :

يا سَائِلِي مَا لِي أَرَاكَ ضَئِيلا إِنِّي أَظنُّك بالْهَوَى مَشْغُولا
وَأَرَى فُؤَادَكَ مِثْلَ بَرْقٍ خافِقٍ وَأَرَى دُمُوعَكَ قَدْ جَرَيْنَ سُيُولاً
هَذِي شَمَائِلُ مَنْ جَفَاهُ حَبِيبُهُ أَتُرِيدُ أَنْ أَمْضي إِلَيْهِ رَسُولا ؟
أَيْ والْعَلِيمِ بِمَا تُكِنُّ جَوانِحِي فَاذْهَبْ ــ هُديتَ إِلَى آلرَّشَادِ سَبِيلا
وَزُرِ آلدِّيَارَ إِذَا وَصَلْتَ مُسَلِّماً وانْدُبْ بِهَا قَلْبِي الصَّدِيعَ طَوِيلا
وَاقْرِ السَّلاَمَ عَلَى أُلُوفَ[32] وَقُلْ لَهَا بتَلَطُّفٍ أَحْيي ــ فُدِيتِ ــ قَتِيلاً
قَتَلَتْهُ أَسْهُمُ لَحْظِكِ الْجَانِي فَمَا أَبْقَيْنَ فِيهِ سِوَى السَّقَامِ دَخِيلا
قَالَتْ: فَسِرْ نَحْوَ الْحَبِيبِ، وَقُلْ لَهُ: بِي مِثْلُ مَا بِكَ فاطَّرِحْ مَا قِيلاَ[33]
(3 : 79-75)

7 ــ سَهْل بْنُ مُحَمّد بن أَيّوب

ابْن مالِك أبو الحَسَن الأَزْدي الْغَرْناطي الأَنْدَلُسي[34]. كانَ مِنَ آلْعُلَماء المتفنّنينَ في عَصْره، الأَفاضِل، إماماً في الْبلاَغَةِ والْخطَابَةِ، والشِّعْر والْكِتَابَة، قَادِراً عَلَى إِنْشَاءِ الْكَلاَمِ نَظْماً وَنَثْراً، فَقِيهاً مَالِكِي الْمَذْهَب، عارفاً بأُصُولِ الدِّين، وَأُصولِ الْفِقْهِ مُقَدّماً في علْم الأَدَب والْعَربيّة، مُبَرّزا في عِلْم الْمَنْطِق والْجَدَل. أنشدَنِي أَبو الوَليد إِسْماعيل بْنُ عَبْد اللّه بن إِسْماعيل بْن أَحْمَد الْبَلَوي القُضاعِي البيَّاسي[35] في العَشْر الآخِرَةِ مِنْ جُمَادَى الأُولَى بِحَلَب سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثلاَثِينَ

(31) لا توجد هذه القصيدة في ديوان أبي الربيع.
(32) ورد هذا الاسم في الديوان أكثر من مرّة.
(33) انظر القصيدة بتمامها في الديوان : 58.
(34) انظر ترجمته مع الإحالة على مصادرها في الذيل والتكملة 4 : 101-124 وفي ترجمة ابن الشعار هنا فوائد جديدة.
(35) سيأتي ذكره في ص 54.

وَسِتّ مِئَة، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الْحَسَن سَهْل بْنُ مَالِكٍ الْغَرْنَاطِي لِنَفْسِه فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتٌّ مِئة وَقَدْ فَارَقَ وَطَنَهُ وَنَزَل مَدِينَةَ سَبْتَةَ :

لَمَّا حَطَطْتُ بِسَبْتَةٍ قَتَبَ النَّوى ... والْقَلْبُ يَرْجو أَنْ تُحَوَّل حالُه
أَبْصَرْتُ مِنْ بَلَدِ الْجزِيرَةِ مَكْنِساً ... وَالبَحْرُ يَمْنَع أن يُصادَ غَزالُهُ
كَالشَّخْص فِي الْمِرْآةِ تُبْصِرُهُ وَقَدْ ... قَرُبَتْ مَسَافَتُهُ وَعَزَّ مَنَالُهُ[36]

وحدّثني أبو مُحَمد عَبْد اللّه بْن أحْمَد بْن يوسُف اللّخْمي الْفِرِيَّاني[37]، قالَ : أَخْبرنا أَبو العَبّاس أحْمَدُ بْنُ مَسْعود السَّبْتي[38]، قالَ : كانَ للفَقيهِ الإمام العَلاَّمَة أَبِي الْحَسَن سَهْلِ بْنِ مالِك خَطيبِ غَرْناطَةَ ــ كَلأَها اللَّهُ ــ ابْنٌ مُدْمِنٌ على شُرْبِ ٱلْخَمْرِ وَتَعَشّق جاريةً فَكَانَ أَبُوهُ كَثِيراً مَا يَنْهَاهُ عَنْهَا وعَن الشُّرْبِ مَعَها، وهُو [لاَ يَزْدَادُ] مَعَ ذلك إلاّ غَراماً، فَلَمّا لَمْ يُجبْه إِلَى تَرْكِ مَا عَلِقَ بِهِ مِنْ ذَلِك حَبَسَهُ وَقَيّدهُ، وَبَقِي عَلَى تِلْك ٱلْحَالِ مُدّةً طَويلَةً، ثُمَّ سَرّحَه بَعْدَ ذَلِكَ لِمُوَشَّحَةٍ صَنَعَهَا، وَصَنَعَ طَعَاماً، وَأَرادَ أَنْ يَحْضُرَ أُصْحَابُهُ فيأْكُلُون ذلِكَ الطّعام في مَنْزِلِ ابْنِه لِيَطِيبَ قَلْبُه، فَتَقَدَّمَ أَبوهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَوَجَدَ ٱلْبَابَ مَفْتُوحاً فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ يَشْرَبُ مَعَ تِلْكَ الْجَارِية وَهِيَ تَسْقِيهِ بِفِيهَا خَمْراً، فَرَجَعَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ ابْنُه، وَكَتَبَ إِلَيْهِ وَهُوَ لاَ يَعْرِفُ اسْمَ الْجارية :

يَا مَنْ أُرَاعِيه مِلْءَ عَيْنِي ... خَفْ وُصْلَةً أُعْقِبَتْ بِبَيْنِ
إذا تَمَكَّنْتَ مِنْ فُلاَنَةٍ ... فَمَرّةً وَاتْرُك اثْنَتَيْنِ
فَمَا سَقَتْ خَمْرَةً بِفِيها ... إلاّ لِتَشْقَى بِسَكْرَتَيْنِ

فَكَتَبَ إِلَيْه ابْنُه :

يَا وَاحِدَ الدَّهْرِ دُونَ مَيْن ... وَمَنْ تَحَلَّى بِكُلِّ زَيْن
مِثْلُكَ يَنْهَى أَخَا غَرَامٍ ... عَنْ وُصْلَةٍ أُعْقِبَتْ بِبَيْنِ ؟

---

(36) الأبيات أيضا في اختصار القدح : 62 والذيل والتكملة 4 : 106 وزاد المسافر : 54 ونفح الطيب 4 : 8.

(37) تقدم ذكره في ص 30 وص 34.

(38) لعله الذي تقدمت ترجمته ص 28.

وَقَـدْ نَهَـيْتُ ٱلْفُـؤَادَ لَكِـنْ   يَرْجِعُ قَلْبِي لِحُكْمِ عَيْنِـي[39]

قالَ : فَسَكَتَ عَنْهُ، وَوَصَلَه، ولَمْ يُعَرِّضْ بذِكْرِ ٱلْجَارية أَبداً.

(3 : 122-125)

8 ــ صَفْوان بْن إدْرِيس أَبو الْبَحر

الْمُرْسِي الأَنْدَلُسي[40]، كانَ شاعِراً مُجيداً مُتْقِناً كَثِيرَ الشِّعْرِ أَدِيباً مُقْتَدِراً عَلَى النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وافِرَ الْمَحْفوظاتِ، حَسَنَ ٱلْمَعْرِفَةِ لَهُ رَسَائِلُ وَخُطَبٌ ودِيوانٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْقَرِيض[41]. وكانَ ذَا تَمَكُّنٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ الأَدَبِيَّة، وَأَفْرَدَ مِنْ شِعْرِه مُجَلَّدَةً فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ صَلَوَاتُ ٱللّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلاَمُهُ[42]. وكانَ

---

(39) لم أقف على هذه المجاوبة الشعرية في مكان آخر، ولسهل بن مالك أشعار متفرقة في الذيل والتكملة واختصار القدح والإحاطة ونفح الطيب وغيرها. هذا وقد خلّف سهل بن مالك أولاداً وإليهم وجه الكاتب ابن الجنان تعزيته البليغة ونعرف منهم أبا عبد الله محمد المتوفى سنة 670هـ ولهذا ولدان ترجم لهما ابن حجر في الدرر الكامنة أحدهما أبو القاسم محمد ابن محمد بن سهل الذي حج وطاف ببعض بلدان المشرق ومات بمصر عام 730هـ والثاني هو أبو عبد الله محمد المتوفى بغرناطة عام 731هـ، الذيل والتكملة 4 : 108 والدرر الكامنة 4 : 178-179.

(40) توجد ترجمة صفوان بن إدريس مع الإحالة على مصادرها في الوافي بالوفيات 16 : 321 والذيل والتكملة 4 : 140-143.

(41) لا يوجد من آثاره الآن إلا كتابه زاد المسافر وبعض رسائل وأشعار متفرقة.

(42) لم يبق من هذه المجلّدة بين أيدينا الآن إلا قصيدتان وردتا في كتاب إعمال الاعلام لابن الخطيب (مخطوط خ.ح) وقطعة من قصيدة عارض بها الحريري في قوله :

خَلِّ آدّكار الأَرْبُع.

ومطلع قصيدة هو :

يا عين سحّي ولا تشحي   ولـو بِدَمْـعٍ بحذف عين

وهما في نفح الطيب (5 : 69-70) وتخميس قصيدة امرىء القيس :

أَلاَ عِمْ صَباحاً أيّها الطّلَل البالي

وهو في المجموع المخطوط المحفوظ في خزانة الاسكوريال رقم 470.

قِريبَ الْعَهْدِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتّ مِئَةٍ(42م) فيمَا أُخْبِرْتُ، أَنْشَدَنِي مِنْ شِعْرِه أَبُو عَبْد آللَّه مُحَمَّد بْن عَلِي بْن عَبْد الله بن أبي الْعافِية البَلَنْسي(43)، وذكَر لِي أَنّه أَدْرَكَ آخِرَ أَيَّامِه، وَلَمْ يَأْخُذْ عَنْهُ شَيْئاً، وَهُوَ آلْقَائِلُ :

يَا حُسْنَهُ وَالحُسْنُ بَعْضُ صِفَاتِهِ ... وَالحُسْنُ مَوْقُوفٌ عَلَى حَرَكَاتِهِ
بَدْرٌ لَوْ أَنَّ آلْبَدْرَ قِيلَ لَهُ: اقْتَرِحْ، ... أَبداً، لَقَالَ: أَكُونُ مِنْ هَالاَتِهِ
يُعْطِي ارْتِيَاحَ الحُسْنِ غُصْناً أَمْلَداً ... حَمَلَ الصَّبَاحَ، فَكَانَ مِنْ زَهَرَاتِهِ
وَالخَالُ تَنْقُطُ مِنْ صَحِيفَةِ خَدِّهِ ... مَا خَطَّ حِبْرُ الصُّدْغِ مِنْ نُونَاتِهِ
وَإِذَا هِلاَلُ الأُفْقِ قَابَلَ وَجْهَهُ ... عَايَنْتَهُ كَالشَّمْسِ فِي مِرْآتِهِ
مَازِلْتُ أَخْطُبُ لِلزَّمَانِ وِصَالَهُ ... حَتَّى دَنَا، والبُخْلُ مِنْ عَادَاتِهِ
غَفَلَ الرَّقِيبُ فَنِلْتُ مِنْهُ نَظْرَةً ... يَا لَيْتَهُ لَوْ دَامَ فِي غَفَلاَتِهِ
بِتْنَا نُشَعْشِعُ، والعَفَافُ نَدِيمُنَا ... خَمْرَيْنِ مِنْ غَزَلِي وَمِنْ كَلِمَاتِهِ
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ البَخِيلِ لِمَالِهِ ... أَحْنُو عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ
حَتَّى إِذَا اعْتَلَقَ الكَرَى بِجُفُونِهِ ... وَاشْتَدَّ فِي عَضُدِيَّ طَوْعُ سِنَاتِهِ
عَزَمَ الغَرَامُ عَلَيَّ فِي تَقْبِيلِهِ ... فَنَفَضْتُ أَيْدِي الطَّوْعِ مِنْ عَزَمَاتِهِ
وَأَبَى عَفَافِي أَنْ يُقَبِّلَ ثَغْرَهُ ... وَالقَلْبُ مَطْوِيٌّ عَلَى جَمَرَاتِهِ
فَاعْجَبْ لِمُلْتَهِبِ الجَوَانِحِ غُلَّةً ... يَشْكُو الظَّمَا، وَالمَاء فِي لَهَوَاتِهِ(44)

وَأَنْشَدَنِي الوَزِيرُ الصَّاحِبُ أَبُو البَرَكَاتِ المُسْتَوْفِي أَيَّدَهُ آللَّهُ تَعَالَى(45)، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو آلرُّوحِ عِيسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى الحِمْيَرِي التَّاكُرُنّي

(42م) ذكر ابن الأبار أنّه توفّي ليلة يوم الاثنين السادس عشر من شوال سنة 598.
(43) انظر ترجمته في هذا المجموع ص 122 وما بعدها.
(44) أورد ابن سعيد في المغرب أبياتا من هذه القصيدة وقال أنه كان يُغَنَّى بها في الآفاق، وقد وردت القصيدة بتمامها في الوافي بالوفيات.
(45) هو مؤلف تاريخ إربل الذي انتقينا منه بعض التراجم لهذا المجموع.

القُرْطُبِي[46]، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو بَكْرٍ يَزِيدُ بْنُ صِقْلاَبِ الْمَرِيِّي الأَنْدَلُسِي[47]، وَقَالَ : أَنْشَدَنِي صَفْوَانُ بْنُ إِدْرِيسَ لِنَفْسِهِ :

سَلَّمَ إِذْ مَرَّ بِنَا شَادِنٌ يَا لَيْتَهُ مِنْ لَحْظِهِ سَلَّمَا
وَقَبَّلَ الأُصْبُعَ مِنْ نَحْوِهِ كَأَنَّهُ يَسْتُرُ عَنَّا الفَمَا[48]

(170-177 : 3)

9 ـ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ موسَى بنِ عَبْدِ ٱللَّهِ

أَبو مُحمَّدٍ الشَّاطِبِيُّ البُونْتِيُّ[49]، وبُونْت حِصْنٌ بِشَرْقِيِّ شَاطِبَةَ[50]، كَانَ شَاعِراً مُتَأَدِّباً حَافِظاً لِلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ، فَقِيهاً عَلَى مَذْهَبِ ٱلإِمَامِ مَالِكٍ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وَلَهُ شِعْرٌ مَلِيحٌ.

أَنْشَدَنِي[51] أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ مُوسَى ٱلبُونْتي لِنَفْسِهِ فِي أَبِي الْحَسَنِ عَلِيّ ابْنِ حَرِيقٍ[52] الشَّاعِرِ يَمْدَحُهُ :

مَا حَبِيبٌ أَو ٱلْوَلِيـدُ[53] إِذَا مَـا صُغْت من جَوْهرِ الْقَرِيضِ نِظاما
لَمْ نَخَلْ فِي ٱلأَنَامِ قَبْلَكَ شَخْصاً فِكْـرُهُ بِالنُّهَـى يَصُوبُ غَمَامـا

---

(46) انظر ترجمته في هذا المجموع ص 103 وص 179.

(47) انظر ترجمته مع الإحالة على مصادرها في تحفة القادم : 178-180 وراجع أيضا كتابنا : ابن عبد ربه الحفيد : 42-43، وستأتي ترجمته أيضا ضمن هذا المجموع ص 168.

(48) أوردهما الشاعر في كتابه زاد المسافر بعد قول سهل بن مالك في آخر قطعة له :
وأوْمَا لِتَوديعي بلثْـم بنانِـه فَلَمْ أَدْرِ هل أَوْمَا بِها أَمْ تَخَتّما

(49) لم أقف له على ترجمة له في مصدرٍ آخر.

(50) راجع في البونت المغرب لابن سعيد ومعجم البلدان والروض المعطار.

(51) المتحدّث هو ابن الشعّار.

(52) ستأتي ترجمة ابن الشعّار له في هذا المجموع ص 53.

(53) يقصد أبا تمام والبحتري.

إِنَّمَا أَنْتَ فِـي ٱلْبَلاَغَـةِ فَـذٌّ وَأَرى مَنْ سِوَاكَ فِيهَـا تَوَامَـا[54]
لَكَ فِي ٱلْكَيْمِياءِ سِرٌّ عَجِـيبٌ فُتَّ فِيهِ الْوَرَى فَصِرْتَ إِمَامَـا
تَنْفُثُ ٱلْقَوْلَ مِنْ جَنانك سِحْراً يَسْتَفِـزُّ ٱلْحِجا فَيُدْعَـى كَلاَمَـا
(3 : 277)

10 ـ عَبْدُٱللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِٱللَّهِ أَبُو مُحَمَّدٍ الشَّاطِبِيُّ[54م]

كَانَ مِنْ أَعْيَانِ أَهْلِ شَاطِبَةَ وَفُضَلاَئِهَا الْمُشْتَهِرِينَ بالْفَضْلِ وَالآداب، شَاعِراً فَقيهاً مُتَرَسّلاً.

أَنْشَدَنِي[55] عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ لِنَفْسِهِ فِي عامِلٍ جَائِرٍ لَه وَلَدٌ جَمِيلٌ حسنُ الصُّورَةِ :

عَدَا جَوْرُ مُوسَى وَجَـوْرُ آبِنِـهِ عَلَى كُلِّ خَلْقٍ بَدَا أَوْ حَضَرْ
فَهَـذا يَجُـورُ بِسُمْـرِ اليراع وَهَـذا يَجُـورُ بِبِـيضِ الحَـوَرْ

وأَنْشَدَني ـ قالَ ـ لِنَفْسِهِ :

أَشْبَهَتْ وَجْهَكَ ٱلْغَزالَـةُ حُسْنـاً وَحَكَـاكَ الغَـزالُ طَرْفـاً وَلِيتَـا[56]
ووليـتَ الْجَمَـالَ مَلْكـاً عَظيمـاً فتولّـيتَ مُعْـرِضاً إِذْ وَلِيتَـا
(3 : 277-278)

---

(54) أي توأما.

(54م) لعلّه المذكور في تحفة القادِم : 239.

(55) المتحدث هو ابْن الشّعّار أيضا.

(56) الليت ـ بكسر اللام ـ : صفحة العنق.

11 ـ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ يَخْلِفْتَنْ

ابْنِ أَحْمَدَ أَبُو زَيْدٍ الفَازَازِي المَغْرِبِي(56م) السَّاكِن بِمَدِينَةِ مُرَّاكُش، فَاضِلٌ عَالِمٌ مُقَدَّمٌ فِي ٱلأَدَبِ، كَبِيرُ المَحَلِّ فِي ٱلْفَضْلِ، شَاعِرٌ مُقْتَدِرٌ عَلَى ٱلْكَلاَمِ، صَاحِبُ فَصَاحَةٍ فِي ٱلإِنْشَاءِ، نَزَلَ مُرَّاكُش، وَتَقَدَّمَ عِنْدَ مَلِيكِهَا، وَحَظِيَ لَدَيْهِ، وَقَلَّدَهُ الوِزَارَةَ وَكِتَابَةَ ٱلإِنْشَاءِ(57). وَلَهُ شِعْرٌ كَثِيرٌ فِي كُلِّ نَوْعٍ(58). أَنْشَدَنِي أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ طَلْحَةَ ٱلأَنْصَارِي السَّبْتِي(59) بِمَدِينَةِ إِرْبِلَ فِي أَوَاخِرِ ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ ثَلاَثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي ٱلْوَزِيرُ أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ الفَازَازِي لِنَفْسِهِ :

أَزِيدُ اشْتِيَاقاً كُلَّمَا زِدْتَنِي بُعْداً ... وَآلَفُ وَجْداً حِينَ أَطَّرِحُ الوَجْدَا
وَتَشْفَعُ عِنْدِي فِي صُدُودِكَ لَوْعَةٌ ... تُجَاذِبُنِي لاَ أَسْتَطِيعُ لَهَا رَدَّا
وَمَا مَرَّ يَوْمٌ مِنْ شَدِيدِ مَوَدَّتِي ... ـ وَحَقِّكَ ـ إِلاَّ زِدْتُ فِي عَدِّهِ وُدَّا
كَأَنَّ الهَوَى جِسْمٌ ثَوَى بَيْنَ أَضْلُعِي ... فَضَمَّ عَلَيْهِ الشَّوْقُ مِنْ جَسَدِي بُرْدَا
أَرَى نَارَ إِبْرَاهِيمَ بَيْنَ جَوَانِحِي ... تَشُبُّ، وَلَكِنْ لاَ سَلاَماً وَلاَ بَرْدَا
وَمَا جَزَعِي لِلْمَوْتِ إِلاَّ لِعِلَّةٍ ... إِذَا لَمْ تَقَرَّ العَيْنُ لاَ تَشْمَتُ الأَعْدَا
عَجِبْتُ لأَهْلِ الوَجْدِ مَاتُوا بِوَجْدِهِمْ ... وَمَا اعْتَنَقُوا غُصْناً وَلاَ ارْتَشَفُوا شَهْدَا
فَلَوْ أَنَّ مَنْ أَهْوَاهُ فِي عِلْمِ مَنْ مَضَى ... لَمَا عُشِقَتْ لُبْنَى، وَلاَ مُدِحَتْ سُعْدَى
وَلاَ مَشَتِ ٱلْخَنْسَاءُ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا ... وَلاَ عَلَّقَتْ عَفْرَاءُ فِي جِيدِهَا عِقْدَا

(56م) ترجمته في الوافي 18 : 302-303 مع الإحالة على مصادر أخرى في الحاشية. ويبدو من نسبة المترجم الفازازية أنّه مغربي ولكن ابن الأبار عدّه في الأندلسيين، وذكر ابن عبد الملك أخاه أبا عبد الله في قسم الغرباء عن الأندلس ولعله ذكره فيهم كذلك، انظر أيضا الذيل والتكملة 8 : 362-364 وقد عدّه مؤلف المفاخر من أعلام البربر.

(57) المليك المشار إليه هو أبو العلاء إدريس بن المنصور الملقّب بالمامون.

(58) للمترجم أشعار وموشحات في أغراض مختلفة، وقد انصرف في آخر حياته إلى القول في الزهد والتوسل والمديح النبوي.

(59) انظر ترجمة والده في الذيل والتكملة 1 : 377.

إِذَا ظَفِرَتْ عَيْنَايَ مِنْكَ بِنَظْـرَةٍ   فَقَدْ مُلِئَتْ عِزّاً وَجَاوَرَتِ ٱلْخُلْدَا[60]
(3: 359–361)

12 ـــ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بن عَلِيٍّ

ابْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ عِمْرَانَ الأُمَوِي الغُمَارِي السَّبْتِي[61]. وَمَوْلِدُهُ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ بِبَادِيَةِ سَبْتَةَ. الفَقِيهُ المَالِكِيُّ المُدَرِّسُ المُفْتِي، تَفَقَّهَ بِفَاسٍ وَبِهَا تَأَدَّبَ عَلَى الأُسْتَاذَيْنِ: ابْنِ رَيْدَانَ وَابْنِ خَرُوفٍ[62]، الأَدِيبِ النَّحْوِيِّ، وَبِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ وَبِبَغْدَادَ وَالشَّامِ. وَسَمِعَ البُخَارِيَّ وَالمُوَطَّأَ وَالسُّنَنَ[63] وَمُسْلِمَ بِفَاسٍ، وَتَفَنَّنَ فِي عُلُومٍ شَتَّى مِنَ ٱلأُصُولَيْنِ والخِلاَفِ وَالحِسَابِ وَالفَرَائِضِ وَعُلُومٍ أُخَرٍ. وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْتَظْهَرَ ثَلاَثِينَ أَلْفَ بَيْتٍ مِنَ الأَشْعَارِ العَرَبِيَّةِ. فَمِنْ شِعْرِهِ:

وَافَى بِلَيْلٍ، وَلَيْلُ الشَّعْرِ سَاتِرُهُ   ظَبْيٌ غَرِيرٌ غَضِيضُ الطَّرْفِ فَاتِرُهُ
عَلَى قَوَامٍ يَكَادُ اللِّينُ يَمْحَقُـهُ   لَوْلاَ الكَثِيبُ الَّذِي ضَمَّتْ مَآزِرُهُ
حُلْوُ الشَّمَائِلِ مَكْحُولٌ مَدَامِعُـهُ   وَلَمْ تُغَمَّضْ عَلَى كُحْلٍ نَوَاظِرُهُ
كَغُـرَّةِ البَـدْرِ إِشْرَاقاً مَحَاسِنُـهُ   وَلَمْحَةِ البَـرْقِ إِيمَـاضاً سَوَافِـرُهُ
إِذَا دَنَـا فَسُيُـوفُ الهِنْـدِ نَابِيَـةٌ   [تَنْبُو ٱلسُّيوف] وَلاَ تَنْبُو بَوَاتِرُهُ
وَانْ سَطَتْ فَعَلَى الأَجْسَادِ سَطْوَتُهَا   وَسَيْفُهُ فِي صَمِيمِ القَلْبِ شَاهِرُهُ

(60) لم أقف على هذا الشعر في غير هذا المصدر.
(61) لم أقف على ترجمة له في مصدر آخر.
(62) ابن ريدان هو أبو محمد عبد العزيز بن علي السّماتي القرطبي. له ترجمة في التكملة رقم 1769 وصلة الصلة 3 : 250 (ط. 1993) والوافي بالوفيات 18 : 530–531 وغاية النهاية 1 : 395 وبغية الوعاة : 308 ونفح الطيب 2 : 634.
وابن خروف هو أبو الحسن علي بن محمد شارح الكتاب وترجمته ـــ مع الإحالة على مصادرها ـــ في الذيل والتكملة 5: 319–323، وستأتي ترجمته ضمن هذا المجموع ص63.
(63) يقصد بالسّنن هنا سنن النسائي.

كَأَنَّمَا بَابِلٌ مِـنْ سِحْـرِ مُقْلَتِـهِ أَوْ قَدْ حَشَاهَا بِهِ هَارُوتُ سَاحِرُهُ
كَأَنَّ فَاحِمَهُ ـ وَالطِّيبُ غَامِرُهُ ـ رِيشُ الغُرَابِ إِذَا الْتَفَّتْ غَدَائِرُهُ
تُقَبِّلُ الأَرْضَ مِنَ اجْلاَلٍ سَاحِبِهِ إِذَا تَعَثَّـرَ فِيـهِ وَهْـوَ نَـاشِرُهُ
وَوَجْنَتَاهُ كَرَوْضِ الـوَرْدِ بَاكَـرَهُ طَلٌّ فَلَمْ يَعْدُ أَنْ وَافَتْ بَشَائِرُهُ
وَالثَّغْرُ كَالدُّرِّ لاَ بَلْ مِنْ مَلاَحَتِهِ الدُّرُّ النَّفِيسُ إِذَا مَا عُدَّ فَاخِرُهُ
وَالرِّيقُ كَالشَّهْدِ أَوْ طَعْمِ العَقَارِ إِذَا مَا عَاقَرَ اللُّبَّ يَوْماً فَهْوَ عَاقِرُهُ
لَوْ أَنَّ مَنْ فِي حَبِيسِ الدَّيْرِ أَسْمَعَهُ مِنْهُ حَدِيثاً لأَضْحَى وَهْوَ آسِرُهُ
أَوْرَا مَيْتاً، وَذَاكَ المَيْتُ فِي كَفَنٍ فِي قَعْرِ لَحْدٍ لأَمْسَى وَهْوَ نَاشِرُهُ

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِي ٱلْحُمَّى :

سَرَتْ كَالْخَيَالِ، لاَ حَسِيسٌ وَلاَ نَبْحُ فَوَافَتْ فِرَاشِي عِنْدَمَا اتَّضَحَ الصُّبْحُ
وَقَدْ سَمَحَتْ بِالوَصْلِ وَالصُّبْحُ مُسْفِرٌ وَنَجْمُ الشَّمَالِ طَاحَ مِنْ كَفِّهِ الرُّمْحُ
وَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى وَحَلَّتْ بِجِسْمِي فَاسْتَبَانَ لَهَا الرِّبْحُ
تُعَانِقُنِي بِالرُّغْمِ لاَ عَنْ مَـوَدَّةٍ عِنَاقاً يُرَى كَالذَّبْحِ أَوْ دُونَهُ الذَّبْحُ
وَقَدْ صَارَ وَصْفِي الخَفْضُ وَالضَّمُّ وَصْفُهَا وَلَمْ يَقْتَرِبْ مِنَّا سُكُونٌ وَلاَ فَتْحُ
وَأَصْبَحْتُ مَنْكُوحاً لَهَا، وَهْيَ نَاكِحٌ وَيَا مَنْ رَأَى أُنْثَى يَكُونُ لَهَا نَكْحُ
أَجَازَتْ نِكَاحَ العَهْرِ مِنْ غَيْرِ شِرْعَةٍ كَفِعْلِ النَّصَارَى لاَ طَلاَقٌ وَلاَ صُلْحُ(64)

وَأَنْشَدَنَا لِنَفْسِهِ :

عَـبَثَ النَّسِيـمُ بِبَانِـهِ وَبَهَـارِهِ وَاسْتُقْطِرَ الكَافُورُ مِـنْ نُـوَّارِهِ
وَجَـلاَ عَـرُوساً طِيبُهَا وَحُلِيُّهَـا مِـنْ مُزْنِـهِ وَرَبِيعِـهِ وَقُطَـارِهِ
فَسِوَارُهَـا وَعُقُودُهَـا وَحُجولُهَـا وَبَرِيمُهَـا مِـنْ رَاحَتَـيْ آذَارِهِ
مِنْ أَحْمَرٍ شَرِقٍ وَأَبْيَضَ نَاصِعٍ ظَهَرَتْ صِفَاتُ الحَقِّ فِي أَنْوَارِهِ
مِنْ نَرْجِسٍ وَشَقَائِقٍ وَبَنَـفْسَجٍ تَجْلُو ثِيَابَ العُجْبِ مِنْ أَزْهَارِهِ

---

(64) من أشهر ما قيل في الحُمّى أبيات المتنبي التي أولها :
وزائـرتي كـأنّ بها حيـاءً فليس تـزور إلاّ في الظّـلام
وأبيات المتنبّي هي التي حذا حذوها هذا الشاعر الأندلسي.

وَاليَاسَمِينُ بِهَا إِلَى نَيْلُوفَرٍ   تَرْنُو لَوَاحِظُهُ عَلَى أَنْهَارِهِ
عرس جَنَتْ ثَمَرَ السُّرُورِ شُهُودُهُ   لَمَّا تَشَابَهَ لَيْلُهُ بِنَهَارِهِ
فَالمِسْكُ وَالجَادِيُّ مِنْ مَشْمُومِهِ   وَالدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ بَعْضُ نِثَارِهِ
وَغَدَا بِهِ الشُّحْرُورُ يُنْشِدُ مُعْرِباً   بِلُحُونِهِ مَا رَقَّ مِنْ أَشْعَارِهِ
يَشْدُو عَلَى غُصْنِ الأَرَاكِ تَعَجُّباً   مِنْ صَوْتِهِ وَمُجَاوِباً لِهَزَارِهِ
حَتَّى بَكَى قُمْرِيُّهُ لِلْبُعْدِ عَنْ   مَعْشُوقِهِ أَوْ إِلْفِهِ أَوْ جَارِهِ
فَبِكُلِّ قُطْرٍ جِئْتَ مِنْ أَقْطَارِهِ   دَاوُود مُعْتَكِفاً عَلَى مِزْمَارِهِ
وَتَرَى الحَبَابَ عَلَى الجَدَاوِلِ مَائِساً   فِعْلَ المُتَيَّمِ مِنْ شَذَا أَطْيَارِهِ
يَجْلُو عَلَيْنَا الرَّاحَ أَحْوَرُ شَادِنٌ   طَلَعَتْ شُمُوسُ ٱلْحُسْنِ مِنْ أَزْرَارِهِ
فَالمِسْكُ مِنْ أَنْفَاسِهِ وَكَأَنَّهَا   مِنْ طِيبِهَا وَقْفٌ عَلَى أَعْصَارِهِ
بَدْرٌ يَرَى بَدْرَ الدُّجَى مِنْ دُونِهِ   بِأُفُولِهِ وَكُسُوفِهِ وَسِرَارِهِ
لاَ تَهْتَدِي إِنْ تَعْلَقِ الشَّمْسُ المُنِيـــرَةُ مِنْ مَلاَحَتِهِ بِذَيْلِ غُبَارِهِ
وَٱلْفِكْرُ إِمَّا قَامَ بَيْنَ ثِيَابِهِ   مُسْتَغْرِقٌ عَنْ خَمْرِهِ بِخِمَارِهِ
فَالرِّيُّ كُلُّ الرِّيِّ فِي أَرْدَافِهِ   وَالمَجْدُ بَيْنَ نِطَاقِهِ وَإِزَارِهِ
يَفْتَرُّ عَنْ بَرَدٍ نَضِيدٍ نَظْمُهُ   كَالبَرْقِ حَالَ وَمِيضِهِ وَمَطَارِهِ
فَأَفَادَهُ فَالسَّيْفُ يَقْصُرُ فِعْلُهُ   حَالَ الضَّرِيبَةِ عَنْ مَجَالِ شِعَارِهِ
فَمَحَا بِهِ حَتَّى إِذَا وَخط الدُّجَى   بِالشَّيْبِ فَوْقَ جَبِينِهِ وَعِذَارِهِ
فَرَمَى بِسَهْمٍ مَا تَكَامَلَ نَزْعُهُ   حَتَّى أَصَابَ القَلْبَ فِي أَعْشَارِهِ
وَمَضَى هَزِيعُ ٱللَّيْلِ يَنْهَضُ خَلْفَهُ   جَيْشُ ٱلصَّبَاحِ فَعَاثَ فِي أَقْطَارِهِ
فَجَلاَ أَدِيمَ ٱللَّيْلِ عَنْ شَمْسِ الضُّحَى   فَمَحَا بِهِ مَا اخْتَطَّ مِنْ آثَارِهِ
حَتَّى إِذَا طَلَعَتْ بِغُرَّةِ أَيْكِهِ   شَمْسُ الضُّحَى أَخَذَ النَّهَارُ بِثَارِهِ
(3 : 506-510)

13 ـ عَبْدُ السَّلاَمِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

ابْنِ يُوسُفَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْفُرِيانِي[65]، مِنْ أَهْلِ المَغْرِبِ، حَدَّثَنِي الصَّاحِبُ أَبُو البَرَكَاتِ المُسْتَوْفِي[66] رَضِيَ آللَّهُ عَنْهُ بِإِرْبِلَ، قَالَ : كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَنْسَخُ وَيَكْتُبُ وَاضِحاً، قَدِمَ ارْبِلَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَتُوُفِّيَ بِهَا سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَأَخَذَ عَامِلُ التَّرِكَاتِ تَرِكَتَهُ[67]. وَكَانَ شَاعِراً قَصَدَ بِشِعْرِهِ المُلُوكَ، أَنْشَدَنِي رَحِمَهُ (آللَّهُ) لِنَفسِهِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ بِإِرْبِلَ، وَهِيَ أُولَى قَدْمَاتِهِ :

رُوَيْـدَكَ أَيُّهَـا الـرَّشَأُ الغَرِيـــرُ ... فَكَمْ أَغْـرَى بِغُـرَّتِكَ الغُـرُورُ
وَبَرِّدْ يَا فَدَيْتُكَ حَرَّ وَجْـدِي ... بِوَصْلِكَ إِنَّ هَجْرَكَ لِي هَجِيـرُ
أَمَا إِنْ آنَ أَنْ تَرْثِي فَتُحْيِـي ... قَتِيـلَ هَوىً رِضَاكَ لَـهُ نُشُورُ
إِذَا جَنَّ الدُّجَـى جُـنَّ اشْتِيَاقـاً ... فَلَيْسَ سِوَى النُّجُومِ لَهُ سَمِيـرُ
حَكَى يَعْقُوبَ فِيكَ أَسًى وَوَجْداً ... إِلَـى أَنْ جَـاءَ يُنْـذِرُهُ النَّذِيـرُ
وَأَقْسَمَ لاَ يَـذُوقُ النَّوْمَ حَتَّـى ... يَجِـيءَ بِثَـوْبِ يُوسُفِـهِ بَشِيـرُ[68]
فَوَالَهْفِي عَلَـى زَمَـنٍ تَـقَضَّى ... وَغُصْنُ شَبِيبَتِـي غَضٌّ نَضِيـرُ
سَقَى صَوْبُ العِهَادِ عُهُودَ لَهْوٍ ... عَهِدْنَاهَـــا وَعَاهَدَهَـــا السُّرُورُ
دِيَـارٌ لِلْفُـؤَادِ بِهَـــا غَـــرَامٌ ... مُقِيـمٌ مَـا لَـهُ عَنْهَا مَسِيـرُ
قَضَى صَرْفُ القَضَا عَنْهَا بِصَرْفٍ ... وَلِلأَقْـــدَارِ أَحْكَـــامٌ تَجُـــورُ
تُـرَى الأَيَّامُ تَسْمَـحُ وَآللَّيَالِـي ... فَيَقْضَى لِي إِلَى مِصْرٍ[69] مَصِيـرُ
فَقَدْ ضَاقَ الصَّعِيدُ عَلَيَّ حَتَّـى ... كَأَنِّـي بَيْـنَ أُسْرَتِـهِ أَسِيـرُ

(3 : 524–525)

---

(65) نسبة إلى فريانة وقد تقدم ذكرها.

(66) هو مؤلف تاريخ إربل وغيره، ولا توجد ترجمة المذكور هنا في الموجود من تاريخ إربل.

(67) عامل التركات هو صاحب المواريث في اصطلاح المغاربة.

(68) من الواضح أنه يشير إلى ما ورد في سورة يوسف وقوله تعالى : ﴿فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً﴾.

(69) المقصود بمصر القاهرة.

14 ـــ عَبْدُ المُنْعِمِ بْنُ عُمَرَ

ابْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ خَضِرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَسَّانٍ أَبُو الفَضْلِ الغَسَّانِيُّ السَّنَدِيُّ(70) الجِلْيَانِيُّ(71) الحَكِيمُ الأَدِيبُ، كَانَتْ وِلاَدَتُهُ بِقَرْيَةٍ تُدْعَى جِلْيَانَةَ(72) مِنْ قُرَى غَرْنَاطَةَ مِنْ مُدُنِ الأَنْدَلُسِ فِي سَابِعِ المُحَرَّمِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلاَثِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، وَكَانَ صَاحِبَ رِيَاضَةٍ وَحِكَمٍ وَمَعْرِفَةٍ قَوِيَّةٍ بِالطِّبِّ وَٱلأَدَبِ وَالعَرُوضِ وَالنَّحْوِ، وَلَهُ تَصَانِيف فِي عِلْمِ الرِّيَاضِيَاتِ وَالتَّشْرِيحِ، وَكَانَ شَاعِراً مُطِيلاً مُتَوَسِّعاً فِي الشِّعْرِ مُتَمَكِّناً مِنَ القَوْلِ، طَافَ البُلْدَانَ، وَاخْتَرَقَ الآفَاقَ، ثُمَّ سَكَنَ بِأَخَرَةٍ دِمَشْقَ فِي أَيَّامِ المَلِكِ النَّاصِرِ صَلاَحِ الدِّينِ أَبِي المُظَفَّرِ يُوسُفَ ابْنِ أَيُّوبَ بْنِ شَادِي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وَتُوُفِّيَ بِهَا فِي صَفَر سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّ مِئَةٍ. أَنْشَدَنِي شَيْخُنَا أَبُو الخَيْرِ ابْنُ أَبِي الْمُعَمَّرِ(73) التِّبْرِيزِيُّ المُحَدِّثُ، قَالَ: أَنْشَدَنِي الحَكِيمُ أَبُو الفَضْلِ عَبْدُ ٱلْمُنْعِمِ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَسَّان الغَسَّانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِنَفْسِهِ يَمْدَحُ المَلِكَ النَّاصِرَ صَلاَحَ الدِّينِ، وَيُهَنِّئُهُ بِفَتْحِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ، وَكَانَ فَتَحَهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ(74) حَرَسَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى وَحَمَاهُ بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ:

لَقَدْ أَوْسَعَ ٱللَّهُ الفُتُوحَ بِعَامِنَا ... وَخَيَّسَ مِنْهَا الْمُصْعب الْمُتَأَبِّدا
أُمُورٌ نَبَتْ عَنْهَا العُقُولُ وَأَذْعَنَتْ ... بِأَنَّ اخْتِصَاصَ الحَظِّ لِلَّهِ مُوجِدا
فَحَرَّكَ شَخْصاً حَرَّكَ الأَرْضَ جَائِلاً ... وَهَزَّ مِنَ الشُّهْبِ الذَّوَائِبِ مُصْعِدا

---

(70) السَّنَدي نسبة إلى سَنَدوادي آش، والجلياني نسبة إلى جليانة، وهي أيضا من أعمال وادي آش، راجع فيهما معجم البلدان لياقوت.

(71) ترجمته في الذيل والتكملة 5 : 57 وتحفة القادم : 128–129 وانظر فيهما الإحالة في الحاشية على مصادر أخرى.

(72) في معجم البلدان والمُغرب أنها من أعمال وادي آش.

(73) هو أبو الخير بدل بن أبي المعمر التبريزي ت. 601هـ له ترجمة في تاريخ إربل رقم 59 وانظر كشف الظنون : 363 ومعجم المؤلفين رقم 3169.

(74) شهد هذا الفتح عدد من الأندلسيين والمغاربة وقد كان الإمام الذي عينه صلاح الدين في المسجد الأقصى بعد الفتح أندلسيا، انظر الذيل والتكملة 5 : 315–316.

وَلَقَّبَهُ بِالنَّاصِرِ المَلْكُ يُوسُفٍ … وَنَقَّبَهُ نُورَ الْمَهَابَةِ سَيِّدَا
وَأَلْهَمَهُ حُسْنَى الشَّمَائِلِ مُجْمِلاً … وَفَهَّمَهُ أَسْنَى الفَضَائِلِ مَحْمَدَا
يَزِيدُ عَلَى عُظْمِ المَرَامِ تَوَاضُعاً … وَيَدْنُو عَلَى بُعْدِ المَقَامِ تَوَدُّدَا
أَتَتْهُ وُفُودُ الخَافِقَيْنِ فَعَايَنُوا … حُلَى مَلِكٍ قَدْ أَطْلَعَ البَرَّ فَرْقَدَا
يُنَوِّعُ أَثْنَاءَ النَّهَارِ سِيَاسَةً … وَيَقْطَعُ آنَاءَ الدُّجَى مُتَهَجِّدَا
وَيَرْمُقُ أَحْوَالَ المَدَائِنِ حَافِظاً … وَيُنْفِقُ أَمْوَالَ الخَزَائِنِ مُنْفِدَا
أَحَاطَ بِمُلْك الأَرْضِ خُبْراً وَقُوَّةً … وَحَاطَ ضُرُوبَ الخَلْقِ خَيْراً وَمَرْفِدَا
فَوَفَّى بِفَضْلٍ مَنْ قَضَايَاهُ مُتْرَعاً … وَأَصْفَى لِكُلٍّ مِنْ عَطَايَاهُ مَوْرِدَا
وَأَرْوَتْ نُفُوسَ السَّائِلِينَ بَنَانُهُ … فَلَمْ أَدْرِ بَحْراً مَدَّ لِلنَّاسِ أَمْ يَدَا
سَقَا بِحُسَامٍ، وَاسْتَرَقَّ بِأَنْعُمٍ … وَمَا المَجْدُ إِلاَّ فِي الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَا
فَنَمْدَحُهُ حُبّاً، وَيُعْطِي تَبَرُّعاً … فَيُعْجِزُنَا شُكْراً وَيَشْأَى مُحَمدا
رَأَيْتُ عُلاَهُ مَا لَهَا حِلْيٌ مِثْلِهَا … بَدَائِعَ نَظْمٍ وَامْتِدَاحاً مُخَلَّدَا
فَقَلَّدْتُهُ سِلْكاً عَزِيزاً وُجُودُهُ … كَمَا لَمْ نَجِدْ مَلْكاً يُضَاهِي المُقَلَّدَا
كَذَا فَلْيَكُنْ صَوْغُ القَرِيضِ مُسَمَّطاً … تَفَاصِيلَ أَعْجَازٍ وَوَشْياً مُنَجَّدَا
وَلَفْظاً كَمَا تُجْلَى الدَّرَارِيُّ تَحْتَهُ … مَعَانٍ كَمَا تَرْمِي الأَشِعَّةُ أَنْجُدَا
قَرَائِنَ أَحْوَالٍ، وَمَعْلَمَ سِيرَةٍ … وَحِكْمَةَ أَمْثَالٍ وَعِلْماً مُنَضَّدَا
إِذَا الشِّعْرُ لَمْ يَحْكِ العُلُومَ فَقَدْ حَكَى … جَعَاجِعَ أَصْوَاتٍ وَلَغْواً مُفَنَّدَا
وَلَوْلاَ اصْطِنَاعُ الحِلْمِ لَمْ يَكُ بَاقِلٌ … لِيَحْضُرَ فِي مَيْدَانِ سَحْبَانَ مُنْشِدَا
لأَوْجُهِ أَرْبَابِ السَّمَاحِ طَلاَوَةٌ … تُعَلِّمُ طُلاَّبَ النَّجَاحِ التَّرَدّدا
وَقِيمَةُ قَدْرِ الشَّيْءِ قِيمَةُ ذِكْرِهِ … فَمَا رَاقَ وَصْفاً فَاقَ صِيتاً مُنَددَا
وَهَذَا مَلِيكٌ أَمْرُهُ غَيْثُ عَصْرِهِ … فَسِيرَتُهُ تَبْقَى جَبِيناً مُوَرَّدَا
فَيُسْقَى بِهَا الظَّمْآنُ لِلْعِلْمِ مُسْنِتاً … وَيَرْقَى لَهَا الدَّيَّانُ فِي آلْحُكْمِ مُسْنِدَا
يَنَالُ الفَتَى بِالصَّبْرِ مَقْسُومَ حَظِّهِ … وَكَمْ جَاهِدٍ فِي الحِرْصِ مَا نَالَ مَقْصِدَا
عَجِبْتُ مِنَ آلأَيَّامِ تَطْوِي كَمَائِناً … إِذَا انْتَشَرَتْ أَعْيَتْ مُخِبّاً وَمُنْجِدَا
وَكُنْتُ أَرَى ذَا الفَتْحَ مِنْ قَسْمِ يُوسُفٍ … فَلِلَّهِ ذَاكَ القَسْمُ مَا كَانَ أَسْعَدَا
وَلِلَّهِ يَوْمٌ هَلَّ فِيهِ وِلاَدَةً … لَقَدْ طَابَ مَوْلُوداً وَبُورِكَ مَوْلِدَا

كَفَى مَظْهَراً مَنْ طَهَّرَ ٱلْقُدْسِ وَاحْتَوَى بَنِي أُصْفَرٍ سَبْياً وَقَتْلاً تَعَمُّدَا
هُوَ المَسْجِدُ الأَقْصَى، وَهُمْ شَوْكَةُ الوَغَى فَمَا كَانَ لَوْلاَ اللَّهُ يَخْلُصُ مَعْبَدَا
هَنِيئاً لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ الآنَ طُهْرُهُ وَلِلنَّاصِرِ المَنْصُورِ غِبْطَتُهُ غَدا
فَيَا خَيْرَ مَمْدُوحٍ وَأَطْهَرَ مُجْتَبًى وَأَسْعَدَ مَمْنُوحٍ وَأَبْهَرَ مَحْتِدَا
مَدِيحُكَ أَحْلَى فِي فَمِي مِنْ جَنَى الْمُنَى وَمِنْ طَعْمِ بَرْدِ المَاءِ عَذْباً عَلَى الصَّدَا
وَأَشْهَى سَمَاعاً مِنْ حَدِيثِ حَبَائِبٍ يُذَكِّرُنَا عَهْدَ الصِّبَا مُتَجَدِّدَا
أُسَامِرُ فِيكَ الشِّعْرَ مُسْتَمْتِعاً بِهِ فَأَبْسُطُهُ بَسْطَ الخَمِيلَةِ فِي النَّدَا
أَوَدُّ لَوَ أَنَّ البَيْتَ أَلْفُ قَصِيدَةٍ وَكُلَّ قَصِيدٍ أَلْفُ حِزْبٍ تَرَدُّدَا
وَكَيْفَ اقْتِصَادٌ فِي مَدَائِحِ يُوسُفٍ وَقَدْ بَذَّ غَايَاتِ السَّوَابِقِ فِي ٱلْمَدَا
سَرَى وَهْوَ نُورٌ قَاهِرٌ بِلَطَافَةٍ وَحَلَّ بِنَا صَوْتُ العُلاَ فَتَجَسَّدَا
وَلَوْ لَمْ يَلُحْ لِلنَّاسِ مَا علموا مَتَى سَمَا كُلُّ عَالٍ، وَهُوَ يَرْتَادُ مصعدَا
فَكُلُّ ٱبْتِدَاءٍ فِي مَعَالِيهِ مُنْتَهًى وَكُلُّ ٱنْتِهَاءٍ فِي مَعَالِيهِ مُبْتَدَا

وَأَنْشَدَ قَاضِي اليَمَنِ[75] لِعَبْدِ المُنْعِمِ بْنِ حَسَّانٍ :

يَا سَاهِراً فِي ٱقْتِنَاءِ عِلْمٍ تَخْطُبُ مِنْهُ مَقَامَ مُحْكِمْ
لاَ تَطْلُبِ العِلْمَ فِي كِتَابٍ بَلْ وَسِّعِ الكُمَّ ثُمَّ عَمِّمْ
وَالْبَسْ مِنَ البَزِّ طَيْلَسَاناً وَاعْقِدْهُ بِالمَنْكِبَيْنِ وَاخْتِمْ
وَاقْعُدْ مَعَ القَوْمِ فِي جِدَالٍ لاَ بِالبُخَارِي وَلاَ بِمُسْلِمْ
إِلاَّ صِيَاحاً وَنَفْضَ كُمٍّ وَجَمْعَ لاَ لاَ، وَعَقْدَ لَمْ لَمْ
وَمَا أَرَى بَيْنَهُمْ عُلُوماً أَكْثَرَ مِنْ لاَ وَلاَ أُسَلِّمْ

وَقَالَ أَيْضاً :

عَجِبْتُ لِحُظْوَةٍ حَصَلَتْ لِقَوْمٍ تَعَافُ سُلُوكَهُمْ هِمَمُ الرِّجَالِ
لَهُمْ زِيٌّ وَأَلْقَابٌ عِظَامٌ وَهُمْ فِي الجِدِّ مِنْ هَمَجِ الرِّجَالِ
وَنَالُوا مَا أَرَادُوا بِالدَّعَاوِي كَمَا نَالَ المَبَرِّزُ في الخِصَالِ
فَقَدْ ضَاعَ اجْتِهَادُ أَخِي التَّحَرِّي إِذَا حَصَلَ التَّقَدُّمُ بِالمُحَالِ

---

(75) كذا في الأصل ولم أتمكّنْ من معرفته.

وَقَالَ : وَأَنْشَدَنِي عَنْهُ الشَّيْخُ الحَافِظُ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ الحَسَنِ البَغْدَادِيُّ[76]، قَالَ : أَنْشَدَنِي عَبْدُ المُنْعِمِ لِنَفْسِهِ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ إعْرَاضِـ[ـهِ عَنْ] زِيَارَةِ ٱلأَكَابِرِ وَالرُّؤَسَاءِ :

قَالُوا نَرَاكَ عَنِ ٱلأَكَابِرِ تُعْرِضُ ... وَسِوَاكَ زَوَّارٌ لَهُـمْ مُتَعَـرِّضُ
قُلْتُ الزِّيَـارَةُ لِلزَّمَـانِ إضَاعَـةٌ ... وَإِذَا مَضَى وَقْتٌ فَمَا يُتَعَـوَّضُ
إنْ كَانَ يَوْماً لِي إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ ... فَبِقَدْرِ مَا ضَمِنَ القَضَاءُ تُقَيَّضُ

أَنْشَدَنِي شِهَابُ الدِّينِ القُوصِي[77] بِمَنْزِلِهِ المَعْمُورِ بِدِمَشْقَ فِي المُحَرَّمِ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، أَنْشَدَنِي عَبْدُ المُنْعِمِ الحَكِيمُ لِنَفْسِهِ :

أَشَدُّ بَـلاَءِ ٱلرِّجَـالِ الـنِّسَاءُ ... بِهِـمْ أَبَدَ الدَّهْـرِ مِنْهُـنَّ دَاءُ
إِذَا مَـا بَعُـدْنَ فَعَـيْشٌ يَسُوءُ ... وَمَهْمَـا قَرُبْـنَ فَنَـفْسٌ تُسَاءُ
يُكَلِّفْنَ ذَا المَالِ مَا لاَ يُطِيقُ ... وَيُلْزِمْنَ ذَا المَالِ مَـا لاَ يَشَاءُ
وَيَقْضِينَ ـ لاَبُدَّ ـ مَا يَشْتَهِينَ ... وَلَـوْ كَـانَ حَارِسَهُـنَّ الـقَضَاءُ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

قَالُوا نَرَى بَقَراً عِنْدَ المُلُوكِ سَمَوْا ... وَمَا لَهُمْ هِمَّةٌ تَسْمُو وَلاَ وَرَعُ
وَأَنْتَ ذُو هِمَّةٍ فِي الفَضْلِ عَالِيَةٍ ... فَلِمْ ظَمِئْتَ وَهُمْ فِي الجَاهِ قَدْ كَرَعُوا؟
فَقُلْتُ بَاعُوا نُفُوساً وَاشْتَرَوْا ثَمَناً ... وَصُنْتُ نَفْسِي، فَلَمْ أَخْضَعْ كَمَا خَضَعُوا
قَدْ يُكْرَمُ القِرْدُ اعْجَاباً بِخِسَّتِهِ ... وَقَدْ يُهَابُ لِفَرْطِ النَّخْوَةِ السَّبُعُ

وَأَنْشَدَنِي قَالَ : أَنْشَدَنِي مِنْ شِعْرِهِ :

إنْ قِيلَ: مَنْ فَحْلُ الرِّجَالِ؟ فَقُلْتُ: فِي ... مُسْتَحْكَـمِ الأَقْـوَالِ وَالآرَاءِ
ذَرِبٌ بِتَقْلِيبِ القُلُوبِ مُجَـاذِبٌ ... لِلنَّافِـرَاتِ بِأَلْطَـفِ اسْتِهْـوَاءِ

وَأَنْشَدَنِي أَبُو الفَتْحِ يُونُسُ بْنُ أَبِي الْغَنَائِمِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ البَغْدَادِيُّ[78]، قَالَ :

---

(76) هو ممن ترجم لهم المؤلف ابن الشعّار في قلائد الجمان (6 : 434).

(77) له معجم في الرجال ينقل عنه الصفدي في الوافي بالوفيات.

(78) هو أيضا ممن ترجم لهم ابن الشعار في قلائد الجمان (10 : 569).

أَنْشَدَنِي عَبْدُ المُنْعِمِ بْنُ عُمَرَ الجِلْيَانِيُّ لِنَفْسِهِ بِحَلَبَ :

وَصَفْرَاءَ، لَوْلاَ نَفْحُهَا وَمَذَاقُهَا ... لَقُلْتُ نُضَارٌ فِي الأَبَارِيقِ ذَائِبُ
مِنَ المَاءِ فِيهَا لِلْحَبَابِ عَمَائِمٌ ... وَلِلنُّورِ مِنْهَا فِي الأَكُفِّ ذَوَائِبُ

وَقَالَ أَيْضاً :

حَاوِلْ مَفَازَكَ قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلاَ ... فَالحَالُ آخِرُهَا كَحَالِكَ أَوَّلاَ
إِنَّ المَنِيَّ مِنَ المَنِيَّةِ لَفْظُهُ ... لَيَدُلُّ فِي أَصْلِ البِنَاءِ عَلَى البِلاَ

وَمِنْ شِعْرِهِ يَقُولُ :

وَقَائِلَةٍ: كَيْفَ آسْتَطَعْتَ تُجَلُّداً ... لِضَحْكِ فُلاَنٍ وَافْتِرَاءِ فُلاَنِ
فَقُلْتُ لَهَا: يَا هِنْدُ، لَوْ كُنْتُ نَاظِراً ... إِلَيْهِمْ، مَضَى بَيْنَ القُصُورِ زَمَانِي
جَعَلْتُ بَنِي الدُّنْيَا جَمِيعاً كَوَاحِدٍ ... وَقَدْ حَلَّ مِنْهُ المَوْتُ سَاحَةَ فَانِي
وَمَاذَا عَسَى أَنْ يُفْنِيَ المَوْتُ وَهْوَ فِي ... تَقَاذُفِ أَمْوَاجٍ مِنَ الحَدَثَانِ
فَشَمَّرْتُ ذَيْلِي عَنْهُمُ مُتَخَلِّياً ... وَأَطْلَقْتُ فِيمَا قَدْ عَنَاكِ عِنَانِي
وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِنْ أَعْرَضُوا أَوْ تَعَرَّضُوا ... أَوِ اعْتَرَضُوا مُسْتَهْزِئِينَ بِشَانِي
أَرَى مَدْحَهُمْ سَهْواً، وَذَمَّهُمُ سُدًى ... وَهَلْ ذُو نُهًى يُصْغِي إِلَى الهَذَيَانِ ؟
فَلَوْ حَصَّنُوا الأَوْقَاتَ كَانَ سُلُوكُهُمْ ... لِتَصْحِيحِ فِعْلٍ أَوْ صَفَاءِ جَنَانِ
وَلَوْ شَعَرُوا فِي خَصْلَةٍ بِفَضِيلَةٍ ... لَمَا نَطَقُوا فِي فَضْلَةٍ بِلِسَانِ

وَقَالَ أَيْضاً :

قَالَتْ : رَمَوْكَ بِبُهْتَانٍ، فَقُلْتُ لَهَا : ... يَا هِنْدُ، لَوْ عَقَلُوا لَمْ يَرْتَضُوا الفَنَدَا
مَا العَاقِلُ الحُرُّ مَنْ يَنْسَى مَعَايِبَهُ ... ــ وَقَدْ حَضَرْنَ ــ وَيَغْتَابُ الَّذِي بَعُدَا
قَالَتْ: فَمَا لَكَ لاَ تَنْفِي اعْتِرَاضَهُمُ ... وَتَدْفَعُ الوَهْمَ مِمَّنْ سَاءَ مُعْتَقَدَا
فَقُلْتُ لِي شُغُلٌ عَنْهُمْ، وَلَوْ شُغِلَتْ ... نَفْسِي بِهِمْ صُرِفَتْ عَنْ نَهْجِ مَنْ رَشَدَا
إِنْ كَانَ دِينُهُمُ يَقْضِي لَهُمْ حَسَداً ... فَدِينُنَا يَقْتَضِي أَنْ نَنْفِيَ الحَسَدَا
إِنْ أَدْرَكَ المَرْءُ بِالإِحْسَانِ مَا وُعِدَا ... فَمَا يُبَالِي بِمَنْ رَامَ الأَذَى وَعَدَا
وَلَيْسَ مِنَّا فَتًى لِلْعِرْضِ مُنْتَهِزٌ ... بِسُوءِ سَعْيٍ، وَلاَ مِنَّا فَتًى جَحَدَا
وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا شَأْنٌ وَمُنْبَعَثٌ ... وَغَايَةٌ نُصِبَتْ تَجْرِي لَهَا أَمَدَا

وَقَالَ أَيْضاً :

قَالُوا: تَحُجُّ البَيْتَ ؟ قُلْتُ: يَجُوزُ ... قَالُوا: مَتَى ؟ قُلْتُ: القَضَاءُ عَزِيزُ
لَوْلاَ الرِّيَا مَا حَجَّ أَكْثَرُ مَنْ نَرَى ... مَنْ ذَا بِإِخْلاَصِ الضَّمِيرِ يَفُوزُ
فِي الحَجِّ أَخْطَارٌ غَنِيٌّ رَبُّنَا ... عَنْ فِعْلِهَا وَالشَّرْعُ وَالتَّمْيِيزُ
حُشِرَ اللُّصُوصُ لَهُ كَحَشْرِ حَجِيجِهِ ... فَبِكُلِّ شِبْرٍ قَاطِعٌ مَرْكُوزُ
فِي يَثْرِبٍ جَهْراً، وَفِي أُمِّ القُرَى ... يُسْبَى كَرِيمُ المَالِ وَهْوَ حَرِيزُ
وَعَلَى الطَّوَافِ ... وَالوَرَى ... وَقَفُوا، قِتَالٌ لِلُّصُوصِ حَفِيزُ
حُرَمٌ لَدَى حَرَمٍ .... فَتَصُدُّ عَنْ صَدْرِ الكَعَابِ عَجُوزُ
وَعَزِيزُ وَفْرٍ جَاءَ مَكَّةَ فَانْثَنَى ... وَالعِزُّ عَنْهُ وَالغِنَى مَحْجُوزُ
وَتَشَاغُلٌ وَقْتَ الصَّلاَةِ وَفِتْنَةٌ ... وَتَقَاطُعٌ وَتَدَابُرٌ وَنُشُوزُ
وَلَوْ أَنَّهُ أَمْنٌ وَبِرٌّ خَالِصٌ ... فَبِعِشْرَةِ الجَمَّالِ لَيْسَ يَجُوزُ

وَرَأَيْتُ لَهُ كِتَاباً مُشَجَّراً تَرْجَمَهُ بِمَنَادِحِ المَمَادِحِ وَرَوْضَةِ المَآثِرِ وَالمَفَاخِرِ مِنْ خَصَائِصِ المَلِكِ النَّاصِرِ، يَعْنِي صَلاَحَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ أَيُّوبَ بْنِ شَادِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ يَحْتَوِي عَلَى نَظْمٍ وَنَثْرٍ جَعَلَهُ مُنْطَوِيّاً عَلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَدِيحَةً، وَهُوَ غَرِيبٌ فِي وَضْعِهِ جِدّاً[78م].

حَدَّثَنِي القَاضِي أَبُو القَاسِمِ عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي جَرَادَةَ الحَنَفِيُّ[79] أَيَّدَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، قَالَ : أَخْبَرَنِي الشَّدِيدُ بْنُ عُمَرَ القَفْصِيُّ[80]، قَالَ : كَانَ عَبْدُ المُنْعِمِ الجِلْيَانِيُّ قَلِيلاً مَّا يَمْتَدِحُ النَّاسَ، وَكَانَ يَمْدَحُ المَلِكَ النَّاصِرَ جَالِساً، وَعَمِلَ لَهُ كِتَاباً فِي مَدَائِحِهِ مُشَجَّراً، وَكَانَ السَّبَبُ الَّذِي دَعَاهُ إِلَى عَمَلِهِ أَنَّهُ لَزِمَهُ دَيْنٌ مِقْدَارُهُ ثَلاَثُ مِئَةِ دِينَارٍ، وَعَمِلَ فِي هَذَا الكِتَابِ مُشَجَّرَاتٍ فِي مَدْحِهِ، وَحَمَلَهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى قِرَاءَتِهِ، فَطَلَبَ عَبْد المُنْعِمِ لِيَحُلَّ المُشَجَّرَاتِ، وَكَانَ

(78م) توجد منه نسخ خطية في مكتبات غربية وعربية.

(79) ترجمته في معجم الأدباء : 2085 وفيات الوفيات 2 : 200 وقلائد العقيان 5 : 203، وهو مؤلف بغية الطلب في تاريخ حلب.

(80) له ترجمة عند المؤلف ابن الشعار (5 : 425).

بِحَضْرَتِهِ إِنْسَانٌ يَقْصِدُهُ، فَلَمْ يَسَعْهُ عِنْدَ طَلَبِهِ إِلاَّ إِحْضَارَهُ، فَلَمَّا حَضَرَ حَلَّ لَهُ الْمُشَجَّرَاتِ، فَاسْتَحْسَنَهَا، وَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَالَ : عَلَيَّ دَيْنٌ أُطْلُبُ قَضَاءَهُ، فَتَقَدَّمَ إِلَى الدِّيوَانِ أَنْ يَقْتَبِلُوا بِدَيْنِه، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَقْصِدُهُ : هَذَا عَلَيْهِ ثَلاَثُ مِئَةِ دِينَارٍ، فَأَمَرَ الدِّيوَانَ أَنْ يقْبَلُوا ثَلاَثَ مِئَةِ دِينَارٍ، وَيُطْلَقَ لَهُ ثَلاَثَ مِئَةِ دِينَارٍ أُخْرَى، فَأَرَادَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْ يَضُرَّهُ فَنَفَعَهُ.

وَقَالَ ٱلْقَاضِي : وَسَأَلْتُ الشَّدِيدَ عُمَرَ عَنْ حَالِهِ، فَوَصَفَهُ بِالفَضْلِ وَالعِلْمِ. قَالَ لِي : كَانَ يَمِيلُ إِلَى الحِكْمَةِ. وَكَانَ كَاتِباً فِي بِلاَدِ المَغْرِبِ لِلْوَزِيرِ عُمَرَ[81] فَوَجَدَ عَلَيْهِ، فَضَرَبَهُ ثَمَانِينَ سَوْطاً، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ خُرُوجِهِ إِلَى هَذِهِ ٱلْبِلاَدِ.

وَحَدَّثَنِي القَاضِي أَبُو القَاسِمِ[82]، قَالَ : حُدِّثْتُ عَنْ عَبْدِ المُنْعِمِ أَنَّهُ كَانَ فِي مَجْلِسِ المَلِكِ النَّاصِرِ صَلاَحِ الدِّينِ، فَقَالَ لَهُ القَاضِي الفَاضِلُ لِيَغُضَّ مِنْ قَدْرِهِ بِنِسْبَتِهِ إِيَّاهُ إِلَى قَرْيَتِهِ : كَمْ بَيْنَ جِلْيَانَةَ وَالمَرِيَّةَ ؟ فَقَالَ مُجِيباً لَهُ فِي ٱلْحَالِ : مِثْلُ مَا بَيْنَ بَيْسَانَ وَبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ بَرَكَاتِ بْنِ شَحَاتَةَ[83] : سَمِعْتُ الأَمِيرَ أَبَا ٱلْحَسَنِ عَلِيَّ ابْنَ إِيدَاشَ يَقُولُ : سَمِعْتُ عَبْدَ المُنْعِمِ الجِلْيَانِيَّ يَقُولُ : لَبِسْتُ البلاَس[84]، فَعَاتَبَنِي بَعْضُ أَهْلِي عَلَى ذَلِكَ، فَقُلْتُ :

وَقَائِلَةٍ لِمْ لَبِسْتَ الْبِلاَسَا ... وَلَمْ تَرَهُ قَبْلَ هَذَا لِبَاسَا
فَقُلْتُ لَهَا : لَوْ رَأَيْتِ الَّذِي ... رَأَيْتُ لَخَالَفْتِ هَذَا القِيَاسَا
فَلِي بِالرِّيَاضِ وَعِنْدَ الحِمَى ... حَبِيبٌ حَمَى مُقْلَتَيَّ النُّعَاسَا
أَخَافُ إِذَا مَا رَآى لِبْسَتِي ... سِوَى جُبَّةٍ أَنْ يَرَاهَا الْتِبَاسَا
وَيَحْسِبُنِي نَاسِياً عَهْدَهُ ... وَبِئْسَ الحَبِيبُ حَبِيبٌ تَنَاسَى

(81) لا نستطيع تعيين هذا الوزير، ولعله أحد السادة من الموحدين الذين كانوا يحكمون الأندلس، وفيهم أكثر من واحد يتسمى بعمر ويكنى بأبي حفص.

(82) هو ابن أبي جرادة المتقدم الذكر.

(83) له ترجمة عند المؤلّف ابن الشعّار (3 : 490).

(84) في شفاء الغليل : بلاس : المسوح تلبس.

قَالَ أَبُو الحَسَنِ القَطِيعِيُّ[85] : أَنْشَدَنَا عَبْدُ المُنْعِمِ لِنَفْسِهِ فِي الشَّوْقِ :

عَيَّرونِـي بِأَنَّنِـي مُسْتَهَـامُ ... وَلِمِثْلِـي يَلَـذُّ فِـيكَ الهُيَـامُ
شَوَّقُونِـي إِلَـيْكَ ثُـمَّ تَوَلَّـوْا ... عَجَباً ! كَيْفَ أَيْقَظُونِي وَنَامُوا ؟!
وَنَدِيـمٍ سَقَانِـيَ السِّرَّ صِرْفـاً ... فَسَكِرْنَـا، وَلَـيْسَ ثَـمَّ مُـدَامُ
حَثَّ كَأْساً مِمَّا هُنَاكَ دِهَاقـاً ... فَاسْتَطَـارَتْ لِدَوْرِهَـا الأَحْـلاَمُ
أَيْنَ أَهْلُ الأَذْوَاقِ ؟ قُومُوا فَشُقُّوا ... كُلَّ جَيْبٍ الآنَ طَابَ المُقَـامُ
نَسَمَتْ مِـنْ حَبِيبِنَـا نَفَحَـاتٌ ... فَعَلَـى العَـيْشِ بَعْدَهُـنَّ السَّلاَمُ

(4 : 127–139)

15 ــ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ

ابْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ ــ كَذَا ــ المَعْرُوفُ بِابْنِ حَرِيقٍ الكَاتِبُ أَبُو الحَسَنِ البَلَنْسِيُّ[86]، شَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَأَدِيبٌ مُحَقِّقٌ، قَيِّمٌ بِالشِّعْرِ وَٱلأَدَبِ، عَارِفٌ بِٱللُّغَةِ وَأَيَّامِ العَرَبِ، عَالِمٌ بِتَفْسِيرِ القُرْآنِ وَالْقِرَاءَةِ، حَافِظٌ لِجُمْلَةٍ وَافِرَةٍ مِنَ ٱلأَخْبَارِ وَٱلْحِكَايَاتِ. وَلَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ أَجْوَدَ مِنْهُ شِعْراً، وَلاَ أَحْسَنَ نَظْماً وَنَثْراً. مَدَحَ مُلُوكَ الأَنْدَلُسِ[87]، وَأَخَذَ صِلاَتِهِمْ، وَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ، وَتَوَلَّى التَّصَرُّفَ فِي ٱلأَعْمَالِ الدِّيوَانِيَّةِ مَعَ كِتَابَةِ الإِنْشَاءِ لِبَنِي عَبْدِ المُؤْمِنِ المُسْتَوْلِينَ عَلَى الدِّيَارِ ٱلأَنْدَلُسِيَّةِ.

أَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الشَّاطِبِيُّ الأَنْصَارِيُّ[88]، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنِ حَرِيقٍ لِنَفْسِهِ فِي غُلاَمٍ أَعْوَرَ

---

(85) هو محمد بن أحمد بن عمر المتوفى سنة 634هـ له ذيل على تاريخ ابن السمعاني، ترجمته في الوافي بالوفيات 2 : 130 ولسان الميزان 5 : 46.

(86) ترجمة ابن حريق مع الإشارة إلى بعض مصادر ترجمته في الذيل والتكملة 5 : 275–277.

(87) المقصود بهم بنو عبد المومن بن علي.

(88) لم أقف على ترجمة له.

وَأَحْسَنَ فِيمَا قَالَ، وَأَبْدَعَ فِي المَعْنَى :

لَمْ يَعِبْكَ الَّذِي بِعَيْنِكَ عِنْـدِي ... أَنْتَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُعَابَ وَأَسْنَى
لَطَفَ آللَّهُ رَدَّ سَهْمَيْنِ سَهْمـاً ... رَأْفَـةً بِالعِبَـادِ وَازْدَدْتَ حُسْنَـا

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ يَهْجُو كَاتِباً :

وَكَــاتِبٍ أَلْفَاظُـــهُ وَكُتْبُـــهُ ... بَغِيضَةٌ إِنْ خَـطَّ أَوْ تَكَلَّمَـا
تَـرَى أُنَـاساً يَتَمَنَّـوْنَ العَمَــى ... وآخَرِيـنَ يَحْمَـدُونَ الصَّمَمَـا(88م)

وَأَنْشَدَنِي أَبُو آلْقَاسِمِ مُحَمَّد بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّاطِبِيُّ(89)، قَالَ : قَرَأْتُ عَلَى أَبِي الحَسَنِ ابْنِ حَرِيقٍ مِنْ شِعْرِهِ قَوْلَهُ :

يَا وَيْحَ مَنْ بِالْمَغْرِبِ الأَقْصَى ثَوَى ... حَذَرَ آلْعِدَى وَحَبِيبُـهُ بِالـمَشْرِقِ
لَوْلاَ الحِذَارُ عَلَى الوَرَى لَمَلأْتُ مَا ... بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِـنْ زَفِيـرٍ مُحْـرِقِ
وَسَكَبْتُ دَمْعِي ثُمَّ قُلْتُ لِسَكْبِهِ ... مَنْ لَمْ يَذُبْ مِنْ زَفْرَتِي فَلْيَغْرَقِ
لَكِنْ خَشِيتُ عِقَابَ رَبِّي إِنْ أَنَا ... أَحْرَقْتُ أَوْ أَغْرَقْتُ مَنْ لَمْ أَخْلُقِ

وَأَنْشَدَنِي قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَنِ ابْنُ حَرِيقٍ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ إِلَى مُتَنَزَّهٍ لَهُ مَعَ مَنْ يُحِبُّهُ إِلَى خَارِجٍ، فَجَاءَ السَّيْلُ، وَمَنَعَ مَحْبُوبَهُ مِنَ العَوْدِ إِلَى البَلَدِ فَبَاتَا جَمِيعاً :

يَــا لَيْلَــةً جَــادَتِ الأَمَانِـــي ... فِيهَا عَلَى رَغْمِ أَنْفِ دَهْـرِي
بِسَيْــلٍ فِيهَــا عَلَــيَّ نُعْمَـــى ... يَقْصُرُ عَنْهَـا طَوِيـلُ شُكْـرِي
إِذْ بَـاتَ فِـي مَنْزِلِـي حَبِيبِـــي ... وَقَـامَ لِــي أَهْلُـهُ بِعُـذْرِي(90)

وَأَنْشَدَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ آللَّهِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ البَيَّاسِيُّ(90م) بِمَحْرُوسَةِ حَلَبَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلاَثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ ابْنُ حَرِيقٍ

(88م) هذا من قول المتنبي : قَدْ أُفْسِدَ القَوْلُ حتّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ.

(89) هو المعروف بابن سُراقة، وستأتي ترجمته للمؤلف ضمن هذا المجموع (ص 123)، وقد ذكره ابن عبد الملك في عداد الآخذين عن ابن حريق، راجع الذيل والتكملة 5 : 275.

(90) هذه الأبيات والتي قبلها موجودة في نفح الطيب 3 : 410-464.

(90م) لعله من الذين أخرجوا من بياسة وتفرقوا في الأرض بعد غلبة الروم عليها.

البَلَنْسِيُّ لِنَفسِهِ بِبَيَّاسَةَ(91)، وَكَانَ مُشْرِفَهَا(91م) :

يَا صَاحِبَيَّ ــ وَمَا البَخِيلُ بِصَاحِبِي ــ هَذِي الدِّيَارُ، فَأَيْنَ تِلْكَ الأَدْمُعُ
أَنَمُرُّ بِالعَرَصَاتِ لاَ نَبْكِي بِهَا وَهْيَ المَنَازِلُ مِنْهُمُ وَالأَرْبُعُ ؟!
هَيْهَاتَ لاَ رِيحُ الصَّبَابَةِ بَعْدَهُمْ رَهْوٌ، وَلاَ طَيْرُ التَّشَوُّقِ وُقَّعُ
حَلَفُوا عَلَى قَلْبِي بِسِحْرِ جُفُونِهِمْ لاَزَالَ يَنْزِفُهُ الهَوَى وَيُصَدَّعُ
وَأَبَى الهَوَى إِلاَّ الحُلُولَ بِلَعْلَعٍ وَيْحَ المَطَايَا أَيْنَ مِنْهَا لَعْلَعُ ؟
لَمْ أَدْرِ أَيْنَ نَوَوْا ؟ فَلَمْ أَسْأَلْ لَهُمْ رِيحاً تَهُبُّ، وَلاَ بَرِيقاً يَلْمَعُ
وَكَأَنَّهُمْ فِي كُلِّ مَدْرَجِ نَاسِمٍ فَعَلَيْهِ مِنْهُمْ رِقَّةٌ وَتَضَوُّعُ
وَإِذَا مَنَحْتَهُمُ السَّلاَمَ تَبَادَرَتْ تَبْلِيغَهُ عَنِّي الرِّيَاحُ الأَرْبَعُ
(4 : 367-370)

16 ــ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ

ابْن وَرْياشِ بْنِ المُبَارَكِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ مُوسَى بْنِ يَزْكُوكَ أَبُو الحَسَنِ الوَهْرَانِيُّ الأَنْصَارِيُّ(91م)، نَزِيلُ دِمَشْقَ، الخَطِيبُ الصَّالِحُ الفَاضِلُ. كَانَتْ وِلاَدَتُهُ بِوِهْرَانَ فِي رَجَبٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلاَثِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، وَتُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ سَادِسِ عَشَرَ ذِي القِعْدَةِ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِئَةٍ بِدَارِيَا مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ، كَانَ

(91) بياسة BAEZA من المدن الأندلسية المعروفة، ينسب إليها عدد من الأعلام، والمشرف هو متولّي خطة الإشراف وكان يشرف على الجبايات والمداخيل (راجع في بياسة المغرب ومعجم البلدان والروض المعطار وانظر في المشرف وخطة الإشراف قاموس دوزي). ويبدو أن ابن حريق كان يتولّى الخطة المذكورة مع السيد أبي عمران موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المومن (انظر الذيل والتكملة 5 : 276 والإحاطة 3 : 275-276 والمعجم : 293-356).

(91م) له ترجمة في بغية الوعاة 2 : 172 وقد نقلها السيوطي عن الذهبي، ويبدو من تاريخ ولادته أنه كان من الأطفال الذين نجوا من محنة أهل وهران عند حصار مدينتهم وفتحها من طرف الموحدين. (البيان المغرب : 22) وكان من الذين نجوا وهاجروا إلى المشرق أيضاً أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني الأديب صاحب المقامات والرسائل الهزلية المنشورة.

خَطِيبَهَا، وَكَانَ قَدْ أَعْطَاهُ ٱللَّهُ العِلْمَ الوَافِرَ، والعَمَلَ الصَّالِحَ، لَهُ تَصْنِيفٌ وَأَشْعَارٌ كَانَ يَقُولُهَا، وَفَضْلُهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَبْنَاءِ زَمَانِهِ، وَكَانَ تَقِيّاً فِي نَفْسِهِ ذَا وَرَعٍ وَخَيْرٍ، سَدِيدَ الطَّرِيقَةِ، جَمِيلَ الأَمْرِ، خَرَجَ عَنْ بِلاَدِ المَغْرِبِ، وَنَزَلَ الشَّامَ، وَتَوَلَّى خَطَابَةَ دَارِيَا[92]، وَأَوْطَنَهَا إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ بِهَا. وَصَنَّفَ تَفْسِيراً لِكِتَابِ ٱللَّهِ تَعَالَى أَجَادَ فِي تَصْنِيفِهِ وَأَحْسَنَ. أَنْشَدَنِي نَجِيبُ الدِّينِ أَبُو الفَتْحِ نَصْرُ ٱللَّهِ ابْنُ أَبِي العِزِّ ابْنِ أَبِي طَالِبِ الصَّفَّار الشَّيْبَانِيُّ الدِّمَشْقِيُّ[92م] بِهَا فِي أَوَائِلِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ الجَلِيلُ الصَّالِحُ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ ابْنِ وَرْيَاش بْنِ المُبَارَكِ الوَهْرَانِيُّ لِنَفْسِهِ فِي الوَحْدَةِ :

أَصْبَحْتُ ـ وَالحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ ـ مُنْفَرِداً   عَنْ كُلِّ وَغْدٍ مِنَ الأَقْوَامِ شَتَّامِ
مَا لِي أَنِيسٌ سِوَى أَنِّي ٱمْرُؤٌ عَكَفَتْ   نَفْسِي عَلَى الكُتْبِ أَيَّامِي وَأَعْوَامِي
أُومِي إِلَيْهَا بِطَرْفِي، وَهِيَ تُخْبِرُنِي   عَمَّنْ تَقَدَّمُ مِنْ سَامٍ وَمِنْ حَامِ[93]

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

أَمَا فِي ذَا الزَّمَانِ أَخٌ شَفِيقُ   كَثِيرٌ فَضْلُهُ غَمْرٌ طَلِيقُ
يَرُدُّ بِفَضْلِهِ الأَزَمَاتِ عَنِّي   إِذَا طَرَقَتْ وَيَتَّسِعُ ٱلْمَضِيقُ
فَقَدْ كَثُرَتْ حَوَادِثُهُنَّ عِنْدِي   وَلاَسِيَّمَا إِذَا فَرَغَ الدَّقِيقُ
تَهُدُّ بِخَطْبِهَا الشُّمَّ الرَّوَاسِي   فَكَيْفَ يُطِيقُهَا الشَّخْصُ الدَّقِيقُ

وَأَنْشَدَنِي قَالَ أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِي ٱلْحَرِّ :

وَيَوْمٍ تَمَجُّ الشَّمْسُ فِيهِ لُعَابَهَا   يَكَادُ الْحَصَا مِنْ حَرِّهِ يَتَفَلَّقُ
يُنَضِّجُ أَفْرَاخ الْقَطا جَوْف بَيْضِهَا   وَيَتَّرِك ٱلزُّبْدَ النَّقَانِقَ تَفْهَقُ
فَلَوْ حُطَّ شِلْوٌ فَوْقَ أَمْعَزَ شاهِقٍ   لَعَادَ حَنِيذاً لَحْمُهُ يَتَمَزَّقُ

---

(92) ولي الخطابة بداريا قبله الوهراني المذكور آنفاً فهل يكون المترجم هنا هو الذي خلف بلديه، وداريا قرية على باب دمشق في الغوطة.

(92م) له ترجمة في قلائد الجمان لابن الشعّار 9 : 86.

(93) من أقدم ما قيل في صحبة الكتب أبيات ابن الأعرابي التي أولها :

لنا جلساء ما نمَلّ حديثهم   ألباءُ مامونون غيباً ومشهدا

وَأَنْشَدَنِي قَالَ أَنْشَدَنِي لِنَفسِهِ في حالِهِ بِدِمَشْق :

عَلَيَّ ثِيَابٌ بَالِيَاتٌ لَوْ أَنَّهَا ... تُقَوَّمُ لَمْ تَبْلُغْ بِقيمَتِهَا فَلْسَيْن
وَإِنِّي أَرَانِي عِزَّةً وَجَلاَلَةً ... إِذَا سِرْتُ فِيهَا أَسْحَبُ ٱلذَّيْلَ ذَا الْقَرْنَيْن
وَمَا ذَاكَ إِلاَّ الْعِلْمُ يَسْمو بِرَبِّهِ ... فَيَسْتَصْغِرُ الدُّنْيا وَمَا جَمَعَتْ مِنْ عَيْن
وَيُبْصِرُ مَا فِيهَا مِنَ المَالِ والْعُلَى ... مَعَ الْبُؤْسِ وَالْفَقْرِ الْمُلِمِّ بِهَا سَبَبَيْن

وَأَنْشَدَنِي قَالَ أَنْشَدَنِي لِنَفسِهِ فِي ٱلشَّمْعَةِ :

وَرَاهِبٍ بَاتَ طولَ اللّيلِ مُنْتَصِباً ... يَبْكِي وَفِي رَأْسِهِ طُرْطُورٌ مِنْ ذَهَبِهْ
يَشْكو إِلَى ٱللَّهِ إِحْرَاقَ الْجَحِيمِ لَهُ ... يَافُوخَهُ واحْتِكَامَ الْبَرْدِ فِي ذَنَبِهْ

وَأَنْشَدَنِي قَالَ أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ في البَرْغَش(93م) :

لِلَّهِ لَيْلَتُنَا مَا كَانَ أَطْوَلَهَا ... ظَلِلْتُ أَفْحَصُ والبَرغوثُ يَرْتَقِصُ
وَبَاتَ يَزْمُرُ طُولَ اللَّيْلِ بَرْغَشُهَا ... وَبِتُّ أَلْطِمُ وَجْهِي وهُو يَمَّلِصُ

وَأَنْشَدَنِي قَالَ أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ في الغُرْبَة :

هَبَّتْ لَهُ مِنْ ثَنِيّاتِ الْعُيُونِ صبا ... فَحَنّ وَجْداً لأَيَّامِ الصِّبا وَصَبَا
وَذابَ مِنْ ذكْرِ وهْرانٍ وَمَنْزِلَةٍ ... قَدْ شَبّ فِيها قديماً عَظْمُه وَحَبَا
لِلّهِ أَيّامُنا والشَّمْلُ مُلْتَئِمٌ ... بسَاحَتَيْهِ وَدَهْرٌ بالسُّرورِ حَبَا
إِذْ أَسْحَبُ الذّيْلَ مِنْ غَارِ الْحَمامِ إِلى ... طَوْدِ الشَّرائِعِ أَسْعَى وَالْهَوَا خَبَبَا(94)
لاَ أَعْرِف الْهَمَّ أَنّى سَارَ مُتّجِهاً ... وَلاَ أُوَافِقُ دَاعِي الغَمّ إِنْ وَثَبا
فَشَتّتَ الدّهْرُ شَمْلِي مِن مَعَالِمِهَا ... كَصَاحِبِ السّدِّ إِذْ يَبْغي بِهِ سَبَبَا(95)
وَبُدِّلَتْ عِيشَتِي بَعْدَ النَّعِيمِ بِهَا ... كَمَا تَبَدَّلَ جَنَّاتٌ بِأَرْضِ سَبَا
وَقَدْ تَرَدّيْتُ ثَوْبَ الذُّلِّ بَعْدَهُمُ ... وَبَعْدَ عِزٍّ وَثَوْبُ الذُّلِّ لِلْغُرَبَا
إِذَا رَأَيْتُ غَرِيباً سَحَّ أَدْمُعَهُ ... وَافَقْتُهُ فِي الْبُكَا إِذْ كُلُّنَا نُسَبا(95م)

(93م) البرغش : البعوض اللسّاع.

(94) غار الحمام وطود الشرائع موضعان بوهران.

(95) السد هو سد مأرب.

(95م) هذا من قول الآخر : وكل غريب للغريب نسيب.

وَمَا تـوادَعَ قَـوْمٌ يَـوْمَ بَيْنِهِـمُ إلاّ تَوَقّدَ قَلْبِـي وَالْـحَشَا لَهَبَـا
أُعَارِضُ الرَّكْبَ عَلِّي أَنْ أَرَى رَجُلاً مِنْ آلِ وهْران أو أَلْقَي بِهِ كُتُبا
لاَ تَيْأَسَنّ فَإِنّ الدَّهْرَ ذُو عَجَبٍ وَرُبَّمَا أُعْتَبَ الدّهْرِ الَّذي عَتَبَـا
قَدْ فَازَ يَعْقُوبُ فِي الدُّنْيَا بِبُغْيَتِهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَاشَ في أَحْزَانِهِ حِقَبا[96]
(4 : 370-374)

17 ــ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ فَشْتَالٍ

أَبُو الحَسَنِ[97] الكَاتِبُ الفَاضِلُ الأَدِيبُ. أَخْبَرَنِي شَيْخُ الشُّيُوخِ[98]، قَالَ : أَظُنُّهُ مِنْ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ، رَأَيْتُهُ بِمُرَّاكُشَ، وَكَانَ مُتَعَطِّلاً عَنِ ٱلْعَمَلِ، حَالِياً بِفَضَائِلِهِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلْعَطَلِ، وَلَهُ رَسَائِلُ حَسَنَةٌ، وَأَلْفَاظٌ بَدِيعَةٌ مُعْتَبَرَةٌ. وَكَانَ يَمِيلُ فِي رَسَائِلِهِ وَشِعْرِهِ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ، وَحَصَّلَ مِنْ عِنْدِي كَثِيراً مِنْ تَرَسُّلِ القَاضِي الفَاضِلِ وَالعِمَادِ الكَاتِبِ وَغَيْرِهِمَا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وَكَتَبَ إِلَيَّ بِإِحْسَانٍ تَجدد لِي مِنَ السَّيِّدِ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ ابْنِ عَبْدِ المُؤْمِنِ، وَهُوَ تَمْلِيكُ بُسْتَانٍ بِنَاحِيَةِ أَغْمَاتَ، وَتَقَدَّمَ إِلَيَّ بِقَضَاءِ حَوَائِجِ الغُرَبَاءِ وَٱلْقُعُودِ عِنْدَهُ.

رَأَيْتُ بِعَيْنِي اليَوْمَ فِي صُحُفِ المُنَى لِمَجْدِكَ مَا تُعْطَى مِنَ الحَظِّ فِي غَدِ
فَصِرْتُ أُمَنِّي النَّفْسَ تَجْدِيدَ مَا عَفَا مِنَ العِزِّ لِي فِي عِزِّكَ المُتَجَدِّدِ
(4 : 380)

---

(96) يشير إلى قصة يعقوب مع ولده يوسف.

(97) انفرد ابن الشعار بتدوين ترجمة هذا الكتاب نقلا عن ابن حمويه، وقد نقل المقري عنه أيضا خبراً قد يستفاد منه أنه كان كاتبا عند السيد أبي الحسن علي بن عمر بن عبد المومن والي بجاية وتلمسان (نفح الطيب 3 : 109).

(98) هو ابن حَمّويه، وقد تقدم ذكره.

18 ــ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

ابْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ أَبُو الحَسَنِ المُرَّاكُشِيُّ(99)، مُتَفَقِّهٌ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، نَزِيلُ بَغْدَادَ، أَنْشَدَنِي وَجِيهُ الدِّينِ الأَسْكَنْدَرِي(100)، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَنِ لِنَفْسِهِ : يُعْرَفُ بِالكُرْدِيِّ وَالغَرْبِي أَيْضاً :

خَلَعْتُ عِذَارِي فِي ٱلْحَبِيبِ تَظَرُّفاً ... عَلَى أَنَّنِي مِنْ أَخْلَعِ النَّاسِ فِي الخلع
وَمَا [هو] فِي التَّحْقِيقِ مِنِّي تَطَبُّعاً ... بَلَى هُوَ فِي أَصْلِ الخَلِيقَةِ بِالطَّبْعِ
فَمَنْ رَامَ مِنْ قَلْبِي سُلُوّاً فَإِنَّمَا ... يُكَلِّفُنِي بِالجَهْلِ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِي
يَقُولُونَ : لاَ تَهْوَاهُ، هَلاَّ سَلَوْتَهُ ... وَهَذَا إِذَا حَقَّقْتَهُ فَاسِدُ الوَضْعِ
وَهَلْ شَاهَدَتْ عَيْنَايَ إِلاَّ جَمَالَهُ ... دَنَا أَوْ نَأَى فِي حَالَةِ الفَرْقِ وَالجَمْعِ
فَمَحْبُوبُ قَلْبِي مَا تَعَلَّلْتُ بِاسْمِهِ ... وَلاَ وَقْعَ لِلْعُذَّالِ فِي القَلْبِ وَالسَّمْعِ
فَلَسْتُ مُطِيعَ العَذْلِ [فِيهِ وَمَرْحَبا] ... بِقَتْلِي أَمَامَ العَذْلِ بِالسَّيْفِ وَالنَّطْعِ
فَإِنْ قِيلَ مَجْنُونٌ، وَقِيلَ مُمَـوِّهٌ ... وَأُكْثِرَتِ الأَقْوَالُ بِالظَّنِّ وَالقَطْعِ
فَعِرْضِيَ مَبْـذُولٌ وَمَالِـي مُبَــذَّرٌ ... وَقَتْلِي وَخَتْلِي مُسْتَبَاحَانِ فِي شَرْعِ

(4 : 380–381)

19 ــ عَلِيُّ بْنُ خُمَيْرٍ أَبُو الحَسَنِ السَّبْتِيُّ(101)

كَانَ فَقِيهاً مَالِكِيّاً شَاعِراً مُفْلِقاً أُصُولِيّاً عَالِماً أَدِيباً لُغَوِيّاً تُوُفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِئَةٍ، أَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ

---

(99) لم أقف عليه في مصدرٍ آخر.

(100) لم أقف عليه.

(101) راجع دراستنا حول هذا العالم المؤلّف السبتي في مجلة دار الحديث الحسنية (العدد العاشر 1992).

ٱلْوَاحِدِ الأَوْسِيُّ السَّبْتِيُّ[102] بِحَلَبَ المَحْرُوسَةِ، قَالَ : أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ خُمَيْرٍ لِنَفْسِهِ :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَبْكِي فَقِيداً مِنَ ٱلْوَرَى ... فَتَنْدُبُـهُ بَعْـدَ النَّبِـيِّ المُكَـرَّمِ
فَحَامِلُ عِلْـمٍ عَالِـمٌ مُتَـوَرِّعٌ ... حَرِيصٌ عَلَى التَّحْرِيضِ لِلْمُتَعَلِّمِ
وَحَاكِمُ عَـدْلٍ بِالشَّرِيعَةِ قَائِـمٌ ... يَقُولُ بِحُكْمِ اللَّهِ لاَ بِالتَّحَكُّمِ
وَصَاحِبُ مَـالٍ فَـاضِلٌ مُتَـفَضِّلٌ ... يَجُودُ بِهِ حَقّاً عَلَى كُلِّ مُعْدِمِ
وَسَاهِـرُ لَيْـلٍ شَافِـعٌ مُتَشَفِّـعٌ ... بِكُـلِّ نَـؤُومٍ شَابِـعٍ مُتَـبَشِّمِ
وَصَاحِبُ سَيْفٍ لِلْعَـدُوِّ مُرَابِـطٌ ... يُسَدُّ بِهِ فِي كُلِّ ثَغْرٍ مُثَلَّـمِ
هُمُ خَمْسَةٌ يُبْكَوْنَ حَقّاً وَغَيْرُهُمْ ... إِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

(4 : 387-388)

20 ـ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ أَبُو الحَسَنِ

الإِشْبِيلِيُّ المَعْرُوفُ بِالقُسْطَارِ[103]، مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ وَالقُرْآنِ، وَلَهُ نَظْمٌ، أَقَامَ بِدِمَشْقَ مُدَّةً يَسْمَعُ الحَدِيثُ عَلَى مَشَايِخِهَا. أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ القُرْطُبِيُّ[104] الدِّمَشْقِيُّ بِهَا سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَسِتٌّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي القُسْطَارُ لِنَفْسِهِ :

سَقَانِي، وَلَمْ يَشْرَبْ، وَذَاكَ تَأَدُّباً ... وَأَقْسَمَ أَنِّي قَبْلَهُ سَوْفَ أَشْرَبُ
فَمَا اسْطَعْتُ الاّ أَنْ أَبَرَّ يَمِينَهُ ... وَكُنْتُ لَعَمْرُ ٱللَّهِ فِي السُّؤْرِ أَرْغَبُ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ شَوْقِهِ لِلأَهْلِ كَيْفَ هُوَ :

يَا سَائِلِي، كَيْفَ شَوْقِي الأَهْلَ وَالوَطَنَا ... هَيَّجْتَ ـ وَاللَّهِ ـ لِي مَا كَانَ قَدْ سَكَنَا
كَيْفَ اشْتِيَاقُ غَرِيبِ الدَّارِ مُنْقَطِعٍ ... عِشْرِينَ عَاماً يُقَاسِي غُرْبَةً وَضَنَا
شَوْقِي إِلَيْهِمْ شَدِيدٌ لاَ انْفِصَامَ لَهُ ... وَالقَلْبُ ذُو حُرَقٍ مُذْ فَارَقَ السَّكَنَا

(102) انظر الوافي بالوفيات 3 : 369.
(103) له ترجمة في التكملة رقم 1906 والذيل والتكملة 5 : 175.
(104) لم أقف عليه.

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ، وَكَانَ يَوْماً عِنْدَ شَيْخِهِ خزْعَل بْنِ عَسْكَرٍ النَّحْوِيِّ[105]، وَسَأَلَهُ أَبُو مُوسَى عِيسَى بْنُ سُلَيْمَانَ الرُّعَيْنِيُّ[106] أَنْ يُجِيزَهُ، فَوَعَدَهُ الشَّيْخُ بِذَلِكَ فَقَالَ :

جَرَتِ العَوَائِدُ إِذْ يُجَازُ مُحَدِّثٌ فَحُضُورُ آخَرَ لَمْ يُجَزْ يَتَعَيَّنُ
وَعَوَائِدُ المَوْلَى التَّقِيِّ بِفَضْلِهِ جَبْرُ القُلُوبِ، وَجَبْرُ قَلْبِي هَيِّنُ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ، وَقَدْ ذَهَبَ بِابْنِهِ كَرْهاً إِلَى جَدَّتِهِ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : دَعْنِي عِنْدَكَ اليَوْمَ وَغَداً ٱبْعَثْنِي إِلَيْهِمْ فَقَالَ :

لَهْفِي عَلَى الوَلَدِ العَزِيزِ، وَقَدْ غَدَا كَرْهاً يُفَارِقُنِي إِلَى بَيْتِ العِدَى
وَيَقُولُ: يَا مَوْلاَيَ تُسْلِمُنِي إِلَى مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُنِي، وَيُورِدُنِي الرَّدَى
مَوْلاَيَ دَعْنِي عِنْدَكُمْ مُتَنَعِّماً يَوْمِي، وَيَنْتَقِمُونَ مِنِّي هُمْ غَدَا
مَوْلاَيَ كَيْفَ تُسَرُّ، وَٱبْنُكَ مُوثَقٌ فِي أَسْرِ بَاغِيهِ عَلَيْهِ تَمَرُّدَا
فَأَجَبْتُهُ ــ وَالدَّمْعُ مُنْهَلٌّ عَلَى خَدٍّ نَحِيلٍ أَصْفَرٍ: نَفْسِي الفِدَا
نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ أَذًى جُرِّعْتَهُ طِفْلاً، فَسَاعَدَكَ الإِلَهُ وَأَسْعَدَا

(4 : 390–392)

21 ــ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدِ بْنِ حَمَامَةَ

أَبُو الحَسَنِ الصِّنْهَاجِيُّ التِّلْكَاتِي[107] مِنْ أَهْلِ المَغْرِب، كَانَ شَيْخاً فِيهِ فَضْلٌ وَأَدَبٌ، وَلَهُ مَعْرِفَةٌ بِعِلْمِ العَرُوضِ وَالقَوَافِي، وَعِنَايَةٌ بِتَأْلِيفِ الأَشْعَارِ وَجَمْعِهَا وَتَرْتِيبِهَا، وَيُلْزِمُ نَفْسَهُ ذَلِكَ، نَزَلَ حَمَاةَ، وَانْقَطَعَ إِلَى سُلْطَانِهَا المَلِكِ المُظَفَّرِ تَقِيِّ

---

(105) ترجمة خزعل في الوافي 13 : 309 مع الإشارة إلى مصادر أخرى في الحاشية، ويضاف إليها بغية الطلب 7 : 285.

(106) ستأتي ترجمة ابن الشعّار له ضمن هذا المجموع (ص 96).

(107) انظر التكملة، لوفيات النقلة 2 : 132 وقد ذكر د. بشار عواد المصادر التي وردت فيها ترجمته.

الدِّينِ أَبِي المَنَاقِبِ عُمَرَ بْنِ شَاهِنْشَاهِ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ شَادِي[108] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَجَمَعَ بِاسْمِهِ كِتَاباً سَمَّاهُ (نَفَائِس الأَعْلاَقِ، فِي مَآثِرِ العُشَّاقِ)، وَعَمِلَهُ مُبَوَّباً عِشْرِينَ بَاباً، أَوْدَعَ فِيهِ مِنْ بَدَائِعِ الحِكَايَاتِ وَنَوَادِرِ الأَشْعَارِ.

وَظَفِرْتُ لَهُ بِكِتَابٍ آخَرَ لَقَّبَهُ بِـ(زِنَادُ المُقْتَبِسِ، فِي مُلَحِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ)، قَفَّى الأَشْعَارَ الَّتِي ضَمَّنَهَا الكِتَابَ عَلَى حُرُوفِ المُعْجَمِ، وَلَمْ يَأْتِ فِيهِ بِغَرِيبٍ مِنَ الشِّعْرِ، وَكَانَ شَاعِراً مُكْثِراً مِنَ النَّظْمِ، وَعَمَلِ المُوَشَّحَاتِ، قَادِراً عَلَى إِنْشَائِهَا وَارْتِجَالِهَا يَصْنَعُ مِنْهَا[109] مَا شَاءَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ بِغَيْرِ فِكْرَةٍ وَلاَ رَوِيَّةٍ.

وَوَفَدَ إِلَى البِلاَدِ الشَّامِيَّةِ فِي أَيَّامِ المَلِكِ العَادِلِ نُورِ الدِّينِ أَبِي القَاسِمِ مَحْمُودِ ابْنِ زَنْكِي بْنِ آقسُنْقُر[110] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَامْتَدَحَهُ بِقَصَائِدَ شَتَّى، وَمَدَحَ بَعْدَهُ المَلِكَ النَّاصِرَ صَلاَحَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ أَيُّوبَ[111] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِعِدَّةِ قَصَائِدَ.

وَبَلَغَنِي أَنَّهُ أُسِرَ أَوَائِلَ المِئَةِ السَّابِعَةِ، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ. كَذَا أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ الوَزِيرُ الصَّاحِبُ القَاضِي الأَكْرَمُ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ يُوسُفَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ القِفْطِيُّ[112] أَسْعَدَهُ ٱللَّهُ بِحَلَبَ، أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ فَيَّاض بْنِ عَلِيٍّ ٱلْمُقْرِئُ الحَلَبِيُّ[113]، قَالَ :

أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ سَعْدِ بْنِ حَمَامَةَ الصَّنْهَاجِيُّ التِّلْكَاتِيُّ لِنَفْسِهِ، وَقَدْ رَأَى فَاخِتَةً عَلَى شَجَرَةِ نَارَنْجٍ وَهِيَ تُغَرِّدُ :

وَلاَبِسَةٍ ثَوْباً مِنَ الرِّيشِ أَدْكَنَا ... تَرُوقُكَ مَرْأًى فِي الغُصُونِ وَمَسْكَنَا
بَنَتْ فِي أَعَالِي الدَّوْحِ وَكْراً مُحَصَّناً ... تَفَيَّأُ أَوْرَاقاً لِدَاناً وَأَغْصُنَا

(108) ترجمته في الوافي بالوفيات 22 : 484 وفي حاشية المحقق سرد لمصادر ترجمته.

(109) في الأصل : قادراً على إنشائه وارتجاله يصنع منه.

(110) ترجمته في وفيات الأعيان 5 : 184-189 وفي الحاشية تعداد لمصادر أخرى.

(111) هو أشهر من أن يعرف به وترجمته على سبيل المثال في وفيات الأعيان 7 : 139-218.

(112) هو صاحب التصانيف المفيدة مثل الإنباه وغيره، انظر ترجمته في الوافي بالوفيات 22 : 338-341 وفي حاشية المحقق ذكر لمصادر متعددة.

(113) لم أقف له على ترجمة.

أَرَتْنَا بِأَفْنَانِ الأَرَاكَةِ قَيْصَراً ... وَقَدْ حَلَّ أَعْلَى قُبَّةِ المُلْكِ وَالسَّنَا
وَأَنْشَدَتْ أَلْحَاناً كَسَجْعِ مُخَارِقٍ ... إِذَا مَسَّ أَوْتَاراً وَغَرَّدَ مُعْلِنَا
بَكَتْ طَرَباً لَمَّا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... وَكَمْ بَيْنَ مَسْرُورٍ وَمَنْ يَشْتَكِي ٱلضَّنَى

وَمِنْ شِعْرِهِ أَيْضاً أَوَّلَ قَصِيدَةٍ :

غَنَّى الحَمَامُ عَلَى أَغْصَانِهِ طَرَبا ... فَلَمْ يَدَعْ مُهْجَةً إِلاَّ الْتَظَتْ لَهَبَا
هَاجَتْ لِي الشَّوْقَ فِي الأَغْصَانِ صَادِحَةٌ ... لاَ تَعْرِفُ الوَجْدَ وَٱلأَشْوَاقَ وَالوَصَبَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ جَهُولاً قَبْلَ رُؤْيَتِهَا ... أَصْبَى الحَلِيمَ إِلَى أَنْ بَاتَ مُكْتَئِبَا
تَبْكِي وَمَا فَارَقَتْ إِلْفاً وَلاَ وَطَناً ... فَكَيْفَ مَنْ فَارَقَ الأُلاَّفَ مُغْتَرِبَا
يَا قَاتَلَ ٱللَّهُ صَدَّاحَ الْحَمَامِ إِلَى ... كَمْ يَأْلَفُ النَّوْحَ فِي أَغْصَانِهِ طَرَبَا
هَاجَ الصَّبَابَةَ مِنْ أَغْنَانِ كَاظِمَةٍ ... حَتَّى اسْتَهَلَّتْ عَلَيْنَا بِاللِّوَى سُحُبَا

وَمِنْ شِعْرِهِ أَيْضاً فِي كِتَابِهِ المُسَمَّى بِـ(نَفَائِسِ الأَعْلاَقِ) :

بَاتَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ حَتَّى بَدَا ... صُبْحٌ تَأَلَّقَ كَالأَغَرِّ الأَشْقَرِ
فَتَلاَزَمَا عِنْدَ ٱلصَّبَاحِ صَبَابَةً ... أَخْذَ الغَرِيمِ بِفَضْلِ ذَيْلِ المُعْسِرِ[114]

(4 : 396–398)

22 ــ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ

ابْنِ مَسْعُودٍ أَبُو الحَسَنِ القُرْطُبِيُّ القَيْسِيُّ الْقُبْذَاقِيُّ المَعْرُوفُ بِابْنِ خَرُوفٍ[115]. خَرَجَ مِنَ الأَنْدَلُسِ، وَقَدِمَ بِلاَدَ الشَّامِ، وَنَزَلَ حَلَبَ، وَاسْتَوْطَنَهَا فِي أَيَّامِ المَلِكِ الظَّاهِرِ غَيَّاثِ الدِّينِ غَازِي بْنِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ[116]، وَانْقَطَعَ إِلَيْهِ، وَامْتَدَحَهُ بِعِدَّةِ قَصَائِدَ وَمَاتَ فِي أَيَّامِهِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّ مِئَةٍ. وَكَانَ مِنَ

---

(114) قرأتهما في مكان آخر لا أتذكّره الآن.

(115) ترجمته في الذيل والتكملة 5 : 396–399 وفي الحاشية إحالات على مصادر أخرى.

(116) انظر ترجمة هذا الملك في الوفيات 4 : 6–10 وفي حاشية المحقق ذكر لمصادر أخباره.

المَطْبُوعِينَ فِي الشِّعْرِ وَظُرَّافِ النَّاسِ فِي وَقْتِهِ، وَكَانَ مِنَ المَطْبُوعِينَ فَصَاحَةً وَدَمَاثَةً قَيِّماً بِعِلْمِ العَرَبِيَّةِ وَٱلأَدَبِ حَسَنَ الشِّعْرِ يَتَخَالَعُ فِيهِ، وَلَهُ مُكَاتَبَاتٌ وَرَسَائِلُ، وَيَدٌ بَاسِطَةٌ فِي عَمَلِ المُوَشَّحِ وَالأَزْجَالِ الأَنْدَلُسِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ أَقْدَرِ النَّاسِ فِي صَنْعَتِهِمَا.

وَكَانَ صَدِيقاً لابْنِ لَهِيبٍ الشَّاعِرِ[117]، وَبَيْنَهُمَا انْبِسَاطٌ يَقْتَضِي الاسْتِرْسَالَ، وَيُسَوِّغُ مَعَهُ المُدَاعَبَةَ، وَمِمَّا كَتَبَهُ إِلَيْهِ وَقَدِ اسْتَدْعَاهُ ابْنُ لَهِيبٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو الحَسَنِ الجَوَابَ :

ابْـنُ اللَّهِـيبِ دَعَانِـــي ... دُعَـــاءَ غَيْــرِ النَّبِيـــهِ
إِنْ صِرْتُ يَوْمــاً إِلَيْــهِ ... فَوَالِــدِي فِـــي أَبِيـــهِ

وَأَنْشَدَ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الجَبَّارِ القِيرَوَانِيُّ[118]، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَنِ ابْنُ خَرُوفٍ لِنَفْسِهِ مِنْ صَدْرِ كِتَابٍ كَتَبَهُ إِلَى ٱلْقَاضِي أَبِي المَحَاسِنِ يُوسُفَ بْنِ رَافِعِ بْنِ شَدَّادٍ[119] المَوْصِلِيِّ قَاضِي حَلَبَ يَطْلُبُ مِنْهُ فَرْوَةً :

بَهَــاءَ الدِّيــنِ وَالدُّنْيَـــا ... وَنُورَ المَجْدِ وَالــحَسَبِ
طَلَــبْتُ مَخَافَــةَ الأَنْـــوَا ... ءِ مِنْ حسنَاك جِلْدَ أَبِي
فَــفَضْلُكَ عَالِــمٌ أَنِّـــي ... خَــرُوفٌ بَــارِعُ ٱلأَدَبِ
حَلَبْتُ الدَّهْـرَ أَشْطُــرَهُ ... وَفِي حَلَبٍ صَفَا حَلَبِي

وَأَنْشَدَنِي الحَكِيمُ أَبُو الفَرَجِ عَبْدُ القَاهِرِ بْنُ عَفِيفِ بْنِ عَبْدِ القَاهِرِ بْنِ سُكَّرَة الحَلَبِيُّ الإِسْرَائِيلِيُّ[120] بِحَلَبٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي ابْنُ خَرُوفٍ لِنَفْسِهِ فِي المُهَذَّبِ ابْن الدخْوار الدِّمَشْقِي[121] :

---

(117) لم أقف على ترجمته.

(118) ستأتي ترجمة ابن الشعّار له في هذا المجموع (ص 71).

(119) أسهب ابن خلكان في ترجمة القاضي ابن شداد (7 : 84-100). وقد ذكر المحقق مصادر متعددة في ترجمته، وانظر الأبيات المذكورة مع الرسالة في الوفيات (7 : 95).

(120) لابن سكرة الحلبي ترجمة في عيون الأنباء 2 : 164.

(121) هو الطبيب الأديب عبد الرحيم بن علي الدمشقي (565-628هـ) له ترجمة في سير أعلام النبلاء 13 : 128-199.

إنَّ الأُعَيْرِجَ حَازَ الطِّبَّ أجْمَعَهُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الاَّ العِلْمَ وَالعَمَـلاَ
وَلَيْسَ يَجْهَلُ شَيْئاً مِنْ غَوَامِضِهِ إلاَّ الجَوَاهِرَ وَالأَعْرَاضَ وَالعِلَـلاَ
فِي حِيلَةِ البُرْءِ[122] قَلَّتْ عِنْدَهُ حِيَلٌ بَعْدَ اجْتِهَادٍ، وَيَدْرِي لِلرَّدَى حِيَلاَ
الرُّوحُ يسكن جُثْمَانَ العَلِيلِ عَلَى عِلاَّتِـهِ، فَـإذَا مَا طَبَّـهُ رَحَـلاَ

وَقَالَ يَصِفُ النِّيلَ :

مَا أَعْجَبَ النِّيلَ مَا أَحْلَى شَمَائِلَهُ فِي ضِفَّتَيْهِ مِنَ الأَشْجَارِ أَدْوَاحُ
مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ فَيَّاضٌ عَلَى تُرَعٍ تَهُبُّ فِيهَا هُبُوبَ الروحِ أَرْيَاحُ
لَيْسَتْ زِيَادَتُهُ مَاءً كَمَا زَعَمُـوا وَإِنَّمَــا هِــيَ أَرْزَاقٌ وَأَرْوَاحٌ

وَأَنْشَدَنِي الحَكِيمُ أَبُو الفَرَجِ عَبْدُ القَاهِرِ ابْنُ سُكَّرَةَ[123]، قَالَ أَنْشَدَنِي ابْنُ خَرُوفٍ لِنَفْسِهِ :

أَنْتَ بِطِبٍّ الوَرَى عَلِيمٌ لَكِنَّهُ انْ عَكَسْتَ طِبَّـا

وَقَالَ فِي رَجُلٍ مَغْرِبِيٍّ يُقَالُ لَهُ : ابْنُ السُّمَيْلِ :

أَيَا نَجْلَ السُمَيْلِ سَمُلْتَ حَتَّـى غَـدَوْتَ مِـنَ المُمَزَّقَـةِ الرِّثَــاثِ
عِجَانُكَ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ أَوْدَى بِـهِ قَـوْمٌ وَأَنْتَ مِـنَ البُغَــاثِ
تُنَـاكُ وَأَنْتَ أَقْـرَعُ ذُو قُــرُونٍ فَأَشْبَـهْـتَ الجَـرَادَةَ فِـي ثَــلاَثِ

أَيْ : هُوَ أَقْرَعُ، وَلَهُ قُرُونٌ، وَيُنَاكُ.

وَقَالَ، وَكَانَ أَمِيناً بِبِيمَارِسْتَانِ دِمَشْقَ، وَكَانَ لَهُ بَوَّابٌ اسْمُهُ السِّيدُ :

مَـوْلاَيَ مَـوْلاَيَ أَجِرْنِــي فَقَــدْ أَمْسَيْتُ فِي دَارِ الأَسى والحُتُوفْ
وَكَيْفَ لِي صَبْرٌ عَلَـى مَنْـزِلٍ بَوَّابُـهُ السِّيـدُ وَجـدِّي خَـرُوفْ

السِّيدُ : الذِّئْبُ. وَلَهُ يَصِفُ سِنْدِيّاً، وَالسِّنْدِيُّ : لاَعِبُ الخُفِّ الَّذِي يَلْعَبُ بِالسُّيُوفِ وَغَيْرِهَا :

وَمُنَوَّعِ الحَرَكَاتِ يَلْعَبُ بِالنُّهَى لَبِسَ المَحَاسِنَ عِنْدَ خَلْعِ لِبَاسِهِ

(122) حيلة البرء هو اسم كتاب لجالينوس.
(123) هو الذي تقدم ذكره آنفاً.

مُتَأَوِّدٌ كَالغُصْنِ فَوْقَ كَثِيبِهِ ... مُتَلاَعِبٌ كَالظَّبْيِ عِنْدَ كِنَاسِهِ
بالعَقْلِ يَلْعَبُ مُقْبِلاً أَوْ مُدْبِراً ... كَالدَّهْرِ يَلْعَبُ كَيْفَ شَاءَ بِنَاسِهِ
وَيَضُمُّ لِلْقَدَمَيْنِ مِنْهُ رَأْسَهُ ... كَالسَّيْفِ ضُمَّ ذُبَابُهُ لِرئَاسِهِ[124]

وَقَالَ فِي زَرْبَطَانَة[125] :

لِلَّهِ لاَفِظَةٌ مِنْ جَوْفِهَا دُرَرا ... تُعَطِّلُ الرَّوْضَ مِنْ شَادٍ وَصَدَّاحِ
مِثْلُ اليَرَاعِ، وَلَكِنْ مَا لَهَا عُقَدٌ ... إذا تُسَدَّدُ بالأَفْوَاهِ وَالرَّاحِ
أَبْصَرْتَ رَامِيَةً فِي شَكْلِ طَاعِنَةٍ ... فَتَنْتَمِي لِقِسِيٍّ أَوْ لأَرْمَاحِ
نَفَخْتَ فِيهَا وَقَدْ سَوَّيْتَهَا, جَمَداً ... رُوحاً فَتَقْبِضُ أَرْوَاحاً بِأَرْوَاحِ
يَا مُشْرِفاً تَشْرُفُ الدُّنْيَا بِسُؤْدَدِهِ ... هَبْهَا قَنَاةً وَخُذْ آيَاتِ أَمْدَاحِ

وَلَهُ يَسْتَهْدِي خَمْراً :

يَا مَنْ يَهُزُّ المَدِيحُ مِنْهُ ... عِطْفاً حَكَى المَائِسَ الْفَرُوحَا
خُذْ جَسَداً لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ ... وَانْفُخْ مِنَ الرَّاحِ فِيهِ رُوحَا

وَلَهُ فِي كَأْسٍ :

أَنَا جِسْمٌ لِلْحُمَيَّا ... وَالحُمَيَّا لِيَ رُوحُ
بَيْنَ أَهْلِ الظَّرْفِ أَغْدُو ... كُلَّ وَقْتٍ وَأَرُوحُ

وَلَهُ فِي الحَكِيمِ الأَعْرَجِ المُهَذَّبِ ابْنِ عَلِيٍّ الكَحَّالِ المَعْرُوفِ بالدَّخْوَارِ الدِّمَشْقِيِّ :

تُجَرِّرُ يَا أُعَيْرِجُ ذَيْلَ كِبْرٍ ... وَتَعْلَمُ لُؤْمَ وَغْدٍ أَنْتَ نَجْلُهُ
وَتَمْشِي مِشْيَةَ الخُيَلاَءِ زَهْواً ... أَمَامَ السَّامِرِيِّ وَأَنْتَ عِجْلُهُ

---

(124) الأبيات موجودة أيضا في الذيل والتكملة 5 : 397 وصلة الصلة : 115.

(125) في شفاء العليل : زربطانة لما يرمى به.. قال ابن حجاج :

بِهِ تَرْمِي لِحَى مُتَعشِّقِيها ... كَما يَرْمِي ٱلْفَتَى بالزَّرْبَطانَه

وانظر في الكلمة أيضا قاموس دوزي.

السَّامِرِيُّ رَجُلٌ كَانَ بِدِمَشْق، وَكَانَ شَرِيكاً لِلأَعْرَجِ [وَلَهُ فِيهِ][126] :

لَكَ يَا مُهَذَّبُ فِي الْجُسُومِ مَلاَحِمٌ   حَسَدَ الْحُسَامُ كِفَاحَهَا واللَّهْـذَمُ
يُعْمِي أُخُوكَ وَأَنْتَ تَقْتُلُ دَائِماً   «لأُخُوكَ ثَمَّ أَرَقُّ مِنْكَ وَأَرْحَمُ»[127]

(4 : 410-415)

23 ــ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَد

ابْنِ مُحَمَّد بْنِ أَحْمَد بْنِ يُوسُف بْن مُحَمَّد بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّد بْنِ سَهْم مِنْ وَلَدِ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ الْقُرَشِيّ ثمّ السّهمِيّ أَبو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي عَبْدِ ٱللَّهِ شُهِرَ بِابْنِ البَيَّانِيّ الْغَرْنَاطِيّ الأَنْدَلُسِيّ[128]، شَاعِرٌ مِنَ الْفضلاءِ أَنْشَدَنِي أَبُو الْفَتْح مُحَمَّد بْن بَدَل التَّبريزي[129] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسَن بْن البَيَّاني لِنَفْسِهِ بِإِرْبِل ــ قَدِمَهَا فِي العَشْرِ الأُولى مِنْ شَعْبان سَنَةَ ثَلاَثِين وَسِتِّمائَةٍ مُجْتَازاً إِلَى دَارِ السَّلاَمِ ــ يَمْدَحُ مَوْلاَنَا وَسَيِّدَنَا الإِمَام المُسْتَنْصِر بِٱللَّهِ أَمِير الْمُومِنِين أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[130] :

حَرَمُ الْخِلاَفَةِ قَصْدُ كُلِّ مُيَمِّـمِ   وَمَحَلُّ مَوْثُوقِ الْعَقِيـدَةِ مُسْلِـمِ
شَرُفَتْ قَوَاعِدُهُ فَبَانَ [مِثَالُنَـا][131]   فِي جَوْفِ قُبَّةِ سَمْكِهِ كَالدِّرْهَمِ

---

(126) زيادة ليست في الأصل، ويقتضيها السياق.

(127) هذا شطر بيت للمتنبي.

(128) لم أقف على ذكره في غير هذا المصدر.

(129) تقدم ذكره.

(130) حوالي هذا التاريخ كانت دعوة ابن هود للعبّاسيين وتوصل بتقليد من الخليفة المستنصر العباسي يولّيه به على الأندلس، وهو مكتوب في العشر الأواسط من ذي القعدة سنة 629هـ وكان السفير الذي حمل هذا التقليد هو أبو علي حسن بن علي بن حسن بن الحسين الكردي الملقب بالكمال. فهل هذا الأندلسي الوافد على دار السلام ومادح الخليفة المستنصر كان سفيرا عن ابن هود إلى هذا الخليفة ؟

(131) كلمة غير واضحة في الأصل.

وَكَأَنَّمَا الْعَافِي الْمُلِمُّ بِبَابِهِ ... يَخْطو إِلَيْهِ عَلَى جَبِينِ الْمُرْزِمِ
دَمِنٌ سَمَتْ شَرَفاً بِسَاكِنِ أُفْقِها ... مِنْ آلِ أَحْمَدَ سِرٌّ صِفْوَةِ آدَمِ
أَسْنَى الْخَلاَئِفِ وَالْخَلاَئِقِ مَحْتِداً ... وَأَجَلُّهُمْ ذِكْراً لَدَى نُطْقِ الْفَمِ
مُسْتَنصِرٌ بِآللَّهِ فِي أَفْعَالِهِ ... مَاضِي الْعَزِيمَةِ فِي الْمُهِمِّ الْمُبْرَمِ
دَارُ السَّلاَمِ لِقَاصِدِيهَا قِبْلَةٌ ... كَالْبَيْتِ من مُثْرٍ يَحُجّ ومُعْدِمِ[132]
شَهِدَتْ بِبَهْجَتِهَا بِهِ أُمُّ الْقُرَى ... لَو حَلّها فَرِحَتْ بِأَشْرَفِ مَنْسِمِ
وَالْبَيْتُ يَشْهَدُ بِالْفَخَارِ لِقُطرِهَا ... ثم الْمَقَامُ مَعَ الْحطيمِ وَزَمزَمِ
وَكَذَا الْمَشَاعِرُ لَمْ يَزَلْ يَتْلُو بِهَا ... آيَ الْمَآثِرِ كُلُّ أَشْعَثَ مُحْرِمِ
فِيكُمْ بَنِي الْعَبَّاسِ عِصْمَةُ دِينِنَا ... فِي عَصْرِنَا ذَا وَالزَّمَانِ الأَقْدَمِ
أَنْتُمْ خَلاَئِفُ رَبِّنَا فِي أَرْضِهِ ... طُرّاً وَمَنْ يَأْبَى فَلَيْسَ بِمُسْلِمِ
وَبِفَضْلِكُمْ نَطَقَ الْكِتَابُ لأَنَّكُمْ ... آلُ النَّبِيِّ وَفَخْرُكُمْ لَمْ يُكْتَمِ
وَإِذَا آمْرُؤٌ حَادتْ بِهِ سُبُلُ الْهَوَى ... عَنْ قَصْدِكُمْ يُدْعَى بِأَجْهَلِ مُجْرِمِ
فَإِذَا اسْتُتِيبَ فَتَابَ كَانَ مُؤَمَّناً ... وَإِذَا أَبَى فَمَثَابُهُ سَفْكُ الدَّمِ
أَإِمَامَ أَهْلِ الأَرْضِ بُلِّغْتَ الْمُنَى ... فَمُغَرِّبٌ فِي طَوْعِكُمْ كَالْمُشْئِمِ
وَبِلاَد أَنْدَلُسٍ أديلَتْ دَوْلَةٌ ... لَكُمُ بِبَيْعَةِ مُخْلِصٍ لم تُكْتَمِ[133]
شَبَّ الْوَلِيدُ بِهَا سُرُوراً واكْتَسَتْ ... شَرْخَ الشَّبَابِ الشَّيْبُ لِلْمُتَوَسِّمِ
فَثُغُورُهَا آفتَرَّت بطَاعَةِ أَهْلِهَا ... لِلَّهِ ثُمَّ لَكُمْ بِصِدْقٍ مُسَلِّمِ
نَبَذُوا ضَلاَلَ خَوَارِجٍ قَدْ أُثْقِلَتْ ... مِنْهُمْ ظُهُورٌ بِالشِّقَاقِ الْمُؤْلِمِ
واسْتَبْشَرُوا بِكَمَالِ بَيْعَةِ دِينِهِمْ ... وَنَعِيمِ دُنْيَاهُمْ وَفَيْضِ الأَنْعُمِ
وَمَلِيكُهُمْ سَبُعُ بْنُ هُودٍ[134] مَالِكٌ ... مِنْهُمْ أَزِمَّةَ طَاعَةٍ لَمْ تُتْهَمِ
مَلِكٌ لَكُمْ مَلَكَتْ يَدَاهُ مَعَاقِلاً ... بَعُدَتْ عَنِ الْفُتْحِ الشِّدَادِ الْحُوَّمِ
فَأَزَارَهَا أُسْداً وَكَانَ شِعَارُكُمْ ... غِيلاً لَهَا تَحْتَ الْعَجاجِ الأَقْتَمِ

(132) دار السلام هي بغداد.

(133) يشير إلى بيعة محمد بن هود للعباسيين.

(134) كان ابن هود الدّاعي للعباسيين يلقّب بالمتوكّل على الله ولعلّ العامة كانت تلقبه بالسّبع أو هي تحريف سِبْط.

وَسَمَا إِلَيْهَا بِالسَّوَابِقِ شُزَّباً تُزْرِي بِكُلِّ مُدَجَّجٍ مُسْتَلْئِمِ
وَأَذَاقَهَا صِدْقَ الطِّعَانِ فَأذعَنَتْ بِالطَّوْعِ دونَ مُهَنَّدٍ وَمُقَوَّم
يَطْوِي الْبِلاَدَ بِجَحْفلٍ خَافَ الْمَلاَ مِنْ بَحْرِهِ الطَّامِي العُبَابِ الخِضْرِمِ
خَفَقَتْ بُنُودُ سُعُودِكُمْ فِيهِ عَلَى أَعْدَائِكُمْ فَاسْتَسْلَمُوا لِلْمَغْنَمِ
وَلَقَدْ غَزَا أَرْضَ الْفِرَنْجِ بِعُصْبَةٍ فُطِرَتْ عَلَى دِينِ النَّبِيِّ الأَقْوَمِ
فَإِمَامُهُمْ مُسْتَنْصِرٌ وَمَلِيكُهُمْ مُتَوَكِّلٌ يَا نَصْرُ هَبْ لا تعْدَم[135]
وَإِذَا هُمُ أَمُّوا الْعِدَا صَدَقُوهُمُ بِالْمَشْرَفِيّ وَكُلِّ أَسْمَرَ لَهْذَمِ
وَعَلَيْهِمُ سَرْدُ الدِّلاَصِ كَأَنَّهُ سَيْلٌ تَلاَطَمَ فِي غَدِيرٍ مُفْعَمِ
وَطِئَت سَنَابِكُ خَيْلِهِمْ هَامَاتِهِمْ والسَّيْفُ يَرْسُمُ أَسْطُراً لَمْ تُفْهَمِ
واسْتُعْجِلَتْ قُضُبُ الْوَشِيجِ عَلَيْهِم حُرِقُوا بِهَا مِنْ قَبْلِ نَارِ جَهَنَّمِ
وَجَرَتْ مَذَانِبُ مِنْ نَجِيعِ نُحورِهِمْ وَتَجَلَّلَتْ شُهْبُ السَّوَابِق بالدَّمِ
مَلأُوا الْفَلاَةَ مُجَدَّلِينَ تَنُوشُهُمْ عُصَبُ الْوُحُوشِ وَكُلّ نَسْرٍ قَشْعَمِ
فَمِياهُهَا قَدْ عَافَهَا مُتَطَهِّرٌ وَتُرَابُهَا مَا حَلَّ لِلْمُتَيَمِّمِ
وَقَد آسْتَقَامَ الدِّينُ فِي أَقْطَارِهَا شَرْقاً وَغَرْباً وَالْعَدُوُّ بِمَرْغَمِ
فالْحَمْدُ لِلَّهِ المُفِيضِ عَلَيْهِم بإِمَامِ أَهْلِ الحَقِّ أَسْبَغَ أَنْعُمِ
فَشَبَابُهُمْ فِي غِبْطَةٍ وَنِسَاؤُهُمْ فِي حَوْطَةٍ وَشُيُوخُهُمْ لَمْ تَهْرَمِ
نَالُوا الْمُنَى لَمَّا آنْجَلَتْ عَنْ أَرْضِهِمْ ظُلَمُ الجَهَالَةِ مِنْ زَنِيمٍ مُجْرِمِ
وَاسْتَوْضَحُوا نورَ الْهُدَى وَتَيمَّنوا بالدَّوْلَةِ الْغَرَّاء فِي ...
غمَرَ الْبَسِيطَةَ عَدْلُهُ فَيَكَادُ أَنْ تُلْفَى الذِّئَابُ مَعَ آلظِّبَاءِ بِمَجْثمِ
لأَزَالَ سُحْبُ نَوَالِهِمْ يَهْمِي عَلَى أَهْلِ الْوَلاَءِ بِكُلِّ نَوءٍ مُسْجَمِ
وَسُيُوفُهُ تُمْسِي رِقَابُ عُداتِهِ أَجْفَانَهَا يَوْمَ الوَطِيسِ المُلْحَمِ
وَرِمَاحُهُ فِي صَدْرِ كُلِّ مُعَانِدٍ أَمْضَى وَأَنْفَذُ مِنْ قَضَاءٍ مُبْرَمِ
يا ابن الأَئِمَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْتُمُ خَيْرُ البَرَايَا والْحِمَى لِمُيَمِّمِ
قُطْبُ الدِّيانَةِ والأَمَانَةِ فِيكُمُ إِرْثٌ لَكُمْ مِنْ أَكْرَمٍ عَنْ أَكْرَمِ

(135) يشير إلى المستنصر العباسي والمتوكل ابن هود.

صَلَّى عَلَى تِلْكَ العَنَاصِرِ رَبُّكُمْ وَكَسَاكُمُ ثَوْبَ الْفَخارِ الأَعْظَمِ
وَأَدَامَكُـمْ لِلْمُسْلِمِيـنَ مُوَطِّـداً أَرْجَاءَهُـمْ بِمُثَقَّـفٍ وَبِمَخْـذَمِ
وَحَبَاكُـمُ الْعُمْـرَ ٱلطَّوِيـلَ تَمَتُّعـاً وَأَمَدَّكُـمْ نَصْراً بِكُـلِّ مُسَوَّمِ
فَالدِّينُ وَالإِسْلاَمُ لَمَّا ٱسْتَمْسَكَـا مِنْكُمْ بِعُرْوة عِصْمَة لَمْ تُفْصَمِ
فَعَلَـى مَوَاقِفِكُـمْ أَتَـمُّ تَحِيَّـةٍ مَادَامَ بَيْتُ ٱللَّـهِ قِبْلَـة مُسْلِـمِ
(4 : 539-543)

24 ـ عَلِيُّ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَاسْمُهُ عَتِيقٌ

ابْنُ مُحَمَّد بْنِ عَلِيِّ بْنِ خَلَفِ بْنِ أَيُّوبَ أَبُو الحَسَنِ الأَنْصَارِيُّ(136) مِنْ أَهْلِ بَلَنْسِيَّةَ. كَانَتْ وِلاَدَتُهُ فِي العَشْرِ الأَوَّلِ مِنَ المُحَرَّمِ سَنَةَ تِسْعِينَ وَخَمْسِ مِئةٍ. الفَقِيهُ الفَاضِلُ المُقْرِىءُ، قَرَأَ القرآنَ بِالسَّبْعِ، وَتَفَقَّهَ عَلَى مَذْهَبِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وَسَمِعَ الحَدِيثَ النَّبَوِيَّ كَثِيراً بِالأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا مِنَ البِلاَدِ، وَهُوَ رَجُلٌ يَفُوقُ أَبْنَاءَ وَقْتِهِ دِيناً وَفَضْلاً وَخَيْراً وَعِلْماً، مُقِلٌّ مِنْ قَوْلِ الشِّعْرِ سَكَنَ حَلَبَ، وَقَرَّ بِهَا، رَأَيْتُهُ فِي ٱلْمَدْرَسَةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى بَنِي عَصْرُونَ وَلَهُ بِهَا جَامِكِيَّةٌ(137) يَتَنَاوَلُهَا وَهُوَ مُتَصَدِّرٌ لإِقْرَاءِ القُرْآنِ العَظِيمِ بِٱلْجَامِعِ أَيْضاً، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

ثِقْ بِالإِلَهِ، وَكُنْ بِهِ مُسْتَنْصِراً يَرْعَاكَ رَبُّكَ فِي ٱلْفَعَالِ وَيُرْشِدُ
وَاقْنَع بِمَا أَعْطَاكَ رَبُّكَ رَاضِياً إِنَّ القَنَاعَـةَ كَنْزُهَـا لاَ يَنْفَـدُ
إِنَّ الوُثُوقَ بِذِي المَعَالِي رِفْعَةٌ يَحْظَى بِهَا العَبْدُ الرَّشِيدُ الأَسْعَدُ
وَدَعِ المَطَامِعَ جَانِبـاً فَلَرُبَّمَـا ذَلَّتْ رِقَابُ أَعِـزَّةٍ فَاسْتُعْبِـدُوا
وَمَكَـارِمُ الأَخْـلاَقِ لاَ تَدَعَنَّهَـا فَإِذَا فَعَلْتَ فَأَنْتَ أَنْتَ الأَمْجَدُ
إِيَّاكَ وَالكَـذِبَ المُثِيـرَ عَـدَاوَةً إِنَّ الكَذُوبَ مِـنَ ٱلإِلَـهِ مُبَعَّـدُ

---

(136) لم أقف على ترجمة له في مصدر آخر.

(137) كلمة فارسية وهي عبارة عن مبلغ من المال، وقد استعملت في المغرب أيضا منذ عصر الموحّدين، انظر المعجب، وقاموس دوزي.

وَالصِّدْقُ أَوَّلُ مَا سَلَكْتَ طَرِيقَهُ ... فَهْوَ الصِّرَاطُ ٱلْمُسْتَقِيمُ الأَقْصَدُ
وَالْغِيبَةَ احْذَرْهَا، وَلاَ تَكُ آكِلاً ... مِنْ جِيفَةٍ، إِنَّ المَكَارِهَ تُنْقَدُ
إِنَّ النَّمِيمَةَ خَصْلَةٌ مَذْمُومَةٌ ... يَسْعَى بِهَا النَّذْلُ اللَّئِيمُ الأَوْغَدُ
لاَ تَحْسُدَنْ أَحَداً عَلَى مَا عِنْدَهُ ... فَالْعَاقِلُ المَغْبُوطُ مَنْ لاَ يَحْسُدُ
وإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ لِغَيْظِكَ كَاظِماً ... فَالغَيْظُ نَارٌ جَمْرُهُ يَتَوَقَّدُ
وَٱحْلُمْ، فَإِنَّ الحِلْمَ خَيْرُ مَطِيَّةٍ ... مَنْ كَانَ رَاكِبَهَا يُجَلُّ وَيُحْمَدُ
إِنَّ التَّوَاضُعَ لِلْمُكَلَّفِ رِفْعَةٌ ... وَكَذَا التَّكَبُّرُ ذِلَّةٌ تَتَزَيَّدُ
وَذَرِ الرِّيَاءَ، فَإِنَّهُ شِرْكٌ وَدَعْ ... ظُلْمَ العِبَادِ، فَإِنَّهُ يُتَعَوَّدُ
وَاجْعَلْ طَعَامَكَ مِنْ حَلاَلٍ خَالِصٍ ... فَمَطَاعِمُ الشُّبُهَاتِ سُمٌّ أَسْوَدُ
دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِنْ أَرَدْتَ سَلاَمَةً ... وَخُذِ الَّذِي لاَ رَيْبَ فِيهِ تُسَدَّدُ
واشْغَلْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ وَقْتَكَ وَارِداً ... نَهْرَ الحَيَاةِ بِهِ، فَنِعْمَ المَوْرِدُ
وَاحْفَظْ جَمِيعَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا ... إِيَّاكَ تَتْرُكُهَا وَعَنْهَا تَرْقُدُ
وَاضْرَعْ إِلَى ٱللَّهِ العَظِيمِ بِنِيَّةٍ ... وَقَرِيحَةٍ، فَهْوَ الكَرِيمُ الأَوْحَدُ
فَعَسَاهُ يَغْفِرُ ذَنْبَنَا وَيُنِيلُنَا ... دَارَ السَّعَادَةِ حِينَ يَأْتِي المَوْعِدُ

وَانْشَدَنِي أَيْضاً لِنَفْسِهِ :

يَا جَامِعَ ٱلدُّنْيَا، وَأَنْتَ تَجُرُّهَا ... مَهْلاً عَلَيْكَ لِبَعْلِ عِرْسِكَ تَجْمَعُ
يَزْدَادُ حِرْصُكَ عِنْدَ شَيْبِكَ آمِلاً ... طُولَ الحَيَاةِ فَلَسْتَ تَنْوِي تَشْبَعُ
مِمَّا يَغُرُّكَ نَفْعُهُ، وَحِسَابُهُ ... رد عَلَيْكَ، فَهَلْ لِرُشْدِكَ تَرْجِعُ

(179-177 : 5)

25 — عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الجَبَّارِ

ابْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو الحَسَنِ القَيْرَوَانِيُّ الكَاتِبُ المَعْرُوفُ بِابْنِ الزَّيَّاتِ[138] وُلِدَ بِسُوسَةَ، مَدِينَةٌ بِالْغَرْبِ، مِنْهَا يَسِيرُ القَاصِدُ إِلَى السُّوسِ

(138) لم أقف على ترجمته في مصدر آخر وإنّما وقفت في رحلة التجاني (52-53) والفارسية =

الأَقْصَى[139] وَنَشَأَ بِتُونُسَ وَتَأَدَّبَ بِهَا، ثُمَّ خَرَجَ عَنْهَا إِلَى ٱلدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ وَبِلاَدِ الشَّام، ثُمَّ أَلْقَى [عَصاهُ] بِالْمَوْصِلِ، وَنَزَلَ المَدْرَسَةَ البَدْرِيَّةَ المُطِلَّةَ عَلَى دِجْلَةَ، وَاسْتَقَرَّ بِهَا مُقَامُهُ إِلَى أَنْ تُوَفِّي بِهَا آخِرَ نَهَارِ يَوْمِ الثُّلاَثَاءِ ثَانِي عَشَرَ شَعْبَانَ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَدُفِنَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ دَاخِلَ المَدِينَةِ بِمَقْبَرَةِ الجَامِعِ العَتِيقِ قِبْلَتَهُ تَغَمَّدَهُ ٱللَّهُ بِرَحْمَتِهِ.

وَكَانَ رَجُلاً قَصِيراً أَسْمَرَ اللَّوْنِ، خَالَطَهُ المَشِيبُ، عَفِيفاً مُتَصَوِّناً لَهُ عِنَايَةٌ بِإِنْشَاءِ الرَّسَائِلِ وَقَرْضِ الشِّعْرِ، وَحَفِظَ مِنَ ٱلأَشْعَارِ جُمْلَةً وَافِرَةً، وَمِنْ أَقَاوِيلِ الأَنْدَلُسِيِّينَ، وَلَهُ فُصُولٌ مِنْ إِنْشَائِهِ، وَمُكَاتَبَاتٌ مَلِيحَةٌ، وَنَظْمٌ حَسَنٌ وَبَلاَغَةٌ، وَسَمِعَ كَثِيراً مِنَ ٱلْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، وَكَانَ فِي أَخْلاَقِهِ زَعَارَةٌ، حَادّ المِزَاجِ، يَتَعَصَّبُ لأَهْلِ الغَرْبِ تَعَصُّباً مُفْرِطاً، صَحِبْتُهُ بِالمَوْصِلِ مُدَّةً، وَكَتَبْتُ عَنْهُ شَيْئاً مِنْ شِعْرِهِ، وَشِعْرِ غَيْرِهِ. أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ مَا كَتَبَهُ إِلَى بَعْضِ الوُزَرَاءِ وَاسْمُهُ يُوسُفُ وَيَصِفُ قَلَمَهُ، وَيُهَنِّئُهُ بِعِيدِ النَّحْرِ فِي أَثْنَاءِ رِسَالَةٍ :

شَبَّ الهَوَى فِي القَلْبِ نَارَ حَرِيقِهِ ... أَبِطَرْفِهِ، أَمْ ثَغْرِهِ، أَمْ رِيقِهِ
أَمْ خَدُّهُ أَوْرَى شُعَاعَ رَحِيقِهِ ... أَمْ لَيْلِهِ الغَاشِي صَبَاحَ جَبِينِهِ
وَلَعَ الفُؤَادِ إِذَا بَدَا بِخُفُوقِهِ ... نَشْوَانُ أُوْلِعَ رِدْفُهُ بِقَوَامِهِ
سِنَةَ الكَرَى لَمَّا سَخَا بِعَقِيقِهِ ... يَا نَاظِراً بِعُقُوقِهِ هَبْ نَاظِرِي
فِي بَحْرِهِ، وَارَحْمَتَا لِغَرِيقِهِ ... إِنْسَانُ عَيْنِي قَدْ قَضَى مِنْ دَمْعِهَا

وَمِنْهَا يَصِفُ القَلَمَ :

كَأَتَمٌ مُعْتَدِلِ القَوَامِ رَشِيقِهِ ... وَبِمُهْجَتِي الأَلْمَى الَّذِي فِي كَفِّهِ
فِي ظِلِّهِ، وَمَقِيلُنَا، وَحَيَاتُنَا مِنْ رِيقِهِ ... إِذْ عَيْشُنَا مِنْ سُحْبِهِ

= (126) وبرنامج الوادي آشي : 222 وبغية الوعاة 2 : 153. على ترجمة وذكر أخيه أبي عبد الله محمد بن عبد الجبّار، وسيتحدّث عنه بعد قليل.

(139) السوس الأقصى بعيد جدّاً من سوسة ولعلّ ما ورد هنا لمحل التقارب بين الاسمين، وللتّجاني صاحب الرحلة حديث طويل عن سوسة وأخبارها وأدبائها وشعرائها (من ص 25 إلى ص 55).

وَمِنْهَا فِي وَصْفِهِ أَيْضاً :

عَلَمٌ لَدَى كُلِّ المَكَارِمِ فِي يَدٍ تَعْلُو فَيَغْلُو القَصْدُ عِنْدَ خُفُوقِهِ
بَلْ صَيِّبٌ تَهْمِي المَنَايَا وَالمُنَى بَأْساً وَجُوداً فِي خِلاَلِ بُرُوقِهِ
يَا مَالِكاً أَوْلَى فَأَظْهَرَ صُنْعُهُ فَرَحاً عَلَى ضَنْكِ الزَّمَانِ وَضِيقِهِ
هُنِّئْتَ بِالعِيدِ المُبَارَكِ بَالِغاً أَمَلاً رَجَوْتُ آللَّهَ فِي تَحْقِيقِهِ
مَا بَيْنَ نَحْرِ عِدىً، وَعَرفٍ فَائِحاً مِنْ سِرِّكَ المشكُورِ عَرْفُ خَلُوقِهِ
أَبداً لِشَتَّى الخَالِدَاتِ مُجَمِّعاً مَا تَعْجِزُ الأَيَّامُ عَنْ تَفْرِيقِهِ
مَا زَادَ مَنْ صَدَقَ الثَّنَاءَ لِيُوسُفٍ فِي الحَمْدِ بَلْ أَثْنَى عَلَى صِدِّيقِهِ

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً لِنَفْسِهِ يَمْدَحُ نَجْمَ الدِّينِ أَبَا الفَتْحِ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ ابْنِ المُجَاوِرِ(140) الدِّمَشْقِيَّ بِمِصْرَ وَزِيرَ المَلِكِ العَزِيزِ عِمَادِ الدِّينِ عُثْمَانَ بْنِ يُوسُفَ آبْنِ أَيُّوبَ(141) صَاحِبِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ :

مَنَعَتْ رَقِيبَ الحَيِّ أَنْ يَتَرَقَّبَا وَبَدَتْ وَحَشْوُ نِقَابِهَا لَنْ يُحْجَبَا
طَلَعَتْ فَقُلْنَا الشَّمْسُ لاَحَتْ مَشْرِقاً وَأَتَتْ فَقُلْنَا البَدْرُ أَمَّ المَغْرِبَا
مَاسَتْ فَكَانَ الغُصْنُ طَيَّ وِشَاحِهَا وَرَنَتْ فَخِلْنَاهَا تُحَاكِي الرَّبْرَبَا
سَحَبَتْ عَلَى حِينِ الوَفَا أَذْيَالَهَا جَرَّ الرِّيَاحِ ذُيُولَهُنَّ عَلَى الرُّبَا
وَنَظَرتُ مِنْ خَلَلِ البُرُودِ مُفَضَّضاً لِبَنَانِهَا قَدْ صَيَّرَتْهُ مُذْهَبَا
عَاهَدْتَنَا أَنْ لاَ صُدُودَ، وَقَلَّمَا يُحْظِينَ مَنْ وَصْلٍ لَهُنَّ مُعَذَّبَا
وَرَأَتْ بَيَاضَ الفَجْرِ لاَحَ فَأَعْرَضَتْ فَرَقاً، وَطَلَّقَ الحُسْنِ مِنْهُ مُقَطِّبَا
أَفَرِقْتِ أَنْ نَمَّ الصَّبَاحُ بِمَفْرِقِي وَزَجَرتِ لِلتَّفْرِيقِ كَافُورَ الصِّبَا
لاَ تَعْتِبِي شَيْباً أَلَمَّ بِلِمَّتِي إِنَّ المَشِيبَ غُبَارُ مُعْتَرَكِ الصِّبَا
أَصْحَبْتِ وَصْلَ الهَمِّ ثُمَّ صَدَقْتِنِي فَرَدَدْتِه هَمّاً بِهِ إِذْ أَصْحَبَا
عَذَبَاتُ فَرْعِكِ يَا سُعَادُ لِعَاشِقٍ لَوْ لُحْنَ أَنْوَاراً لَخَالَ الغَيْهَبَا
كَمْ قَدْ بَذَلْتِ عَذَابَهُ فِي هَجْرِهِ وَمَنَعْتِه عَذْباً بَرُوداً أَشْنَبَا

(140) انظر وفيات الأعيان 6 : 20، 7 : 342. وهو أيضا الممدوح بالقصيدة قبل هذه.

(141) ترجمته في وفيات الأعيان 3 : 251–253 وفي حاشية المحقق ذكر لمصادر أخرى.

وَلَّتْ وَقَدْ ضَمَّتْ فُضُولَ إِزَارِهَا ... تِيهاً يَزِيدُ المُغْرَمِينَ تَعَجُّبَا
عَطَفَتْ عَلَى بَابِ الوَزِيرِ...(142) ... غَادَرْنَ قَلْبِي بِالسَّقَامِ مُقَلَّبَا
تَشْكُو بَنِي الأَيَّامِ لاِبْنِ مُجَاوِرٍ ... كَيْمَا يُؤَنِّبُ مِنْهُمُ مَنْ أَذْنَبَا
أَعْنِي أَبَا الفَتْحِ الَّذِي دَانَتْ لَهُ ... رُتَبُ الوِزَارَةِ مُذْ بَلَتْهُ فَأَغْرَبَا
العَالِمَ الفَطِنَ الجَوَادَ المُرْتَضَى ... أَكْرِمْ بِهِ مِنْ سَيِّدٍ مَا أَخْطَبَا
لِلَّهِ يُوسُفُ فِي صِفَاتِ سَمِيِّهِ ... لَمَّا أَرَانَا مِنْهُ خَلْقاً مُذْهَبَا
صَدَّقْتَ يَا خِدْنَ العَزِيزِ مَحَاسِناً ... تَبْدُو مَخَايِلُهَا لِعَيْنِكَ خُلَّبَا
وَدُعِيتَ نَجْمَ الدِّينِ لَمَّا كُنْتَهُ ... وَطَلَعْتَ فِي أُفُقِ المَعَالِي كَوْكَبَا
فَأَذَعْتَ دِينَ الجُودِ عِنْدَ خُمُولِهِ ... وَنَسَخْتَ شَرْعَ البُخْلِ لَمَّا أَرْهَبَا
بِضَئِيلِ أَقْلاَمٍ جَعَلْتَ مِدَادَهُ ... حَدّاً يُقَلِّمُ فِي الخُطُوبِ المُقْضِبَا
وَجَرَرْتَهُ كَيْمَا يُقَالُ مُثَقَّفاً ... وَهَزَزْتَهُ كَيْمَا يُقَالُ مُشَطَّبَا

وَمِنْ نَثْرِهِ مِنْ كِتَابٍ كَتَبَهُ جَوَاباً عَنْ كِتَابٍ وَصَلَ مِنْ أَخِيهِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ، وَكَانَ بَلَغَهُ أَنَّ صَاحِبَ إِفْرِيقْيَةَ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَهُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ جَوَابَ كِتَابِهِ، فَكَانَ مِنْهُ : «وَكُلَّمَا اطْمَأَنَّتِ النَّفْسُ بِعَافِيَتِهِ وَرَكَنَتْ إِلَى الاقَامَةِ نَادَاهَا النُّزُوعَ إِلَيْهِ : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي﴾، وَكُلَّمَا أَفَاضَتِ الذِّكْرَى العَبْرَةَ قَالَ كِتَابُهُ الكَرِيمُ لِسَحَابِ الجُفُونِ : ﴿يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾، وَكُلَّمَا عَاوَدْتُ المُلاَحَظَةَ لِخَطِّهِ السَّعِيدِ أَسْمَعَ النَّاظِرُ السَّمْعَ : يَا أُذْنُ شَوْقِي لِخَطٍّ صَوْتِهِ اسْمَعِي. وَرَدَتْ أَخْبَارُهُ الكَرِيمَةُ عَلَى ٱلْسُنِ الوَارِدِينَ ٱلْطَفَ مِنْ نَسِيمِ الأَسْحَارِ، وَاسْتَقَرَّتْ وُجُوهُ وَجَاهَتِهِ فَلاَ كَرَامَةَ لِلنَّهَارِ المُنْهَارِ، فَهَيَّجَتْ ذِكْرَى، وَأَوْجَبَتْ حَمْداً وَشُكْراً، وَقَالَ بِهَا الشَّوْقُ لِلْقَلْبِ : ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً﴾، وَجَدَّدْتُ شُكْرَ النِّعْمَةِ المُتَحَدَّثِ بِهَا عَلَى مَا وَهَبَ ٱللَّهُ مَوْلاَيَ الأَخ مِنَ العُلُومِ الَّتِي كُلُّ وُجُوهِهَا حَسَنَةٌ، وَأَهَّلَهُ بِهَا لِحُضُورِ المَجَالِسِ الَّتِي هِيَ صُدُورٌ لاَ حَرِجَةٌ وَلاَ خَشِنَةٌ، وَخَصَّهُ بِالفَوْزِ مِنْهَا بِمَجَانِي الفَضْلِ الَّتِي كُلُّهَا عُيُونٌ لاَ يَأْخُذُهَا نَوْمٌ وَلاَ سِنَةٌ، لاَ بَرِحَ مَجْدُهَا دَافِعاً

(142) نقص في الأصل، ونقترح : فِي رَبْرَبٍ.

فِي صُدُورِ المَوَاكِبِ، وَعُرْفُهَا مُخْجِلاً مَا هَتَنَ مِنَ السَّوَاكِبِ، وَتُرَاب مَوَاكِبِهَا صَارِفاً طَرْقَ النَّوَائِبِ، وَالحَدِيثُ عَنْ جُودِهَا مَعَ كَثْرَتِهِ مَعْدُودٌ مِنَ العَجَائِبِ.

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً لِنَفْسِهِ :

شَفَقُ الحَيَاءِ بِوَجْنَتَيْهِ طُلُوعُهُ ... ظَبْيٌ كَجَفْنِي فِي الهَجِيرِ رَبِيعه
قَدْ حَلَّ مِنْهُ سَوَادَهُ وَلِشَوْقِهِ ... لاَ تُسْتَقَلُّ مَعَ الزَّمَانِ دُمُوعُهُ
فَبِحُسْنِهِ يَنْهَى وَيَأْمُرُ مُهْجَتِي ... فَالعَيْنُ تُبْصِرُ وَالفُؤَادُ يُطِيعُهُ
يَكْوِي مُعَافَى القَلْبِ مِنْ بُرَحَائِهِ ... خُلْواً، وَقَلْبُ جَرِيحِهِ مَلْسُوعُهُ
دَرَسَ الخِلاَفَ فَمَا يَقُولُ مُسَلَّمٌ ... مِنِّي، وَقَوْلِي كُلُّهُ مَمْنُوعُهُ
أَفَسَادُ وَضْعٍ فِي سُؤَالِ مُحِبِّهِ ... أَمْ أَصْلُهُ قَدْ خَالَفَتْهُ فُرُوعُهُ
تَقْرِيرُ فَتْوَى الحُبِّ مِنْهُ مُعَارِضٌ ... وَبِنَقْضِهِ نَظَرَ الهَوَى مَقْطُوعَهُ
أُرْهِقْتُ بَيْنَ دَلِيلِهِ وَدَلاَلِهِ ... لَمَّا تَرَجَّحَ فِي الدَّلِيلِ شُرُوعُهُ
أَفَلاَ قِصَاصَ لِعَبْدِهِ فِي رَأْيِهِ ... يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يَكُونُ صَنِيعُهُ

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً قَوْلَه :

وَأَغْيَدٍ مِنْ ظِبَاءِ الشَّامِ ذِي دَعَجٍ ... لِدَاتُ يُوسُفَ مِنْ أَدْنَى صَوَاحِبِهِ
أَذَابَ قَلْبِيَ مَضْفُوراً ذَوَائِبُهُ ... وَمَالَ لِلتُّربِ جِسْمِي مِنْ تَرَائِبِهِ
مَا شَامَ عَنْ مُهْجَتِي هِنْدِي تَقَلَّدَهُ ... إِلاَّ رَمَاهَا بِنَبْلِ قَوْسُ حَاجِبِهِ

(5 : 244-250)

26 ـ عُمَرُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ

ابْنِ مُحَمَّدِ بْنِ فَرَجٍ بْنِ خَلَفِ بْنِ قُومِسَ بْنِ مَزْلاَلِ بْنِ مَلاَّلِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ بَدْرِ بْنِ دِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ بْنِ فَرْوَةَ الكَلْبِيُّ(143) صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَكَذَا

(143) ترجمته في وفيات الأعيان 3 : 448 وفي حاشية المحقق ذكر لمصادر أخرى، ويضاف إليها : الذيل والتكملة 8 : 215-220، وترجمة ابن الشعّار هنا تشتمل على فوائد وزوائد متعدّدة.

نَسَبَ نَفْسَهُ، وَيَقُولُ أَيْضاً سِبْطُ أَبِي البَسَّامِ[144] مُوسَى بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ الحُسَيْنِ ٱبْنِ جَعْفَرَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يُكَنَّى أَبَا الخَطَّابِ ابْنَ أَبِي عَلِيٍّ، وَيُعْرَفُ بِذِي النَّسَبَيْنِ، كَذَلِكَ يَكْتُبُ بِخَطٍّ يَدِهِ فِي الْكُتُبِ، وَهُوَ فَقِيهٌ شَافِعِيُّ المَذْهَبِ مُحَدِّثٌ حَافِظٌ إِمَامٌ فَاضِلٌ عَارِفٌ بِالقُرْآنِ وَاللُّغَةِ، وَتَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فَصِيحٌ فِي إِيرَادِهِ. رَحَلَ فِي طَلَبِ الحَدِيثِ إِلَى ٱلشَّامِ وَالعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَغَيْرِهَا مِنَ البِلاَدِ، وَصَنَّفَ كِتَاباً سَمَّاهُ : «مَرَجَ البَحْرَيْنِ» فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالحَدِيثِ لِلْمَلِكِ الكَامِلِ نَاصِرِ الدِّينِ أَبِي المَعَالِي مُحَمَّدِ ٱبْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبِ[145]. قَدِمَ بَعْدَ عَوْدَةٍ مِنَ البِلاَدِ الخُرَاسَانِيَّةِ مَدِينَةَ ارْبِلَ، وَاتَّصَلَ بِسُلْطَانِهَا المَلِكِ العَظِيمِ مُظَفَّرِ الدِّينِ أَبِي سَعِيدٍ كُوكْبُورِي ابْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْتَكِينَ[146] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فَبَالَغَ فِي اكْرَامِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ إِنْعَاماً عَظِيماً، وَصَنَّفَ لَهُ كِتَاباً سَمَّاهُ (كِتَاب التَّنْوِيرِ فِي مَوْلِدِ السِّرَاجِ المُنِيرِ)، وَيَتَضَمَّنُ ذِكْرَ وِلاَدَةِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَآهُ مُغْرًى بِمَوْلِدِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشِدَّةِ شَغَفِهِ بِذَلِكَ، وَإِصْغَائِهِ إِلَيْهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ المَلِكَ المُعَظَّمَ مُظَفَّرَ الدِّينِ قَدَّسَ ٱللَّهُ رُوحَهُ انْفَرَدَ بِشَيْءٍ مَا سَبَقَهُ أَحَدٌ إِلَيْهِ مِنَ المُلُوكِ المَاضِينَ وَالخُلَفَاءِ المُتَقَدِّمِينَ، وَاخْتَصَّ بِهِ دُونَهُمْ تَبَرُّكاً بِوِلاَدَتِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَإِنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِنَصْبِ القِبَابِ مِنَ الخَشَبِ مُتَّصِلَةً مُنْتَظِمَةً مِنَ الخَانِقَاهِ الَّتِي تَحْتَ القَلْعَةِ المَحْرُوسَةِ إِلَى الخَانِقَاهِ ٱلَّتِي تَقْرُبُ مِنْ دَارِ السَّلْطَنَةِ بِٱلْمَدِينَةِ مُنْذُ مُسْتَهَلِّ شَهْرِ صَفَر، وَتُزَيَّنُ فِي العِشْرِينَ مِنْهُ بِآلاَتِ الثِّيَابِ وَأَنْوَاعِ السِّلاَحِ وَالأَقْمِشَةِ الفَاخِرَةِ، وَيُعَلَّقُ فِيهَا ٱلتَّعَالِيقُ، وَيُغَنِّي فِيهَا المُغَنُّونَ وَأَرْبَابُ الطَّرَبِ وَيَقْصِدُهَا النَّاسُ لِلتَّفَرُّجِ مِن أَقْطَارِ البُلْدَانِ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى ثَانِي عَشَرَ رَبِيعِ ٱلأَوَّلِ وَهُوَ مَوْلِدُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ تُرْفَعُ الْقِبَابُ، وَيَخْلَعُ عَلَى الوُعَّاظِ وَالعُلَمَاءِ وَالقُرَّاءِ، وَيُخْرِجُ الصَّدَقَاتِ عَلَى الفُقَرَاءِ وَالْغُرَبَاءِ الوَارِدِي البَلَدَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ بِلاَدٍ شَتَّى، وَيُنْفِقُ عَلَى ذَلِكَ أَمْوَالاً جَمَّةً.

---

(144) ترجمة أبي البسام في الصّلة : 579 وصلة الصلة 3 : 56-57.

(145) ترجمة الملك الكامل في وفيات الأعيان 5 : 79-92.

(146) ترجمة السلطان مظفر الدين في وفيات الأعيان 4 : 113-121.

وَلَمْ يُسْمَعْ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ عَنِ المُلُوكِ السَّالِفَةِ وَالسَّلاَطِينِ الغَابِرَةِ مَنِ انْتَدَبَ لِهَذَا الأَمْرِ وَبَالَغَ فِيهِ سِوَى هَذَا السُّلْطَانِ المَلِكِ المُعَظَّمِ، فَرَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَبَلَّغَهُ فِي آخِرَتِهِ مَا يَتَمَنَّاهُ، وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُ، وَأَحْسَنَ مُنْقَلَبَهُ وَمَآبَهُ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ الأَبْرَارِ الطَّاهِرِينَ[147].

وَهَذَا كِتَابُ (التَّنْوِيرِ) كُنْتُ أَحَدَ مَنْ سَمِعَهُ عَلَى المَلِكِ المُعَظَّمِ مُظَفَّرِ الدِّينِ نَوَّرَ ٱللَّهُ ضَرِيحَهُ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَسِتٍّ مِئَةٍ بِرِبَاطِ الصُّوفِيَّةِ المَعْرُوفِ بِرِبَاطِ المُنَاظَرَةِ قَرِيباً مِنَ القَلْعَةِ المَنْصُورَةِ بِحَقِّ رِوَايَتِهِ عَنْ مُصَنِّفِهِ الإِمَامِ أَبِي الخَطَّابِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِ هَذِهِ ٱلأَبْيَاتُ يَمْدَحُ بِهَا المَلِكَ المُعَظَّمَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ :

مَلِكٌ يَلُوحُ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ... سِيمَا، وَمِنْ بَدْرِ التَّمَامِ مَخَايِلُ
لاَ يَقْتَنِي غَيْرَ الثَّنَا ذُخْراً وَلاَ ... يُفْنِي لَدَيْهِ المَالَ إِلاَّ النَّائِلُ
انْظُرْ لإِرْبِلَ، صَاحِ، قَدْ لَبِسَتْ بِهِ ... ظِلاًّ كَمَا وَشَتِ الرِّيَاضَ خَمَائِلُ
لَوْ تَسْتَطِيعُ لَصَافَحَتْهُ يَمِينُهَا ... لَمَّا أَتَاهَا مِنْهُ مُزْنٌ هَامِلُ
فَأَفَاضَ فِيهَا العَدْلَ ثَرّاً سَلْسَلاً ... تَرْوِى المُنَى فِيهِ، وَهُنَّ هَوَاطِلُ
بُشْرَى لَهَا، فَلَقَدْ تَقَلَّدَ مُلْكَهَا ... مَلِكٌ حُلاَهُ مَكَارِمٌ وَفَوَاضِلُ
وَمَوَاهِبٌ وَسَلاهِبٌ وَرَغَائِبٌ ... وَمَقَانِبٌ وَكَتَائِبٌ وَجَحَافِلُ
يَا وَيْحَ أَرْضِ الرُّومِ، سَوْفَ يَزُورُهَا ... مِنْ نَجْلِ زَيْنِ الدِّينِ هَوْلٌ هَائِلُ
وَتَضِلُّ دَارُ الشِّرْكِ خَصْراً أَهْيَفاً ... فِيهِ وِشَاحٌ لِلْكَتَائِبِ جَائِلُ
وَيُطِيفُ فِيهَا للإِسَارِ وَلِلْحِصَـــارِ ... دَمَالِجٌ وَأَسَاوِرٌ وَخَلاَخِلُ
لاَزَالَ كَالشَّمْسِ المُنِيرَةِ فِي الضُّحَى ... وَعِدَاهُ فِي ٱلْهَيْجَاءِ ظِلٌّ زَائِلُ

وَلَهُ مِنَ التَّصَانِيفِ كِتَابُ : (الانْذَارَاتِ)، وَهُوَ فِي مُجَلَّدَيْنِ سَمَّاهُ بِـ(مَرَجِ البَحْرَيْنِ، فِي فَوَائِدِ المَشْرِقَيْنِ وَالمَغْرِبَيْنِ)، وَكِتَابُ : (الْعَلَمُ المَشْهُورُ، فِي فَوَائِدِ ٱلأَيَّامِ وَالشُّهُورِ)، وَكِتَابُ : (النِّبْرَاسِ، فِي ذِكْرِ خُلَفَاءِ بَنِي العَبَّاسِ) وَكِتَابُ :

---

(147) لابأس من الإشارة هنا إلى أن العزفيين في سبتة قاموا بمثل ما قام به سلطان إربل وكتبوا إلى الخليفة المرتضى الموحدي فصار يحتفل بالمولد النبوي ثُمَّ عظُم الاحتفال به بعد ذلك.

(جَمِيعُ العُلُوم الكَمِّيات، فِي قَوْلَةِ الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)، وَكِتَابُ : (الارْتِقَا، إِلَى أَفْضَلِ الرُّقَى)، وَكِتَابُ : (الابْتِهَاج، فِي أَحَادِيثِ المِعْرَاجِ)، وَكِتَابُ : (مَنَ ٱلْقِمَ ٱلْحَجَرَ، إِذْ كَذَبَ وَفَجَرَ)، وَكِتَابُ : (نَثْر الدُّرَرِ، فِي فَضْلِ مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّةِ سَيِّدِ البَشَرِ)، وَكِتَابُ : (آدَاب مَا وَجَبَ، فِي بَيَانِ وَضْعِ مَا وَرَدَ فِي رَجَبٍ) وَكِتَابُ : (المُسْتَوْفَى، فِي شَرَفِ المُصْطَفَى)، وَكِتَابُ : (المُطْرِب، فِي أَشْعَارِ أَهْلِ المَغْرِبِ)، وَكِتَابُ : (الآيَات البَيِّنَاتِ، فِيمَا خَصَّ ٱللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَعْضَاءَ نَبِيِّه مِنَ المُعْجِزَاتِ)، وَكِتَابُ : (وَهَج الجَمْرِ، فِي تَحْرِيمِ الخَمْرِ)، ثُمَّ سَكَنَ بِأُخَرَةٍ مِصْرَ وَالقَاهِرَةَ المُعِزِّيَّة، وَبَنَى لَهُ المَلِكُ الكَامِلُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ دَارَ حَدِيثٍ، وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ الحَدِيثَ فِيهَا، وَيَنْفَعُ النَّاسَ بِالعُلُومِ وَالجَاهِ وَالمَالِ، وَيُكْرِمُ الوَارِدِينَ عَلَيْهِ مِنَ البُلْدَانِ شَرْقاً وَغَرْباً، وَعَجَماً وَعُرْباً إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ لَيْلَةَ الأَرْبَعَاءِ آخِرَ اللَّيْلِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ جَنَازَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمُنَادٍ يُنَادِي أَمَامَ نَعْشِهِ : «هَذَا الَّذِي كَانَ يَذِبُّ الْكَذِبَ عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ». كَذَلِكَ أَخْبَرَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ الْفُرِّيَانِي اللَّخْمِيٌّ، وَقَالَ : كَانَتْ وِلاَدَتُهُ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ بِأَغْمَاتَ مِنْ أَعْمَالِ مُرَّاكُشَ وَنَشَأَ بِسَبْتَةَ، وَوَلِيَ القَضَاءَ بِبَرِّ الأَنْدُلُسِ بِمَدِينَةِ دَانِيَةَ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا إِلَى المَشْرِقِ.

حَدَّثَنِي القَاضِي الإِمَامُ بَهَاءُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الخَشَّابِ أَسْعَدَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، قَالَ : جَمَعَ أَبَا اليُمْنِ الكِنْدِيَّ[148] وَأَبَا الخَطَّابِ ابْنَ دِحْيَةَ مَجْلِسٌ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا عَدَاوَةٌ، فَتَهَاتَرَا فِيهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ دِحْيَةَ : أَنْتَ مِمَّنْ يُزَنُّ بِالهَنَاتِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو اليُمْنِ مُجَاوِباً : ٱخْسَأْ، أَنْتَ نُسِبْتَ إِلَى كَلْبٍ، فَنَبَحْتَ، فَعَمِلَ ابْنُ دِحْيَةَ كِتَاباً [وَسَمَهُ] بِٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ضَلاَلِ الكِنْدِيِّ[149]. وَحَدَّثَنِي

(148) هو تاج الدين زيد بن الحسن المكنى بأبي اليُمْن، وله ترجمة موسعة في وفيات الأعيان 2 : 339–342 والوافي بالوفيات 15 : 50–57.

(149) كذا في الأصل، وفي الوافي : الصارم الهندي، في الرّدّ على الكندي وفيه أن أبا اليمن ردّ عليه بمصنف سماه : نتف اللحية، من ابن دحية.

القَاضِي أَبُو القَاسِمِ[150] أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ : ابْنُ دِحْيَةَ. كَانَ يُسَمِّي نَفْسَهُ بِذِي النَّسَبَيْنِ : ابْن دِحْيَةَ وَالحَسَيْنِ، ذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ بَنِي دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ مِنْ أَهْلِ المَغْرِبِ مِنْ مَدِينَةِ سَبْتَةَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ وَلِيَ قَضَاءَهَا وَهُوَ شَيْخٌ فَاضِلٌ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِاللُّغَةِ وَالنَّحْوِ حَافِظٌ لِلْحَدِيثِ وَمَعَانِيهِ وَرِجَالِهِ فَقِيهٌ مُتْقِنٌ، كَانَ يَقُولُ : أَحْفَظُ صَحِيحَ مُسْلِمٍ جَمِيعَهُ، وَقَرَأْتُهُ مِنْ حِفْظِي بِالمَغْرِبِ عَلَى بَعْضِ الشُّيُوخِ، خَرَجَ مِنَ المَغْرِبِ، وَحَجَّ وَدَخَلَ إِلَى بِلادِ العَجَمِ، وَسَمِعَ بِهَا صَحِيحَ مُسْلِمٍ مِنْ أَصْحَابِ الفُرَاوِي[151]، ثُمَّ عَادَ إِلَى بَغْدَادَ، وَرَحَلَ إِلَى الشَّامِ، وَقَدِمَ عَلَيْنَا حَلَبَ، وَسَمِعْنَا عَلَيْهِ مُوَطَّأَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رِوَايَةَ عَنْ يَحْيَى وَغَيْرِهِ ثُمَّ تَرَدَّدَ بَعْدَ ذَلِكَ مِرَاراً إِلَى حَلَبَ آخِرُهَا بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ، وَسُيِّرَ رَسُولاً مَرَّ بِهَا مُجْتَازاً، وَحَصَلَ لَهُ حَظْوَةٌ عَظِيمَةٌ وَتَقَدَّمَ رَأْيُهُ بِمِصْرَ عِنْدَ المَلِكِ الكَامِلِ. قَالَ : وَأَخْبَرَنِي أَبُو الرُّوحِ الحِمْيَرِيُّ[152] الأَنْدَلُسِيُّ، قَالَ : هَذَا ابْنُ دِحْيَةَ لَيْسَ بِصَحِيحِ النَّسَبِ، وَأَصْلُهُ يَهُودِيٌّ، وَكَانَ يُلَقَّبُ بِالْكُوَّةِ وَكَانَ فِي صِغَرِهِ يُرْمَى بِمَا لاَ يَجُوزُ، وَأَبُوهُ حَسَنٌ كَانَ يُلَقَّبُ بِالزَّعْبَطُورِ، وَالزَّعْبَطُورُ هُوَ المُشَوَّهُ الخَلْقِ العَظِيمُ الخِلْقَةِ بِلُغَةِ الأَنْدَلُسِ، المُقَطَّعِ السَّرْمُوزِ، أَوْ تَكُونُ ثِيَابُهُ مُقَطَّعَةً وَسِخَةً.

أَبُو عَلِيٍّ : وَيُلَقَّبُ بِالقَنُّوطِ لِفَرَاغِهِ، وَقِلَّةِ عَقْلِهِ، يُرِيدُ القَصَبَةَ الفَارِغَةَ[153].

أَبُو يُوسُفَ : وَلَقَبُهُ الجُمَيِّلُ تَصْغِيرُ الجَمَلِ بِلُغَةِ العَامَّةِ، قَالَ ابْنُ دِحْيَةَ عَقِيبَ كِتَابٍ صَنَّفَهُ لِلْمَلِكِ الكَامِلِ صَاحِبِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ وَخَتَمَ آخِرَهُ [بقَوْله] : «وَاسْمُ الكِتَابِ مَنْ أَلْقَمَ الحَجَرَ، إِذْ كَذَبَ وَفَجَرَ، وَأَسْقَطَ عَدَالَةَ عَدَدٍ مِنَ الصَّحابة فَمَا لَهُ أَهْجَر». ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلاَمٍ طَوِيلٍ : «هَذِهِ مَسْأَلَةٌ بَدِيعَةُ النِّظَامِ، مُسْتَوْفِيَةٌ شُرُوطِ التَّمَامِ وَالكَمَالِ، قَدْ أَشْرَقَتْ شَمْسُ الفَصَاحَةِ فِي أَرْجَائِهَا، وَفَاقَتْ فِي أُفُقِ البَلاَغَةِ

---

(150) هو ابن العديم صاحب بغية الطلب.

(151) هو أبو عبد الله محمد بن الفضل الفُرَاوي النيسابوري، انظر ترجمته في وفيات الأعيان 4 : 290-291.

(152) انظر ترجمته في هذا المجموع (ص 103، 179).

(153) كلام أبي الروح تشم منه رائحة العداوة، ولا نعلم سببها.

بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الذَّبِّ عَنِ الصَّحَابَةِ عَلَى أَكْفَائِهَا، فَهِيَ رَوْضَةٌ تَتَنَزَّهُ مُقَلُ الخَوَاطِرِ فِي أَنْحَائِهَا :

فَنَرْجِسُهَا يَحْكِي عُيُوناً وَوَرْدُهَا ... خُدُوداً جَرَتْ أَجْفَانُ عُشَّاقِهَا دَمَا
وَإِنْ هَبَّ مُعْتَلُّ النَّسِيمِ تَأَرَّجَتْ ... وَفَاحَ بِمِسْكٍ نَشْرُهَا وَتَنَسَّمَا

وَذَلِكَ بِفَضْلِ ٱللَّهِ، وَطَوْلِهِ، وَسَعَادَةِ مَنِ ٱسْتُنْبِطَتْ مِنْ أَجْلِهِ :

أَعَمُّ الوَرَى جُوداً وَأَرْفَعُهُمْ ذُراً ... وَأَرْجَحُهُمْ عَقْلاً وَآمَنُهُمْ حِمَى
وَأَعْظَمُهُمْ مُلْكاً، وَأَنْدَاهُمُ يَداً ... وَأَجْدَرُهُمْ عَفواً إِذَا مَا تَحَكَّمَا
وَأَتْقَى وَأَنْقَى سِيرَةً وَسَرِيرَةً ... وَأَجْمَلُ بَلْ أَبْهَى وَأَعْلَى تَعَظُّمَا

وَصَنَّفَ كِتَاباً سَمَّاهُ : (الْعَلَمُ الْمَشْهُورُ، فِي فَوَائِدِ فَضْلِ الأَيَّامِ وَالشُّهُورِ). وَذَكَرَ فِي آخِرِهِ هَذَا الكَلاَمَ المَنْثُورَ المَسْجُوعَ، وَهِيَ مُنَاجَاةٌ [كَتَبَهَا] عِنْدَمَا زُمَّتْ إِلَى الحَجِّ رِحَالُ الرِّكَابِ : «يَا رَسُولَ ٱللَّهِ الْمَبْعُوثَ إِلَى الأَسْوَدِ وَٱلأَحْمَرِ، وَالمَخْصُوصَ بِطَهَارَةِ نَهْرِ الكَوْثَرِ، قَرِيبُكَ بَلْ عَبْدُكَ ذُو النَّسَبَيْنِ أَسْرَعَ بِهِ إِلَى بَيْتِكَ المُعَظَّمِ، وَإِلَى قَبْرِكَ المُكَرَّمِ الشَّوْقُ، وَيُقْعِدُهُ وُجُودُ الشَّاخَةِ وَعَدَمُ الطَّوْقِ. وَإِذْ رَحَلَ المُسْتَطِيعُ، وَبَادَرَ المُمْتَثِلُ المُطِيعُ، ذَرَفَتْ دُمُوعُهُ انْسِكَاباً، وَوَدَّ لَوْ قَدْ أَعْمَلَ إِلَى الكَعْبَةِ المُعَظَّمَةِ وَالتُّرْبَةِ المُكَرَّمَةِ أَقْدَاماً أَوْ رِكَاباً. وَلَمَّا ظَعَنَ الرَّكْبُ وَاسْتَقَلُّوا، وَرَحَلُوا بَعْدَ مَا حَلُّوا، تَشَبَّثْتُ بِهِمْ تَشَبُّثَ الغَرِيقِ بِمَا يَجِد، وَوَدَّعْتُهُمْ وَأَنَا مُنْهَلُّ المَدَامِعِ مَصْدُوعُ الكَبِدِ، فَكَمْ لَيْلَةٍ بِتُّ بِهَا بِذَيْنِكَ الحَرَمَيْنِ، قَرِيرَ العَيْنِ، فَطَاوَلْتُ انْتِخَاءاً بِهَا سَامِيَ الشِّعْرَيَيْنِ، وَأَنَا أُنْشِدُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ المَأْزِمَيْنِ :

لَمَّا رَأَيْتُ مُنَادِيهُمْ أَلَمَّ بِنَا ... شَدَدْتُ مِئْزَرَ إِحْرَامِي وَلَبَّيْتُ
وَقُلْتُ لِلنَّفْسِ: جِدِّي الآنَ وَاجْتَهِدِي ... وَسَاعِدِينِي، فَهَذَا مَا تَمَنَّيْتُ
لَوْ جِئْتُكُمْ قَاصِداً أَسْعَى عَلَى بَصَرِي ... لَمْ أَقْضِ حَقّاً، وَأَيُّ الحَقِّ أَدَّيْتُ ؟

وَلَمَّا مَسَّتْنِي الآنَ الكَبْرَةُ وَٱلشَّاخَةُ، وَأَنَاخَ الزَّمَانُ عَلَيَّ أَيَّ إِنَاخَةٍ خَاطَبْتُ وَقَدَمِي، تَوَدُّ لَوْ سَبَقَتْ قَلَمِي، واشْتِدَادِي، يَتَمَنَّى لَوْ يَعْدَمُ مِدَادِي، وَنَفْسِي، تَحْرِصُ عَلَى أَنْ تُعَاجِلَ طِرْسِي، لَكِنَّ ٱلْكَبْرَة أَبَتْ، فَكَانَ قُصَارَايَ عَيْنٌ دَمِعَتْ، وَكَفٌّ كُتِفَتْ وَقَدْ أَلَّفْتُ هَذَا الكِتَابَ مُحْتَسِباً لِلأَجْرِ، وَمُسْتَبْقِيّاً بِهِ لِلسُّلْطَانِ

المَلِكِ الكَامِلِ أَحْمَدَ الذِّكْرِ، فَأَوْدَعْتُهُ مِنَ العُلُومِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ صَاحِبُ كُلِّ شَانٍ، مِنْ حَدِيثٍ وَفِقْهٍ، وَلُغَةٍ وَنَحْوٍ وَأُصُولٍ وَتَارِيخٍ وَشِعْرٍ وَحِسَابٍ وَبَيَانٍ؛ وَقَصَدْنَا تَأْلِيفَ كِتَابٍ فِي مَعْنًى فَجِئْنَا بِمَعَانٍ، حَتَّى نُنَشِّطَ قَارِئَهُ بِخُرُوجِهِ مِنْ لَوْنٍ إِلَى أَلْوَانٍ، وَيَنُوبَ لَهُ عَنْ كُلِّ حَدِيقَةٍ وَبُسْتَانٍ، فَفِيهِ تَذْكِرَةٌ لأَهْلِ الإِيمَانِ، وَفِقْهٌ لأَهْلِ اللُّبِّ والرُّجْحَانِ، مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُ نَظْمِهِ فِي تَأْلِيفٍ وَاحِدٍ، وَتُوجَدُ فُنُونُهُ مَجْمُوعَةً فِي تَصْنِيفٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِعَوْنِ ٱللَّهِ الكَرِيمِ وَطَوْلِهِ، وَسَعَادَةِ مَنْ أُلِّفَ مِنْ أَجْلِهِ. وَأَمْعَنْتُ فِي الشَّرْحِ وَالتَّفْسِيرِ، وَلَمْ أَرْضَ بِٱللَّمْحِ الْيَسِيرِ.

ثُمَّ أَنْشَدَ بَعْدَ خَبَرٍ أَسْنَدَهُ إِلَى الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ الأَبْيَاتَ يَمْدَحُ بِهَا المَلِكَ الكَامِلَ الَّذِي صُنِّفَ الكِتَابُ لأَجْلِهِ(154) :

هَذَا كِتَابٌ لَسْتَ تُبْصِرُ مِثْلَهُ ... بِمُثَقَّفٍ مِنْ أَجْلِهِ وَمُقَيَّدِ
أَلَّفْتُهُ لَكَ مِنْ فُؤَادٍ أَنْتَ فِي ... أَثْنَاءِ أَضْلُعِهِ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
تَخْتَالُ بَيْنَ مَفَصَّلٍ وَمُوَصَّلٍ ... وَمُطَرَّزٍ وَمُنَظَّمٍ وَمُنَضَّدِ
وَلِكُلِّ جُزْءٍ حِكْمَةٌ أَوْ مِنْحَةٌ ... أَوْ بِدْعَةٌ لِمُرَمِّلٍ وَمُقَصِّدِ
فَتُرِيكَ كُلَّ بَدِيعَةٍ فِي نَوْعِهَا ... لَمْ تُخْتَرَعْ وَغَرِيبَةٍ لَمْ تُعْهَدِ
مَا شِئْتَ مِنْ شِعْرٍ أَرَقَّ مِنَ الصَّبَا ... وَخَطَابَةٍ أَزْهَى مِنَ الزَّهْرِ النَّدِي
شَرَّفْتُهُ بِالكَامِلِ المَلِكِ الَّذِي ... وَرِثَ السِّيَادَةَ سَيِّداً عَنْ سَيِّدِ
عِزِّ المُلُوكِ أَبِي المُظَفَّرِ ذِي النَّدَى ... وَسَمِيِّ خَيْرِ العَالَمِينَ مُحَمَّدِ
أَوَ لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ غَدَوْا بِفَخَارِهِمْ ... بِيضَ المَعَالِي فِي الزَّمَانِ الأَسْوَدِ
يَرْوِي سِوَاهُ فَخَارَهُ عَنْ مُرْسَلٍ ... أَبَداً وَيَرْوِي عَنْ صَحِيحٍ مُسْنَدِ
وَيَكَادُ يَعْلَمُ فِطْنَةً وَتَيَقُّظاً ... فِي نَوْمِهِ مِنْ حَادِثٍ مَا فِي غَدِ
يُحْيِي عُلُوماً إِذْ يُمِيتُ جَهَالَةً ... وَيُعِيدُ بِرّاً فِي ٱلأَنَامِ وَيَبْتَدِي
مَلِكٌ فَعَافِيهِ يُمَلِّكُهُ النَّدَى ... وَلَهُ مُلُوكُ الأَرْضِ دُونَ الأَعْبُدِ

(154) جرت عادة ابن دحية أن يبدأ تصانيفه ويختمها بذكر ولي نعمته الملك الكامل كما فعل في آخر هذا الكتاب والكتاب الذي يليه وكما فعل في بداية المطرب وخاتمته وكذلك في آخر التنوير الذي صنفه للملك مظفر الدين صاحب إربل.

سَحَّاحُ مَنْهَلُ كُلِّ مُنْهَلِّ ٱلْحَيَا ضَافِي رِدَاءِ الأَمْنِ صَافِي المَوْرِدِ
بَحْرٌ إِذَا اشْتَدَّ الأُوَامُ لآيِبٍ بَدْرٌ إِذَا اشْتَدَّ الظَّلاَمُ لِمُهْتَدِي
يَجْلُو دَيَاجِيرَ الخُطُوبِ بِغُرَّةٍ مِنْ وَجْهِهِ كَٱلْكَوْكَبِ المُتَوَقِّدِ
ذُو أَخْمَصٍ عَقَدَتْ مَوَاقِعُ عِزِّهِ بِمَعَاقِدِ القَمَرَيْنِ هَامَ الفَرْقَدِ
يَا خَيْرَ مَنْ عَزَّتْ بِهِ فِئَةُ الهُدَى عَدْلاً وَذَلَّ لَهُ الزَّمَانُ المُعْتَدِي
قَدَّسْتَ ذَاتَكَ بِالكَمَالِ وَصُنْتَهَا عَنْ قَدْحِ مُعْتَرِضٍ وَذَمِّ مُفَنِّدِ
وَسَمَتْ إِلَى أُفْقِ العُلاَ بِكَ هِمَّةٌ أَزْرَتْ بِكُلِّ مُعَظَّمٍ وَمُمَجَّدِ
وَرَعَيْتَ أَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ مُوجِداً بِصَلاَحِهِمْ اصْلاَحَ رُوحِ المُفْسِدِ
وَرَفَعْتَ مِنْكَ مَنَارَ كُلِّ فَضِيلَةٍ فَرِدَاءُ نُورِكَ فِي المَمَادِحِ نَرْتَدِي
وَغَدَا بِكَ الإِشْرَاكُ بَعْدَ عِيَاثِهِ فِي قَبْضَةِ الإِسْلاَمِ مَغْلُولَ اليَدِ
وَسَعَيْتَ لِلْعَلْيَاءِ فِي تَخْلِيدِهَا لَمَّا رَأَيْتَ الشَّخْصَ غَيْرَ مُخَلَّدِ
أَنَا طَوْعُ كَفِّكَ نِيَّتِي لَكَ نِيَّتِي فِيمَا تُحِبُّ وَمَقْصِدِي لَكَ مَقْصِدِي

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ كِتَابِ (النِّبْرَاسِ، فِي تَارِيخِ خُلَفَاءِ بَنِي العَبَّاسِ) وَانْتَهَى بِهِ إِلَى ذِكْرِ النَّاصِرِ لِدِينِ ٱللَّهِ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ المُسْتَضِيءِ لأَمْرِ ٱللَّهِ(154م)، أَنْشَدَ لِنَفْسِهِ :

تَرْتَاحُ أَنْدِيَةُ النَّدَى وَالبَاسِ مِنْ ذِكْرِ مَوْلاَنَا أَبِي العَبَّاسِ
نَجْلُ الخَلاَئِفِ، وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ خَيْرِ البَرِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ

وَأَنْشَدَنِي الصَّاحِبُ الوَزِيرُ أَبُو البَرَكَاتِ المُسْتَوْفِي، قَالَ : قَرَأْتُ عَلَى أَبِي الخَطَّابِ مِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ المَلِكَ المُعَظَّمَ مُظَفَّرَ الدِّينِ(155) قَدَّسَ ٱللَّهُ رُوحَهُ :

لَوْلاَ الوُشَاةُ وَهُمُ أَعْدَاؤُنَا مَا وَهِمُوا
وَفَاضَ دَمْعِي وَهَمَى بِالدَّمْعِ لَمَّا حَكَمُوا
فَخَاطِرِي مُضْطَرِبٌ وَنَاظِرِي مُضْطَرِمُ

(154م) هو أطول خلفاء بني العباس مدة، بويع سنة 575هـ وتوفي سنة 622هـ.

(155) ذكر ابن خلكان أنّ هذه القصيدة التي نسبها ابن دحية لنفسه توجد منسوبة إلى الأسعد بن ممّاتي في ديوانه، وقد ختم ابن خلكان كلامه في هذه المسألة بقوله : «وبالجملة فالله أعلم لمن هي منهما»، وفيات الأعيان 1 : 212، 3 : 450.

يَكْـتُبُ دَمْعِـي كُلَّمَـــا   لَـــهُ الفُـــؤَادُ يَكْتُـــمُ
هَـلْ يَتَسَاوَى السَّاهِــرُو   نَ فِي الهَوَى وَالنُّـوَّمُ ؟

وَمِنْهَا :

يَا مُعْـرِضاً عَنْ مُقْبِـلٍ   فِـي الـحُبِّ لاَ يُتَّهَـمُ
سُلُـــوُّهُ مُنْـــفَصِلٌ   وَصَبْـــرُهُ مُنْـــفَصِمُ
إِنْ كُنْتَ لاَ تُنصِفُ فِي   حُكْمِ الهَوَى مَنْ تَظْلِمُ
فَٱللَّـهُ يَـقْضِي بَيْنَنَـا   وَالمَـــلِكُ المُعَظَّـــمُ
مُظَفَّـرُ الدِّيــنِ الَّـــذِي   يُمْنَـاهُ بَحْـرٌ مُفْعَـــمُ
مَــلْكٌ عَمِيــمٌ طَوْلُــهُ   وَفِيــهِ طُــولٌ عَمَـــمُ
يَشْقَـى المُنَـاوِي بِشَقَـا   هُ، وَالمُوَالِــي يَنْعَـــمُ
وُجُــــودُهُ وَجُــــودُهُ   مَـا مِنْهُمَـا لِـي عَـدَمُ
تَرَى قَوَافِي الشِّعْرِ فِي المَـــــــدْحِ لَـهُ تَخْـتَصِمُ
لَوْ لَـمْ يَصِفْـهُ وَاصِفٌ   دَلَّتْ عَلَيْــهِ الشِّيَـــمُ
وَقَالَ عَنْهُ السَّيْـفُ مَـا   يَعْجِــزُ عَنْــهُ القَلَـــمُ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

أَلاَ تَرَى كُلَّ مَنْ عَادَاكَ فِي قَلَتٍ   عَلَيْهِ مِنْ سِيمِيَاءِ الـذُّلِّ أَلْـوَانُ
قَدْ ضَمَّهُ الجِذْعُ ضَمَّ المُسْتَهَامِ بِهِ   فَمَتْنُــهُ قَبْـرُهُ وَالجَـوُّ أَكْفَـــانُ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي قَوْلَهُ :

بِفَتْحِكَ جَاءَ السَّعْدُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ   وَأَقْبَـلَ إِقْبَـالَ الذَّلُـولُ بِـرَاكِبِ
عَلِيـمٌ بِتَدْبِيـرِ الأُمُــورِ مُوَفَّــقٌ   يَرَى بِسِرَاجِ الفِكْرِ مَا فِي العَوَاقِبِ

وَفِيهَا يَقُولُ :

وَيَلْـبَسُ لِلْهَيْجَـا ثِيَــابَ أَسَاوِدٍ   مِنَ الزُّغْفِ حَاكَتْهَا عُيُونُ الجَنَادِبِ

وَأَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ الْقُرَيَانِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي الإِمَامُ أَبُو الخَطَّابِ لِنَفْسِهِ، وَكَتَبَهَا إِلَى المَلِكِ الكَامِلِ نَاصِرِ الدِّينِ أَبِي المَعَالِي

مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوب[156] :

فَدَيْتُكَ هَلْ عَلِمْتَ بِمَنْ رَجَاكَا وَأَمَّلَ فِي ثَرَاكَ وَفِي ذَرَاكَا
وَأَنْشَدَ بَعْدَ بَيْنٍ وَاغْتِرَابٍ: أَتَأْذَنُ لِابْنِ دِحْيَةَ أَنْ يَرَاكَا

وَكَتَبَ إِلَى المَلِكِ فِي صَدْرِ كِتَابٍ صَنَعَهُ لَهُ :

فَوَٱللَّهِ، مَا أَدْرِي، وَإِنِّي لَشَاعِرٌ إِلَى أَيِّ مَعْنًى فِي مَدِيحِكَ أَقْصِدُ
وَجَدْتُ النُّهَى وَالبَأْسَ وَالْفَضْلَ وَالنَّدَى إِذَا ذُكِرَ الأَمْلاَكُ نَحْوَكَ تَسْجُدُ
وَإِنْ قِيلَ: مَنْ لِلْعِلْمِ وَالحِلْمِ وَالعُلاَ وَمَنْ لِقِرَاعِ الخَيْلِ قِيلَ: مُحَمَّدُ
وَعَدْلُكَ فِي الدُّنْيَا بَسِيطٌ لأَهْلِهَا عَلَى أَهْلِهَا مِنْهُ رِوَاقٌ مُمَدَّدُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلقَاهِرِ بْنِ هِبَةِ ٱللَّهِ بْنِ النَّصِيبِي[157] بِحَلَبَ، قَالَ : أَنْشَدَنِي ٱلإِمَامُ أَبُو الخَطَّابِ ٱبْنُ دِحْيَةَ لِنَفْسِهِ :

أَيُّهَا السُّلْطَانُ، فَاسْمَعْ قَوْلَ مَنْ قَوْلُهُ فِي كُلِّ خَطْوٍ يُتْبَعُ
أُمُّهُ الزَّهْرَاءُ بِنْتُ المُصْطَفَى وَالَّذِي فِي النَّاسِ حَقّاً يَشْفَعُ
وَأَبُوهُ مُشْبِهٌ جِبْرِيلَ فِي صُورَةٍ مِنْهُ عَلَيْهِ تُخْلَعُ
مَازَجَتْ جِسْمَ المَعَالِي رُوحُهَا حَبَّذَا ٱلْجِسْمُ وَرُوحٌ تُجْمَعُ
حَسْبُهُ مَدْحُكَ فَخْراً دَائِماً أُذُنُ الخَلْقِ لَهُ تَسْتَمِعُ
أَنْتَ سُلْطَانُ الوَرَى قَاطِبَةً بِكَ يَسْمُو النَّاهِضُ المُضْطَلِعُ
كُلُّهُمْ مِنْ شُكْرِ كَفَّيْكَ غَدَوْا فِي رِيَاضٍ مِنْ صِفَاتٍ تَرْتَعُ
فَإِذَا أَسْمَعَكَ النَّاسُ حُلًى عَنْ مُلُوكٍ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا
فَلْيُزَخْرَفْ كُلُّ شَيْءٍ حَدَّثُوا أَنْتَ أَنْتَ الدَّهْرُ لاَ مَا أَسْمَعُوا
فَابْقَ وَاسْلَمْ فِي سُعُودٍ مَا لَهَا مِنْ أُفُولٍ فِي نُجُومٍ تَطْلُعُ
دَائِماً مَهْمَا تَعَالَتْ قَيْنَةٌ فَرْعَ أَيْكٍ وَسْطَ رَوْضٍ تَسْجَعُ

---

(156) انظر ترجمة الملك الكامل في وفيات الأعيان 5 : 79–92 والوافي بالوفيات 1 : 193–197.

(157) له ترجمة في قلائد الجمان لابن الشعّار 7 : 309.

(157م)فقَالَ هَذِهِ الكَلِمَةَ : «مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ المَأْمُونِ(158) أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ سُلاَلَةِ أَهْلِ البَيْتِ الطَّاهِرِينَ أَهْلِ مَهْبِطِ الوَحْيِ، وَمَصْعَدِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَمَدَارِ فَلَكِ ٱلْعَلاَء، وَمَزَارِ أَمْلاَكِ السَّمَاءِ، وَمَوْطِنِ التَّنْزِيلِ، وَمَوْطِىءِ الرُّوحِ الأَمِينِ جِبْرِيلِ، وَمَقَرِّ الخِلاَفَةِ وَالإِمَامَةِ، وَمَوْضِعِ الكَرَامَةِ، وَلَنَا تَحُجُّ مُلُوكُ الأَرْضِ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ وُجُوبَ الفَرْضِ، فَإِنْ شَرَفَنَا بِالسَّبْقِ فَاتَ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يُدْرَكَ شَأْوُنَا هَيْهَاتَ.

كُلُّ ذَلِكَ بِبَرَكَةِ ابْنِ عَمِّنَا، الَّذِي بِالبَرَكَةِ عمّنا، الاسْمَاعِيلِيّ النَّسَبِ، الإِبْرَاهِيمِيّ المُنْتَسَبِ، المُنِيفِ الطَّرَفَيْنِ، الشَّرِيفِ السَّلَفَيْنِ، المُتَلَقَّى بالرِّسَالَة، والمُنْتَقَى لِلأَدَاءِ وَالدَّلاَلَةِ، المَبْعُوثِ إِلَى الأَحْمَرِ وَٱلأَسْوَدِ، سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ وَمَا وَلَدَ، الَّذِي أُيِّدَ بِكِتَابٍ أُنْزِلَ مِنَ المَلَكُوتِ الأَعْلَى عَلَيْهِ، وَأُوصِلَ عَلَى يَدَي الرُّوحِ الأَمِينِ إِلَيْهِ، أَعْجَزَ الإِنْسَ وَالجِنَّ حِينَ تَحَدَّاهُمْ بُرْهَانُهُ، وَأَعْجَبَ الجِنَّ لَمَّا سَمِعُوهُ بَيَانُهُ، فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَتَفْصِيلُهُ، وَبُرْهَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَدَلِيلُهُ، قَدْ فُصِّلَتْ آيَاته بِتَقْدِيسٍ وَتَوْحِيدٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَحِكَمٍ وَأَحْكَامٍ وَنَقْضٍ وَإِبْرَامٍ، وَقِصَصٍ وَأَخْبَارٍ، وَسِيَرٍ وَأَسْرَارٍ، وَالحَضِّ عَلَى العَمَلِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ دُخُولِ الجَنَّةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ العَمَلِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ دُخُولِ النَّارِ، فَهُوَ بَحْرٌ لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلاَ تَنْفَدُ غَرَائِبُهُ، وَالَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ وَهَتَفَتْ بِمَبْعَثِهِ الكُهَّانُ، وَقَامَ عَلَى صِدْقِهِ البُرْهَانُ، وَرَدَّ ٱللَّهُ بِبَرَكَتِهِ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ، وَأَرْسَلَ عَلَى المَلِكِ الَّذِي جَاءَ وَعَلَى أَصْحَابِهِ طَيْراً أَبَابِيلَ، وَالَّذِي خَمَدَتْ لَيْلَةَ مَوْلِدِهِ نَارُ فَارِسَ وَلَمْ تَخْمَدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَلْفِ عَامٍ، وَكَانَتْ تَعْبُدُهَا المَجُوسُ كَعِبَادَةِ الكُفَّارِ الأَوْثَانَ وَٱلأَصْنَامَ، وَرَأَتْ أُمّهُ حِينَ وَلَدَتْهُ نُوراً أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، وانْشَقَّ إِيوَانُ كِسْرَى وَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعَ عَشَرَةَ شُرْفَة، وَهُوَ القَصْرُ الأَبْيَضُ البَاهِرُ بِحُسْنِهِ أَبْصَارَ

(157م) بياض في الأصل مقداره نصف صفحة.

(158) هو الخليفة المامون العبّاسي ويبدو أن هذه رسالة وجهها إلى من سيذكر فيما بعد باسم دُهْمي عظيم عظماء الهند، ونظراً للبتر الحاصل في الأصل فإني لم أتمكن من معرفة علاقة ابن دحية بهذه الرسالة، وهي تشبه في عدد من فصولها مولدا من الموالد، فهل هي جزء من التنوير.

ٱلْمُبْصِرِينَ، وَنَزَلَتِ المَلاَئِكَةُ مِنَ الأُفُقِ المُبِينِ، وَرَجَمَتْ بِالشُّهْبِ جَمِيعَ الشَّيَاطِينِ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةَ سَاوَةَ، وَذَهَبَ مَاؤُهَا المَعِينُ، وَفَاضَ وَادِي السَّمَاوَةِ آيَةً حَصَلَ بِهَا ــ لَمَّا حَامَ الشَّكُّ ــ اليَقِين، وَالَّذِي يُظَلِّلُهُ ظِلُّ الغَمَامِ، وَيُخَاطِبُ المُبْهَمَ بِفَصِيحِ الكَلاَم، وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ الأَحْجَارُ، وَتَسْجُدُ لَهُ ٱلأَشْجَارُ، وَيَدْعُو الشَّجَرَ فَتَأْتِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالرُّجُوعِ فَيَرْجِعُ سَامِعاً مُطِيعاً بِقُدْرَةِ مَنْ أَعَانَهُ عَلَيْهِ، وَيُسَبِّحُ الطَّعَامُ عِنْدَ أَكْلِهِ لَهُ، وَذَلِكَ آيَةٌ خَصَّهُ ٱللَّهُ بِهَا وَفَضِيلَةٌ.

وَٱلَّذِي أُسْرَى بِهِ مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى لَيْلاً، وَجَرَّرَ عَلَى المَجَرَّةِ فِي دَرَجِ المِعْرَاجَ ذَيْلاً، عَلَى دَابَّةٍ يُقَالُ لَهَا البُرَاقُ، لاَ يُسْتَطَاعُ رُكُوبُهَا وَلاَ يُطَاقُ، إِلاَّ لِمَنْ سَخَّرَهَا لَهُ ٱلإِلَهُ الخَلاَّقُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، حَيْثُ تَعْنُو وُجُوهُ المَلاَئِكَةِ الطَّائِعَةِ، وَيَغْشَاهُمْ سَنَا الأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ، فَسَارَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسِيرَةَ سَبْعَةِ آلاَفِ سَنَةٍ، صَاعِداً وَنَازِلاً فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ مِنْ غَيْرِ نَوْمٍ وَلاَ سِنَةٍ، وَاسْتَوَى بِمُسْتَوًى تَسْمَعُ فِيهِ صَرِيرُ الأَقْلاَمِ عَلَى الأَلْوَاحِ، وَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ عِنْدَمَا كَادَ جَبِينُ الشَّرْقِ يَرْشَحُ بِنُورِ الصَّبَاحِ، وَأَصْبَحَ يُحَدِّثُ بِأَخْبَارِ المَلَكُوتِ فِي أُمِّ القُرَى يَسْنُدُهُ مَنْ حَفِظ : ﴿مَا كَذَّبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾.

وَٱلَّذِي انْشَقَّ لَهُ القَمَرُ المُنِيرُ، وَنَبَعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِراراً عِدَّةً المَاءُ النَّمِيرِ، وَزَكَا بِيُمْنِ يَمِينِهِ ٱلطَّعَامُ اليَسِيرُ، فَأَكَلَ مِنْهُ الجَمُّ الغَفِيرُ، وَقَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ آيَةً، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَنَّ لَهُ بِهِ عِنَايَةً. وَٱلَّذِي حَذَّرَهُ ٱلْكُرَاعُ المَسْمُومَ عَنْ أَكْلِهِ، ثُمَّ لَمْ يَعْدُ عَلَيْهِ بَعْدَمَا أَكَلَ مِنْهُ لُقْمَةً لِعِصْمَةِ ٱللَّهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَٱلَّذِي حَنَّ الجِذْعُ اليَابِس إِلَيْهِ وَسُمِعَ لَهُ صَوْتٌ كَأَصْوَاتِ العِشَارِ. وَهَذِهِ آيَةٌ نُظِرَتْ بِعَيْنِ الصِّحَّةِ وَطَارَتْ بِجَنَاحِ الانْتِشَارِ. وَرَجَفَ بِهِ وَبِخُلَفَائِهِ الجَبَلُ، فَرَاضَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ : اسْكُنْ فَسَكَنَ وَامْتَثَلَ، وَبَثَّ لَهُ الشَّكْوَى الجَمَل.

وَالَّذِي قَرَنَ ٱللَّهُ تَعَالَى اسْمَهُ باسْمِهِ وَأَعْلَنَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَجْرَى ذِكْرَهُ بِأَنْوَاعِ المَحَامِدِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ.

وَٱلَّذِي كَانَ يُنْصَرُ وَيُؤَيَّدُ فِي الحُرُوبِ، بِرِيحِ الصَّبَا وَهِيَ ذَاتُ الهُبُوبِ،

فَهَزَمَتْ لَيْلَةَ الأَحْزَابَ جَمِيعَ أَعْدَائِهِ وَكَانُوا قَدْ حَاصَرُوهُ فِي عِدَّةِ أُلُوفٍ، فَاقْتَلَعَتِ الخِيَامَ وَأَكْفَأَتِ القُدُورَ وَزَحْزَحَتْ جَمِيعَ الصُّفُوفِ؛ وَنُصِرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَنَزَلَتِ السَّكِينَةُ مِنَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ، وَانْكَسَرَ سَيْفُ عُكَاشَةَ بْنِ مُحْصِنٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَأَعْطَاهُ عُرْجُوناً أَوْ عُوداً فَصَارَ بِيَدِهِ سَيْفاً يَوْمَئِذٍ يَفْرِي الجَمَاجِمَ، وَيَبْرِي الأَعْضَاءَ وَٱلْبَرَاجِمَ، وَكَذَلِكَ انْقَطَعَ سَيْفُ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ جَحْشٍ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَعْطَاهُ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ عُرْجُونَ نَخْلَةٍ، فَصَارَ فِي يَدِهِ سَيْفاً يُقَالُ إِنَّ قَائِمَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَزَلْ يُتَنَاوَلُ حَتَّى بِيعَ مِنْ بَغَا التُّرْكِيِّ بِمِئَتَيْ دِينَارٍ، وَهَذِهِ مُعْجِزَةٌ قَدْ بَقِيَتْ بَعْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَهِيَ وَاضِحَةُ المَنَارِ.

وَالَّذِي خَصَّهُ ٱللَّهُ بِٱلْحَوْضِ وَالشَّفَاعَةِ، وَأُخْبِرَ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذَا الحَوْضُ هُوَ نَهْرُ الكَوْثَرِ ٱلْمُفْعَمِ المَلآنِ، ٱلَّذِي سَاحَتُهُ مِنْ بُصْرَى إِلَى عَمَّانَ، أَوْ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى عُمَانَ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ ٱلثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ فِي المَذَاقِ، وَأَبَارِيقُهُ عَلَى عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ ذَوَاتِ الإِشْرَاقِ.

وَالَّذِي زَوَى ٱللَّهُ لَهُ الأَرْضَ فَأَرَاهُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَأَعْطَاهُ كُنُوزَهَا وَمَطَالِبَهَا، وَأَخْبَرَهُ جَلَّ وَعَلاَ أَنَّ مُلْكَ أُمَّتِهِ سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لَهُ مِنْهَا، وَلَقِيَ رَبَّهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَهُوَ مُعْرِضٌ إِعْرَاضَ الزَّاهِدِ عَنْهَا، وَقُبِضَ ﷺ بَعْدَ أَنْ خَيَّرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا فَاخْتَارَ لِقَاءَ رَبِّهِ، لِرَغْبَتِهِ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَحُبِّهِ، فَجَمَعَ ٱللَّهُ لَهُ بَيْنَ مُلْكِ الدَّارَيْنِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ جَزِيلَ النِّعْمَتَيْنِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَكَسَرَ بِدَعْوَتِهِ شَوْكَةَ الأَكَاسِرَةِ، وَجَبَرَ الدِّينَ وَقَصَمَ ظُهُورَ الجَبَابِرَةِ، فَفَشَتْ دَعْوَتُهُ فِي المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ كَمَا وَعَدَ وَشَاعَتْ، وَأَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ يَسْتَخْلِفُ فِي أَرْضِهِ مَنَ آمَنَ بِهِ فَكَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَهَذِهِ مُعْجِزَةٌ ذَاعَتْ، فَاسْتَخْلَفَ ٱللَّهُ أَصْحَابَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ فَسَمِعَتِ ٱلأُمَّةُ لَهُمْ وَأَطَاعَتْ، فَكَانُوا خُلَفَاءَ الخَلْقِ، وَفَتَحَتِ الغَرْبَ وَالشَّرْقَ، يُقَاتِلُونَ عَبَدَةَ الأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ عُزَّلاً، وَيَسُوقُ الوَاحِدُ مِنْهُمْ الأَلْفَ كَمَا يُسَاقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، وَطَارَتْ قُلُوبُ المُلُوكِ رُعْباً مِنْهُمْ وَطَاشَتْ، وَخَفَقَتْ أَفْئِدَتُهُمْ خَوْفاً مِنْ ذِكْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَجَاشَتْ، وَتَمَنَّتْ أَنَّهَا إِلَى زَمَنِهِ مَا عَاشَتْ، فَبِهَذَا النَّبِيِّ أُفَاخِرُ مَنْ يَفْخَرُ، وَأُكَابِرُ مَنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَدَدَ الرَّمْلِ، وَمَدَدَ النَّمْلِ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ الكَرِيمِ، الجُدَرَاءِ

بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، إِلَى دُهْمِي عَظِيمِ عُظَمَاءِ الهِنْدِ وَرُكْنِ أَرَاكِنِ السِّنْدِ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ، وَجَعَلَهُ مِمَّنْ دَعَا إِلَى دَارِ السَّلاَمِ، وَاتَّبَعَ سَبِيلَ المُؤْمِنِينَ، وَقَالَ: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ وَصَلَ كِتَابُكَ جَالِياً عَرَائِسَ خَصَائِصِكَ عَلَيْنَا، وَجَالِياً نَفَائِسَ خَصَائِلِكَ إِلَيْنَا، فَفَضَضْنَا عَنِ الجَوَاهِرِ مِنْهُ خِتَاماً، وَأَمَطْنَا عَنِ الأَزَاهِرِ مِنْهُ كِمَاماً، وَاسْتَجْلَيْنَا مِنْ مَعَانِيهِ مَا لَوْ كَانَتْ خُدُوداً لَكَانَتْ مُضَرَّجَةً، أَوْ ثُغُوراً لَكَانَتْ مُفَلَّجَةً، وَاسْتَدْلَلْنَا بِفَحْوَى خِطَابِهِ عَلَى مَا تُضْمِرُهُ لَنَا مِنْ مَوَدَّةٍ لاَ كَذِبَ فِيهَا، وَمَحَبَّةٍ نِيطَتْ بِعُرَى الصِّدْقِ أَوَاخِيهَا، فَأَمَّا مَا صَدَّرْتَهُ فِي كِتَابِكَ مِنْ تَعْظِيمِ مُلْكِكَ وَنَفِيسِ ذَخَائِرِكَ، وَطِيبِ رَائِحَةِ قَصْرِكَ وَفَخْرِكَ وَفَخْرِ آبَائِكَ، فَإِنَّكَ فَخَرْتَ بِأَعْرَاضِ الجَوَاهِرِ الفَانِيَةِ القَلِيلَةِ البَقَاءِ، وَزَخَارِفِ الدُّنْيَا الَّتِي لاَ يَحْصُلُ الوَاثِقُ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ النَّصَبِ وَالشَّقَاءِ، وَمُلْكُهَا وإِنْ عَظُمَ دَوَامُهُ سَحَابَةُ صَيْفٍ، وَمَالِكُهَا، وَإِنْ طَالَ مُقَامُهُ فَعُجَالَةُ ضَيْفٍ. فَإِنَّا لاَ نُفَاخِرك بِأَمْثَالِهِ مِمَّا مَلَكْنَاهُ مِنْ سَهْلِ الأَرْضِ وَجِبَالِهَا، وَاحْتَوَتْ عَلَيْهِ خَزَائِنُنَا مِمَّا أَخَذْنَاهُ بِسُيُوفِنَا مِنْ ذَخَائِرِ المُلُوكِ وَأَمْوَالِهَا، وَإِنَّمَا الفَخْرُ بِتَقْوَى ٱللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَالإِيمَانِ بِهَذَا النَّبِيِّ الأُمِّيِّ خَاتِمِ الأَنْبِيَاءِ، وَأَفْضَلِ مَنْ مَشَى تَحْتَ السَّمَاءِ، وَالْتِزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَالعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ، وَالحُكْمِ بِالسَّوِيَّةِ، بَيْنَ القَوِيِّ وَالضَّعِيفِ، وَالشَّرِيفِ وَالمَشْرُوفِ، وَذَلِكَ الْتِزَامُ شَرِيعَةِ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، وَأَنْ يَتَّقِيَ كِتَاباً عِنْدَ ٱللَّهِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا، فَكَيْفَ كَفَفْتَ عَنِ ٱلْبَصَرِ إِذْ سَطَعَ نُورُ ٱلْبُرْهَانِ، وَجَنَحْتَ عَلَى مَا أُوتِيتَ مِنْ فِطْنَةٍ ذَكِيَّةٍ، وَفِطْرَةٍ زَكِيَّةٍ إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَاتَّخَذْتَ ٱلْبُدَّ المَصْنُوعَ لِصَانِعِ المَصْنُوعَاتِ نِدّاً، وَلَمْ تَرَ لَكَ مِنْهُ تَقْلِيداً لِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلآبَاءِ بُدّاً، وَأَنَا أَدْعُوكَ دُعَاءَ المُشْفِقِ النَّاصِحِ، إِلَى سُلُوكِ السَّنَنِ الوَاضِحِ، وَقَلْعِ الأَبْدَادِ، وَمُعَانَقَةِ دِيَانَةِ الأَنْدَادِ، وَالتَّوَجُّهِ لِمَنْ وَجَّهَ وَجْهَهُ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ، وَقَامَ عَلَى وُجُودِهِ وَوُجُوبِ وَحْدَانِيَتِهِ الدَّلِيلُ، زَيَّنَ ٱلسَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ، وَأَظْهَرَ فِي ٱلأَرْضِ أَنْوَاعَ ٱلْعَجَائِبِ، وَالإِقْرَارِ بِنُبُوَّةِ مِنْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ مَا ذَكَرْنَا آنِفاً مِنَ ٱلآيَاتِ، الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْمَعُ بِهِ أَحَدٌ وَلاَ يُؤْمِنُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ

العَذَابِ فِي دَارِ البَوَارِ، فَأَسْلِمْ أَيُّهَا المَلِكُ تَسْلَمْ، وَيَكُونُ لَكَ مَا لَنَا وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْنَا، فَإِنَّ اسْلاَمَكَ إِنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكَ بِهِ مِنْ أَسْنَى التُّحَفِ الوَاصِلَةِ إِلَيْنَا، وَأَمَّا مَا أَتْحَفْتَنَا مِنْ هَدِيَّةٍ، وَأَطْرَفْتَنَا بِهِ مِنْ طُرفة سَنِيَّةٍ، ﴿فَمَا آتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إِلاَّ أَنَّنَا اتَّبَعْنَا نَبِيَّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَبُولِهِ الهَدِيَّةَ لِمَا جَبَلَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الخُلُقِ الكَرِيمِ، وَطَمَعاً فِي أَنْ يَهْدِيَكَ ٱللَّهُ بِلُطْفِهِ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، قَابَلْنَاهَا بِالقَبُولِ وَثَنَيْنَا عِنَانَ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَاقْتَدَيْنَا بِابْنِ عَمِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ فِي ٱلإِثَابَةِ عَلَيْهَا، وَبَعَثْنَا إِلَيْكَ كِتَاباً يُسَمَّى (بُسْتَانَ ٱلأَلْبَابِ)، يَفْتَرُّ عَنْ جَوَاهِرِ الحِكَمِ وَزَوَاهِرِ الآدَابِ، وَمُطَالَعَتُكَ لَهُ تُطْلِعُكَ عَلَى أَنَّ اسْمَهُ لِمُسَمَّاهُ مُوَافِقٌ، وَنَعْتَهُ لِمَعْنَاهُ مُطَابِقٌ، وَشَفَعْنَاهُ بِمَا تَيَسَّرَ تَنَاوُلُهُ عَلَيْنَا، مِنَ ٱلْخَزَائِنِ الحَاضِرَةِ لَدَيْنَا، مُعْتَذِرِينَ إِلَيْكَ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَمُقَابَلَةِ مَجَادَتِكَ بِالنَّزْرِ اليَسِيرِ، لَكِنَّ المُلُوكَ لَوْ تَهَادَتْ عَلَى قَدْرِ أَقْدَارِهَا، وَعِظَمِ أَخْطَارِهَا، لَضَاقَتْ عَنْ ذَلِكَ مُتَّسَعَاتُ أَحْوَالِهَا، وَفَنِيَتْ سُوقُ أَمْوَالِهَا، وَإِنَّمَا الهَدِيَّةُ ـــ وَإِنْ قَلَّتْ ـــ دَلِيلُ الاحْتِفَالِ، بِالمُهْدَى إِلَيْهِ وَالاِقْتِبَالِ، وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَصَلَّى ٱللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيينَ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالسَّلاَمُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ.

(5 : 310-335)

27 ـــ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ النُّورِ بْنِ مَاخُوخَ

ٱبْنِ يُوسُفَ بْنِ ليان بْنِ بَادِيسَ بْنِ صُولِي بْنِ يَلُّولِ الهَوَّارِيُّ أَبُو حَفْصٍ اللّزْنِي(159) البِجَائِيُّ الصَّنْهَاجِيُّ(160)، كَانَ فَقِيهاً شَافِعِيّاً مُنَاظِراً أُصُولِيّاً قَارِئاً

(159) في وفيات الأعيان أنها بفتح اللاّم وسكون الزاي بعدها نون. نسبة إلى لزنة قبيلة من البربر تسكن بالقرب من بجاية.

(160) له ترجمة أيضا في مسالك الأبصار وبغية الوعاة 2 : 220، ووفيات الأعيان 5 : 316.

شَاعِراً لَهُ يَدٌ بَاسِطَةٌ فِي عِلْمِ الأَدَبِ وَالْعَرَبِيَّةِ. أَنْشَدَنِي أَبُو القَاسِمِ ابْنُ أَبِي النَّجِيبِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ التَّبْرِيزِيُّ قَالَ : أَنْشَدَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ النُّورِ لِنَفْسِهِ :

وَبِعَقْرَبِ الصُّدْغَيْنِ خِلْتُ عِذَارَهُ نُؤْياً أَثَافِي رَسْمِهِ الْخِيلاَنُ
فَوَقَفْتُ أَبْكِيهِ بِعَيْنَيْ عُرْوَةٍ[161] حُزْناً عَلَيْهِ كَأَنَّنِي غَيْلاَنُ[162]

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي مِنْ شِعْرِهِ فِي غُلاَمٍ اسْمُهُ إِبْرَاهِيمَ :

كَسَتْنِي ـ وَلَمْ أَشْعُرْ ـ جُفُونُكَ سُقْمَهَا
وَمِنْ قَبْلُ لَمْ أَعْرِفْ وِصَالاً وَلاَ صَدًّا
وَأَلْفَيْتَنِي فِي نَارِ شَوْقٍ كَأَنَّنِي
سَمِيُّكَ لَكِنْ لاَ سَلاَماً وَلاَ بَرْدَا

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

قَصَدَ الْمُصَلَّى لاَ لِزُهْدٍ إِنَّمَا صَنَمَ الصَّبَابَةِ عَظَّمَتْ أَبْنَاؤُهَا
أَيْنَ اسْتَقَلَّ اسْتَقْبَلَتْهُ أَوْجُهٌ فَالظَّبْيُ شَمْسٌ وَالوَرَى حِرْبَاؤُهَا
عِبْتُمْ عَلَى التَّتَرِ السُّجُودَ إِذَا بَدَتْ شَمْسُ الضُّحَى وَسَبَتْكُمُ نُظَرَاؤُهَا

وَقَالَ أَيْضاً :

هَبْنِي صَبَوْتُ كَمَا تَرَوْنَ بِزَعْمِكُمْ وَظَفِرْتُ فِيهِ بِلَثْمِ خَدٍّ أَزْهَرِ
إِنِّي اعْتَزَلْتُ، فَلاَ تَلُومُوا إِنَّهُ أَضْحَى يُقَابِلُنِي بِخَدٍّ أَشْعَرِي

وَقَالَ فِي غُلاَمَيْنِ تَحَابَّا أَحَدُهُمَا يُعْرَفُ بِابْنِ صَقْرٍ وَالآخَرُ بِابْنِ فَهْدٍ :

أَلَيْسَ عَجِيباً جَارِحَانِ تَصَافَيَا وَذَلِكَ شَيْءٌ لاَ يَكَادُ يُرَامُ
يُقَالُ: ابْنُ صَقْرٍ بِابْنِ فَهْدٍ مُتَيَّمٌ فَكَيْفَ؟ عَلَى أَنَّ الفُهُودَ تَنَامُ

وَقَالَ فِي الشَّيْخِ العَلاَّمَةِ كَمَالِ الدِّينِ أَبِي المَعَالِي مُوسَى بْنِ يُونُسَ[163] الفَقِيهِ المُدَرِّسِ وَهُوَ يُلْقِي الدَّرْسَ بِحَضْرَةِ المُتَطَبِّبِينَ ارْتِجَالاً بِالمَوْصِلِ :

كَمالُ كَمَالِ الدِّينِ بِالعِلْمِ وَالعُلاَ فَهَيْهَاتَ سَاعٍ فِي مَسَاعِيكَ يَطْمَعُ

---

(161) هو عروة بن حزام العذري.

(162) غيلان هو ذو الرّمّة.

(163) له ترجمة حافلة في وفيات الأعيان 5 : 311.

إِذَا اجْتَمَعَ النُّظَّارُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ فَغَايَةُ كُلٍّ أَنْ تَقُولَ وَيَسْمَعُوا
فَلاَ تَحْسِبُوهُمْ عَنْ عِنَادٍ تَطَيْلَسُوا وَلَكِنْ حَيَاءً وَاعْتِرَافاً تَقَنَّعُوا

وَقَالَ فِيهِ أَيْضاً :

تَجُرُّ المَوْصِلُ الأَذْيَالَ فَخْراً عَلَى كُلِّ المَنَازِلِ وَالرُّسُومِ
فَدِجْلَةُ وَالكَمَالُ هُمَا شِفَاءٌ لِهِيمٍ أَوْ لِذِي فَهْمٍ سَقِيمِ
فَذَا بَحْرٌ تَدَفَّقَ، وَهْوَ عَذْبٌ وَذَا بَحْرٌ، وَلَكِنْ مِنْ عُلُومِ

وَقَالَ :

أَأَغْرَاكَ زُورٌ مِنْ مُجِدٍّ وَمَازِحِ فَتَقْبَلَ قَوْلَ الكَاذِبِ المُتَوَاقِحِ
هَوَاكَ حَشَا الأَحْشَا، وَأُظْهِرُ غَيْرَه فَقُلْ فِي إِنَاءٍ ـ لاَ بِمَا فِيهِ ـ رَاشِحِ
وَعَيْشِكَ مَا أَبْدَيْتُ حُبّاً، وَإِنَّمَا تَجِيشُ بِبَحْرِ الشَّوْقِ فِيكَ قَرَائِحِي
فَيَلْحَظُنِي الحُسَّادُ فِيكَ كَأَنَّمَا بُغَاثٌ رَنَتْ تَخْشَى انْقِضَاضَ الجَوَارِحِ
وَتَفْحَصُ عَنْ وُدِّي، وَإِنِّي لَكَاتِمٌ وَلَكِنَّ طَرْفِي فِي ٱلصَّبَابَةِ فَاضِحِي
فَقَلْبِي خَفَّاقٌ وَجِسْمِيَ نَاحِلٌ وَعَيْنِيَّ غَرْقَى بِالدُّمُوعِ السَّوَافِحِ
وَلَوْلاَكَ لاَسْتَعْصَيْتُ كِبْراً، وَانَّمَا يُذِلُّ الْفَتَى إِضْمَارَ شَوْقِ الجَوَانِحِ
وَكُنْتُ أَبِيَّ النَّفْسِ صَعْباً مَقَادَتِي فَرَاضَ جِمَاحَ القَلْبِ صَيْدُ الجَوَارِحِ
وَقَدْ صَارَ إِحْسَانِي شِعَارَ قَنَاعَةٍ وَقَدْ صُنْتُ إِلاَّ عَنْكَ وَجْهَ مَدَائِحِي
وَكُنْتُ ـ لَعَمْرِي ـ أَمْلأُ القَلْبَ رَغْبَةً وَأَسْحَبُ ذَيْلِي فَوْقَ قِمَّةِ رَامِحِ
فَمَازَالَ بِي حُبِّيكَ يُوقِدُ جَمْرَهُ عَلَى الوَجْدِ فِي نِيرَانِ وَجْدٍ لَوَافِحِ
فَأَغْرَقُ طَوْراً فِي بُحُورِ مَدَامِعِي فَهَا أَنَا أُطْفُو بَيْنَ أَنْفَاسِ كَاشِحِ
فَإِنْ كُنْتَ تَهْوَى أَنْ أَمُوتَ فَحَبَّذَا وَإِنْ كُنْتَ تَهْوَى أَنْ أَعِيشَ فَصَالِحِ
(4 : 352–355)

28 ـ عَبْدُ الكَرِيمِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ

ابْنِ عَبْدِ الكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّفْزِيُّ الشَّاطِبِيُّ القَصَّار أَبُو مُحَمَّدٍ

الْمُرَّاكُشِيُّ[164]، كَانَ رَجُلاً جَلِيلاً ذَا نِعْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَثَرْوَةٍ ظَاهِرَةٍ يَرْحَلُ إِلَى المُلُوكِ، فَيَسْتَرْفِدُهُمْ بِأَشْعَارِهِ، وَلَدَيْهِ فَضْلٌ وَمَعْرِفَةٌ بِاللُّغَةِ وَالأَدَبِ، وَلَهُ قَصَائِدُ مُطَوَّلاَتٌ كَثِيرَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ شِعْرُهُ سَائِغاً بَلْ مُتَوَسِّطاً يَظْهَرُ فِيهِ التَّعَسُّفُ.

أَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ الْقُرَّيَانِي بِحَلَبَ المَحْرُوسَةِ، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الكَرِيمِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ لِنَفْسِهِ :

يَا مَنْ شَمَائِلُهُ أَحْلَى مِنَ القَمَرِ ... وَمَنْ فَضَائِلُهُ أَحْلَى مِنَ السَّمَرِ[165]
سَمَوْتَ قَدْراً، فَقُلْتُ : النَّجْمُ فِي فَلَكٍ ... وَطِبْتَ ذِكْراً، فَقُلْتُ: الرَّوْضُ بِالزَّهَرِ
يَا أَحْوَذِيَّ الوَرَى، وَالأَلْمَعِيَّ وَمَنْ ... قَدْ بَذَّ جَمْعَهُمْ بِالذَّاتِ وَالقَدَرِ
أَمَّا النَّوَادِي فَقَدْ عَمَّرْتَ سَاحَتَهَا ... بِطِيبِ ذِكْرِكَ فِي الأَمْسَاءِ وَالسَّحَرِ
مَاذَا أَقُولُ وَقَدْ أَلْبَسْتَنِي حُلَلاً ... أَبْهَى وَآنَقُ مِنْ دَوْحٍ عَلَى نَهَرِ
أَفَضْتَ أَفْضَلْتَ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ ... أَحْيَيْتَ أَكْسَبْتَ مِنْ بِيضٍ وَمِنْ صُفُرِ
حَسُنْتَ أَحْسَنْتَ فِي قُرْبٍ وَفِي بُعُدٍ ... مَنَحْتَ أَنْحَلْتَ مِنْ وَفْرٍ وَمِنْ بِدَرِ
أَوْلَيْتَ مِنْ مِنَنٍ جَلَّتْ جَلَتْ كُرَبِي ... نَمَتْ وَتَمَّتْ كَرَوْضٍ مُزْهِرٍ نَضِرِ
مَاذَا لِيُمْنَاكَ مِنْ يُمْنٍ وَمِنْ مِنَنٍ ... مَاذَا لِيُسْرَاكَ مِنْ يُسْرٍ وَمِنْ يَسَرِ
جَادَتْ عَلَيَّ سَحَابٌ مِنْ أَكُفِّكُمْ ... فَأَنْبَتَتْ فِي أَكُفِّي دَوْحَةَ البِدَرِ
مَازَالَ وَاكِفُهَا يَنْصَبُّ فِي صَبَبٍ ... حَتَّى أَسَالَ بَنَانِي بِالنَّدَى الْهَمِرِ
يَا مُحْسِناً كُلَّ إِحْسَانٍ بِلاَ كَذِبٍ ... وَمُغْنِياً كُلَّ إِغْنَاءٍ بِلاَ قَدَرِ
فُقْتَ الأَكَارِمَ فِي سِرٍّ خُصِصْتَ بِهِ ... فَأَنْتَ مِنْ مَلَكٍ مَا أَنْتَ مِنْ بَشَرِ
هَذِي أَيَادِيكَ لاَ أُحْصِي لَهَا عَدَداً ... مَا يَنْقَضِي سَرْدُهَا أَوْ يَنْقَضِي عُمُرِي
قَدْ أَحْدَقَتْ وَأَحَاطَتْ بِي إِحَاطَةَ مَنْ ... لَبَّى وَطَافَ بِبَيْتِ اللَّهِ وَالحَجَرِ
وَالشُّكْرُ فَرْضٌ عَلَيْهِ لاَزِمٌ، فَأَصِخْ ... لِسَمْعِ شُكْرٍ كَمِثْلِ السِّمْطِ بِالدُّرَرِ
مَا شَابَهُ دَخَلٌ، كَلاَّ، وَلاَ خَلَلٌ ... صَفَا صَفَاءَ نَمِيرِ الْمَاءِ فِي الغُدُرِ

---

(164) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.

(165) هذه القصيدة في مدح الكاتب المؤرّخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل، واسمه مذكور في صلب القصيدة.

شُكْرِي لِنُعْمَاكَ شُكْرُ الرَّوْضِ لِلْمَطَرِ — أَوْ مُقْتِرٍ لِغِنًى وَافَى عَلَى وَطَرِ
أَوْ شُكْرُ عَبْدٍ لِمَوْلًى كَانَ أَعْتَقَهُ — أَوْ شُكْرُ حَامٍ لِصَفْوِ السَّلْسَلِ الخَصِرِ
أَوْ كَالْغَرِيقِ لِمَا أَنْجَاهُ مِنْ خَطَرٍ — أَوْ كَالطَّلِيقِ لِمَنْ نَجَّاهُ مِنْ ضَرَرِ
أَوْ كَالسَّقِيمِ لِبُرْءٍ إِثْرَه فَـرَجٌ — أَوْ كَالكَرِيمِ لِضَيْفٍ جَاءَ مِنْ سَفَرِ
أَوْ كَالْمُحِبِّ لِمَحْبُـوبٍ يُـؤَنِّسُهُ — أَوْ كَالنَّزِيفِ زَمَانَ النَّوْرِ لِلسَّكَرِ
وَالحَمْدُ يَتْبَعُهُ عَجْلاَنَ فِي مَهَلٍ — حَثّاً بِلاَ مَهَلٍ، نَصّاً عَلَى الأَثَرِ
لَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَا مُنَى أَمَلِي — يُرَى لَجِئْتُ بِهِ فِي أَحْسَنِ الصُّوَرِ
حَتَّى تَرَاهُ وَتَدْرِي أَنَّنِي رَجُـلٌ — شُكْرِي لَكَ الدَّهْرَ شُكْرُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ
السَّمْعُ يَشْكُرُ لِلأَصْوَاتِ مَا حَسُنَتْ — وَالعَيْنُ تَشْكُرُ طُولَ الدَّهْرِ لِلنَّظَرِ
لَكِنَّهُ فِي ضَمِيرِي وَالكَلاَمُ [كَذا] — مُحَـرِّكٌ بِلِسَانِ ٱلْخُبْرِ وَالخَبَـرِ
لَوْ حَلَّ شُكْرِيَ وَسْطَ البَحْرِ فِي مَدَدٍ — لَصَارَ مِنْ حِينِهِ أَحْلَى مِنَ السَّكَرِ
أَوْ حَلَّ فِي فَلَوَاتٍ تُرْبُهَا حَجَرٌ — لأَنْبَتَ الأَبَّ وَالشَّجْـرَاءَ بِالثَّمَـرِ
الشُّكْرُ أَحْسَنُهُ مَـا كَـانَ قَائِلُـهُ — يَبُثُّهُ بَيْنَ أَهْلِ البَـدْوِ وَالـحَضَرِ
يَنُصُّهُ بِكَـلاَمٍ مُـرْتَضًى حَسَنٍ — نَصَّ الحَدِيثِ لأَهْلِ العِلْمِ وَالنَّظَرِ
وَقَائِلٍ قَالَ : فِيمَنْ ذَا الثَّنَاءُ فَقَدْ — نَظَمْتَ شُكْراً لَهُ نَظْماً عَلَى صُوَرِ
فَقُلْتُ: فِي النَّدْسِ ٱلْفَذِّ الَّذِي شُهِرَتْ — أَوْصَافُهُ كَاشْتِهَارِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ
مُحَمَّدُ بْنُ نُخَيْلٍ(166) مَنْ سَمَا قَدَراً — نَجْلٌ لأَحْمَدَ ذِي الآثَارِ وَالأَثَرِ
لِلْعَالِمِ العَلَمِ الصِّنْدِيدِ مَنْ شَرُفَتْ — بِهِ الكِتَابَةُ فِي الإِيـرَادِ وَالصَّدَرِ
فَاقَ البَدِيعَ بِمَا قَدْ حَازَ مِنْ بِدَعٍ — وَابْنَ العَمِيدِ وَمَا يَحْوِيهِ مِنْ غُرَرِ
وَالصَّاحِبَ الْمَلْكَ، وَالصَّابِيَ قَبْلَهُمُ — عَبْدُ الْحَمِيدِ، وَكُلٌّ مَالَ لِلْحَصَرِ

(166) كان كاتب أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص والي افريقية وقد اشتهر بالجود وقضاء الحوائج، انظر فيه اعتاب الكتاب : 235–249 ورحلة التجاني : 108–147 والغصون اليانعة : 98 والفارسية : 105 وتاريخ الدولتين : 3، 7، 18، 24 والبيان المعرب ـــ قسم الموحدين ـــ : 18، 20، 22، 23، 25، 173 والرّوض المعطار : 605 والحلل الموشية : 100، 110 والعبر 6 : 338، 342، 404، 465، 578، 584، 589. ولنا بحث معدّ للنشر حول هذا المؤرخ المغمور.

رَاعَتْ يَرَاعَتُهُ الكُتَّابَ قَاطِبَةً ... بِمَا أَثَارَتْ مِنَ ٱلإِبْدَاعِ وَالغُرَرِ
انْ أَشْرَعَت فِي مَجَالِ الطِّرْسِ عَامِلَهَا ... عَلَّتْ مُجَاجَتُها لِلْبِيضِ وَالسُّمُرِ
وَانْ أَقَرَّ عَلَى صَفْحِ مَسرِيتها ... أَزْرَى بِوَشْيِ الرُّبَا وَالرَّوْضِ وَالحِبَرَ
أَنْسَى ابْنَ مُقْلَة فِي إِعْمَالِ أَنْمُلِهِ ... وَهْوَ النِّهَايَةُ فِيمَا شَاعَ مِنْ خَبَرِ
لَوْلاَ هيَامُ يَدَيْهِ بِٱلْيَرَاعِ لَمَا ... خَطَّتْ أَنَامِلُهُ حَرْفاً مَعَ ٱلْكِبَرِ
إِنَّ الكِتَابَةَ بَعْضٌ مِنْ مَنَاقِبِهِ ... كَمَا اللآلِيءُ بَعْضٌ مِنْ نَدَى البَحَرِ
الطَّيِّبُ الخِيمِ، وَالمَيْمُونُ طَائِرُهُ ... مَنْ قَدْ سَمَا وَعَلاَ دَأْباً عَلَى ٱلصُّوَرِ
مُفَرِّجُ الضيقِ وَاللأْوَاءُ قَدْ حَمِيَتْ ... وَمُخْرِجُ الضُّرِّ بِالاْيسَارِ وَاليُسُرِ
الكَامِلُ الذَّاتِ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ ... صِنْوُ الغَمَامَةِ فِي صَوْبٍ وَفِي هَمَرِ
كَأَنَّ طَلْعَتَهُ وَالسَّعْدُ حَفَّ بِهَا ... بَدْرٌ أَحَاطَ بِهِ جَيْشٌ مِنَ الزُّهُرِ
يَا طَالِبَ الخَيْرِ فِي بَدْوٍ وَفِي حَضَرٍ ... وَجَالِبَ اليُسْرِ فِي وِرْدٍ وَفِي صَدَرِ
يَمِّمْ لِتُونُسَ فَهْيَ الآنَ مَرْبَعَهُ ... وَارْبَعْ بِهَا تَأْمَنَنْ مِنْ سَطْوَةِ الغِيَرِ
رَوْضٌ أَرِيضٌ فَلاَ رَوْضٌ بِمَأْمَنِهَا ... بُسْتَانُ أَمْنٍ بِلاَ شَيْءٍ مِنَ الذُّعُرِ
أَنْوَارُ أَسْعُدِهِ حَلَّتْ بِسَاحَتِهَا ... فَلَيْسَ يُدْرِكُهَا شَيْءٌ مَدَى العُمُرِ
إِنْ تَلْقَهُ تَلْقَ آمَالاً مُكَمَّلَةً ... وفْقَ المُرَادِ بِلاَ شَيْءٍ مِنَ الكَدَرِ
مَنْ أَمَّهُ مَرَّةً فِي الدَّهْرِ وَاحِدَةً ... أَلْقَى عَصَاهُ فَلَمْ يَبْرَحْ وَلَمْ يَسِرِ
لاَزَالَ يَصْعَدُ فِي سَعْدٍ يُسَاعِدُهُ ... يَتْرَى عَلَيْهِ مَعَ الآصَالِ وَالبُكَرِ
ثُمَّ الصَّلاَةُ عَلَيْهِ صَيِّباً غَدِقاً ... مَا غَرَّدَ الطَّيْرُ يَوْماً فِي ذُرَى الشَّجَرِ

ثُمَّ خَتَمَ هَذِهِ القَصِيدَةَ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ :

خُذْهَا إِلَيْكَ قَصِيدَةً ... بِالشُّكْرِ تَنْطِقُ وَالثَّنَا
قَدْ أَشْبَهَتْ فِي حُسْنِهَا ... طَرْفاً كَحِيلاً قَدْ رَنَا
أَوْ حِبَّ صَبٍّ مُذْنِفٍ ... بَعْدَ التَّبَاعُدِ قَدْ دَنَا
كَلاَّ، وَمَا إِنْ أَشْبَهَتْ ... إِلاَّ نَدَاكَ المُقْتَنَى

وَقَالَ :

لاَزَالَ ذَاكَ المَقَامُ ٱلأَسْمَى ... يَهْمِي عَلَى قَاصِدِيه هَمْيَا
مَا اكْتَحَلَتْ مُقْلَةٌ بِضَوْءٍ ... وَأَقْبَلَتْ بِالشَّبَابِ لَمْيَا

وَأَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقَاهِرِ بْنِ هِبَةِ ٱللَّهِ بْنِ النَّصِيبِيُّ بِحَلَبَ، قَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الكَرِيمِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ لِنَفْسِهِ:

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الزَّمَانِ وَعَضِّهِ ... فَالصَّبْرُ أَحْسَنُ مَكْسَبِ الكُسَّابِ
وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِالفَتَى وَبِفِعْلِهِ ... وَالحُرُّ لاَ يَرْضَى بِغَيْرِ صَوَابِ
كَمْ مِنْ فَتًى فِي ٱلأَرْضِ حُرٍ مُقْتِرٍ ... مُتَظَلِّمٍ مِنْ ظَالِمٍ غَصَّابِ
لَمْ يَتْرُكْ مِنْ مَالِهِ مِنْ تَالِدٍ ... أَوْ طَارِفٍ شَيْئاً مِنَ الأَنْشَابِ
مِنْ بَعْدِ ذَا جَبَرَ الإِلَهُ مُصَابَهُ ... فَأَثَابَهُ ضِعْفَيْنِ مِنْ أَسْبَابِ
فاصْبِرْ ــ هُدِيتَ ــ وَلاَ تَخَفْ مِنْ عُسْرَةٍ ... فَالصَّبْرُ يَفْتَحُ مُغْلَقَاتِ البَابِ
فَالصَّابِرُونَ هُمُ غَداً فِي فُرْجَةٍ ... يُعْطَوْنَ أَجْرَهُمُ بِغَيْرِ حِسَابِ(166م)

(5: 399-404)

29 ــ عُمَرُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ

أَبُو حَفْصٍ ٱلْقَفْصِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ بِابْنِ التِّنِّسِي(167)، وَتِنِّسٌ مَدِينَةٌ مِنْ مُدُنِ إِفْرِيقِيَّةَ.

حَدَّثَنِي ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْقَاسِمِ عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي جَرَادَةَ بِحَلَبَ أَيَّدَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى قَالَ: كَانَ شَيْخاً حَسَناً دَمِثَ الأَخْلاَقِ طَيِّبَ ٱلْمُحَاضَرَةِ، أَقَامَ عِنْدَنَا بِحَلَبَ سِنِينَ عِدَّةً، وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَرَوَى لَنَا شَيْئاً مِنْ شِعْرِ عَبْدِ ٱلْمُنْعِمِ ٱلْجِلْيَانِي عَنْهُ، وَأَنْشَدَنَا مُقَطَّعَاتٍ مِنَ الشِّعْرِ لَهُ وَلِغَيْرِهِ؛ وَكَانَ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْحِكْمَةِ وَالهَنْدَسَةِ؛ وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ وُلِدَ فِي العَشْرِ الأَوَّلِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

(166م) بعد هذا بتر في الأصل، ولعل المبتور يشتمل على بقية الشعر وتتمّة الترجمة، ويبدو أن المخاطب بهذا الشعر هو ابن نخيل لما نكب وحبس.

(167) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر ولعله من الذين هاجروا من قفصة بعد استيلاء الموحدين عليها وتنكيلهم بأهلها بسبب عصيانهم وفي القصيدة الآتية ما يشير إلى شيء من هذا، وانظر في تنس كتاب الاستبصار: 133 وكتاب الروض المعطار: 138.

قَالَ : وَجَدْتُه كَذِلكَ بِخَطِّ وَالِدِي؛ قَالَ : وَتَوَجَّهَ إِلَى بِلاَدِ الرُّومِ بَعْدَ الْعِشْرِينَ وَالسِّتِّمِائَةِ، فَبَلَغَنِي بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ تُوُفِّيَ بِهَا.

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

وَقَائِلَةٍ مَا لِي أَرَاكَ مُغَيَّرا ... أَمِنْ فَرْطِ وَجْدٍ صَارَ لَوْنُكَ أَصْفَرَا
فَقُلْتُ كِلِينِي يَا هُنَيْدَةُ واعْلَمِي ... فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْجَلاَمِدِ أَثَّرا
فَقَالَتْ رَعَاكَ آللَّهُ هَلْ أَنْتَ مُخْبِرٌ ... بِمَا هُوَ أَوْ مَا كَانَ قِدْماً وَمَا جَرَى
لَعَلَّ بِرَأْيِي يُحْدِثُ آللَّهُ رَاحَةً ... فَإِنَّ الَّذِي أَبْلَى يُفَرِّجُ مَا تَرَى
فَقُلْتُ لَهَا: صَرْفُ الزَّمَانِ وَجَوْرُهُ ... أَحَالَ عَلَى آلأَحْوَالِ حَالِي فَغَيَّرَا
وَشَتَّتَ أَحْبَابِي وَأَذْهَبَ ثَرْوَتِي ... فَصِرْتُ فَقِيراً بَعْدَمَا كُنْتُ مُوسِرَا
تَنَاءَتْ دِيَارِي واضْمَحَلَّتْ أَحِبَّتِي ... فَهَذَا الَّذِي أَهْدَى لِجِسْمِي التَّغَيُّرا
فَدَمْعِي سَفُوحٌ وَالْجَوَى حَلّ فِي الْحَشَا ... وَقَلْبِي قَتِيلُ آلْحَالَتَيْنِ مُعَفَّرَا
وَلاَ حَاكِمٌ يَقْضِي فَيَحْكُمُ بَيْنَنَا ... وَلاَ مُسْعِدٌ يُلْفَى لِنَصْرِي مُيَسَّرَا
فَمَنْ مَانِعِي مِنْ ظُلْمِ دَهْرِي وَجَوْرِهِ ... وَلَمْ أَلْقَ إِلاَّ مَنْ إِذَا قَالَ قَصَّرَا
وَقَدْ صَارَ وَهْمِي مِنْ عَظِيمِ بَلِيَّتِي ... فَمَا حِيلَتِي فِيمَا سَمِعْتِ وَمَا تَرَى

(5 : 425-426)

30 ـــ عِيسَى بْنُ سُلَيْمَانَ

ابْنِ عَبْدِ آللَّهِ بْنِ عَبْدِ آلْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ آللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الرُّعَيْنِيُّ الرُّنْدِيُّ[168]، أَبُو مُحَمَّدٍ ـــ وَقِيلَ أَبُو مُوسَى ـــ الأَنْدَلُسِيُّ، مِنْ أَهْلِ مَالَقَةَ، كَانَ مِنْ طَلَبَةِ الحَدِيثِ، وَسَمِعَ مِنْهُ كَثِيراً، وَكَتَبَ بِخَطِّهِ، وَلَقِيَ رِجَالَ أَهْلِ العِلْمِ وَالْفَضْلِ،

(168) توجد ترجمته أيضا في التكملة رقم 1929 وصلة الصلة 4 : 55-56 والذيل والتكملة 5 : 495-497 وأعلام مالقة : 177 (مصورة خاصة) وتاريخ الإسلام للذهبي رقم 114، وتتميّز ترجمة ابن الشعّار بفوائد وزوائد. وقد نقل المقري ترجمة صاحبنا من تاريخ إربل لابن المستوفى (نفح 2 : 380-381).

وَأَخَذَ عَنْهُمْ، وَسَافَرَ وَاجْتَهَدَ وَحَصَّلَ بَعْدَ أَنْ طَافَ قِطْعَةً مِنَ الْبِلاَدِ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ مُقَامُهُ بِدِمَشْقَ، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعاً إِلَى مَالَقَةَ مَدِينَتِهِ، فَلَمَّا وَصَلَهَا بَقِيَ بِهَا مُدَّةً يَسِيرَةً وَمَاتَ فِي سَنَةِ ثَلاَثِينَ وَسِتٍّ مِئَةٍ، وَكَانَتْ وِلاَدَتُهُ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الأَنْدَلُسِ يُقَالُ لَهَا بلْمَالَة مِنْ كُورَة بِشَقير[169]، تَوَغَّلَ فِي دِيَارِ مِصْرَ، وَأَقَامَ مُدَّةً بِبِلاَدِ الشَّامِ، وَطَوَّفَ قِطْعَةً مِنَ الْبِلاَدِ الجَزَرِيَّةِ[170]، ثُمَّ عَادَ إِلَى وَطَنِهِ فَمَاتَ بِهِ، وَكَانَ حَافِظاً لِلْقُرْآنِ العَظِيمِ، شَاعِراً فَاضِلاً، وَعَمِلَ كِتَاباً سَمَّاهُ (الحَنِينُ إِلَى ٱلأَوْطَانِ، الغَالِبُ عَلَى النَّفْسِ هَوَاهُ، وَالهَوَى سُلْطَانٌ). وَنَظَمَ مُعَشَّرَاتٍ، أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ ابْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ القُرْطُبِيُّ[171] ثُمَّ الدِّمَشْقِيُّ بِهَا سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَسِتٍّ مِئَةٍ فِي المُحَرَّمِ قَالَ: أَنْشَدَنَا الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عِيسَى بْنُ سُلَيْمَانَ الرُّعَيْنِيُّ لِنَفْسِهِ، وَذَكَرَ بَعْضَ مَا أَتَى بِهِ المُصْطَفَى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلآيَاتِ:

لَكَ الحَمْدُ يَا أَللَّهُ وَالشُّكْرُ دَائِباً ... كَثِيراً عَلَى كُلِّ الَّذِي أَنْتَ فَاعِلُ
وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، أَنْتَ هَدَيْتَنِي ... لِنَظْمٍ بِهِ تَزْهُو ـ لَعَمْرِي ـ المَحَافِلُ
مَنَنْتَ بِنَظْمٍ فِي الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ... فَمُنَّ بِتَرْحَالِي، فَقَلْبِيَ رَاحِلُ
وَهَبْنِيَ أَصْحَاباً كِرَاماً أَعِفَّةً ... لَهُمْ قَدَمٌ فِي الجِدِّ وَالعَزْمِ طَائِلُ
تَشُدُّ بِهِمْ أَزْرِي، فَإِنِّي مُدْنَفٌ ... حَلِيفُ اشْتِيَاقٍ لِلرَّسُولِ وَنَاحِلُ
أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورُ مُحَمَّداً ... أَمْ عَاجِلُ مَوْتٍ دونَ ذَلِكَ حَائِلُ
لَعَمْرِي لَئِنْ طَالَ المُقَامُ وَلَمْ أَزُرْ ... بِلاَداً بِهَا بَدْرُ الهِدَايَةِ كَامِلُ
لأَيْقَنْتُ أَنِّي بِالذُّنُوبِ مُقَيَّدٌ ... وَأَنِّي عَنِ الإِرْشَادِ وَالخَيْرِ غَافِلُ
تَوَسَّلْتُ لِلرَّحْمَنِ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ ... بِخَيْرِ الوَرَى طُرّاً وَإِنِّي سَائِلُ
بِمَنْ نَبَعَ الْمَاءُ القُرَاحُ بِكَفِّهِ ... بِمَنْ أَوْرَقَتْ فِيهِ الغُصُونُ الذَّوَابِلُ

(169) كذا في الأصل وفي نفح الطيب: «يقال لها يلمالتين من كورة بشتغير»، ولعلّ كل ذلك تحريف، ويمكن أن تكون الكلمة الأخيرة تحريفا لكلمة بُبَشْتَرٌ وهو المكان المشهور.

(170) لعله يقصد البلاد الواقعة في جزيرة أقور كالموصل وآمد وغيرهما.

(171) يعرف هو ووالده بإمام مسجد الكلاسة انظر فيهما: الوافي بالوفيات 2 : 118.

بِمَنْ وَجْهُهُ يَزْهُو عَلَى البَدْرِ فِي الدُّجَى   بِمَنْ جُمِعَتْ حَقّاً لَدَيْهِ الفَضَائِلُ
بِمَنْ كَلَّمَتْهُ الشَّاةُ وَهِيَ سَمِيطَةٌ   وَذَلَّتْ لَهُ أُسْدُ الشَّرَى وَالمَقَاوِلُ
بِمَنْ حَنَّ جِذْعُ النَّخْلِ شَوْقاً لِصَوْتِهِ   وَأَخْصَبَ عَصْرُ النَّاسِ إِذْ هُوَ مَاحِلُ
بِمَنْ كَلَّمَ الضَّبُّ البَهِيمَ حَقِيقَةً   بِمَنْ كَلَّمَتْهُ الجَامِدَاتُ الجَنَـادِلُ
بِمَنْ أَخْبَرَ الكُهَّانُ دَهْراً بِبَعْثِـهِ   بِمَنْ بَشَّرَتْ حَقّاً بِذَاكَ الأَوَائِلُ
بِمَنْ أَرْتَجِي فِي الحَشْرِ مِنْهُ شَفَاعَةً   نَعَمْ وَالرِّجَالُ الصَّالِحُونَ الأَفَاضِلُ
بِمَنْ خَصَّهُ الرَّحْمَنُ بِالنَّصْرِ فِي الْوَغَى   وَذَلَّتْ لَهُ يَا صَاحِبَيَّ الجَحَافِلُ
فَذَاكَ الَّذِي أَسْرَى بِهِ آللَّهُ لَيْلَةً   إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى فَمَا إِنْ يُسَاجَلُ
وَذَاكَ الَّذِي قَدْ كَلَّمَ آللَّهَ رَبَّهُ   إِذْ أُسْرَى بِهِ حَقّاً وَمَا هُوَ بَاطِلُ
وَذَاكَ الَّذِي قَدْ جَاءَ بِالنُّورِ وَالهُدَى   وَذَاكَ الَّذِي تُرْجَى لَدَيْهِ الرَّوَاحِلُ
وَذَاكَ رَسُولُ آللَّهِ يَا صَاحِ ـ أَحْمَدُ ـ   وَذَاكَ الَّذِي تُطْوَى إِلَيْهِ المَرَاحِلُ
وَذَاكَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ   وَلاَحَ هِلاَلُ الدِّينِ إِذْ هُوَ آفِلُ
تَوَسَّلْتُ يَا رَبِّي إِلَيْكَ بِفَضْلِـهِ   فَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى لَدَيْكَ الوَسَائِلُ
فَمَا أَبْلُغُ آلْمِعْشَارَ مِنْ عُشْرِ فَضْلِهِ   فَإِنَّ لِسَانِي بِآلْمَآثِمِ عَاطِـلُ
لِتَغْفِرَ زَلاَّتِي، وَتَرْحَـمَ ذِلَّتِـي   فَإِنِّي أَنَا العَبْدُ الضَّعِيفُ المُوَاصِلُ
وَبَلِّغْنِي يَا أَللَّهُ ـ قَبْرَ مُحَمَّدٍ ـ   وَلاَ تُخْزِنِي رَبِّي إِذَا سَالَ سَائِلُ
وَهَبْ وَالِدَيَّ مِنْكَ أَعْظَمَ رَحْمَةٍ   تَعُمُّهُمَا دَأْباً، فَمَجْدُكَ شَامِـلُ
وَلِلْمُسْلِمِينَ اغْفِرْ، فَأَنْتَ مُؤَمَّـلٌ   وَفَضْلُكَ مَعْلُومٌ وَجُودُكَ سَائِـلُ
وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ البَرِيَّةِ أَحْمَـدٍ   وَأَصْحَابِهِ طُرّاً فَدَمْعِي هَامِـلُ
وَزِدْنِي شَوْقاً لِلرَّسُولِ وَصَحْبِـهِ   فَحُبُّهُمُ فِي مُضْمَرِ القَلْبِ حَاصِلُ
عَلَيْهِمْ سَلاَمِي مَا تَرَنَّمَ طَائِـرٌ   وَمَا قَطَعَتْ أُفْقَ السَّمَاءِ المَنَازِلُ

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً، قَالَ : أَنْشَدَنَا لِنَفْسِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ مَشَايِخِهِ بِدِمَشْقَ شَيْئاً مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَصْحَابِ الحَدِيثِ :

قُلْ لِلَّذِينَ بِعِلْمِ الرَّأْيِ قَدْ وُلِعُوا   وَأَهْمَلُوا السُّنَّةَ الغَرَّاءَ وَاخْتَرَعُـوا
مَسَائِلاً جَمَّةً مَا مِثْلُهَـا وَرَدَتْ   فِي الشَّرْعِ لَكِنَّهُمْ فِي وَصْفِهَا ابْتَدَعُوا

وَصَوَّبُوا رَأْيَهُمْ حَتَّى لَقَدْ زَعَمُوا ... أَنْ لَيْسَ عِلْمٌ سِوَى هَذَا ٱلَّذِي صَنَعُوا
العِلْمُ ـ وَيْحَكُمْ ـ مَا فِيهِ حَدَّثَنَا ... خَيْرُ الأَنَامِ رَسُولُ ٱللَّهِ، فَاسْتَمِعُوا
وَالقَائِلُونَ بِهِ، وَالنَّاقِلُونَ لَهُ ... هُمُ الرِّجَالُ وَأَنْتُمْ خَلْفَهُ تَبَعُ
يَا شَانِئاً لَهُمُ مَهْلاً عَلَيْكَ فَكَمْ ... تُعْنَى بِنَقْصٍ لأَهْلِ الفَضْلِ يَا لُكَعُ
ٱللَّهُ فَضَّلَهُمْ حَقّاً وَأَهَّلَهُمْ ... لِنَقْلِ قِيلِ رَسُولِ ٱللَّهِ، فَاتَّبَعُوا
آثَارَهُ فَغَدَوْا وَٱللَّهُ يَكْلَؤُهُمْ ... مُسْتَمْسِكِينَ لِوَاءَ العِلْمِ قَدْ رَفَعُوا
كَفَاهُمُ شَرَفاً ـ وَاللَّهِ ـ أَنَّهُمُ ... فِي سِلْكِ إِسْنَادِ خَيْرِ الخَلْقِ قَدْ جُمِعُوا
مَنْ ذَا يُضَاهِيهُمُ أَمْ مَنْ يُسَاجِلُهُمْ ... أَمْ مَنْ يُفَاخِرُهُمْ يَوْماً وَقَدْ رَتَعُوا
فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ العِلْمِ مُونِقَةٍ ... أَزْهَارُهَا، وَجَنَاهَا العِلْمُ وَالوَرَعُ
فَلْيَهْنِ أَهْلَ الحَدِيثِ العِلْمُ إِنَّهُمْ ... تَمَسَّكُوا بِعُرَى مَا لَيْسَ يَنْقَطِعُ
حَتَّى يُبَوِّئَهُمْ دَارَ الخُلُودِ عَلَى ... خَيْرِ الأَنَامِ الَّذِي طَاحَتْ بِهِ البِدَعُ
صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهُ الخَلْقِ مَا طَلَعَتْ ... شَمْسُ النَّهَارِ وَلاَحَ الْبَرْقُ يَلْتَمِعُ

وَأَنْشَدَنِي تَاجُ الدِّينِ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بِنِ عَلِيٍّ القُرْطُبِيُّ، قَالَ: أَنْشَدَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الرُّعَيْنِيُّ، قَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ لِنَفْسِهِ بِدِمَشْقَ:

مَنْ لَمْ تَنَلْهُ غُرْبَةٌ أَمِنَ الرَّدَى ... فَهُوَ القَنَاةُ، وَتِلْكَ حَدُّ سِنَانِ
وَحُرُوفُهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ رُكِّبَتْ ... لِتَعُمَّ مَنْ تَغْشَاهُ بِالأَشْجَانِ
فَالغَيْنُ مِنْ غَمٍّ وَغَبْنٍ دَائِمٍ ... وَالرَّاءُ مِنْ رُزْءٍ عَلَى الأَوْطَانِ
وَالبَاءُ مِنْ بَرْحٍ وَبَيْنٍ أَوْ بِلًى ... وَالهَاءُ مِنْ هَمٍّ وَهُلْكٍ دَانِ

وَأَنْشَدَنِي تَاجُ الدِّينِ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بِنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ القُرْطُبِيُّ الدِّمَشْقِيُّ بِهَا، قَالَ أَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ عِيسَى بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الرُّعَيْنِيُّ فِي الجُزْءِ الأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِهِ الَّذِي سَمَّاهُ: (كِتَابِ الحَنِينِ إِلَى ٱلأَحْبَابِ وَٱلأَوْطَانِ، الغَالِبِ عَلَى النَّفْسِ هَوَاهُ وَالهَوَى سُلْطَانٌ)(172)، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَنْشَأَهُ فِي وَصْفِهِ، وَهُوَ عِشْرُونَ بَاباً:

(172) هذا كتاب ممتع في بابه لو وصل إلينا، ومن حسن الحظ أن بقي من تصانيف هذا المُحَدّث الرحالة كتاب عنوانه: الجامع، لما في المصنّفات الجوامع، وهو في أسماء الصحابة (خ.ح، رقم 6908).

هَذَا كِتَابُ قَصِيٍّ الدَّارِ مُمْتَحِنٍ — بِفُرْقَةِ الأَهْلِ وَالأَخْدَانِ وَالوَطَنِ
صَبٌّ مشوق بَرَاهُ البَيْنُ فَاضْطَرَمَتْ — أَحْشَاؤُهُ، فَغَدَا وَالهَمَّ فِي شَطَنِ
تَصْنِيفُ مَنْ قَرِحَتْ بِالدَّمْعِ مُقْلَتُهُ — وَخَدَّ فِي الخَدِّ فِعْلُ العَارِضِ الهَتِنِ
كَذَاكَ كُلُّ غَرِيبِ الدَّارِ مُنْتَزِحٍ — مَا إِنْ لَهُ حَيْثُ مَا قَدْ حَلَّ مِنْ سَكَنِ
يَشْكُو البِعَادَ وَمَا قَدْ ظَلَّ يَرْمُقُهُ — مِنْ سُوءِ فِعْلِ النَّوَى فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ
طَالَ الثَّوَاءُ بِأَرْضِ الشَّامِ وَاأَسَفِي — مَاذَا مُنِيتُ بِهِ مِنْ غَدْرَةِ الزَّمَنِ
فَٱللَّهُ يَجْبُرُ ثَكَلِي ثُمَّ يَجْمَعُنِي — قَبْلَ المَمَاتِ بِمَنْ أَهْوَى بِلاَ مِحَنِ
بِرَحْمَةٍ مِنْهُ مَا أَرْجُو سِوَاهُ لِذَا — سُبْحَانَهُ جَلَّ ذُو الإِحْسَانِ وَالمِنَنِ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِي البَابِ الأَوَّلِ، وَهُوَ بَابٌ فِي ذَمِّ الغُرْبَةِ وَالاِغْتِرَابِ، وَبَيَانِ كَوْنِ الغَرِيبِ أَذَلَّ مِنَ التُّرَابِ :

أَبَتْ لِي هِمَّتِي، وَأَبَى انْتِخَائِي — سِوَى حِفْظِ المَوَدَّةِ وَالاخَاءِ
أَلاَ إِنِّي بِشُتَّلَ مُسْتَهَامٌ — أَدِينُ لِسَاكِنِيهَا بِالوَفَاءِ

شُتَّل[173] : اسْمُ ضَيْعَةٍ مِنْ ضِيَاعِ مَالَقَةَ بِهَا أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ.

أَهِيمُ بِمَنْ بِشُتَّلَ قَدْ أَقَامُوا — وَنَأْيُهُمُ ـ بِلاَمَيْنٍ ـ شَقَائِي
إِذَا الأَقْدَارُ لَمْ تَسْمَحْ بِقُرْبٍ — سَأَفْنِي فِي وِدَادِهِمُ ذَمَائِي
أَنُوحُ لِغُرْبَتِي، وَلِفَقْدِ أَهْلِي — فَدَهْرِي لاَ أَمَلُّ مِنَ البُكَاءِ
أَبِيتُ حَلِيفَ وَجْدٍ وَاشْتِيَاقٍ — وَلَيْلِي قَدْ فَزِعْتُ إِلَى الدُّعَاءِ
أُنَادِي فِي بِلاَدِ الشَّرْقِ جَهْراً — إِلاَهَ العَالَمِينَ أَتِحْ شِفَائِي
أَذَا العَرْشِ المَجِيدِ إِلَيْكَ أَشْكُو — نُزُوحَ أَحِبَّتِي وَالهَمُّ دَائِي
أَلاَ إِنِّي غَرِيبُ الدَّارِ صَبٌّ — إِلَى كَمْ ذَا التَّغَرُّبُ وَالتَّنَائِي
أَلاَ إِنَّ الغَرِيبَ مَدَى اللَّيَالِي — أَذَلُّ مِنَ التُّرَابِ بِلاَ امْتِرَاءِ
إِلَى ٱللَّهِ العَظِيمِ شَكَوْتُ حَالِي — عَسَاهُ بِفَضْلِهِ يُدْنِي لِقَائِي

وَأَنْشَدَنِي قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

خَلِيلَيَّ إِنِّي قَدْ نَصَحْتُكُمَا جُهْدِي — وَإِنْ كَانَ نُصْحِي لاَ يُفِيدُ وَلاَ يُجْدِي

(173) لعلها التي تدعى اليوم Sedella.

وَلَكِنَّ نُصْحَ الخَلْقِ فِي الشَّرْعِ قَدْ أَتَى فَذَاكَ حَدَانِي أَنْ أُبِثَّ الَّذِي عِنْدِي
فَدُونَكُمَا، كَمْ ذَا التَّغَرُّبُ فِي الوَرَى وَحَتَّى مَتَى لاَ تَنْزِعَانِ إِلَى الرُّشْدِ
أَلاَ إِنَّ سُبْلَ الرُّشْدِ لِلْمَرْءِ أَوْبَةٌ لأَوْطَانِهِ اللاَّتِي بِهَا كَانَ فِي المَهْدِ
فَلاَ تَسْمَعَا مِمَّنْ يُبَهْرِجُ قَوْلَــهُ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ الفَوَائِدَ فِي البُعْدِ
وَيَكْفِيكَ أَنَّ البُعْدَ يَشْنَأُ لَفْظَــهُ ذَوُو الدِّينِ وَالدُّنْيَا ذَوُو الحَلِّ وَالعَقْدِ
فَكُلُّ غَرِيبِ الدَّارِ لاَبُدَّ أَنْ يُرَى ذَلِيلاً حَقِيراً لاَ يُعِيدُ وَلاَ يُبْدِي
وَلَوْ كَانَ ذَا مَالٍ عَرِيضٍ وَثَرْوَةٍ فَلاَبُدَّ أَنْ يَلْقَى كَثِيراً مِنَ الجَهْدِ
وَمَا إِنْ يَزَالُ الدَّهْرَ حِلْفَ صَبَابَةٍ وَلَوْ مَلَكَ الدُّنْيَا إِلَى آخِرِ الهِنْدِ
فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ غَزِيرٍ وَهِمَّةٍ فَلاَ يَلْتَفِتْ يَوْماً إِلَى العَلَمِ الفَرْدِ
وَلاَ يَحْفِلَنْ بِالظَّاعِنِينَ إِلَى الحِمَى وَلاَ يَصْبُوَنْ لِلسَّاكِنِينَ رُبَى نَجْدِ
وَلَكِنَّ طِرْفَ العَزْمِ يَرْكَبُ مَتْنَهُ يَؤُمُّ بِهِ الأَوْطَانَ بِالنَّصِّ وَالوَخْدِ
وَيُتْحِفُ أَهْلِيهِ بِرُؤْيَــةِ وَجْهِــهِ فَمَا مِنْهُمُ إِلاَّ مَشُوقٌ وَمُسْتَجْدِي
إِلَى آللَّهِ يَشْكُونَ الغَرَامَ وَوَقْدَهُ فَيَا بُؤْسَ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ
فَلِلَّهِ مَــنْ يَرْعَـى قُلُوبَ أُهَيْلِــهِ وَيَكْسِبُ فِي ذَاكَ الثَّنَاءَ مَعَ الحَمْدِ

(5 : 450-458)

31 ــ عِيسَى بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ

ابْنِ يَللبَخْت الْيَزْدَكْتَنِي، خَطِيبُ الجَامِعِ بِمُرَّاكُش، أَبُو مُوسَى الجَزُولِيُّ(174)، مَنْسُوبٌ إِلَى قَبِيلَةٍ مِنَ البَرْبَرِ مَشْهُورَةٍ تُسَمَّى جَزُولَةَ، أَصْلُهَا بَيْنَ الكَافِ وَالقَافِ، فَعَرَّبَهَا الكُتَّابُ وَكَتَبُوهَا بِالجِيمِ، مِنْ أَهْلِ مُرَّاكُش، الشَّيْخُ الأَدِيبُ النَّحْوِيُّ الفَقِيهُ الخَطِيبُ، رَحَلَ إِلَى مِصْرَ، وَأَدْرَكَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدَ آللَّهِ

(174) له ترجمة موسعة في الذيل والتكملة 8 : 246-254 ووفيات الأعيان 3 : 488-491 وفي حاشية التحقيق ذكر لمصادر أخرى.

بْنَ بَرِّي[175] النَّحْوِيَّ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ أُصُولَ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ السَّرَّاجِ[176]، وَقَرَأَ عَلَى أَبِي المَنْصُورِ ظَافِرِ بْنِ الحُسَيْنِ المَالِكِيِّ المِصْرِيِّ[177] كِتَاباً فِي أُصُولِ الدِّينِ، فَنَالَ عِنْدَهُمْ حُظْوَةً، وَتَقَبَّلُوهُ، وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ عِنْدَهُمْ، وَقَاسَى مُدَّةَ إِقَامَتِهِ بِمِصْرَ ضُرّاً مِنَ الفَقْرِ وَالفَاقَةِ، وَلَمْ يَدْخُلْ مَدْرَسَةً[178]، وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى الضِّيَاعِ، فَيُحَصِّلُ مَا يَقُومُ بِنَفَقَتِهِ، وَهُوَ غَايَةٌ فِي القِلَّةِ وَضِيقِ المَعِيشَةِ.

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى المَغْرِبِ فَقِيراً مُدْقِعاً، فَوَصَلَ إِلَى المرِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ البِلاَدِ، وَصَاحَبَ بَنِي عَبْدِ المُؤْمِنِ المُسْتَوْلِينَ عَلَى تِلْكَ البِلاَدِ، فَنَالَ عِنْدَهُمْ حُظْوَةً وَتَقَبَّلُوهُ، وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ عِنْدَهُمْ، فَتَمَشَّتْ أَحْوَالُهُ مَعَهُمْ، وَاكْتَسَبَ رِزْقاً مُتَوَفِّراً مِنْ صُحْبَتِهِمْ، وَكَانَ قَدْ نَدَبَهُ الأَمِيرُ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ المُومِنِ لِكَشْفِ أَحْوَالِ القُضَاةِ وَالوُلاَةِ عَلَى البِلاَدِ ثِقَةً بِعَدَالَتِهِ وَأَمَانَتِهِ، فَتُوُفِّيَ فِي تِلْكَ السَّفْرَةِ فِي دَوْلَةِ الأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ قَبْلَ السَّنَةِ العَاشِرَةِ وَالسِّتِّ مِئَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ ذَلِكَ[179]. وَكَانَ نَحْوِيّاً حَاذِقاً بَصِيراً بِعِلْمِ العَرَبِيَّةِ إِمَامَ زَمَانِهِ فِي مَعْرِفَتِهَا وَاتْقَانِهَا. وَهُوَ صَاحِبُ المُقَدِّمَةِ الجَزُولِيَّةِ المَشْهُورَةِ فِي عِلْمِ الإِعْرَابِ الَّتِي سَارَتْ وَانْتَشَرَتْ فِي الآفَاقِ، وَاسْتَجَادَهَا أَهْلُ هَذَا الشَّأْنِ، وَاسْتَحْسَنُوهَا غَايَةَ الاسْتِحْسَانِ، وَشَهِدُوا لِمُصَنِّفِهَا بِالتَّبْرِيزِ وَالسَّبْقِ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَاسْتَجَازُوهَا عَلَى مُصَنَّفَاتِ القُدَمَاءِ مِنَ النُّحَاةِ، وَكُتِبَتْ مِنْهَا النُّسَخُ لِكَوْنِهَا فَرِيدَةً فِي مَعْنَاهَا[180].

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي حُدُودِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّ مِئَةٍ بِهَسْكُورَةَ مِنْ بَلَدِ مُرَّاكُشَ.

---

(175) ترجمته في وفيات الأعيان 3 : 108.

(176) ترجمة أبي بكر ابن السرّاج في وفيات الأعيان 4 : 339-340 وكتابه الأصول في النحو طبع في العراق سنة 1973.

(177) هو شيخ المالكية بمصر في وقته، توفي سنة 597هـ، انظر ترجمته في نيل الابتهاج : 130 وحسن المحاضرة 1 : 193.

(178) أي أنه لم يسكن في المدارس المخصصة لطلبة العلم.

(179) حدّدَ ابن عبد الملك وفاته وقال إنها كانت ليلة السبت الثالثة عشرة من شعبان سبع وستمائة.

(180) طبعت المقدّمة الجزولية وطبع كذلك بعض شروحها، وانظر بعض ما قيل في شأنها الذيل والتكملة : 8 : 248 ح 277.

أَنْشَدَنِي الْقَاضِي الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ هِبَةِ ٱللَّهِ(181) الفَقِيهُ المُدَرِّسُ الحَنَفِيُّ بِمَحْرُوسَةِ حَلَبَ بِمَنْزِلِهِ المَعْمُورِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلاثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحُسَيْنِ يَحْيَى بْنُ مُعْطِي بْنِ عَبْدِ النُّورِ المَغْرِبِيُّ النَّحْوِيُّ(182)، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو مُوسَى لِنَفْسِهِ يَذْكُرُ فَضْلَ شَيْخٍ مِنَ العُلَمَاءِ، وَكَانَ رَجُلاً صَالِحاً يُعْرَفُ بِأَبِي العَبَّاسِ الفَقِيهِ(183) :

أَقُولُ قَوْلاً مَا لَهُ مُنْكِرُ ... إِلاَّ امْرُؤ أَحْمَقُ مُسْتَكْبِرُ
إِنَّ أَبَا العَبَّاسِ مِمَّنْ بِهِ ... يُسْتَنْزَلُ الرِّزْقُ وَيُسْتَمْطَرُ
بَقِيَّةٌ مِنْ سَلَفٍ صَالِحٍ ... كَانَ كَمَا كَانُوا فَمَا يَكْدِرُ
كُنْتُ ــ لَعَمْرِي ــ إِنْ جَرَى ذِكْرُهُ ... أَظُنُّهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ يُذْكَرُ
وَالْيَوْمَ لاَ أَرْتَابُ فِي فَضْلِهِ ... صَدَّقَ عِنْدِي الخَبَرَ المَخْبَرُ
جَالَسْتُ مِنْهُ الشَّمْسَ فِي قَدْرِهِ ... وَأَبْحُراً فِي العِلْمِ لاَ تُعْبَرُ
هَمَّ بَنُو الدُّنْيَا بِمَا نَالَهُ ... فِي العِلْمِ وَالتَّقْوَى فَلَمْ يَقْدِرُوا
أَبْصَرَ مَا لَمْ يُبْصِرُوا بَعْدَمَا ... شَارَكَهُمْ فِي كُلِّ مَا أَبْصَرُوا

(5 : 458–461)

32 ــ عِيسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى

ابْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ خَلِيلِ الحِمَيَرِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ التَاكُرنِيُّ

---

(181) هو المعروف بابن العديم وقد تقدّم ذكره.

(182) ترجمة ابن معطى في بغية الوعاة 2 : 344 وستأتي ترجمة ابن الشعّار له ضمن هذا المجموع (ص 158).

(183) أظنّ أنّه أبو العباس القنجايري الصّوفي المعروف الذي أخذ بضبع الجزولي لما حلّ بالمرية. انظر ترجمة أبي العباس هذا في الذيل والتكملة 1 : 46–58 ورسالة صفي الدين : 57–59، وانظر حكايته مع الجزولي في «الفلاكة والمفلوكون» : 92.

أَبُو الرُّوح(184) وتَاكُرُنَّا مِن أَعْمَالِ قُرْطُبَة(185)؛ قَدِمَ ارْبِلَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ لِلِاسْتِجْدَاءِ، وَلَمْ أَكُنْ ذَلِكَ الوَقْت مُقِيماً بِهَا. كَتَبَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِهَا، وَكَانَ يَرْوِي شَيْئاً مِنْ أَشْعَارِ الأَنْدَلُسِيِّينَ، وَلَهُ عِنَايَةٌ بِحِفْظِهَا وَأَنْسَابِ قَائِلِيهَا، ثُمَّ سَافَرَ عَنْهَا إِلَى مَدِينَةِ آمِد، فَلَمْ يَمْكُثْ بِهَا إِلاَّ مُدَّةً قَرِيبَةً، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِأَرْزن مِنْ دِيَارِ بَكْرٍ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ عَائِداً مِنْ آمِد.

كَذَلِكَ أَخْبَرَنِي البَدْرُ أَبُو الوَفَاءِ الحَسَنُ بْنُ عَلِي ابْنِ المَوْصِلِيِّ الكَاتِبُ بِحَلَبَ المَحْرُوسَةِ، وَلَهُ أَشْعَارٌ أَنْشَدَنِي مِنْهَا الصَّاحِبُ الوَزِيرُ أَبُو البَرَكَاتِ المُسْتَوْفِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الرُّوحِ عِيسَى بْنُ مُحَمَّدٍ لِنَفْسِهِ :

سَلاَمٌ كَسَاعَاتِ التَّلاَقِي مِنَ الهَوَى ... مَحلاً، وَأَيَّامِ الشَّبَابِ مِنَ العُمْرِ
أَخُصُّ بِهِ مَغْنَى الكَمَالِ وَشَخْصَه ... وَسَبَّاقَ غَايَاتِ الفَضَائِلِ وَالفَخْرِ
أَبَا البَرَكَاتِ الأَلْمَعِيَّ الَّذِي غَدَا ... لَهُ شَرَفٌ يُرْبِي عَلَى الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

يَا رُبَّ أُضْحِيَّةٍ سَوْدَاءَ حَالِكَةٍ ... لَمْ تَرْعَ فِي البِيدِ إِلاَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَا
تَخَالُ بَاطِنَهَا فِي ٱللَّوْنِ ظَاهِرَهَا ... فَهْيَ ٱلْغَدَاةَ كَزِنْجِيٍّ إِذَا كَفَرَا

وَأَنْشَدَنِي قَالَ : أَنْشَدَنِي قَوْلَهُ :

يَا قَلْبُ مَا لَكَ لاَ تُفِيقُ مِنَ الهَوَى ... أَوَ مَا يَقَرُّ بِكَ الزَّمَانَ قَرَارُ
أَلِكُلِّ ذِي وَجْهٍ جَمِيلٍ حَنَّةٌ ... وَلِكُلِّ عَهْدٍ سَالِفٍ تَذْكَارُ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

إِنْ أَوْدَعَ الطِّرْسَ مَا وَشَّاهُ خَاطِرُهُ ... أَبْدَى لِعَيْنَيْكَ أَزْهَاراً وَأَسْحَارَا

---

(184) له أيضا ترجمة في تاريخ إربل لابن المستوفي وهي موجودة ضمن هذا المجموع (ص 179) وقد نقل المقري جلّها في نفح الطيب 2 : 606-609.

(185) ذكر ابن سعيد في المغرب (1 : 330) أن مدينة تاكُرُنّا كانت قصبة كورة رندة ثم خربت، وفي معجم البلدان والروض المعطار أنها كورة أو إقليم ومن مدن تاكرنا مدينة رندة. أما قول ابن الشعار إنها من أعمال قرطبة وقول ياقوت مرة أخرى إنها من أعمال شذونة، وقول الحميري إنها مضافة إلى أعمال استجة فإنها أقوال تقريبية.

وَإِنْ يُهَدِّدْكَ فِيهِ أَوْ يَعِدْ كَرَماً   بَثَّ البَرِيَّــةَ آجَــالاً وَأَعْمَــارَا
(5 : 473-474)

33 ـ الفَتْحُ بْنُ مُوسَى بْنِ حَمَّادٍ

ابْنِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ أَبُو نَصْرٍ(186) الأَمَوِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ مِنْ أَهْلِ الجَزِيرَةِ الخَضْرَاءِ أَصْلاً، وَمَوْلِدُهُ بِقَصْرِ كُتَامَةَ، بَيْنَ فَاسٍ وَسَلاَ(187)، فِي الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَوال سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، كَذَلِكَ أَخْبَرَنِي مِنْ لَفْظِهِ.

فَقِيهٌ شَافِعِيُّ المَذْهَبِ أُصُولِيٌّ عَالِمٌ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالنَّحْوِ وَالعَرُوضِ وَنَظَرَ فِي عِلْمِ الحِكْمَةِ، وَالمَنْطِقِ، قَرَأَ المُقَدِّمَةَ الجَزُولِيَّةَ عَلَى مُصَنِّفِهَا قِرَاءَةَ إِتْقَانٍ وَفَهْمٍ، وَنَظَمَ كِتَابَ المُفَصَّلِ لأَبِي القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيِّ أُرْجُوزَةً، وَعَمِلَ كِتَابَ الإِشَارَاتِ لأَبِي عَلِيِّ ابْنِ سِينَا شِعْراً، وَنَظَمَ كِتَاباً فِي العَرُوضِ لَطِيفاً، وَرَحَلَ إِلَى مَدِينَةِ السَّلاَمِ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَسَمِعَ بِهَا الحَدِيثَ عَلَى أَبِي الفَضْلِ الدَّاهِرِيِّ وَغَيْرِهِ، نَزَلَ بِرَأْسِ عَيْنٍ، وَتَوَلَّى بِهَا تَدْرِيسَ المَدْرَسَةِ النِّظَامِيَّةِ عَلَى الفِرَقِ الأَرْبَعِ، ثُمَّ فُوِّضَ إِلَيْهِ أَمْرُ دِيوَانِهَا. شَاهَدْتُهُ بِإِرْبَلَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ فِي صُحْبَةِ فَلَكِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هِبَةِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَسِيرِيِّ المِصْرِيِّ(188)، وَكَانَ حِينَئِذٍ قَدْ وَرَدَهَا رَسُولاً. أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ يَمْدَحُ إِرْبَلَ وَيَصِفُهَا :

يَا إِرْبِلُ، مَا أَنْتِ إِلاَّ جَنَّــةٌ   خُصَّتْ بِأَكْرَمِ جِيــرَةٍ وَقَــرَارِ

(186) له ترجمة في طبقات الشافعية الكبرى 8 : 348 وبغية الوعاة 2 : 262 وحسن المحاضرة 1 : 415، ويبدو أنه لا صلة له بالقاضي موسى بن حمّاد المعروف لأن هذا صنهاجي والمترجم هنا أموي.

(187) قد يصح هذا حسب مسلكٍ مّا، ولكننا نقول اليوم إنّ قصر كتامة أو القصر الكبير يقعُ بين طنجة وفاس أو بين طنجة وسلا.

(188) ترجمته في الوافي بالوفيات 18 : 294-295 وفي حاشية المحقق ذكر لمصادر أخرى.

لَوْ لَمْ تَكُونِي جَنَّةَ الدُّنْيَا لَمَا كَانَ السِّرَاطُ إِلَيْكِ بَيْتَ النَّارِ[189]
سُلْطَانُهَا المَلِكُ المُعَظَّمُ قَدْرُهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُعَظَّمٍ جَبَّارِ
يَكْفِيهِ عِنْدَ آللَّهِ ــ وَهْيَ عَظِيمَةٌ ــ تَعْظِيمُ مَوْلِدِ أَحْمَدَ المُخْتَارِ
فَلَيَحْمَدَنَّ إِذَا التَّقَى بِمُحَمَّدٍ آثَارَ مَا أَوْلاَهُ مِنْ آثَارِ

وَهَذِهِ الخُطْبَةُ مِنْ إِنْشَائِهِ، وَتَلاَهَا بِالقَصِيدَةِ الدَّالِيَةِ يَمْدَحُ بِهَا القَاضِيَ زِينَ الدِّينِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَسَدِيَّ الحَلَبِيَّ[190] قَاضِي حَلَب رَحِمَهُ آللَّهُ. وَذَلِكَ حِينَ أُنْفِذَ رَسُولاً إِلَى الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ إِلَى السُّلْطَانِ المَلِكِ الكَامِلِ رَحِمَهُ آللَّهُ : «الحَمْدُ لِلَّهِ آلَّذِي كَشَفَ عَنِ آلأُمَّةِ ظُلْمَةَ الغُمَّةِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَفَاضَ مِنْ سَوَابِغِ النِّعْمَةِ، وَسَوَائِغِ آلطُّعْمَةِ، وَمَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ جَلاَلِ العِصْمَةِ، وَكَمَالِ النِّعْمَةِ، وَظِلاَلِ الرَّحْمَةِ، وَأَفَاءَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمَانِي أَمَانِهِ ظِلاً ظَلِيلاً، و﴿خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وَقَضَى لِخَلْقِهِ أَجَلَيْنِ، أَجَلاً اخْتِرَامِياً مُسَمّىً عِنْدَهُ، وَأَجَلاً مُسْتَفَاداً بِتَقْدِيرِهِ مُؤَجَّلاً، فَأَمَاتَ وَأَحْيَى بِآلأَجَلَيْنِ الاخْتِرَامِي وَالمُسْتَفَادِ دُوَلاً وَحُوَّلاً ﴿سُنَّةَ آللَّهِ آلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ آللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ اخْتَرَمَ النَّفْسَ النَّفِيسَةَ المَلَكِيَّةَ العَزِيزَةَ قَدَّسَ آللَّهُ رُوحَهَا، وَنَوَّرَ ضَرِيحَهَا لأَجَلِهَا المَحْتُومِ، وَأَلْحَق خَبَرَهَا الحَقِيقِيَّ المَوْجُودَ بِالخَبَرِ المَجَازِي لاَ بَلْ بِخَبَرِ المَعْدُومِ، وَكَأَنَّ تَصَوُّرَاتِ المِحَنِ وَتَصْدِيقَاتِ الإِحَنِ تَلْبِسُ المَجْهُولَ بِالمَعْلُومِ، وَتَتَخَاذَلُ العَزَائِمُ الإِنْسَانِيَّةُ، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا﴾، فَصَدَعَتِ العَزَائِمُ الصَّاحِبِيَّةُ القَاضَوِيَّةُ الدِّينِيَّةُ الأَسَدِيَّةُ عَنْ أَنْوَارِ الهِدَايَةِ، وَسَطَعَتْ إِيَاةُ آيَاتِهَا بِبَوَارِقِ سَوَابِقِ الحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ، وَأَشَارَتِ العِنَايَةُ الصَّرِيحَةُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنَ الاخْتِصَاصِ بِاصْطِفَاءِ العِنَايَةِ، فَبُعِثَ رَسُولاً، كَرِيماً كَفِيلاً بِسَعَادَتِهِ أَنْ يَبْلُغَ مَا شَاءَ أَمَلاً وَسُولاً، فَنَهَضَ أَيَّدَهُ آللَّهُ ــ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ نُهُوضاً وَاجِباً، وَأَثْبَتَ أَسْبَابَ المَلِكِ الصَّلاَحِيِّ

(189) بيت النار : قرية كبيرة من قرى إربل من جهة الموصل، بينها وبين إربل ثمانية أميال، معجم البلدان.

(190) ترجمته في الوافي بالوفيات 17 : 246 وجاء فيها : «ونبل مقداره عند الملوك والسلاطين وعلاجاهه وارتفع شأنه وترسّل إلى ملوك الشام ومصر مرّات» وانظر تعداد مصادر ترجمته في حاشية المحقق.

بِسَلْبِ مَوَانِعِهِ عَنْهُ فَكانَ بِحُكْمَيْهِ المُتَقَابِلَيْنِ مُوجِباً وَسَالِباً، وَأَسْفَرَ صَباح سِفَارَتِهِ عَنْ صَلاَحٍ بِشَارَتِهِ وَنَجَاحِ رِسَالَتِهِ آتِياً وَذَاهِباً، ﴿فقَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِي الكِتَابَ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، وَبَعَثَنِي رَسُولاً، فَآمَنَ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ الحُسْنَى وَمَنْ رَأَى آيَاتِ صِدْقِهِ البَاهِرَةِ، وَصَفَتْ مَوَارِدُ سُعُودِ الرَّعَايَا بِتَسْخِيرِ ٱللَّهِ لَهُ مُلُوكاً قَبِلَتْ إِشَارَتَهُ وَامْتَثَلَتْ أَوَامِرَهُ، وَأَسْبَغَ ٱللَّهُ عَلَى الكَافَّةِ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، وَحُسْنَى تَقْدِيرِهِ نِعَمَهُ البَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ، وَهَدَى بِهِ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾، فَأَلَّفَ ٱللَّهُ بِهِ الكَلِمَةَ عَلَى أَحْسَنِ نِظَامٍ وَأَثْبَتِ أَسَاسٍ، وَاسْتَقَرَّ بِهِ أَمْرُ أَمْنِ الرَّعِيَّةِ وَتَمَزَّقَ عَنْهُمْ لِبَاسُ ٱلْيَاس، وَكَفَلَ تَأْيِيدَ المَلِكِ وَتَأْبِيدَهُ فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَلِسَانُ حَالِ المُلُوكِ يَقُولُ وَكَفَى بِهِ قَائِلاً وَبِكَافِلِهِ كَفِيلاً.

وَهَذِهِ القَصِيدَةُ :

مَا شِئْتَ يَا دَهْرُ فَاصْنَعْ غَيْرَ مُقْتَصِدِ ... وَعَدِّ عَنْ قَصْدِ مُقْصُودِي وَلاَ تَعُدِ
وَاسْتَجْلِبِ العُذْرَ عَنْ غَدْرٍ وَفَيْتَ بِهِ ... وَخُذْ أَمَانَكَ عَنْ خَوْفٍ يَداً بِيَدِ
فَقَدْ حَلَلْتَ حِمىً لَوْ يَسْتَجِيرُ بِهِ ... حِمَى كُلَيْبٍ لأَضْحَى فِي حِمَى الأَسَدِي
الصَّاحِبُ الصَّدْرُ زَيْنُ الدِّينِ مَنْ بَلَغَتْ ... بِهِ عُلاً آمِدٌ أَرْبَى عَلَى أَمَـدِ
قَاضِي القُضَاةِ الَّذِي أَضْحَتْ مَنَاقِبُهُ ... مُؤَسَّسَاتٍ مِنَ التَّقْوَى عَلَى عَمَدِ
يَهْدِي عُقُولَ الوَرَى مِنْ عِلْمِهِ عَلَمٌ ... أَنَافَ فَوْقَ شَنَاخِيبِ النُّهَى الجُدُدِ
تُضِيءُ أَنْوَارُهُ مِنْ نَارِ فِكْرَتِـهِ ... فَتَنْجَلِي الحِكَمُ القُدْسِيَّةُ المَـدَدِ
وَتُسْتَقَلُّ أَيَادِيـهِ، وَإِنْ كَثُـرَتْ ... فَكَمْ أَيَادٍ لَهُ عِنْدَ الوَرَى وَيَدِ
صَدْرٌ أَقَامَ قَنَاةَ المُلْكِ مِنْ أَوَدٍ ... فِي صَدْرِهَا فَانْثَنَتْ عَنْ ذَلِكَ الأَوَدِ
نَائِي المَحَلِّ تَرَاهُ مِنْ تَوَاضُعِـهِ ... لِلْخَلْقِ فِي صَبَبٍ مِنْ ذَلِكَ الصَّعَدِ
سَدَّ الثُّغُورَ وَقَدْ سُدَّتْ مَسَالِكُهَا ... عَنِ العُقُولِ بِرَأْيٍ صَائِبٍ سَدَدِ
وَمَهَّدَ المُلْكَ حَتَّى أَصْبَحَتْ حَلَبٌ ... فِي دَرِّ ضَرْعِ المُنَى كَالْوَقْرِ فِي الصَّفَدِ
مَضَى لِمِصْرَ، فَأَمْضَى مِنْ عَزَائِمِهِ ... بِيضاً تَقُدُّ قُلُوبَ الأُسْدِ فِي الزَّرَدِ
بَدَتْ لَهُمْ مُعْجِزَاتٌ مِنْ مَنَاقِبِهِ ... فَأَرْسَلُوهُ لَهَا فِي طَالِعِ السُّعُـدِ
فَقَامَ بِالحَقِّ لاَ يُلْوِي مُنَاصَحَـةً ... فِيمَا تُنَالُ بِهِ الأُخْرَى عَلَى أَحَدِ

فَأَمِّـنَتْ بِهُـدَاهُ أُمَّـةٌ سَبَـقَتْ لَهَا مِنَ اللَّهِ حُسْنَى الفَوْزِ وَالرَّشَدِ
فَاسْتَوْسَقَ المُلْكُ وَانْجَابَتْ بِهِمَّتِهِ دُجَى الخُطُوبِ وَدَامَ المُلْكُ لِلأَبَدِ
وَعَاشَ مَنْ كَانَ يَخْشَى المَوْتَ فِي حَلَبٍ وَمَاتَ أَعْدَاؤُهُ مِنْ شِدَّةِ الكَمَدِ
وَكَانَ أَكْبَرَ عِيدٍ يَوْمَ مَقْدَمِـهِ مُهَنَّأً بِالمُنَى فِي النَّفْسِ وَالوَلَدِ
تَبَاشَرَ النَّاسُ فِي لُقْيَاهُ وَاحْتَشَدُوا لَهُ بِأَجْمَلِ مَا يُلْقَى مِنَ الحَشَدِ
قُلْ لِلْمُحَدِّثِ عَنْ أَخْبَارِ سُؤْدَدِهِ حَدِّثْ حَدِيثاً صَحِيحاً عَالِيَ السَّنَدِ
وَانْثُرْ عَلَى صَفَحَاتِ الدَّهْرِ مِنْ مِدَحِي فِيهِ بَدِيعَ نِظَامِ اللُّؤْلُـؤِ البَـدَدِ
وَقَابِلِ العَالَـمَ العُلْوِيَّ أَجْمَعَـهُ مِنْـهُ بِكُلِّـيِّ فَضْلٍ فِيـهِ مُتَّحِـدِ
وَعَفِّرِ الوَجْهَ فِي نَادِيهِ إِنَّ بِـهِ مِسْكِيَّ تُرْبٍ بِهِ يُشْفَى مِنَ الرَّمَدِ
وَرَاجِعِ الْفِكْرَ وَارْجِعْ عَنْ مَهَابَتِهِ حَسِيرَ طَرْفِكَ وَالْحَظَ لَحْظَ مُتَّئِدِ
تَلْحَظْ جَلاَلَ جَنَابٍ تَقْشَعِرُّ لَهُ جُلُودُ كُلِّ عَظِيمِ الجَأْشِ وَالجَلَدِ
وَهِمَّةٌ ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِمَا رَحُبَتْ عَنْ حَمْلِهَا وَسَطَا الصَّمْصَامَةِ الفَرِدِ
وَقَاضِياً أُحْكِمَتْ أَحْكَامُه حِكَماً جَلَّتْ فَأَجْلَتْ ظَلاَمَ الظُّلْمِ وَالفَنَدِ
مُؤَيِّداً حُكْمَ دِينِ آللَّهِ مُجْتَهِداً فِيهِ بِمَا يَرْتَضِيهِ كُلُّ مُجْتَهِـدِ
يَا ذَا الَّذِي صِيغَ مِنْ طِيبٍ وَمِنْ زَبَدٍ وَغَيْرُهُ صِيغَ مِنْ طِينٍ وَمِنْ زَبَدِ[191]
تَبَارَكَ آللَّهُ مَا أَوْلاَكَ مِنْ رَجُلٍ بِفَضْلِ مَا حُزْتَ مِنْ سَمْتٍ وَمِنْ رَشَدِ
كَمِ اجْتَهَدْنَا عَلَى عَيْبٍ نُعِيذُ بِهِ كَمَالَ مَجْدِكَ مِنْ عَيْنٍ فَلَمْ نَجِدِ
لَفْظُ الفَضِيلَةِ لَمْ تُوضَعْ حَقِيقَتُهُ إِلاَّ عَلَيْكَ فَمَنْ يَنْقُلْهُ لَمْ يُفِدِ
وَحُلَّةُ الْمَجْدِ مُذْ أُلْبِسْتَهَا يَفَعاً سَاوَتْ عُلاَكَ فَلَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدِ
أُعِيذُ ــ يَاوَاحِدَ الدُّنْيَا وَصَاحِبَهَا ــ فَضْلاً خُصِصْتَ بِهِ بِالوَاحِدِ الصَّمَدِ
وَنِلْتَ فِي قُرَّتِي عَيْنِ الفَضَائِلِ مَا تَخْتَارُ مِنْ أَمَلٍ يَبْقَى مَدَى المُدَدِ
فَفِي الكَمَالِ كَمَالٌ جَلَّ مُبْدِعُهُ وَفِي البَهَاءِ بَهَاءٌ غَيْرُ مُنْتَقَـدِ

فَلِلَّهِ حَرَكَةٌ أَوْجَبَتْ سُكُونَ مَا انْزَعَجَ مِنَ الخَوَاطِرِ، وَبَرَكَةٌ رَدَّتْ سَحَائِبَ

(191) لعلّه يقصد بالأول الطيب الذي يعتصر من السنور المعروف أما الثاني فهو القذي الذي يطفو فوق الماء.

الفِتَنِ وَهِيَ قَوَاطِرُ مَوَاطِرُ، وَهِمَّةٌ أَسَدِيَّةٌ قَامَتْ مَقَامَ القَنَا وَالقَنَابِلِ وَالبَوَاتِكِ البَوَاتِرِ، حِينَ كَادَتْ ﴿تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾، فَغَلَبَ بِحَمْدِ ٱللَّهِ عَلَى مَا أَرَادَهُ مِنْ إِصْلاَحِ الدَّوْلَةِ الصَّلاَحِيَّةِ وَكَانَ حِزْبُ ٱللَّهِ غَالِباً، وَأَحْكَمَ مَا حَكَمَ بِهِ مِنْ مَصَالِحِ النَّصَائِحِ شَاهِداً وَغَائِباً، وَقَضَى لِلْغَائِبِ وَعَلَيْهِ قَضَاءً نَافِذاً وَاجِباً، وَالقَاضِي إِذَا قَضَى لِلْغَائِبِ وَعَلَيْهِ كَانَ قَضَاؤُهُ جَائِزاً مَقْبُولاً.

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ مُهَنِّئاً المَلِكَ الأَشْرَفَ بِفَتْحِ دِمْيَاطَ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا :

ٱللَّهُ أَكْبَرُ هَذِي أَكْبَرُ الرُّتَبِ ... شَاهَتْ لَهَا أَوْجُهُ الأَوْثَانِ وَالصُّلُبِ
وَحَصْحَصَ الحَقُّ وَانْجَابَتْ غَيَاهِبُهُ ... وَاجْتُثَّ دَابِرُ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالرِّيَبِ
وَصَدَّقَتْ عَزَمَاتُ السَّيْفِ مَا كَتَبَتْ ... أَيْدِي الغُيُوبِ مِنَ الآيَاتِ فِي الكُتُبِ
كَادَتْ تَنُوبُ بَنِي الإِسْلاَمِ نَائِبَةٌ ... مِنَ الْفِرَنْجِ فَكَادَتْهُمْ يَدُ النُّوَبِ
مِنْ بَعْدِ مَا شَامَ أَهْلُ الشَّامِ قَاطِبَةً ... مِنْهُمْ بِمِصْرَ بُرُوقَ الأَيْنِ وَالوَصَبِ
وَغَادَرُوا ثَغْرَ دِمْيَاطٍ وَبَرْزَخُهُ ... تَبْكِي عَلَيْهِ جُفُونُ الدِّينِ وَالحَسَبِ
طَمَتْ عَلَيْهِمْ بِحَارٌ مِنْكَ زَاخِرَةٌ ... فَلَجَّجَتْ بِهِمُ فِي لُجَّةِ العَطَبِ
غَضِبْتَ لِلَّهِ يَا مُوسَى، وَمَا عَلِمُوا ... بِأَنَّ رِضْوَانَهُ فِي ذَلِكَ الغَضَبِ
وَأَجَّجَتْ يَدُكَ البَيْضَاءُ بَيْنَهُمُ ... نَاراً، فَكَانُوا لَهَا مِنْ جُمْلَةِ الحَطَبِ
هُمُ الْفَرَاشُ، فَمَهْمَا أَلْهَبَتْ لَهَباً ... أَنْوَارُهَا سَقَطُوا فِي ذَلِكَ اللَّهَبِ
يَا لَلْعَجَائِبِ، عِيسَى، وَهْوَ عِنْدَهُمُ ... رَبٌّ دَعَاهُمْ إِلَى التَّقْوَى، فَلَمْ يُجَبِ
وَلَمْ يَزَلْ — وَهْوَ رُوحُ القُدْسِ — يُنْذِرُهُمْ ... آيَاتِ مُوسَى، وَمَا فِيهَا مِنَ العَجَبِ
فَجَاءَ عِيسَى رَسُولاً مِنْ مُحَمَّدِهِ ... إِلَى أَبِي الفَتْحِ مُوسَى البَطْشِ وَالرَّهَبِ
عِلْماً بِأَنَّ اليَدَ البَيْضَاءَ مَا بَرِحَتْ ... تُبْدِي لِمُوسَى بِمِصْرٍ آيَةَ اللَّقَبِ
فَجَاءَ مُوسَى لِدِمْيَاط عَلَى قَدَرٍ ... وَالنَّصْرُ يَقْدُمُهُ فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ
وَحَالَ مَا بَيْنَ دِمْيَاطٍ وَبَيْنَهُمُ ... بِكُلِّ مُرْتَقِبٍ لِلْهَوْلِ مُرْتَكِبِ
بِكُلِّ قَلْبٍ كَأَنَّ السُّمْرَ أَضْلُعُهُ ... لَمْ يَهْفُ قَلْبٌ لَهُ يَوْماً وَلَمْ يَجِبِ
فَجَاءَ فِرْعَوْنُ عَكًّا خَائِفاً وَجِلاً ... يَبْغِي أَمَاناً يُنَجِّيهِمْ مِنَ الرُّعُبِ
مُسْتَيْقِنِينَ بِأَنَّ ٱللَّهَ خَاذِلُهُمْ ... وَأَنَّ مَرْجِعَهُمْ لِلسَّيْفِ وَالهَرَبِ

وَأَيْنَ يَهْرُبُ مِنْ مُوسَى وَفِي يَدِهِ الدُّنْيَا جَمِيعاً وَخَيْلُ ٱللَّهِ فِي الطَّلَبِ[192]
فَسَلَّمُوهَا، وَمَا جَادُوا بِهَا كَرَماً لَكِنَّهُمْ فَدَوُا المَسْلُوبَ بِالسَّلَبِ
(5 : 509–517)

34 ـــ أَبُو القَاسِمِ ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ

ابْنِ عَطِيَّةَ[193] الوَزِيرُ الكَاتِبُ. حَدَّثَنِي شَيْخُ الشُّيُوخِ ابْنُ حَمُّويَه، قَالَ : أَبُو القَاسِمِ هَذَا كَانَ كَاتِباً لِلشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ عُمَرَ[194]، وَكَانَ أَحَدَ أَشْيَاخِ المُوَحِّدِينَ وَأَرْكَانَ دَوْلَتِهِمْ رَأَيْتُهُ بِمُرَّاكُشَ وَهُوَ يَتَوَلَّى أَكْثَرَ أُمُورِهِ، وَإِلَيْهِ التَّرَسُّلُ وَالإِنْشَاءُ فِي كِتَابَةِ رِقَاعِهِ وَدَرْجِهِ، وَوِلاَيَةِ نَفَقَاتِ دَخْلِهِ وَخَرْجِهِ، وَهُوَ المُسْتَوْلِي عَلَى أَمْرِهِ، وَالمُسْتَوْدَعُ لِسِرِّهِ، وَلَهُ كِتَابَةٌ حَسَنَةٌ، وَرَسَائِلُ وَجِيزَةٌ، وَأَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ.

وَكَانَ مِنْ ذَوِي المُرُوءَاتِ وَالهَيْئَاتِ، وَمِنَ المُسَارِعِينَ إِلَى إِغَاثَةِ المَلْهُوفِ وَقَضَاءِ الحَاجَاتِ، وَكَانَ وَالِدُهُ أَبُو جَعْفَرٍ وَزِيرُ آلِ عَبْدِ المُؤْمِنِ نَهَضَ بِأَعْبَاءِ الدَّوْلَةِ فِي مَبَادِيهَا، وَأَحْكَمَ قَوَاعِدَهَا وَمَبَانِيَهَا، وَلَهُ الكُتُبُ البَلِيغَةُ فِي الجَمْعِ وَالتَّأْلِيفِ والاِحْتِجَاجِ لِلدَّوْلَةِ المُسْتَقْبَلَةِ وَالإِدْحَاضِ لِلدَّوْلَةِ المَاضِيَةِ، وَالمُبَالَغَاتِ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، والاقْتِدَارِ التَّامِّ فِي حُسْنِ التَّدْبِيرِ، وَعَلَى التَّبْعِيدِ وَالتَّقْرِيبِ. وَأَمَّا وَلَدُهُ هَذَا فَهُوَ مُتَوَسِّطٌ فِي فَنِّهِ مُوَافِقٌ طَبَقَةَ سِنِّهِ، وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بِمُرَّاكُشَ مُجَاوَرَةٌ، وَمُزَاوَرَةٌ وَمُحَاوَرَةٌ، ثُمَّ قَالَ : وَأَنْشَدَنِي يَوْماً لِنَفْسِهِ، وَقَدْ جَرَتْ مُفَاوَضَةٌ

(192) هذا من قول الشاعر الأندلسي الأصم المرواني :
أين المفرُّ وخيل الله في الطَّلَب
وقصيدة الأصم وقصيدة هذا الشاعر كلتاهما في معارضة بائية أبي تمام المشهورة.

(193) هو ولد الكاتب أبي جعفر ابن عطية وزير عبد المومن، وحياته ونهايته وأخباره معروفة.

(194) هو الذي ولاّه الناصر الموحدي على إفريقية ثم استبدّ بها وآل الأمر إلى قيام الدولة الحفصية في عهد ولده أبي زكرياء.

فِي اخْتِيَارِ العُزْلَةِ وَالخُمُولِ وَإِيثَارِ الانْزِوَاءِ، فَقَالَ :

تُنَازِعُنِي النَّفْسُ أَعْلَى الأُمُورِ وَلَيْسَ مِنَ العَجْزِ لاَ أُنْشَطُ
وَلَكِنْ بِمِقْدَارِ قُرْبِ المَكَانِ تَكُونُ سَلاَمَةُ مَنْ يَسْقُطُ[195]

(625 : 5)

35 ــ لُؤْلُؤُ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ أَبُو سَعِيدٍ

الرُّومِيُّ[196] الصَّيَّادُ، كَانَ أَصْلُهُ فَرَنْجِيّاً، وَكَانَتْ حِرْفَتُهُ صَيْدَ السَّمَكِ، وَشَكْلُهُ شَكْلُ المَغَارِبَةِ، وَكَانَ مَوْلًى لابْنِ مُنْقِذٍ الاسْكَنْدَرِيِّ التَّاجِرِ وَعَتِيقِهِ، اشْتَغَلَ بِطَرَفٍ مِنْ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ، وَأَخَذَ مِنْهُ قَدْراً يَسِيراً لِتَصْحِيحِ طَبْعِهِ فِي النَّظْمِ، وَكَانَتْ لَهُ اليَدُ الطُّولَى فِي صَنْعَةِ المُوَشَّحَاتِ وَإِنْشَاءِ الشِّعْرِ، وَصَنَعَ مَقَامَاتٍ، وَرُبَّمَا امْتَدَحَ بِشِعْرِهِ، وَارْتَزَقَ. وَلَهُ طَبْعٌ يُعِينُهُ عَلَى الإِنْشَاءِ لاَ غَيْر.

وَنُدِبَ إِلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ قُوَّادِ البَحْرِ فَامْتَنَعَ. أَنْشَدَنِي أَبُو المُظَفَّرِ مَنْصُورُ بْنُ سَلْمِ بْنِ مَنْصُورٍ الاسْكَنْدَرِيُّ بِمَدِينَةِ السَّلاَمِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلاَثِينَ وَستٍّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي لُؤْلُؤُ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ لِنَفْسِهِ، وَهِيَ أَبْيَاتٌ خَالِيَةٌ مِنَ النَّقْطِ :

اطْلَعْ طُلُوعَ هِلاَلِكَ وَاصْعَدْ سَمَاءَ كَمَالِكَ
وَلُحْ كَمَا لاَحَ سَعْدٌ عَلَى العَلاَءِ لِحَالِكَ
وَحُلَّ وَسْطَ مَحَلٍّ مَدَاهُ مَهْلُ طَوَالِكْ
لَكَ المَكَارِمُ سَعْداً لِوَالِهِ الصَّدْرِ هَالِكِ
دَعَاهُ مَطْلُكَ دَهْراً وَمَا دَعَا لِمِطَالِكَ
وَهَلْ وِصَالُكَ إِلاَّ أَهْلٌ لأَهْلِ وِصَالِكَ
كَمَا صُدُودُكَ مُرٌّ مُحَرَّمٌ لِحَلاَلِكَ

(19 : 6)

(195) هذا من المثل : على قدر السمو في الرفعة، تكون وجبة الوقعة.

(196) يبدو مما سيذكره بعد أنه عاش في بداية حياته ببلاد المغرب.

36 ـ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جُبَيْرٍ

ابْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ جُبَيْرٍ أَبُو الحُسَيْنِ الكِنَانِيُّ البَلَنْسِيُّ[197] الوَزِيرُ الكَاتِبُ، وُزِرَ لِصَاحِبِ الأَنْدَلُسِ الأَمِيرِ أَبِي سَعِيدٍ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُومِنِ[198].

وَكَانَ شَاعِراً مُجِيداً عَالِماً بَلِيغاً ذَا أَدَبٍ كَثِيرٍ وَفَضْلٍ شَهِيرٍ، لَهُ قَصَائِدُ مُسَمَّطَةٌ، وَرَسَائِلُ مُدَوَّنَةٌ، وَشِعْرٌ فَصِيحٌ، وَتَرَسُّلٌ مَلِيحٌ، وَمُوَشَّحَاتٌ بَارِعَةٌ، وَكِتَابَةٌ رَائِعَةٌ. رَحَلَ إِلَى الاسْكَنْدَرِيَّةِ وَسَكَنَهَا إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ بِهَا يَوْمَ الخَمِيسِ سَلْخَ شَعْبَانَ سَنَةَ خَمْسَ عَشَرَةَ وَسِتِّ مِئَةٍ.

أَنْشَدَنِي الْفَقِيهُ أَبُو مُوسَى عِيسَى بْنُ سَلاَمَةَ ٱلإِسْكَنْدَرِيُّ الْمُقْرِىءُ بِإِرْبِلٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي الوَزِيرُ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدٌ بْنُ أَحْمَدَ ٱبْنِ جُبَيْرٍ لِنَفْسِهِ فِي الحُجَّاجِ :

يَا وُفُودَ ٱللَّهِ، فُزْتُمْ بِالمُنَى ... فَهَنِيئاً لَكُمُ أَهْلَ مِنَى
قَدْ عَرَفْنَا عَرَفَاتٍ مَعَكُمْ ... فَلِهَذَا بَرَّحَ الشَّوْقُ بِنَا
نَحْنُ بِالمَغْرِبِ نُجْرِي ذِكْرَكُمْ ... فَغُرُوبُ الدَّمْعِ تَجْرِي هُتُنَا
أَنْتُمُ الأَحْبَابُ نَشْكُو بُعْدَكُمْ ... هَلْ شَكَوْتُمْ بُعْدَنَا مِنْ بَعْدِنَا
عَلَّنَا نَلْقَى خَيَالاً مِنْكُمُ ... بِلَذِيذِ الشَّوْقِ وَهْنَا عَلَّنَا
لاَحَ بَرْقٌ مَوْهِناً مِنْ أَرْضِكُمْ ... فَلَعَمْرِي، مَا هَنَا العَيْشُ هُنَا
صَدَعَ اللَّيْلَ وَمِيضاً وَسَنىً ... فَأَبَيْنَا أَنْ نَذُوقَ الوَسَنَا
كَمْ جَنَى الشَّوْقُ عَلَيْنَا مِنْ أَسىً ... عَادَ فِي مَرْضَاتِكُمْ حُلْوَ الجَنَا
وَلَكَمْ بِالخَيْفِ مِنْ قَلْبٍ شَجٍ ... لَمْ يَزَلْ خَوْفَ النَّوَى يَشْكُو الضَّنَا
مَا ارْتَضَى جَانِحَةَ الصَّدْرِ لَهُ ... سَكَناً مُنْذُ بِهِ قَدْ سَكَنَا
فَنُنَادِيهِ عَلَى شَحْطِ النَّوَى ... مَنْ لَنَا يَوْماً بِقَلْبٍ مَنْ لَنَا

---

(197) ترجمة ابن جبير مطولة في الذيل والتكملة 5 : 595-621 وفي حاشية التحقيق ذكر لمصادر متعددة.

(198) كان واليا على غرناطة وأخباره في المن بالإمامة والبيان المعرب وغيرهما.

سِرْ بِنَا يَا حَادِيَ العِيسِ عَسَى أَنْ نُلاَقِي يَوْمَ جَمْعٍ سِرْ بِنَا
مَا عَنَى دَاعِي النَّوَى لَمَّا دَعَا غَيْرَ صَبٍّ شَفَّهُ بَرْحُ العَنَا
شِمْ لَنَا البَرْقَ إِذَا هَبَّ، وَقُلْ جَمَعَ ٱللَّهُ بِجَمْعٍ شَمْلَنَا(199)

وَأَنْشَدَنِي الشَّيْخُ الإِمَامُ الفَاضِلُ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الدمَشْقِي القُرْطُبِي بِدِمَشْقَ أَنْشَدَنِي الوَزِيرُ الأَجَلُّ أَبُو الحُسَيْنِ ابْنُ جُبَيْرٍ لِنَفْسِهِ :

أَرَاكَ مِنَ الحَيَاةِ عَلَى اغْتِرَارِ وَمَا لَكَ بِالإِنَابَةِ مِنْ بِدَارِ
وَتَطْمَعُ فِي البَقَاءِ وَكَيْفَ تَبْقَى وَمَا الدُّنْيَا لِسَاكِنِهَا بِدَارِ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

سَبِيلُ المَرْءِ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى إِذَا مَا ٱبْيَضَّ فَوْدَاهُ وَشَابَا
وَمَا يُرْجَى لِتَوْبَتِهِ قَبُولٌ إِذَا مَزَجَ الرِّيَاءَ بِهَا وَشَابَا

وَأَنْشَدَنِي أَبُو الوَلِيدِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ البَيَّاسِيُّ بِمَحْرُوسَةِ حَلَب فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلاَثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جُبَيْرٍ بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِمَسْجِدِهِ بِحَارَةِ رُوبَةَ(200) لِنَفْسِهِ :

يَا زَائِراً، لَمْ يَقْضِ أَنْ أَلْقَاهُ دَهْرٌ يَعُوقُ عَنِ ٱلَّذِي أَهْوَاهُ
ضَنَّ الزَّمَانُ، وَقَدْ سَمَحْتَ فَلَمْ يَكُنْ مَنْ زُرْتَهُ لِلْحِينِ فِي مَغْنَاهُ
يَا وَيْحَهُ لِعَظِيمِ أُنْسٍ فَاتَهُ إِنْ لَمْ يَذُبْ كَمَداً فَمَا أَقْسَاهُ
لَمَّا وَجَدْتُ فِنَاء دَارِي عَاطِراً أَيْقَنْتُ أَنَّكَ قَدْ وَطِئْتَ ثَرَاهُ
وَطَلَبْتُ لِلتَّقْبِيلِ فِيهِ مَوْضِعاً فَإِذَا الحَيَا المُنْهَلُّ قَدْ عَفَّاهُ
لَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرٍ لِوَطْئِكَ فِي الثَّرَى فَجَعَلْتُ أَلْثُمُ حَيْثُ نَمَّ شَذَاهُ
حَتَّى الغَمَامُ يَعُوقُ عَمَّا أَبْتَغِي يَا مَا أُكَابِدُهُ، وَمَا أَلْقَاهُ

وَأَنْشَدَنِي الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ القُرْطُبِيُّ

---

(199) القصيدة بتمامها في الذيل والتكملة 5 : 614 وتوجد أبيات منها في المغرب 2 : 385 ومقدمة الرحلة : 18 ونفح الطيب 2 : 486 وَجَمْع في آخر القصيدة هو المُزْدَلفة.

(200) لست أدري هل هذا المسجد والحارة معروفين اليوم أم لا.

الدِّمَشْقِيُّ بِهَا سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، قَالَ : أَنْشَدَنِي الوَزِيرُ الأَجَلُّ العَالِمُ أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جُبَيْرٍ لِنَفْسِهِ بِدِمِشْقَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ :

صَحِبْتُ الزَّمَانَ وَقَابَلْتُهُ ... بِصَبْرٍ جَمِيلٍ إِذَا الخَطْبُ نَابَا

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

أَقْصِرْ عَنِ الغَيِّ كَمْ ذَا ... تُدْعَى لِرُشْدٍ وَتَأْبَى
لاَ يَسْلَمُ العَبْدُ إِلاَّ ... إِنِ اسْتَقَامَ وَتَابَا

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

قُلْ إِذَا جِئْتَ مَجْلِساً ... وَسَمِعْتَ المُزَاحَ: مَهْ
اجْتَنِبْ كُلَّ مَوْرِدٍ ... فِيهِ تَلْقَى المُزَاحَمَهْ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لَهُ :

خَلَعْتَ العِذَارَ بِشَيْبِ العِذَار ... فَمَا يُقْبَلُ اليَوْمَ مِنْكَ اعْتِذَارْ
وَقَالُوا: المَشِيبُ وَقَارُ الفَتَى ... وَهَذَا المَشِيبُ، فَأَيْنَ الوَقَارْ ؟
جَلاَ صُبْحُهُ عَنْكَ لَيْلَ الشَّبَابِ ... فَشَمْسُكَ مُؤْذِنَةٌ باصْفِرَارْ
أَرَاكَ صَحِبْتَ حَيَاةَ الغُرُورِ ... وَتَسْحَبُ جَهْلاً ذُيُولَ اغْتِرَارْ
أَلَسْتَ تَرَى كَدَراً صَفْوَهَا ... وَنَجْمُكَ قَدْ مَالَ يَبْغِي انْكِدَارْ
وَكَيْفَ تَنَامُ عَلَى غِرَّةٍ ... وَسَيْفُ المَنِيَّةِ مَاضِي الغِرَارْ
فَلَوْ كُنْتَ تَحْذَرُ صَرْفَ الرَّدَى ... إِذاً لَنَفَى النَّوْمَ عَنْكَ الحِذَارْ
عَبَرْتَ مَرَاحِلَ عُمْرِ الأَشَدِّ ... وَلَسْتُ أَرَى لَكَ فِيهَا اعْتِبَارْ
وَجُرْتَ بِهَا عَنْ طَرِيقِ الهُدَى ... ضَلاَلاً، وَتَرْجُو غداً أَنْ تُجَارْ
أَتَاكَ الرَّحِيلُ فَشَمِّرْ لَهُ ... فَإِمَّا إِلَى جَنَّةٍ أَوْ لِنَارْ
وَكَيْفَ تَقَرُّ بِدُنْيَاكَ عَيْناً ... وَلَمْ تَدْرِ أَيْنَ يَكُونُ القَرَارْ

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَيْضاً مِنْ شِعْرِه :

بَنِي الإِسْلاَمِ جِدُّوا فِي الجِهَادِ ... بِسُمْرِ الخَطِّ وَالبِيضِ الحِدَادِ
وَبِيعُوهَا فَرَبُّكُمْ اشْتَرَاهَا ... نُفُوساً تَرْبَحُوهَا فِي المَعَادِ

عَدُوُّكُــمُ بِعُقْرِكُــمُ مُقِيــمٌ لِيَسْتَوْلِي عَلَــى مُــلْكِ البِــلاَدِ
وَبَيْتُ القُدْسِ يَفْرَقُ كُلَّ يَوْمٍ حِذَاراً أَنْ يَعُودَ إِلَى ٱلأَعَــادِي
وَدِيـنُ ٱللَّــهِ يَلْحَظُـهُ ٱغْتِيَاظـاً بِجَفْـنٍ قَـدْ تَكَحَّـلَ بِالسُّهَـادِ
فَسُلُّــوا المَشْرِفِيَّـةَ وَاسْتَقِلُّــوا بِهَـا فَـوْقَ المُسَوَّمَـةِ الجِيَـادِ
فَلَيْسَ يَفُوزُ بِالحُسْنَى سِوَى مَنْ تَــدَرَّعَ بِالجَــلاَدَةِ لِلْجِــلاَدِ

وَمِنْ نَثْرِهِ مَا كَتَبَهُ إِلَى الشَّامِ مُتَشَوِّقاً شَيْخَ الشُّيوخِ ابْنَ حَمُّوَيه(201) جَوَابَ كِتَابٍ صَدَرَ مِنْهُ إِلَيْهِ : «صَدَرَتِ المُخَاطَبَةُ العَزِيزَةُ العلائِيَّةُ حَرَسَ ٱللَّهُ سَنَاءَهُ وَسَنَاهُ، وَيَسَّرَ لَهُ كُلَّ أَمَلٍ وَسَنَّاهُ، وَعَرَّفَهُ بَعْدَ طُولِ العُمْرِ حُسْنَ خَوَاتِمِ مَسْعَاهُ بِمَا يَصْدُرُ عَنْ مِثْلِهِ، وَيَضِيقُ بِفَضْلِهِ، وَالفَضْلُ لاَ يُنْكَرُ عَلَى أَهْلِهِ. وَعَلِمَ ٱللَّهُ أَنِّي إِلَيْهِ بِالأَشْوَاقِ، وَكَيْفَ لاَ وَمَنْ ذَاقَ طِيبَ شِيَمِهِ الكَرِيمَةِ لَمْ يَشْبَعْ مِنْ ذَوَاقٍ، وَحَصَلَ مِنْ مَحَبَّتِهِ(201م) وَيُبْقِيه، وَمِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ يَقِيهِ، وَإِلَى كُلِّ مَعْلُوَّةٍ يُرْقِيهِ».

وَكَتَبَ إِلَيْهِ شَافِعاً فِي رَجُلٍ مِنْ فُقَرَاءِ أَهْلِ بَلَدِهِ أَنْ يَنْزِلَ فِي مَوْضِعٍ يَرْتَزِقُ مِنْهُ، وَقَدْ كَانَ يُكَرِّرُ القَوْلَ فِيهِ : «كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ وَعْدُهُ الكَرِيمُ لِلشَّيْخِ الصَّالِحِ فُلاَنٍ أَنْ يَنْزِلَ مَعَ الصُّوفِيَّةِ نَفَعَ ٱللَّهُ بِبَرَكَتِهِمْ أَوْ يُرَتِّبَ لَهُ إِمَامَةَ مَسْجِدٍ فِي هَذَا الشَّهرِ الشَّرِيفِ، فَإِنْ كَانَ قَدْ تَيَسَّرَ ذَلِكَ فَهُوَ يَسْأَلُ إِنْجَازَهُ، وَإِنْ تَعَسَّرَ ذَلِكَ لِسُوءِ حَظِّهِ فَلَيْسَ لَهُ سِوَى بَابِهِ المَقْصُودِ، وَلاَ يَرِدُ عِنْدَ ظَمَئِهِ سِوَى بَحْرِ كَرَمِهِ المَوْرُودِ، فَقَدْ أَسْمَعَ لِسَانُ الحَالِ عَنْهُ أَدَامَ ٱللَّهُ سُؤْدَدَه :

إِلَيْنَا اقْصِدُوا يَا مَعْشَرَ الرَّكْبِ إِنَّنَا نَرَى العَارَ أَنْ نُمْسِي بِغَيْرِ وُفُودِ

وَهَذِهِ لَيَالٍ عَظَّمَ ٱللَّهُ بَرَكَاتِهَا عَلَيْهِ، وَسَاقَ أَجْرَ الدَّاعِينَ فِيهَا إِلَيْهِ. [وَهُوَ] لاَ يَحْتَمِلُ الصَّبْرَ عَلَى افرَاطِ الضَّرُورَةِ البَشَرِيَّةِ، وَٱللَّوَازِمِ الجُثْمَانِيَّةِ، سِيَّمَا مَعَ العِيَالِ، وَفَرْطِ الاقْلاَلِ، وَمَا كَتَبْتُهَا إِلاَّ وَقَدْ تَحَقَّقْتُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى حَالَةٍ لاَ يَسْتَطِيعُ مَعَهَا

(201) لعلّه تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر السرخسي الذي زار المغرب ووصف رحلته ومقامه فيه، انظر نفح الطيب 3 : 99 وما بعدها.

(201م) هكذا في الأصل وثمة نقص ناتج عن قفز سطر أو نحوه.

صَبْراً، وَتَمَسَّكَ بِذَيْلِ المَرَاحِمِ الشَّيْخِيَّةِ وَقَدْ طَفِقَ لِسَانُهُ يَقْرَا : ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرَا﴾.

قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَيْضاً مِنَ الاسْكَنْدَرِيَّةِ مُتَشَوِّقاً وَشَافِعاً : «وَمَقْصُودِي ذِكْرُ فَضْلِهِ وَنَشْر ذِكْرِهِ لاَ وَصْفُ مَا وَصَفَنِي ثَنَاءً عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ لاَ عَلَى صِفَةِ حَالٍ (؟)» صَدَّرَهَا بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ، وَهِيَ لَهُ :

سَلاَمٌ كَأَزْهَـارِ الرَّبِيـعِ نَضَارَةً وَحُسْناً عَلَى شَيْخِ الشُّيُوخِ الَّذِي صَفَا
وَلَوْ لَمْ يَعُقْنِي العُذْرُ عَنْ قَصْدِ رَبْعِهِ سَعَيْتُ كَمَا يَسْعَى المُلَبِّي إِلَى الصَّفَا
وَلَكِنْ عَدَانِي عَنْهُ دَهْرٌ مُكَـدِّرٌ وَمَنْ ذَا الَّذِي وَاتَاهُ فِي دَهْرِهِ الصَّفَا

أَصْدَرْتُ هَذِهِ اللُّمْعَةَ وَالشَّوْقُ إِلَى خِدْمَتِهِ مُسْتَعِرُ اللَّهَبِ، وَأَدْعِيَتِي فِي ضِمْنِ ذَلِكَ مُتَتَابِعَةُ الأَوْرَادِ وَالنُّوبِ، وَلَسْتُ أَرَى الإِغْرَاقَ، فِي إِيضَاحِ وَلاَئِي الَّذِي رَاقَ، لِتَحَقُّقِي إِحَاطَةَ المَعْرِفَةِ الْكَرِيمَةِ بِعَقَائِدِ أُولِي الوِفَاقِ، وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ مُوَفِّقِي لِشُكْرِ مَا مُنِحْتُهُ مِنْ جَمِيلِ ولاَئِهِ وَوِدَادِهِ اللَّذَيْنِ خَلُصَا لِي بِغَيْرِ اسْتِحقاقٍ، وهَذِهِ التَّحِيَّةُ تَصِلُ عَلَى يَدِ فُلانٍ، وَهُو بِمَنْزِلَةِ أَهْلِي وَأَخِلاَّئِي، وَولاَؤُهُ لِلشَّيْخِ السَّيِّدِ فُلاَنٍ كَولائِي، وَمَا فَتِيءَ مُنذُ خَصَّنِي باجْتِلاَءِ مَحَاسِنِهِ الباهِرَةِ، واخْتِبَارِ أَخْلاقِهِ الطَّاهِرَةِ، مِنْ قِلادةِ صُحُفِ الثَّناءِ المُحَبَّرِ، وَالإِطْنَابِ فِيمَا بَرَّزَ فيهِ عَلَى مَادِحٍ كَتَبَ وَعَبَّرَ، وقَدْ قصَدَ الخِدْمَةَ وَيَالَيْتَنِي كنتُ مَعَهُ، وَأَحْظَتني الأَيَّامُ بمَا أَحْظَتْ مَرْآهُ وَمَسْمَعَهُ.

عَلَى أَنَّنِي وإِنْ كُنْتُ غَابطاً، فلستُ منْ دَركِ الأَمَلِ قَانِطاً :

فَقَدْ يَجْمعُ ٱللَّهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعدمَا يَظُنَّـانِ كُـلَّ الظَّـنِّ أَلاَّ تَلاَقِيَـا

وَقَدْ قَصَدَ ذَلِكَ الرَّبْعَ المَعْمُورَ، وَالرِّباطَ الَّذِي هُوَ قِبلةُ المَجْدِ المَشْهُورِ، وَكَفَلْتُ لَهُ عَنِ السيَّادَةِ بأَنْ يُتَلَقَّى بالتَّرحِيبِ والتَّأْهِيلِ، وَيُمَدَّ بالمُسَاعَدَةِ المُفْضِيَةِ بِهِ إِلَى دَرْكِ ٱلتَّأْمِيلِ». (6 : 125-133)

37 ـ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سليمَانَ

أَبُو عبدِ ٱللَّهِ الزُّهْرِيُّ(202) الأَندلُسيُّ منْ أَهلِ إشبِيلية، قَالَ أَبو عبدِ ٱللَّهِ الدَّبيثي(203) في مُذَيِّلِهِ : «قَدِمَ الزُّهْرِيُّ [بَغْدَادَ] صَادِراً عَنْ مَكَّةَ في سَنَةِ تسعينَ وخمسِ مِئَةٍ، وأَقَامَ بِهَا مُدَّةً، وَسَمعَ من شُيُوخِ ذَلِكَ الوَقْت كأبِي القَاسِمِ خَالد ابنِ كَامِلٍ الخَفّافِ وأبِي مُحمَّدٍ عبدِ الخَالقِ بن عَبدِ الوَهَّابِ ابن الصَّابُوني وأَبِي الرِّضى أَحْمَدَ بنِ طاهرٍ وأبِي الفَرجِ عبدِ المُنعمِ بن عَبد الوَهّاب بنِ كُلَيْبٍ، وَجَمَاعَةٍ مِنْ أُصْحَابِ أبِي علي ابنِ المَهْدِيِّ، وَأَبِي الغَنائِمِ ابنِ المُهْتَدِي، وأبِي طالبِ ابن يوسفَ، وأبِي القاسم ابنِ الحُصَيْن، ومنْ بَعْدَهُمْ.

وَسَمِعَ معنَا الكَثيرَ، وَمِنَّا، وكان فيهِ فَضْلٌ، وَلهُ مَعرِفةٌ بالأَدبِ، ويقولُ الشِّعْرَ، وَسَافَرَ عنْ بَغْدادَ، وَأَقامَ بأَصْبَهانَ مُدَّةً وَسَمِعَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي عَلَي الحُسينِ بنِ أَحْمَدَ الحَدَّادِ، وَمَنْ بَعْدَهُ، ثُمَّ انْتَقَلَ إلَى ٱلْكَرَجِ، وَاسْتَوطنَهَا، فَهِيَ اليومَ مَقَرٌّ لَهُ، وقدْ حَدَّثَ عَنْهُ وَسَمِعَ مِنْهُ أَهْلُ البَلَدِ ومنْ وَرَدَ إلَيْهِ.

كانَ رَجُلاً فَاضلاً، وَسَمِعَ وكتبَ بِخَطِّهِ الكَثيرَ، وحَصل في بِلاَدِ الجَبَلِ وَاسْتَوْطَنَ بُروجَرْد(204)، وَتَأَهَّلَ بِهَا، وَصَنَّفَ تَصانيفَ في الأَدبِ مِنها كِتابُ (شَرحِ الإيضاحِ) لأبِي علي الفَارسِيّ وكتابُ : (شَرح اليَمِيني) لأبِي النَّضْرِ الْعُتْبي(205) وكتابٌ في البلاغةِ، وغيرُ ذلكَ، وأَقَامَ هُناكَ إلَى أَنْ دَخَلَ التَّتَرُ

---

(202) ترجم له أيضا ابن الدبيثي في تذييله 2 : 242 وابن المستوفي في تاريخ إربل (ص 171 من هذا المجموع) وابن عبد الملك في الذيل والتكملة 5 : 644–645 والصفدي في الوافي بالوفيات 2 : 104 والقفطي في المحمدون من الشعراء : 336–359 والسيوطي في بغية الوعاة.

(203) هو أبو عبد الله محمد بن سعيد مصنّف الكتاب الذي جعله ذيلاً على تاريخ ابن السمعاني وهو من ذيول تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. انظر ترجمته في وفيات الأعيان 4 : 394–395 وفي حاشية المحقق سرد لمصادر ترجمته.

(204) بلدة بين همدان والكرج، انظر فيها معجم البلدان.

(205) هو أبو النصر محمد بن عبد الجبّار العتبي وكتابه «اليميني» في سيرة يمين الدولة محمود بن سبكتكين. انظر الوافي بالوفيات 3 : 215 والوفيات 5 : 179.

ـ لَعَنهمُ اللّهُ تَعَالى ـ البلادَ فقَتلوهُ في جُملةِ مَنْ قتلُوا، وذلكَ فِي شَهرِ رَجب سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَسِتٍّ مِئةٍ.

أَنْشَدَنِي أَبُو عبدِ آللّهِ مُحمَّدٌ بْنُ سَعِيدٍ الواسِطي[206]، قَالَ : كَتبتُ إلى أبي عبدِ آللّهِ الزُّهْري حينَ قَدِمَ إلَى بَغْدَادَ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ :

إِذَا عُدَّ أَهْلُ الفَضْلِ وَالعِلْمِ وَالخَيْرِ فَحَيَّهلاَ بِالحَافِظِ العَالِمِ الزُّهْرِي
فَتًى جَمَعَ الآدَابَ وَالنُّسْكَ وَالتُّقَى وَفَاقَ بَنِي الأَيَّامِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ
وَأَتْقَنَ عِلْمَ النَّقْلِ عَنْ كُلِّ حَافِظٍ وَأَسْنَدَ مَا يَرْوِيهِ عَنْ ثِقَةٍ حَبْرِ
لَقَدْ شَرُفَتْ بَغْدَادُ إِذْ حَلَّ أَرْضَهَا وَتَاهَتْ بِهِ فَخْراً عَلَى الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَزَادَ بِهِ فَخْراً فَتًى ظَلَّ خِدْنَهُ وَلاَذَ بِهِ يَوْماً، وَإِنْ قَلَّ فِي الدَّهْرِ

قَالَ : وَكتبَ إلَيَّ على هذِهِ الأبياتِ جَواباً علي وَزْنها وَقَافِيَتِهَا :

أَيَا فَاضِلاً فَوْقَ السِّمَاكَيْنِ قَدْرُهُ إِذَا عُدَّ أَهْلُ الفَضْلِ وَالعِلْمِ وَالْخَيْرِ
أَتَتْنِيَ مِنْ أَبْكَارِ فِكْرِكَ خُـرَّدٌ مَتَى ضَلَّ سَارٍ فِي الدُّجَى فَبِهَا يَسْرِي
نَظَمْتَ بِهَا الدُّرَّ النَّثِيرَ فَأَصْبَحَتْ لَهَا قِيمَةٌ أَعْلَى وَأَغْلَى مِنَ الدُّرِّ
فَـأَنْتَ إِمَـامٌ لِلْجَمِيـعِ مُبَـرَّزٌ تَفُوقُ جَمِيعَ النَّاسِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ
تَقَـدَّسَ إِذْ شَرَّفْتَـهُ عَبْـدُ نِعْمَـةٍ بِحَيَّهَلاَ بِالحَافِظِ العَالِمِ الزُّهْـرِي
لأَنَّكَ مَيْمُـونُ آلطَّلِيعَـةِ مَاجِـدٌ وَحَبْـرٌ نَبِيـلٌ عَالِـمٌ أَيُّمَـا حَبْـرِ
لَقَدْ شَرُفَتْ كُلُّ البِقَاعِ بِقُرْبِكُمْ وَسُدْتُمْ بَنِي الأَيَّامِ فِي البَدْوِ وَالحَضْرِ
(6 : 133-136)

38 ـ مُحَمَّدٌ بْنُ عُمَر الْعَمَّارِي الْمَيُورْقِيّ[207]

هَلْ لِلِّقَا مِنْ مَوْعِـدِ بِآلأَغْيَـــدِ الْمُقَلَّــــدِ

(206) انظر ترجمته في قلائد الجمان 7 : 233.

(207) لعله منسوب إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن عمّار الميورقي صاحب القصيدة الطويلة في وصية ابنه حسن. ولم يزد ابن الشعّار في ترجمته هنا على هذه القصيدة التي يمدح فيها من يُدْعى بالمؤيّد ولعلّه المترجم عند الدبيثي (15 : 357).

أَمَا تَرَانِي مِنْ هَوَا كَ فِي المُقِيمِ الْمُقْعِدِ
وَأَنْتَ عَنِّي مُلْتَهٍ فِي حُبِّكَ المُجَدَّدِ
تَلْعَبُ بِي لِعْبَ الصَّبَا بِقَدِّكَ المُؤَوَّدِ
مَهْمَا تَشَكَّيْتُ لَكَ الوَجْـدَ، تَقُلْ إِلَى غَدِ
فَلاَ أَنَا بِمُقْصِرٍ وَأَنْتَ لَسْتَ مُسْعِدِي
لَحْظُكَ لِي مثَاقِفٌ عَنْ خَدِّكَ المُزَرَّدِ
وَقَدْ جَمَعْتَ نَفْرَةَالـظَّبْيِ وَبَطْشَ الأَسَدِ
وَلَيْسَ لِي مِنْكَ حِمىً إِلاَّ حِمَى المُؤَيِّدِ
فَقَالَ لِي كُنْ آمِناً وَابْشِرْ بِنَيْلِ المَقْصِدِ
إِنَّ المُؤَيَّدَ الَّذِي آسْـتَنْجَدْتَ خَيْرُ مُنْجِدِ
أَشْهَرُ أَهْلِ الأَرْضِ فِي مَكَارِمٍ وَسُؤْدَدِ
أَقْدَمُهُمْ فِي شَرَفِ الـ أَصْلِ وَطِيبِ المَحْتِدِ
أَطْوَلُهُمْ يَدَ نَدىً أَوَّلُهُمْ فِي مَشْهَدِ
أَعَزُّهُمْ جَاراً وَأَوْ فَاهُمْ بِحُسْنِ مَوْعِدِ
أَمَا سَمِعْتَ فَضْلَهُ يُرْوَى بِكُلِّ بَلَدِ
وَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ بَحْرِ عُلُومٍ مُزْبِدِ
أَمَا سَمِعْتَ مَدْحَهُ فِي فَمِ كُلِّ مُنْشِدِ
هُوَ الكَبِيرُ قَدْرُهُ فِي صُورَةِ المُقْتَصِدِ
كَمْ مِنْ يَدٍ لَهُ عَلَى هَذَا الوَرَى كَمْ مِنْ يَدِ
دَامَتْ لَهُ النِّعْمَةُ وَالسَّـعْدُ دَوَامَ الأَبَدِ

(6 : 145-146)

39 ـــ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ

ابْنِ أَبِي القَاسِمِ مُحمَّدِ بْنِ عُمَرَ بْنِ سُلَيمَانَ بْنِ الحَسَنِ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى آلْمُعْتَلِي بْنِ عَلِيٍّ العَالِي بْنِ حَمُّودِ بْنِ مَيْمُونِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ آللَّهِ

بْنِ عُمَرَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ آللَّهِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَبُو جَعْفَرٍ الإِدْرِيسِيُّ[208] الحَسَنِيُّ المِصْرِي، وَجَدُّهُ المُعْتَلِي[209] هُوَ الخَارِجُ بِالغَرْبِ وَالمُسْتَوِلِي عَلَى بِلاَدِ الأَنْدَلُسِ.

وَأَبُو جَعْفَرٍ نَسَّابَةُ الأَشْرَافِ بِالدِّيَّارِ المِصْرِيَّةِ، صَنَّفَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ وَالأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَالتَّوَارِيخِ وَفُنُونِ الآدَابِ وَالعُلُومِ مُصَنَّفَاتٍ جَلِيلَةٍ، وَلَهُ مَنثورٌ وَمنظومٌ وَمُزْدَوَجٌ وَرَجزٌ وَمُخَمَّسٌ وَخُطبٌ وَرَسَائِل وَشِعْرٌ كَثِيرٌ.

كَانَتْ وِلاَدَتُهُ فِي يَوْمِ الجُمعةِ سَابع عَشر من شَهْر رَمضانِ سنة ثمانٍ وتِسْعِينَ وخمس مئة، وَهُوَ منْ أَنْبِهِ العُلماءِ فِي عَصْرِهِ كَبِيرُ الشَّأْنِ، عَالِمٌ، ولمْ أَظْفرْ بِشَيْءٍ منْ شِعْرِهِ إِلاَّ مَا أَذْكُرُهُ، أَنْشَدَنِي أَبُو حَامِدٍ بِشْرٌ بْنُ حَامِدٍ التّبريزيُّ[210] الفَقيهُ الشَّافِعِيُّ، قَال : أَنْشَدَنِي الشّرِيفُ أَبُو جَعْفَرٍ الْحَسَنِيُّ لِنَفْسِهِ :

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى عِلْمِ الكِتَابِ وَمَا ... يُرْوَى عَنِ المُصْطَفَى وَسْوَاسُ إِبْلِيسِ
وَلِلنُّصُوصِ سُيُوفٌ قَطُّ مَا ضَرَبَتْ ... إِلاَّ وَطَارَتْ بِهَا رُوسُ المَقَايِيسِ
وَمَالِكٌ أَشْهَرُ فِيمَا ذَكَرْتُ، وَمَا ... أَدْرِي لِهَذَا خِلاَفاً لاِبْنِ إِدْرِيسِ

وَأَنْشَدَنِي أَبُو عبدِ اللَّهِ مُحمَّدٌ بْنُ عَبْدِ الظاهر بْنِ هِبَة اللَّه بْن الْيَمَنِي بِحَلب، قالَ : أَنْشَدَنِي الشَّرِيفُ أَبُو عَبدِ اللَّهِ مُحمَّدٌ بْنُ عَبدِ العَزيزِ الإِدرِيسيُّ يَصفُ كِتَابَ الأَحْكَامِ[211] الَّذِي صَنَّفَهُ القَاضِي بهاءُ الدِّين ابْنُ شَدَّادٍ :

---

(208) لهذا الشريف الإدريسي ترجمة وذكر في لسان الميزان 5 : 262 وحسن المحاضرة 1 : 238 والطالع السعيد : 297–298 ومن آثاره أنوار علوم الأجرام، في الكشف عن أسرار الأهرام الذي ينقل عنه العمري في المسالك، والمفيد في أخبار الصعيد. وراجع الاعلام للزركلي 7 : 78 ومعجم المؤلفين 3 : 414.

(209) هو يحيى بن علي الحمودي، انظر فيه البيان المعرب 3 : 131–132 واعمال الأعلام : 132.

(210) ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى 8 : 133–134 والعقد الثمين 3 : 371–575.

(211) لابن شدّاد كتاب ملجأ الحكام، عند التباس الأحكام وكتاب دلائل الأحكام وهما مخطوطان، والأخير منهما هو المقصود هنا، انظر نقلاً عنهما في وفيات الأعيان 7 : 87 وطبقات الشافعية 8 : 362.

بِدَلاَئِلِ الأَحْكَامِ ذِي الإِحْكَامِ ... عُلِمَتْ مَعَالِمُ شِرْعَةِ الإِسْلاَمِ
وَتَبَيَّنَ السَّنَنُ الَّذِي وَضَحَتْ بِهِ ... سُنَنُ الهُدَى مَنْشُورَةَ الأَعْلاَمِ
فَتَأَلَّقَتْ أَنْوَارُهُ لِلْمُهتَدِي ... وَتَدَفَّقَتْ أَنْوَارُهُ لِلظَّامِي
تَصْنِيفُ مَنْ بَهَرَ الأَئِمَّةَ عِلْمُهُ ... وَآخْتَصَّ بِالإِجْلاَلِ وَالإِكْرَامِ
قَاضِي القُضَاةِ أَبِي المَحَاسِنِ يُوسُفٍ ... فَخْرِ العِرَاقِ جَمِيعِهِ وَالشَّامِ

(6 : 296-298)

40 ـ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ

ابْنِ مُحمَّد بن علي اليَحْصُبي أبو عبدِ اللَّهِ القَرْمُوني[212] الأَنْدلُسِيُّ. كَانَ طويلاً مِنَ الرِّجَالِ خَفيفَ الرُّوحِ مُدَاعِباً مُعَاشِراً نَزَلَ دِمْشَقَ، وَخَالطَ صُدُورَهَا، وَآتَّصلَ بِأَمَاثِلِهَا وَكَانَ طُولَ دَهْرِهِ لَمْ يَزَلْ مَكْشُوفَ الرَّأْسِ مَا وَضَعَ عَلَى رَأسِهِ عِمَامَةً وَلاَ قَلَنْسُوَّةً، وَيَعْتَنِي بِالتَّصوُّفِ وطَرِيقَةِ التَّوَكُّلِ، وَيَميلُ إِلَى السِّيَاحَةِ وَآلفُقَرَاءِ وَلَبْسِ الصُّوفِ، وَكَان لهُ شِعرٌ حَسَنٌ وَفِيهِ أَدَبٍ وَفَضْلٌ.

حَدَّثَنِي أَبُو الفَضْلِ عُمَرُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ هُبَيْرَةَ[213]، قَالَ: رأَيْتُهُ بِدِمَشْقَ، ومدح وَالِدِي بهذِه الأَبيات:

يَا طَالباً مُضْنَى الزَّمَنْ ... إِلْقَ الوَزِيرَ أَبَا الحَسنْ
تَلْقَ المَكَارِمَ وَالنُّهَى ... وَالخَلْقَ والخُلُقَ الحَسَنْ
مَا مِثْلُ نَجْلِ هُبيرَةٍ ... لاَ بِالشَّآمِ وَلاَ الْيَمَنْ
فَإِذَا ظَفِرْتَ بِحَبْلِهِ ... ظَفِرَتْ يَمِينُكَ بِالمِنَنْ
وَرَكَنْتَ مِنْهُ إِلَى مَدَى ... طَوْدٍ تَرَفَّع عَنْ قُنَنْ

---

(212) روى عنه ابن ظافر الأزدي في بدائع البدائه أخباراً متعدّدة في شعراء الأندلس وأشعارهم (بدائع البدائه : 73، 74، 163، 196، 318، 379، 384. وروى عنه كذلك القفطي في كتابه المحمّدون من الشعراء : 364، 365 وله ذكر في نفح الطيب 2 : 118.

(213) ترجم له ابن الشعار في السفر الخامس : 429.

يَا أَيُّهَا الشَّمْسُ الَّـذِي   حَـازَ الفَـرَائِضَ وَالسُّنَــنْ
يَا فَخْـرَ بَغْـدَادَ الَّـذِي   أَضْحَتْ لِمَجْدِكُمْ سَكَنْ
إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ ٱلَّذِي   تُرْجَى لِمَكْرُمَةٍ فَمَــنْ ؟!

ومـنـهـا :

لأزلْتَ مِنْ رَيْبِ الحَوَا   دِثِ لاَبِساً أَوْقَى الجُنَنِ

(6 : 458-459)

41 ـ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ

ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ الحَميدِ بنِ أَبِي العَافِيَةِ أَبُو عَبدِ ٱللَّهِ البلَنْسيُّ العُمَرِيُّ[214]، مِنْ أَوْلاَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رَأَيْتُهُ شَابّاً طَوِيلاً أَشْقَرَ أَزْرقَ العَيْنينِ بمدينةِ إِرْبلَ في أَوَائِلِ رَجبٍ سَنَةَ ثَمَاني وعشرينَ وَستٍّ مِئَةٍ. وَهُوَ من أَهْلِ القُرْآنِ والمَعْرِفَةِ بالنَّحوِ والأَدَبِ. وَذَكَرَ أَنَّهُ قرأَ العَرَبيَّةَ عَلَى أَبِي الحَجَّاجِ يُوسف بن مُحمد الأَنْدِي[215] وعلَى ذِهْنِهِ قِطْعَةٌ صَالِحَةٌ من أَشْعَارِ الأَنْدَلُسِيِّينَ، وَلَهُ تَصانيفُ في الأَدَبِ عَدَّدَ لِي أَسْمَاءهَا مِنْها كِتابُ : (النُّكَت العَربية في شَرحِ الجَزوليَّةِ)، وكتابُ : (الشَّافِي فِي عِلْمِ العَرُوضِ والقَوافي)، وكتابُ : (الرَّوْض المَمْطورِ، في أَوْصافِ الخُمور، وما يتعلَّقُ بهَا منَ الشذور)، وله شعرٌ مليحٌ وقولٌ عذْبٌ، وسأَلتُه عن موْلدِهِ، فقال : وُلِدْتُ سَنَةَ ثَمانٍ وثمانينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

وَمُهَفْهَفٍ سَفَكَ الدِّمَاء بِلَحْظِـهِ   جَارَتْ عَلَى كَلَفي بِهِ فَتَكَاتُــهُ
رَقَّتْ مَحَـاسِنُ وَجْهِـهِ، فَكَأَنَّمَــا   مَاءُ الحَيَا عَـذُبَتْ بِـهِ وَجَنَاتُــهُ
رَشَأٌ إِذَا أَهْدَى السَّلاَمَ بِمُقْلَـةٍ   وَلَّى وَقَدْ عَبِـثَتْ بِنَـا لَحَظَاتُــهُ

(214) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.

(215) لعله المترجم في صلة الصلة : 415 وفيها : الأبذي.

نَمَّ العِذَارُ عَلَى مُوَرَّدِ خَدِّهِ   وَلَوَتْ بِعَقْرَبِ صُدْغِهِ نُونَاتُهُ
نَشْوَانُ لَكِنْ مِنْ خُمَارِ جُفونِهِ   مِنْ أَيْنَ لِلْقَلْبِ العَمِيدِ نَجَاتُهُ
أَنْتَ الكَمَالُ وَغُصْنُ قَدِّكَ نَاعِمٌ   لاَ تَبْخَلَنَّ فَقَدْ زَهَتْ ثَمَرَاتُهُ
الْحُسْنُ مَالٌ، وَالزَّكَاةُ فَرِيضَةٌ   لاَ يَزْكُ مَالٌ لَمْ تُؤَدَّ زَكَاتُهُ

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً لِنَفْسِهِ :

يَا سَيِّداً سَادَ الوَرَى قَسَماً بِمَنْ   خَلَقَ الْوَرَى إِنِّي إِلَيْكَ مُتَيَّمُ
جَرَحَتْ ظُبَى ٱلْحَاظِ جَفْنِكَ مُهْجَتِي   فَعَسَاكَ تَأْسُو مَا جَرَحْتَ وَتَرْحَمُ

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ أَيْضاً، وكانَ قَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ بَعضُ العُلماء شَرْبَةَ مَاءٍ :

يَا خَيْرَ مَنْ كَتَبَتْ يُمْنَاهُ بِالقَلَمِ   وَخَيْرَ مَنْ قَدْ غَدَا يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
تُغْضِي العُيُونُ حَيَاءً مِنْ مَهَابَتِهِ   بَحْرُ العُلومِ وَبَحْرُ الجُودِ وَالكَرَمِ
أَهْدَيْتَ لِي شَرْبَةً مَا إِنْ شَرِبْتُ بِهَا   مَاءً سِوَى حُبِّكَ المَفْرُوضِ فِي الأُمَمِ
شَرَّفْتني بِالَّتِي تَحْيَا النُّفُوسُ بها   سُقِيتَ مِنْ كُلِّ عَذْبٍ بَارِدٍ شَبِمِ
بِالوَرْدِ قَدْ طُيِّبَتْ، لَكِنْ نَوَافِجُهَا   طَيَّبْتَها مِنْكَ بِالأَخْلاَقِ وَالشِّيَمِ
لاَزِلْتَ فِي نِعْمَةٍ تَتْرَى مُجَدَّدَةٍ   عَلَيْكَ مَا لاَحَ بَدْرٌ في دجَى الظُّلَمِ

(7 : 137-139)

42 ـ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ

ابْنِ الحُسَيْنِ بْنِ سُرَاقَةَ أَبُو القَاسِمِ بْنُ أَبِي عَبْدِ ٱللَّهِ الأَنْصَارِي الشَّاطِبي(216). كَانَتْ وِلاَدَتُهُ فِيمَا أَخْبَرَنِي مِنْ لَفْظِهِ بِشَاطِبَةَ فِي شَهْرِ ٱللَّهِ رَجَبَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ وَهُوَ شَابٌّ طَوِيلٌ أَبْيَضُ اللَّوْنِ تَعْلُوهُ صُفْرَةٌ، خَفِيفُ العَارِضَيْنِ، نَحِيفُ البَدَنِ. ذَكَرَ لِي أَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ القُضاةِ الفُقَهاءِ، حَفِظَ القُرآنَ

---

(216) ترجمته في فوات الوفيات 2 : 306-307 والوافي بالوفيات 1 : 208 ونفح الطيب 2 : 63-65 وغيرها، وستأتي ترجمة الاربلي له ضمن هذا المجموع (ص 192).

الكَرِيمَ وَتَفَقَّهَ عَلَى مَذْهَبِ الإمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. رَحَلَ إِلَى مَدِينَةِ السَّلاَمِ فِي طَلَبِ الحَدِيثِ فَلَقِيَ بِهَا جَمَاعَةً مِنْ مَشَايِخِهَا العُلَمَاءِ كَأَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ كَرَمِ بْنِ الحَسَنِ الدِّينَوَرِيِّ، وَأَبِي عَلِي الحسنِ بن المُبَارَكِ بْن مُحمَّدٍ الزَّبيدي، وأَبِي الفَضْلِ عبدِ السَّلامِ بنِ عَبْد اللَّهِ بنِ أحمد بنِ بلالٍ الدَّاهري وغيرهم من هذهِ الطَّبقة.

قَدمَ إربلَ، ونزلَ بدارِ حَديثِهَا، وَقَرَأَ عَلَى شَيْخِنَا أَبِي الخَيْرِ بَدَل بن أَبِي المعمر ابنِ إسْمَاعيل التَّبريزي(217) كتباً كَثيرةً من الأحاديثِ والتَّفسيرِ، شَاهَدْتُهُ بهَا في رَبِيعِ الأَوَّلِ سَنة سِتٍّ وعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ فَوَجَدْتُهُ رجُلاً فَاضِلاً شَيْخاً عَاقِلاً سَالِماً ذَا دِينٍ وَعفافٍ، وَبِشْرٍ وَوَقَارٍ عَلَى مِنْهاجِ المُتقدّمينَ مِنَ العُلماءِ مُواظباً على الاشتغالِ بِالعِلْمِ وتِلاوة القُرْآنِ، ثُمَّ إنَّهُ جَيِّدُ المَعْرِفَةِ بِمَعَاني الشِّعْرِ صَالِحُ الفِكْرةِ فِي حَلِّ التَّراجِمِ، لَهُ شِعْرٌ حسنٌ، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

إِلَى كَمْ أُمَنِّي النَّفْسَ مَا لاَ أَنَالُهُ ... فَيَذْهَبُ عُمْرِي، والأَمَانِيُّ لاَ تُقْضَى
وَقَدْ مَرَّ لِي خمسٌ وعشرُونَ حِجَّةً ... وَلَمْ أَرْضَ فِيهَا عِيشَتِي، فَمَتَى أَرضَى؟
وَأَعْلَمُ أَنِّي ــ والثَّلاثُونَ مُدَّتِي ــ ... حرٍ بِمَغَانِي اللّهْوِ أُوسِعُهَا رَفْضَا
فَماذا عَسَى فِي هَذِهِ الْخَمْسِ أَرْتَجِي ... وَوَجْدي إلى أَوْبٍ منَ العُمْرِ قَدْ أَفْضَى
فَيَا رَبِّ عَجِّلْ لِي حَيَاةً لَذِيذَةً ... وَإِلاَّ فَبَادِرْ بِي إِلَى العَمَلِ الأَرْضَى(218)

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ مَا كَتَبَهُ إِلَى بَعْضِ مُلُوكِ المَغْرِبِ(219) :

لقاؤُكَ عيدٌ بالنَّجاحِ بَشيرُ ... وَتَقْبِيلُ يُمْنَى رَاحَتَيْكَ حُبُورُ
بَهاؤُكَ فِي لَحْظِ المواسِمِ مَوْسِمٌ ... وَنَشْرُكَ فِي رَيّا العَبِيرِ عَبِيرُ
وَمَا عَادَنَا منْ بُعْدِنَا غَيْرُ وافِدٍ ... يَحُولُ عَليهِ الحَوْلُ ثُمَّ يَزُورُ

---

(217) سبق ذكره.

(218) هذه الأبيات في الفوات والوافي وتاريخ إربل ونفح الطيب.

(219) هو موسى كما في البيت الثامن من القصيدة ويبدو أن المقصود هو السيد أبو عمران بن أبي عبد الله بن أبي يعقوب بن عبد المومن وهو مخدوم ابن حريق أستاذ ابن سراقة، انظر الذيل والتكملة 5 : 275، 276 والإحاطة 3 : 275.

لَهُ أَمَلٌ فِي لَثْمِ لُقْيَاكَ مُدْرِكٌ وطَرْفٌ بِهَا يَرْنُو إِلَيْكَ قَرِيرُ
سَرَى نَحْوَكُمْ مُذْ عامِ أَوَّلٍ جاهداً يَجوبُ عِراضَ البيدِ وَهْيَ تَفُورُ
فَبُشْرَاهُ وَفِّي النَّفسَ مِلْءَ فُؤَادِهَا سُرُوراً وَإِنْ أَعْيَتْ وَطَالَ مَسيرُ
وَنَاجَيْتُ نَفْسِي وَالهَوَى يَبْعَثُ الهَوَى وَطَالَ بِيَ التَّسْوِيفُ وَهْوَ غُرورُ
أَأَتْرُكُ مُوسَى لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سِوَى لَيْلَةٍ إِنِّي إِذاً لَصَبُورُ
فَمِلْتُ بِوُدِّي والحَياشِي وَهِمَّتِي إِلَيْكَ وَفِيهَا عَنْ سِوَاكَ نُفُورُ
وَأَيْقَنْتُ أَنِّي إِنْ أَخَذْتُ بِحَبْلِكُمْ عَلَى رَيْبِ دَهْرِي من أَشاءُ أُجِيرُ
هُمَا مُنْتَنَى الأَعناقِ نَحوَ عَلاَئِهِ كَمالٌ بِأَهواءِ النُّفوسِ جَديرُ

وَمِنْهَا :

يَنُوبُ عَنِ الدُّرِّ النَّفيسِ كَلاَمُهُ وَمَا نَابَ عَنْ جَدْوى يَدَيْهِ بُحُورُ
إِذَا صَفِرَتْ أَيْدِي السَّحابِ فَكَفُّهُ سَحَابٌ بآفاقِ السَّمَاحِ دَرُورُ

(7 : 158-161)

43 ـ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ مَعنصرِ

ابْنِ أَبِي مُضَرَ بْنِ بَكْسَاسِ بْنِ عَلِي بْنِ أَبِي عَلِيٍّ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ المَغْرِبِيُّ القُسْطَنْطِينِيُّ[220] هوَ منْ قُسَنْطينَةَ الهَواء[221] منْ بِلاَدِ المَغْرِبِ، شَاهَدتُهُ شاباً أَسْمَرَ اللَّوْنِ لَطِيفَ الخِلْقَةِ بمَدينَة إِرْبِلَ في صفَر سَنَة ثمانٍ وعشرينَ وَستِّ مِئَةٍ مُتفقِّها، وَفيهِ دِيانَةٌ وَصَلاَحٌ، أَنْشَدَنِي لنَفسِهِ :

إِنْ جُزْتَ بِالعرصَاتِ منْ يَبْرِين[222] فَآشْرَحْ غَراماً كَادَ أَنْ يَبْرِينِي
لأُهَيْلِ ذَاكَ الحَيِّ، وَابْثُثْ عِنْدَهُمْ وَجْدِي وَبَعْضَ صَبَابَتي وَأَنِينِي

---

(220) ستأتي ترجمة الاربلي له ضمن هذا المجموع (ص 190).

(221) راجع في قسنطينة : الاستبصار : 165-166 والروض المعطار : 480-481.

(222) يبرين : جهة مشهورة برملها الذي لا تدرك أطرافه، وهي أيضا اسم قرية من قرى حلب، معجم البلدان.

وَقُلِ: الْمُتَيَّمُ عنْ هَوَاكُمْ مَا سَلاَ دَنِفٌ وَبِالعَبراتِ غَيرُ ضَنِينِ
يَحْنِي جَوَانِحَهُ عَلَى جَمْرِ الغَضَا وَيَئِنُّ أَنَّةَ عَاشِقٍ مَحْزُونِ
مُذْ حَلَّ بالحَدْبَاءِ[223] قَدْ عَلِقَ الضَّنَى بِفُؤَادِهِ، وَأُسيغَ كَأْسَ مَنُونِ

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً لِنَفسِهِ :

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا يُجِنُّ فُؤَادِي لأَخَذْتَ فِي وَصْلِي وَتَرْكِ عِنَادِي
لَكِنَّ قَلْبَكَ مَا أَلَمَّ بِهِ الْهَوَى فَجَهِلْتَ مَا يَلْقاهُ قَلْبِي الصَّادِي

(7 : 215-216)

44 ــ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ آللَّهِ بْنِ عَبْدِ آللَّهِ

ابْنِ مَالِك أَبُو عَبْدِ آللَّهِ الطَّائِي[224] مِنْ أَهْلِ جَيَّانَ مَدينةٍ مِنْ مُدنِ المَغْرِبِ[225]. آسْتوطنَ مَحْروسَةَ حَلَبَ، شَابٌّ فَاضِلٌ حافظٌ لِلقُرآنِ الكَرِيمِ يَشْدو طَرَفاً جيِّداً منْ عِلْمِ العَرَبيَّةِ، تُوفِّي فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِئة بِدِمَشْقَ، وَدُفِنَ بِسَفْحِ جَبَلِ قاسيون مِنَ الغَدِ... أَنشَدني لِنَفسِهِ مُلْغِزاً باسْمٍ وهو سَلمان :

يَغُرُّ ذِكْرُ اسْمِ مَنْ أَهْوَى بِلَفْظِ سلِ فَيَطْمَعُ الصَّبُّ فِي المَأْمُولِ مُرْتَقِبَا
وَيُعْقِبُ اليَأْسَ بَاقِي اللَّفْظِ مِنْهُ كَمَا تَقُولُ مَانَ حَدِيثُ النَّفْسِ أَيْ كَذَبا

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ مُلغِزاً فِي الشُّكْرِ :

مَا آسْمٌ بِإِجْمَاعِ البَرِيَّةِ وَاجِبٌ وَإِذَا يُخَفُّ مُصَحَّفاً فَحَرَامُ[226]
وَإِذَا تُثَقِّلُهُ لَدَى تَصْحِيفِهِ فَهْوَ الحَلاَلُ الحُلْوُ، كَيْفَ يُرَامُ؟[227]

---

(223) هي مدينة الموصل.

(224) يتفق في اسمه ونسبه وبلده مع ابن مالك النحوي المشهور وهو غيره.

(225) جيان مدينة مشهورة في الأندلس، وتكتب اليوم Jaen.

(226) يعني السُّكْر.

(227) يعني السُّكَّر.

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً لَهُ يُلْغِزُ بِكَلِمَةِ مَال :

إسْمُ هَـذَا الَّـذِي أَلِـفْتُ هَـوَاهُ   فِعْلُ قَلْبِي يُسْمَى إِذَا هُوَ فِعْلُ
كُلُّهُ فِـي آخـرِ أَحْرُفِـهِ بَـا   دٍ إِذَا مَا عَكَسْتَهُ حِيـنَ تَتْلُـو
وَإِذَا صَارَ أَوَّلاً مِنْـهُ ثَـانٍ   فَهْوَ مَعْنًى مَا آمِلٌ عَنْهُ يَسْلُو
وَإِذَا أَوَّلٌ تَأَخَّـرَ مِنْـهُ   فَهْوَ وَصْفٌ لِكُلِّ مَنْ عَنْهُ يَخْلُو

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً لِنَفْسِهِ فِي آمْرَأَةٍ اسْمُهَا عينٌ يُلْغِزُ بِها :

عَجِبْتُ لِلَفْظٍ فِي اكْتِمَالِ حُرُوفِهِ   يُبَيِّـنُ مَعْنًـى ثُلْثُـهُ عَنْـهُ يُعْـرِبُ
وَفِي الثُّلْثِ الثَّانِي دَلاَلاَتٌ أَرْبَعٌ   وَفِي الثُّلْثِ البَاقِي دَلِيلاَنِ فَاعْجَبُوا

وأَنشدَني لِنَفْسِهِ مَا كَتَبَهُ إِلَى نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الفَضْلِ إلياسِ بْنِ إلياسِ الإربلي الفقيهِ الشَّافِعِي :

وَفِتْيَـةٍ صَدَقَتْ فِيـ   ـهِمُ آلأَمَانِـي ظُنُونَـا
وَنَاوَلَتْهُـمْ يَدَاهَـا   مِـنَ الأَيَـادِي فُنُونَـا
وَحَاوَلُـوا أَنْ يَنَالُـوا   وَجْـهَ التَّهَانِـي المَصُونَـا
لَكِـنْ لإِدْرَاكِ هَـذَا   بِالنَّجْـمِ هُـم يَهْتَدُونَـا
فَـفُضَّ خَتْـمَ رِضَاهُـم   لِكَـي يَقَـرُّوا عُيُونَـا

(7 : 269-270)

45 ـ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ

[آبنِ] العَرَبِيّ أَبُو عَبْدِ آللَّهِ(228) : الشَّيْخُ العَارِفُ الحَاتِمِيّ الطَّائِيّ مِنْ ذُرِّيَةِ عبدِ اللَّهِ بْنِ حاتمِ الطَّائِي كَانَتْ وِلاَدَتُهُ بِمَدِينَةِ مُرْسِيَّةَ فِي أَيَّامِ الأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ

(228) توجد ترجمته في مصادر متعددة ومنها على سبيل المثال : الذيل والتكملة 6 : 493-498 ونفح الطيب 2 : 161-184، وقد ذكر الدكتور إحسان عباس عدد من مصادر ترجمته في الحاشية. ومن الدراسات القديمة التي كتبت عنه دراسة اسين بلاثيوس التي ترجمها عبد الرحمن بدوي.

ٱللَّهِ مُحَمَّدِ بْن سَعْدِ بْن مَرْدنيش سنةَ سِتِّينَ وخمسِ مئةٍ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ يَوْمَ الثَّانِي وَالعِشْرِينَ من رَبِيعِ الآخِرِ بِدمَشْق، وَدُفِنَ بِجَبَلِ قَاسْيُونَ بِتُربةِ القَاضِي رُكنِ الدِّينِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثمانٍ وَثلاَثِينَ وَستٍّ مِئةٍ. سَمعَ الحَدِيثَ عَلَى أَبِي مُحَمَّد عَبْد ٱللَّهِ بْنِ عُبيدِ ٱللَّهِ الحَجَري[229]، وَأَبِي عَبدِ ٱللَّهِ مُحمّدِ بْنِ سَعِيدٍ بن زرقُون[230]، وَأَبِي الحُسينِ يَحيى بن الصّايغِ السَّبْتي[231]، ومحمّدِ بْنِ قاسمٍ بن عبدِ الكَريمِ الْفَاسِي[232]، وَجَماعَةٍ سِوَاهُمْ.

وَكَانَ أَهْلُهُ أَجْنَاداً فِي خِدْمَةِ المُسْتَولينَ عَلَى الْبِلاَدِ، وَبَقِيَ مُدَّةً جُندِيّاً، ثُمَّ رَجعَ عنِ الجُنديّةِ في سنةِ ثمانينَ وخَمْسِ مِئَةٍ، وَحَدَّثَني منْ لَفْظِهِ، قَالَ : كانَ سَبَبَ انْتِقالي عنِ الجُنْديَّةِ، وَنَبْذِي لَهَا، وَسُلُوكِي هذهِ الطَّريقةِ وَمَيْلي إِليهَا أَنَّنِي خَرَجْتُ صُحْبَةَ مَخْدومي الأَميرِ أَبِي بَكرِ بنِ يُوسُف بْنِ عَبْدِ الْمُؤمِنِ بْنِ عَلِي[233] بقرطُبَة قَاصِدِينَ المَسجدَ الجَامعَ، فنظَرْتُهُ في رُكوعٍ وسُجودٍ وخشوعٍ كثيرَ الابْتهالِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَخَطَرَ لِي خَاطِرٌ أَنْ قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا كَانَ هَذَا مَلكُ البِلادِ خاضعاً مُتَذَلِّلاً يَصْنَعُ هَذَا بَيْنَ يَدَي اللَّهِ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ فَما الدُّنيا بِشيءٍ، فَفَارقْتُهُ من ذَلك اليَوْمِ، وما عُدْتُ رَأَيتُهُ أَبداً، ثم لَزِمْتُ هَذِهِ الطَّريقَةَ. وَهُوَ رَجلٌ لَهُ قدمٌ في الرِّياضةِ والمُجاهدةِ، وكلامٌ على لِسانِ أَهْلِ التَّصوُّفِ مَوصوفٌ بِالتَّقدُّمِ والْمَكَانِ عندَ جَماعةٍ من أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ، وَلَهُ أَصْحَابٌ وَمُرِيدُونَ وَتَلاَمِذَةٌ وَصَنَّفَ تَصَانِيفَ كَثِيرَةً وَتَوَالِيفَ جَمَّةً، سكنَ بَلاَدَ الرُّومِ مَلطية وَقُونْية، وطافَ البِلاَدَ، ودخَلَ بَغْداد، ثُمَّ سَكَن بأُخرَةٍ دِمشقَ، ولهُ كلامٌ حسنٌ فِي الحَقيقةِ، يَأْتِيهِ من غيرِ اشْتغال بِالعِلْمِ، وقدْ رَزقَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى خَاطراً

(229) توجد ترجمته في مصادر مغربية ومشرقية، انظر سردها في التكملة للمنذري 1 : 217-218 والوافي 17 : 575 وصلة الصلة 3 : 119-123.

(230) ترجمته في الذيل والتكملة 6 : 203 وفي حاشية المحقق ذكر لمصادر أخرى.

(231) ترجمته في الذيل والتكملة 8 : 413-420 وقد ذكرت في الحاشية بعض مصادر ترجمته.

(232) ترجمته في الذيل والتكملة 8 : 352-356 وانظر تعريفنا به في معلمة المغرب 8 : 2569-2571.

(233) أقدّر أنه السيد أبو يحيى أخو يعقوب المنصور وقد ذكر هنا بكنيته.

مُتَوَقِّداً فَانْثَالَ عَلَيْهِ هكَذا الكَلاَمُ انْثيالاً، وَوُفِّقَ في اسْتِنْبَاطِهِ تَوْفِيقاً عَجيباً مِمَّا حَيَّرَ العُقُولَ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وسلبَ القُلُوبَ فِي إِيرَادِهِ. شَاهَدْتُهُ بِمَحْرُوسَةِ حَلب فِي يَوْمِ الأَرْبعَاءِ سَادِسِ رَبِيعِ الأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلاَثِين وَسِتٌّ مِئَةٍ شيخاً يَخْضِبُ، وقرأتُ عليهِ جَمِيعَ مَا تَضَمَّنَتْهُ هذِهِ الأوراقُ، وأنْشدنِيهَا، فمنْ شِعْرِهِ عَلَى طَرِيقِ العَارِفِينَ :

أَلاَ يَا حَمَامَاتِ الأَرَاكَةِ وَالبَانِ ‎ ‎ تَرَفَّقْنَ لاَ تَنْدُبْنَ بِالنَّوْحِ أَشْجَانِي
تَرَفَّقْنَ لاَ تَنْدُبْنَ بِالنَّوْحِ وَالبُكَا ‎ ‎ خَفِيَّ صَبَابَاتِي، وَمُؤْلِمَ أَحْزَانِـي
وَمِنْ عَجبِ الأَشْيَاءِ ظَبْيٌ مُبَرْقَعٌ ‎ ‎ يُشِيـرُ بِعُنَّابٍ وَيُومـي بِأَجْفَـانِ
ومرماهُ مَا بَيْنَ التَّرائِبِ فِي الحَشَا ‎ ‎ فَيَا عَجَباً مِنْ رَوْضَةٍ وَسْطَ نِيرَانِ
لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلاً كُلَّ صُورةٍ ‎ ‎ فَمَرْعـىً لِغِزْلاَنِ وَديـرٌ لِرُهْبَـانِ
وَبَيْتٌ لأَصْنَامٍ، وَكَعْبَـةُ طَائِـفٍ ‎ ‎ وَأَلْوَاحُ تَوْراةٍ وَمُصْحَـفُ قُـرآنِ
أَدينُ بِدِينِ الحُبِّ أَنَّي تَوَجَّهَتْ ‎ ‎ رَكَائِبُهُ، فَالدِّينُ دِينِي وَإِيمَانِي(234)

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

قَالَتْ: عَجِبْتُ لِصَبٍّ مِنْ مَحَاسِنِهِ ‎ ‎ يَخْتَالُ مَا بَيْنَ أَزْهَـارٍ بِبُسْتَـانِ
فَقُلْتُ: لاَ تَعْجَبِي مِمَّا تَرَيْنَ فَقَدْ ‎ ‎ أَبْصرتِ نَفْسَكِ فِي مِرْآةِ إِنْسَانِ(235)

ومن نَظْمه فِي المَقَاماتِ من الفُتُوحاتِ المَكّية فِي التَّوبةِ، وأَنشَدنِيهِ :

الاعْتـرافُ متـاب كل مُحقـق ‎ ‎ وَبِـهِ إِلَـهُ الحَـقِّ يَشْرَحُ صَدْرَهُ
رَضِيَ الإِلهُ عَنِ المُخالِفِ مِثلمَا ‎ ‎ رَضِيَ الإِلَهُ عَنِ الموافِـقِ أَمْـرَهُ
مَـاذَا كَبِيـرٌ أَنْ يَنَـالَ مَنَالَـهُ ‎ ‎ لاَسِيمَا انْ كُنْتَ تَعْـرِفُ سِرَّهُ
مِـنْ عَيْـنِ مُنْتَبِهٍ ينـالُ مخالـفٌ ‎ ‎ مَا نَالَهُ منْ كُنْتَ تَجهَلُ قَدْرَهُ(236)

---

(234) هي بتمامها في ديوان ترجمان الأشواق : 40–44.
(235) هما في ترجمان الأشواق : 39.
(236) انظر الفتوحات المكية.

وقال أيضا، وأنشدنيه :

هُبُوطُ مَكَانٍ، لاَ هُبُوطُ مَكَانَةٍ ... لِيَلْقى بِهِ نُوراً وَمُلْكاً مُخَلَّدَا
كَمَا قَالَ منْ أَغْوَاهُ صدقاً لكَوْنِهِ ... رآهُ كلاماً مِنْ إلَـهٍ مُسَدَّدَا(237)

وقال في الْخُلْوَةِ، وَأَنْشَدَنِيهِ :

خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَى، فَلَمْ يَكُ غيرنَا ... وَلَوْ كَانَ غَيْرِي لَمْ يَصِحّ وُجُودُهَا
إذَا أَحْكَمَتْ نَفْسٌ شُرُوطَ انْفِرَادِهَا ... فَإِنَّ نُفُوسَ الخَلْقِ طُرّاً عَبيدُهَا
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهَا غَيْرُ نفسهْ ... لَجَادَتْ بِهَا جُوداً عَلَى مَنْ يُفِيدُهَا(238)

وأخبرنا أبو عبدِ اللَّه مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْعَرَبي، قال : كُنْتُ أَطُوفُ بالبَيْتِ، فطَارَ قَلْبِي، وَهَزَّني حالٌ أَعْرِفُهُ، فَخرجْتُ من البَلاَطِ منْ أَجْلِ النَّاسِ، وطُفْتُ على الرَّمْلِ وَذَلِكَ بِاللَّيلِ، فَحَضَرَتْني أبياتٌ، فأَنْشدْتُها أُسْمِعُ بهَا نَفْسي، ومنْ يَليني لوْ كانَ هُنَاكَ أَحَدٌ، وهيَ :

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ دَرَواْ ... أَيَّ قَلْبٍ مَلَكُوا
وَفُؤَادِي لَوْ دَرَى ... أَيَّ شِعْبٍ سَلَكُوا
أَتُرَاهُمْ سَلِمُوا ... أَمْ تَرَاهُمْ هَلَكُوا
حَارَ أَرْبَابُ الهَوَى ... فِي الهَوَى وَارْتَبَكُوا

فَلَمْ أَشْعُرْ إلاَّ بِضَرْبَةٍ بَيْنَ كَتِفِي بِكَفٍّ أَلْيَنَ مِنَ الخَزِّ، فَالتَفَتُّ فإِذَا بِجَارِيَةٍ مِنْ بَنَاتِ الرُّومِ لَمْ أَرَ أَحْسَنَ وَجْهاً وَلاَ أَعْذَبَ منطقاً، ولاَ أَرَقَّ حَاشيةً، وَلاَ أَلْطَفَ مَعنًى، وَلاَ أَدَقَّ إشَارَةً، وَلاَ أَظرَفَ مُحاورةً منهَا، قَدْ فَاقَتْ زمانَهَا ظَرْفاً وجمالاً ومعرفةً، فَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي كيفَ قُلت ؟ فقلتُ :

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ دَرَوْا ... أي قَلْبٍ مَلَكُوا ؟

فقالتْ : عَجباً منكَ، وأَنتَ عارفُ زَمانِكَ، تَقُولُ مثل هَذَا، ليسَ كُلُّ مَمْلُوكٍ مَعروفاً، وَهَلْ يَصِحُّ الملك إلا بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ وتمني الشعور يؤذن بعدمها، والطريقُ

(237) المصدر نفسه.

(238) المصدر نفسه.

لِسانُ صِدْقٍ فَكيفَ يَجُوزُ لِمِثْلِكَ هَذَا ؟ قلْ يا سَيِّدي ! فماذَا قُلتَ بَعدَهُ ؟ فَقُلْتُ :

وَفُــؤَادِي لَـــوْ دَرَى أَيَّ شِعْبٍ سَلَكُـــوا ؟

فَقالت : يَا سَيِّدي، الشِّعْبُ الَّذي بَيْنَ الشّغافِ والفُؤَادِ هو المانعُ لهُ منَ المَعرفةِ بِهِ، فكيفَ يَتَمَنَّى مِثْلُكَ مَا لاَ يُمْكنُ الوصولُ إليهِ، والطَّريقُ لِسانُ صِدقٍ فكيفَ يَجُوزُ لِمِثْلِكَ هَذَا يا سَيِّدي، فَمَاذَا قُلتَ بَعْدَهُ ؟ فقلتُ :

أَتَرَاهُـــــمْ سَلِمُـــــوا أَمْ تَرَاهُـمْ هَلَكُـــوا ؟

قَالَتْ : أَمَّا هُمْ فَسَلِمُوا، ولكنْ اسْأَلْ عَنْكَ ينبغِي أَنْ تَسأَلَ نَفْسَكَ : هَلْ سَلِمْتَ أَمْ هَلَكْتَ يَا سَيِّدي ؟ فمَا قُلْتَ بَعْدَهُ ؟ فقلْتُ :

حَــارَ أَرْبَـابُ الهَــوَى فِـي الهَـوَى وَٱرْتَبَكُـوا

فَصَاحَتْ وَقَالَتْ : وَاعجباً، كيفَ لِلمشغوفِ فَضْلَةٌ يَحارُ بِهَا والهَوَى شَأْنُهُ التَّعْميمُ يُخَدِّرُ الحَواسّ، وَيُذْهِبُ العُقُولَ، وَيُدهشُ الخَواطرَ، وَيذهبُ بِصاحبِهِ فِي الذَّاهبينَ فَأَيْنَ الحيرة هنَا ؟ أو من هنا باقٍ يَحَارُ وَالطَّريقُ لسان صدقٍ، والتَّجَوُّزُ منْ مثلكَ غيرُ لائقٍ. قلتُ : يَا بِنْتَ الخالةِ، مَا اسْمُكِ ؟ قالت : قُرَّةُ العَيْنِ، فَقُلْتُ لِي ثُمَّ سَلَّمَتْ وَانْصَرَفَتْ، ثُمَّ إِنِّي عَرفتهَا بَعدَ ذلكَ، وعَاشَرْتُها، فرأيتُ لهَا منْ لَطائفِ المَعارِفِ مَا لاَ يَصفُهُ وَاصفٌ(239).

وَحَدَّثَنِي بِمَدِينَةِ حَلَبٍ فِي يَوْمِ الأَرْبعَاءِ سَادِسِ رَبيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلاثِينَ، قَالَ : كُنْتُ مُجاوراً بِمكَّةَ سنةَ تِسْعٍ وتسعينَ وخمسٍ مئةٍ فَرأيتُ في مَنامِي رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ قَاعِداً عَلَى الدَّكَّةِ الَّتِي تَلِي بَابَ أَجْيَاد الأَقْرَبِ إِلَى بَابِ الحزورة وَوَجْهُهُ مُسْتَقبِلٌ الرُّكْنَ اليَمَانِي، وَرَجُلٌ يقرأُ عَليهِ كِتَابَ البُخَارِي وَهُوَ مُحَمَّدٌ بْنُ خَالِدٍ الصَّدَفِي التِّلمساني وأَنَا قَاعدٌ بَيْنَ يَديه ﷺ قَدْ ضَرَبْتُ بِذَقَني عَلَى رُكْبته ﷺ أَتطلَّعُ في وَجْهِهِ، فقلْتُ لهُ : يا رسولَ الله : المُطَلَّقَةُ ثلاثاً في مَجْلِسٍ واحدٍ هلْ يرجعُ طَلاقُها إلى واحدةٍ أو هيَ ثَلاثٌ كما قالَ ؟ قالَ لِي رَسولُ اللَّهِ ﷺ : هِيَ ثَلاثٌ كما قَالَ، لاَ تَحِلّ لهُ حتَّى تَنْكِحَ زوجاً غَيْرَهُ، فَقلتُ لهُ :

(239) النص بتمامه في مقدمة ترجمان الأشواق : 11–12 مع اختلاف يسير.

يا رسولَ اللَّهِ، إنَّ بَعضَ العُلماءِ يَرُدُّها إلَى وَاحدةٍ، فَقَالَ لِي ﷺ : أُولَئِكَ حَكَمُوا بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابُوا، قلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ ٱللَّهِ مَا أُرِيدُ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ إلا مَا تَدِينُ ٱللَّهَ تَعَالَى أَنتَ بِهِ مَا لَوْ وَقَعَ مِنْكَ فَعلتَ بهِ، فقَالَ لِي : هيَ ثلاثٌ كَما قالَ لا تَحل لهُ حتَّى تَنكحَ زوجاً غَيرَهُ يردّدُها ثلاثاً، ثُمَّ بسَطَ يَدَيْهِ وَدَعَا بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ : «اللَّهُمَّ أَسْمِعْنَا خَيْراً، وَأَطْلعنَا خَيراً، وارْزُقْنَا ٱللَّهُمَّ العَافيةَ وأَدِمْهَا لَنَا وَاجْمَعِ ٱللَّهُمَّ قُلُوبنَا عَلَى التَّقْوَى وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ، وَخَوَاتِمِ البَقَرةِ». واستيقظتُ[240]، وحدَّثني أيضاً أَبو عبدِ ٱللَّهِ ابن العربي، قالَ : رَأيتهُ ﷺ فِي هَذا التَّاريخِ، فقلتُ يَا رَسُولَ ٱللَّهِ، ٱللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَة قُروءٍ﴾ والقرء عندَ العَرَبِ من الأَضْدادِ يَطْلِقُونَهُ على الحَيضِ وعَلَى الطّهرِ، وأنتَ أعرفُ بما أنزل عليكَ، فَما أرادَ ٱللَّهُ بالقرء هنا ؟ فَقَال ﷺ : إذا فَرغ قروؤُهَا فافرغوا عليها المَاءَ، وَكُلُوا مِمَّا رزقكُمُ ٱللَّهُ، قلتُ يارسولَ اللَّهِ : هذا هو الحَيض فتَبَسَّم، وقالَ لِي : إِذَا فَرغَ قروؤُهَا فَأفرغوا عَليهَا المَاءَ، وكُلُوا مِمَّا رزقكُمُ ٱللَّهُ، فعاودتُ عليهِ فَإِذاً هُوَ الحَيضُ يَا رَسُول اللَّهِ، فأَعَادَ علي وهو يبتسمُ إِذَا فرغَ قروؤُها فأفْرغُوا عليها وكلُوا مِمَّا رزقكُمُ ٱللَّهُ واستيقظتُ[241].

أَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّد بْنُ الْعَرَبِي لِنَفْسِهِ :

خَلِيلَيَّ عُوجَا بِالكَثِيبِ وَعَرِّجَا ... عَلَى لَعْلَعٍ وَاطْلُب مِيَّاهَ يَلَمْلَمِ
فَإِنَّ بِهَا منْ قَدْ عَلِمْتَ ومنْ لَهُمْ ... صِيَامِي وَحَجِّي واعْتمَارِي وَمَوْسِمِي
مُحَصَّبُهُمْ قَلْبِي لِرَمْي جِمَارِهِمْ ... وَمَنْحَرُهُمْ نَفْسِي وَمَشْرَبُهُمْ دَمِي
فَيَا حَادِيَ الأَجْمَالِ إِنْ جِئْتَ حَاجراً ... فَقِفْ بِالمَطَايَا سَاعةً ثُمَّ سَلِّمِ
وَنَادِ القِبَابِ الحُمْرَ منْ جَانبِ الحِمَى ... تَحِيَّةَ مُشْتَاقٍ إِلَيْكُمْ مُتَيَّمِ
فَإِنْ سَلَّمُوا فَاهْدِ السَّلاَمَ مَعَ الصَّبَا ... وَإِنْ سَكَتُوا فَارْحَلْ بهَا وَتَعَلَّمِ
إِلَى نَهْرِ عيسَى حَيْثُ حَلَّتْ رِكَابُهُمْ ... وَحَيْثُ الخِيَامُ البِيضُ منْ جَانِبِ الفمِ
وَنَادِ بِدَعْدَ والرِّبَابِ وَفَرْتَنَى ... وَهِنْدٍ وَسَلْمَى ثُمَّ لُبْنَى وَزَمْزَمِ

(240) راجع الفتوحات المكّية.

(241) المصدر نفسه.

وَسَلْهُنَّ هَلْ بِالْحَلْبَةِ الغَادَةُ الَّتِي   تُرِيكَ سَنَا البَيْضَاء عِنْدَ التَّبَسُّمِ(242)

وَأَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ لِنَفْسِهِ :

سَلاَمٌ عَلَى سَلْمَى وَمَنْ حَلَّ بالحِمَى   وَحَقٌّ لِمِثْلِي رِقَّةً أَنْ يُسَلِّمَا
وَمَاذَا عَلَيْهَا أَنْ تَرُدَّ تَحِيَّةً   عَلَيْنَا وَلَكِنْ لاَ ٱحْتِكَامَ عَلَى الدُّمَى
سَرَوْا وَظَلاَمُ اللَّيْلِ أَرْخَى سُدُولَهُ   فَقُلْتُ لَهَا: صَبّاً غَرِيباً مُتَيَّمَا
أَحَاطَتْ بِهِ الأَشْوَاقُ شَوْقاً وَأُرْصِدَتْ   لَهُ رَاشِقَاتِ النَّبْلِ أَيَّانَ يَمَّمَا
فَأَبْدَتْ ثَنَايَاهَا، وَأَوْمَضَ بَارِقٌ   وَلَمْ أَدْرِ مَنْ شَقَّ الْحَنَادِسَ مِنْهُمَا
وَقَالَتْ: أَمَا يَكْفِيهِ أَنِّي بِقَلْبِهِ   يُشَاهِدُنِي فِي كُلِّ وَقْتٍ أَمَا أَمَا(243)

وأَنْشَدَني أَيْضاً لِنَفْسِهِ :

وَزَاحَمَنِي عِنْدَ اسْتِلاَمِي أَوَانِسٌ   أَتَيْنَ إِلَى التَّطْوَافِ مُعْتَجِرَاتِ
حَسَرْنَ عَنْ أَنْوَارِ الشُّمُوسِ وَقُلْنَ لِي   تَوَرَّعْ فَمَوْتُ النَّفْسِ فِي ٱللَّحظاتِ
فَكَمْ قَدْ قَتَلْنَا بِالمحصَّبِ مِنْ مِنًى   نُفُوساً أَبِيَّاتٍ لَدَى الجَمَرَاتِ
وَفِي سَرْحَةِ الوَادِي، وَأَعْلاَمِ رَامَةٍ   وَجَمْعٍ وعِنْدَ النَّفْرِ منْ عَرفَاتِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الحُسْنَ يَسْلُبُ منْ لَهُ   عَفَافٌ، فَيُدْعَى سَالب الحَسناتِ
فَمَوْعِدُنَا بعدَ الطَّوافِ بِزَمْزمٍ   لَدَى القُبَّةِ الوُسْطَى لَدَى الصخَرَاتِ
هُنَالِكَ مَنْ قَدْ شَفَّهُ الوَجْدُ يَشْتَفِي   بِمَا شَاءَهُ مِنْ نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ
إِذَا خِفْنَ أَسْدَلْنَ الشُّعُورَ فَهُنَّ منْ   غَدَائِرِهَا فِي ٱلْحُفِ الظُّلُمَاتِ(244)

وَأَخْبَرَنِي ابْنُ الْعَرَبِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي بَعْضُ الفُقَرَاءِ بَيْتاً مُفْرَداً لاَ يعرِفُ أَخاً، وَهُوَ :

كُلُّ الَّذِينَ رَجَوْا نَوَالك أُمْطِرُوا   مَا كَانَ بَرْقُكَ خُلّباً إلاَّ مَعِي

فأعجبنِي مَغْزَاهُ، وَقَفَوْتُ مَعْنَاهُ، فعملتُ أَبيَاتاً جَعَلْتُهُ وَاحِداً منهَا :

(242) ترجمان الأشواق : 20–24.

(243) نفسه : 25–27.

(244) نفسه : 32–34.

قِفْ بِالطّلُولِ الدَّارِسَاتِ بِلَعْلَعِ ... وَانْدُبْ أُحِبَّتَنَا بِذَاكَ البَلْقَعِ
قِفْ بِالدِّيَارِ وَنَادِهَا مُتَعَجِّباً ... مِنْهَا بِحُسْنِ تَطَلُّقٍ بِتَفَجُّعِ
عَهْدِي بِمِثْلِي عِنْدَ بَانِكَ قَاطِفاً ... ثَمَرَ القُدُودِ وَوَرْدَ رَوْضٍ أَيْنَعِ
«كُلُّ الَّذِينَ رَجَوْا نَوَالَكَ أُمْطِرُوا ... مَا كَانَ بَرْقُكَ خُلَّباً إِلا مَعِي»
قَالَتْ نَعَمْ، قَدْ كَانَ ذَاكَ المُلْتَقَى ... فِي ظِلِّ أَفْنَانِي بِأَطْيَبِ مَوْضِعِ
إِذْ كَانَ بَرْقِي مِنْ بُرُوقِ مَبَاسِمٍ ... وَاليَوْمَ بَرْقِي لَمْعُ هَذَا اليرمعِ
فَاعْتِبْ زَماناً مَا لَنَا مِنْ حِيلَةٍ ... فِي دَفْعِهِ، مَا ذَنْبُ مَنْزِلِ لَعْلَعِ
فَعَذَرْتُهَا لَمَّا سَمِعْتُ جَوَابَهَا ... تَشْكُو كَمَا أَشْكُو بِقَلْبٍ مُوجَعِ
وَسَأَلْتُهَا لَمَّا رَأَيْتُ رُبُوعَهَا ... مَسْرَى الرِّيَاحِ الدارسات الأربعِ
هَلْ أَخْبَرَتْكِ رِيَاحُهُمْ بِمَقِيلِهِمْ ... قَالَتْ: نعمْ، قَالُوا بِذَاتِ الأَجْرَعِ
حَيْثُ الخِيَامُ البيضُ تُشْرِقُ لِلَّذِي ... تَحْوِيهِ مِنْ تِلْكَ الشُّمُوسِ الطّلّعِ(245)

وَأَنْشَدَنِي لنفسِهِ أَيْضاً :

بَيْنَ النَّقَا وَلَعْلَعِ ... ظِبَاءُ ذَاتِ الأَجْرَعِ
تَرْعَى بِهَا فِي خَمَرٍ ... خَمَائِلاً وَتَرْتَعِي
مَا طَلَعَتْ أَهِلَّةٌ ... بِأُفْقِ ذَاكَ المَطْلَعِ
إِلاَّ وَدِدْتُ أَنَّهَا ... مِنْ حَذَرٍ لَمْ تَطْلُعِ
وَلاَ بَدَتْ لاَمِعَةٌ ... مِنْ بَرقِ ذَاكَ اليَرْمَعِ
إِلاَّ اشْتَهَيْتُ أَنَّهَا ... لِمَا بِنَا لَمْ تَلْمَعِ
يَا دَمْعَتِي وانْسَكِبِي ... يَا مُقْلَتِي لاَ تُقْلِعِي
وَأَنْتَ يَا حَادِي اتَّئِدْ ... فَالنَّارُ بَيْنَ أَضْلُعِي
قَد فَنِيتْ مِمَّا جَرت ... خَوْفَ الفِرَاقِ أَدْمُعِي
فَارْحَلْ إِلَى وَادِي اللِّوى ... مَرْتَعِهِمْ وَمَصْرَعِي
إِنَّ بِهِ أَحِبَّتِي ... عِنْدَ مِيَاهِ الأَجْرَعِ
وَنَادِهِمْ مَنْ لِفَتىً ... ذِي لَوعَةٍ مُودِّعِ

(245) نفسه : 101-103.

رَمتْ بـــهِ أَشْجَانُـــــهُ يَهْمــاءَ رَسْمٍ بَلْقَـــعِ
يَا قمراً تَحْتَ دُجـى خُذْ مِنْهُ شَيْئاً وَدَعِ
وَزَوِّديـــــهِ نظــــرةً منْ خلفِ ذَاكَ ٱلْبُرْقُـعِ
أوْ عَلّليـــهِ بالمُنَـــــى عَسَاهُ يَحْيَـا وَيَعِـــي
مَـا هُـوَ إلاَّ مَـيِّتٌ بَيْـنَ النَّقَـا وَلَعْلَـــعِ
فَـمُتُّ يَـــأساً وَأسىً كَمَا أَنَا فِي مَوْضِعِـي
مَا صدقت ريحُ الصَّبَا حيــنَ أَتَتْ بِالْخُـــدَعِ
قَدْ تَكْـذب الرِّيـحُ إذَا تُسمعُ مَا لَمْ تَسْمعِ(246)

وأنشدني أيضا :

أطـارِحُ كُـلَّ هَاتِفَـةٍ بـأيكٍ عَلَـى فَنَـنٍ بِأفْنَـانِ الشُّجُـونِ
فَتَبْكِي إلْفَهَا مِـنْ غَيْـرِ دَمْـعٍ وَدَمْعُ الحُزْنِ يَهْمِلُ منْ جُفُونِي
أَقُولُ لَهَاـ وَقَدْ سَمَحَتْ جفُونِي ــ بِأدْمُعِهَا تُخَبِّـرُ عَـنْ شُؤُونِـي
أُعِيـذُكِ بِالَّـذِي أَهْـوَاهُ علــم وهـلْ قَالُـوا بأفْيـاءِ الـغُصونِ(247)

وَقَال : وَأَنْشَدنِيهِ :

عِنْدَ ٱلْكُثَيِّبِ مِنْ جِبَـالِ زُرُودِ سِيدٌ وَأُسْدٌ مِـنْ لِحاظِ الغِيـدِ
صَرْعَى وَهُمْ أَبْنَاءُ مَلْحَمَةِ الوَغَى أَيْنَ الأُسُودُ مِنَ العُيـونِ السُّودِ
فَتَـكَتْ بِهِـمْ لَحظَاتهنَّ وَحَبَّـذَا تِلْكَ المَلاحظُ مِنْ بَنَاتِ الصِّيدِ(248)

وقال، وأنشدنيه :

ثَـلاَثُ بُـدُورٍ لَـمْ يُـزَنَّ بِريبَـةٍ خَرَجْنَ إلَى التَّنعيـمِ مُعْتَجِـرَاتِ
حَسَرْنَ عَنْ أَمْثَالِ الشُّمُوسِ إضَاءةً وَلَبَّيْــنَ بالإهْــلالِ مُعْتَمِـــرَاتِ
وَأَقْبَلْنَ يَمْشِينَ الرّويدَا كَمثلِ مَا تَمَشَّى القَطَا فِي ٱلْحُفِ الحَبَراتِ(249)

---

(246) نفسه : 117-122.
(247) نفسه : 144.
(248) نفسه : 145.
(249) نفسه : 146.

وقال، وأنْشدنيهِ :

نَفْسِي ٱلْفِدَاءُ لِبيضٍ خُرَّدٍ عُرُبٍ ... لَعِبْنَ بي عِنْدَ لَثْمِ الرُّكْنِ والحَجَرِ
مَا تَسْتَدِلُّ إذَا مَا تهت خَلْفَهُمُ ... إلاَّ بريحِهِمُ مِنْ طَيِّبِ ٱلأَثَرِ
وَلاَ دَجا بِيَ لَيْلٌ مَا بِهِ قَمَرٌ ... إلاَّ ذَكَرْتُهُمُ فَسِرْتُ فِي ٱلْقَمَرِ
وَانَّمَا حينَ أَمْشِي فِي رِكَابِهِمُ ... فَاللَّيْلُ عِنْدِيَ مثل الشّمسِ في البكرِ
غَازلتُ منْ غَزلي مِنهُنَّ واحدةً ... حَسناء ليسَ لها أختٌ منَ البَشَرِ
إنْ أَسْفَرَتْ عنْ مُحَيَّاهَا أَرَتْكَ سَنىً ... مِثل الغَزَالَةِ اشراقاً بِلاَ غَبَرِ
للشَّمْسِ غُرَّتُهَا وَاللَّيلِ طُرَّتُهَا ... شَمْسٌ وَلَيْلٌ معاً منْ أَعْجبِ الصُّوَرِ
فنحنُ فِي ٱللَّيْلِ في ضَوْءِ النَّهارِ بِهِ ... وَنَحنُ فِي الظُّهْرِ في لَيْلٍ منَ الشَّعَرِ(250)

وَقَال، وأنْشَدنيه :

بَيْنَ الحَشَا والعُيُونِ النّجْلِ حَرْبُ هَوىً
وَالقَلْبُ منْ أَجْلِ ذَاكَ الحَرْبِ فِي حَرَبِ
لَمْيَاءُ لَعْساءُ مَعْسولٌ مُقَبَّلُهَا
شَهَادَةُ النَّحْلِ مَا تَلْقَى مِنَ الضَّرَبِ
رَيّا المخلخل دَيْجُورٌ عَلَى قَمَرٍ
فِي خَدِّهَا شَفَقٌ غُصْنٌ عَلَى كُثُبِ
حَسْنَاءُ حَاليةٌ لَيْستْ بِغَانِيةٍ
تَفْتَرُّ عَنْ بَرَدٍ ظَلْمٍ وَعَنْ شَنبِ
تَصُدُّ جِدّاً، وَتَلْهُو بِالهَوَى لَعِباً
وَالمَوْتُ مَا بَيْنَ ذَاكَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
مَا عَسْعَسَ اللَّيلُ إلاَّ جَاءَ يَعقبُهُ
تَنَفُّسُ الصُّبحِ معلوم من الحقبِ
وَلاَ تَمُرُّ عَلَى رَوْضٍ رِيَاحُ صَبَا
تَحْوِي عَلَى كَاعِباتٍ خُرّدٍ عُرُبِ

(250) نفسه : 152–153.

إلاَّ أَمـالَتْ وَنَـمَّتْ فِـي تَنَسُّمِهَـا
بِمَا حَمَلْـنَ مـنَ الأَزْهَـارِ والـقُضُبِ
سَأَلْتُ ريحَ الصَّبا عَنْهُم لِتُخْبِـرَني
قَالتْ: وما لَكَ فِي الأَخْبَارِ منْ أَربِ ؟
فِي الإِبْرَقيْنِ وفي بـرك الغمـادِ وفي
بَرْكِ العَميمِ تَرَكْتُ الحَيَّ عن كَثَبِ
لاَ تَستقلُّ بهِمْ أَرض، فقلتُ لهَـا:
أَيْنَ المَفَرُّ وَخَيلُ الشَّوْقِ فِي الطَّلَب
هَيْهَاتَ لَيْسَ لَهُمْ مَغْنى سِوَى خَلَدِي
فحَيْثُ كنتُ يَكُونُ البَـدْرُ فَأَرْتَـقِب
أَلَـيْسَ مَطْلَعُهَـا وَهْمِـي ومَغْرِبُهَـا
قَلْبِي فَقَدْ نَالَ شُؤْم البَانِ والغَـرَب
مَـا لِلغُـرَابِ نعيـقٌ في مَنَازلنَـا
وَما لَهُ فِي نِظامِ الشَّمْلِ منْ ندبِ[251]

وقال، وأنشدنيه:

حَمَامَـةَ البَـانِ بِـذَاتِ الـغَضَا ضَاقَ لِمَـا حَمَّلْتِنيـهِ الـفَضَا
مَنْ ذَا الَّذِي يَحْمِلُ شَجْوَ الهَوَى مَنْ ذَا الَّذِي يَجْرَعُ مُرَّ القَضَا
أَقُولُ مـنْ وَجـدٍ ومـنْ لَوْعـةٍ يَا لَـيْتَ مـنْ أَمْرَضَنِي مَـرَّضَا
مَـرَّ بِبَـابِ الـدَّارِ مُسْتَهْزئـاً مُسْتَخْفِيـاً مُعْتَجِـراً مُعْـرِضَا
مَـا ضَرَّنِـي تَعْجِيـرُهُ إِنَّمَـا أَضَرَّ بِي منْ كَوْنِـهِ أَعْـرَضَا[252]

وقالَ، وأنشدنيه:

يَا حَادِيَ العِيسِ بسلع عـرج وَقِـفْ عَلَى البَانَـةِ بِالمَـدْرَجِ
وَنَادِهِـمْ مُسْتَعْطِفـاً مُسْتَلْطفـاً يَا سَادَتِي هَلْ عِنْدَكُمْ منْ فَرَجِ

(251) نفسه: 168-170.
(252) نفسه: 171-172.

بِرَامَـةٍ بيـنَ النَّقَـا وَحَاجِـرٍ ... جَارِيـةٌ مَقْصُورَةٌ فِـي هَـوْدَجِ
يَـا حُسْنَهَـا مِـنْ طَفْلَةٍ غُرَّتُهَـا ... تُضيءُ لِلطَّـارِقِ مِثْـلَ السُّرُجِ
لُؤْلُـؤَةٌ مَكْنُونَـةٌ فِـي صَدَفٍ ... مِنْ شَعَرٍ مثل سَوَادِ السَّبَجِ
يَحْسِبُهَا نَاظِرُهَا ظَبْيَ نَقًى ... مِنْ جيدِهَا وَحُسْنِ ذَاكَ الغَنَجِ
كَأَنَّهَا شَمْسُ ضُحًى فِي حَمَلٍ ... قَاطِعَةٌ أَقْصَى مَعَالي الدَّرجِ
إِنْ حَسَرَتْ بُرْقُعَهَا أَوْ سَفَرَتْ ... أزرت بِأَنْوَارِ الصَّبَاحِ الأَبْلَجِ
نَادَيْتُهَا بيـنَ الحِمَى وَرامـةٍ ... منْ لِفَتًى حَلَّ بسلعٍ يَرْتَجِي
مَنْ لِفَتًى مُتَيَّـه فِـي مَهْمَـه ... مُوَلَّهٍ مُدَلَّه العَقْلِ شَجِي
مَـنْ لِفَتـًى دَمْعَتُـهُ مغرقـةٌ ... أَسْكَرَهُ خَمْرٌ بِذَاكَ الفَلَجِ
مَنْ لِفَتًى زَفْرَتُهُ مُحرقةٌ ... تَيَّمَهُ جَمَالُ ذَاكَ البَلَجِ
قَدْ لَعِبَتْ أَيْدِي الهَوَى بِقلْبِهِ ... فَما عَلَيهِ فِي الَّذِي من حَرَجِ(253)

وقال، وأنشدنيه :

أَلاَ يَا نَسِيمَ الرِّيحِ بَلِّغْ مَهَا نَجْدِ ... بِأَنِّي عَلَى مَا يَعلمُونَ منَ العَهْدِ
وَقُلْ لِفتاةِ الحَيِّ مَوْعِدُنَا الحِمَى ... غدية يَوْم السَّبْتِ عِنْدَ رُبَى نَجْدِ
عَلَى الرَّبْوةِ الحَمْرَاءِ مِنْ جَانِبِ الصَّوى ... وَعنْ أيمنِ الافلاجِ والمعلم الفردِ
فَإِنْ كانَ حَقّاً مَا تَقُولُ وَعِنْدَهَا ... إِلَيَّ منَ الشَّوْقِ المُبرِّحِ مَا عِنْدِي
إِلَيْهَا فَفِي حَرِّ الظهيرةِ نَلْتَقي ... بخيمَتِها سِرّاً عَلَى أَصْدقِ الوَعْدِ
فَتلقي ونلقِي مَا نُلاقِي مِنَ الهَوَى ... ومنْ شِدَّةِ البَلْوَى ومنْ أَلمِ الوَجْدِ
أَأَضْغَاثُ أَحْلامٍ، أَبُشْرَى مَنَامَةٍ ... أَنُطْقُ زَمَانٍ كانَ فِي نُطْقِهِ سَعْدِي؟
لَعَلَّ الَّذِي سَاقَ الأَمَانِي يَسُوقُهَا ... عِيَاناً فَيُهْدِي رَوْضُهَا لِي جَنى الوَرْدِ(254)

وقال، وأنشدنيه :

أَلاَ هَلْ إِلَى الزُّهْرِ الحِسَانِ سَبِيلُ ... وَهَلْ لِي عَلَى آثارِهِنَّ دَلِيلُ
وهلْ لِي بخَيْمَاتِ اللِّوى منْ مُعَرَّسٍ ... وَهَلْ لِي إِلَى ظِلِّ الأَثيلِ مَقيلُ

---

(253) نفسه : 173-175.

(254) نفسه : 189-190.

فَقَالَ لِسَانُ ٱلْحَالِ يُخْبِرُ أَنَّهَا ... تَقُولُ: تَمَنٌّ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
وِدَادِي صَحِيحٌ فِيكِ يَا غايةَ المُنَى ... وَقَلْبِي مِنْ ذَاكَ الصَّحِيحِ عَلِيلُ
تَعَالَيْتُ مِنْ بَدْرٍ عَلَى ٱلْقُطْبِ طَالِعٍ ... وَلَيْس لَهُ بَعْدَ الطّلوعِ أُفُولُ
فَدَيْتُكَ يَا مَنْ عَزّ حُسناً وَنَخْوَةً ... فَلَيْس لَهُ بينَ الحِسَانِ عَدِيلُ
فَروضُكَ مَطْلولٌ وَوَرْدُكَ يَانِعٌ ... وحسنك معشوق عليه قبول
وَزَهْرُكَ بَسَّامٌ وَغُصْنُكَ نَاعِمٌ ... تَمِيلُ لَهُ الأَرْوَاحُ حَيْثُ يَمِيلُ
وَظَرْفُكَ فَتّانٌ، وَطَرْفُكَ صَارِمٌ ... بِهِ فارِسُ البَلْوى عَلَيَّ يَصُولُ[255]

وقال، وأنشدنيه :

لِطَيْبَةِ ظَبْي ظُبَا صَارِمٍ ... تَجَرَّدَ مِنْ طَرفهَا السَّاحِرِ
وَفِي عَرفَاتٍ عرفْتُ الَّذِي ... تُرِيدُ، فَلَمْ أَكُ بِالصَّابِرِ
وَلَيْلَةِ جَمْعٍ جُمِعْنَا بِهَا ... كَما جاء فِي المثلِ السَّائرِ
يَمِينُ الفَتَاةِ يَمِينُ فَلاَ ... تَكُنْ تطْمئن إلى غَادرِ
مُنًى بِمِنًى نِلْتُهَا لَيتَها ... تَدومُ إِلَى الزّمَنِ الآخِرِ
تَولعتَ فِي لَعْلَعٍ بِالَّتِي ... تُرِيكَ سَنَا القَمَرِ الزَّاهِرِ
رَمت رامةً وصفت بالصفا ... وحجرت الحجر بِالحَاجِرِ
وَشَامَتْ بَريقاً عَلَى بَارِقٍ ... بِأَسْرَع مِنْ خَطْرةِ الخَاطِرِ
وَغَاضَتْ مياهُ الغَضا مِنْ غَضَا ... بِأَضلُعهِ مِنْ هَوَى ساحِرِ
وَبَانَتْ بِبَانِ النّقَا فانتقَتْ ... لآلِيءَ مَكْنُونة الفاخِرِ
وآضتْ بذاتِ الأضا القَهْقَرى ... حذاراً مِنَ الأسدِ الخادرِ
بِذِي سَلَمٍ أسلمتْ مُهْجَتِي ... إِلَى لَحْظها الفاتِكِ الفَاتِرِ
حَمَتْ بالحِمَى ولوتْ باللّوى ... كعَطْفةِ جَارحهَا ٱلْكَاسِرِ
وفِي عَالجٍ عالجتْ أمرهَا ... لتفلت مِنْ مخلب الطّائرِ
خَوْرنَقُها خَارِقٌ للسماء ... فَيَسْمُو اعتلاء على النّاظِرِ[256]

(7 : 279–298)

---

(255) نفسه : 191–192.

(256) نفسه : 193–195.

46 ـ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ

ابْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ سَحْمَانَ البَكْرِي الشَّرِيشِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ(257)، كَانَ مَولِدُهُ تَقْدِيراً فِي سَنَةِ سِتٍّ مِئَةٍ، سَمِعَ الحَدِيثَ الكَثِيرَ بالأَنْدَلُسِ وَديارِ مِصْرَ والحِجَازِ وَالشَّامِ وَبَغْدَادَ، واسْتَظْهَرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَقَرَأَ عِلْمَ الأَدَبِ وَالْعَرَبِيَّةَ عَلَى جَمَاعَةٍ.

تَرَبَّى بِالأَنْدَلُسِ، وَقَرأَ فِقْهَ الإِمَامِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ يَلْتَمِسُ من إِنْسَانٍ كِتَابَ التَّلْقِينِ(258) عَلَى مَذْهَبِ الإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَخَّرَهُ عَنْهُ، وَكَانَ قبل ذَلِكَ قَد أَعَارَهُ إِيَّاهُ، ثُمَّ كَتَبَ لَهُ رُقْعَةً يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ فِي ٱلْمَنْعِ :

مَا إِنْ وَجَدْتُ ــ أَطَالَ اللَّهُ عُمركَ ــ لِي   وَلِلْمَكَارِمِ تُولِيهَا وتنشُرهَا
مِنْ مَنْعِكُمْ مِنِّي ٱلتَّلقِينَ موجدَةً   عَلَيكَ فِي النَّفْسِ أَطْوِيهَا وَأَنْشُرُهَا
قَدْ طَالَ ما كانَ عِنْدِي وانْتَفَعْتُ بِهِ   وَكَمْ لَكُمْ منْ أَيادٍ لَسْتُ أَحْصرُهَا
وَفِي الضَّمِيرِ لَكمْ وِدٌّ ومَنْزِلَةٌ   منعُ الحوائجِ مِمَّا لاَ يُغَيِّرُهَا
إِذا الصّداقةُ صَحّتْ منْ أَخِي ثقةٍ   عَلَى صَفَاءٍ فَمَا شَيْءٌ يُكَدِّرُهَا

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً لِنَفْسِهِ، مِنْ قَصِيدَةٍ(259) :

لَقَدْ سَارَ فِينَا سِيرَةً عُمرِيَّةً   وَأَذْهَبَ عَنَّا الجَوْرَ فَالعَدْلُ قَائِمُ
إِذَا مَا انْتَضَى لِلخَطبِ يَقظانَ عَزْمِهِ   غَدَتْ عَزَمَاتُ الدَّهْرِ وَهْيَ نَوَائِمُ
فَفِي الْحَرْبِ لِلأَعْدَاء بِالقَهْرِ قاسِمٌ   وَفِي السِّلمِ للأَمْوَالِ بالرفْقِ قاسِمُ
لِكُلِّ بُيُوتِ ٱللَّهِ والعِلْمِ عامِرٌ   وكلِّ بُيوتِ الشِّرْكِ والجَهْلِ هَادِمُ

وأنشدني أيضا لنفسه :

هَلاَّ عليك كَمَا كلفت جميلاَ   أَنْ تُولِيَ الصَبِّ المشوقَ جَميلاَ
يَا وَاصِلِي بالهجْرِ إِنَّكَ قاتِلِي   هلاّ لِوَصْلِكَ أَنْ يكونَ وصولاَ
أَيَحِلُّ قَتلُ الصَّبِّ في شرعِ الهَوَى   لاَ، والَّذِي قَدْ أُنزَلَ التَّنْزِيلاَ

---

(257) له ترجمة جيدة في الوافي بالوفيات 2 : 131–132 وبغية الوعاة 1 : 44.

(258) كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب، وهو من كتب الفقه المشهورة.

(259) لعلّها في مدح الملك الناصر الذي كان يحضر دروسه في الرباط الناصري وهو واقفه.

حَزَنِي مِنَ الجَفنِ العليلِ كأنـه قَدْ صَيَّرَ الجسْمَ الصَّحيحَ عَليلاَ
يَا مَالِكاً رق الأنام بِحُسْنِـهِ مَا بَالُ طَرْفِكَ لِلعبيدِ قَتُـولا
أَوَ مَا تَرِقُّ لِمُذْنِفٍ وَمُتَيَّـمٍ أضْحى بِحُبِّكَ هائِماً مَخْبُـولا
أَضْنَاهُ طُولُ الشَّوقِ حتَّى أنَّـهُ مَا إنْ يبين لِمبْصِريه نُحُـولاَ
أَلِفَ السُّهادَ مَعَ الضَّنَى فَجُفُونُهُ مَا إنْ تَذوقُ من المنامِ قَليـلاَ
يَرْعَى النُّجُومَ إِلَى الصَّبَاحِ وَيَنْثَنِي حَتّى المَسَاءِ بِذكركُمْ مَشْغُـولاَ
فَوَحَقِّ حُسنكَ والصَّبابةِ إنَّنِـي مَا خِفْتُ مَوْلَىً بِالْهَوَى مَقْتُولاَ
لَكِن أخاف عليكَ إنْ أَتْلَفْتَنِـي إِذْ كَانَ شَخْصُكَ فِي الْفُؤَادِ نَزِيلاَ
هَذا دَمِي لَكَ يَا ظَلُومُ أَبَحْتُهُ أَوَ ما تَخَافُ لَدَى الحِسَابِ جَلِيلاَ
أَقْسَمْتُ أَنَّكَ فِي جَمَالِكَ وَاحِدٌ مَا إنْ أَرَى لَكَ فِي المِلاَحِ مَثِيلاَ
(7 : 307–309)

47 ـــ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أُمَيَّةَ

اِبْنِ عَلِيٍّ بْنِ خَلَفٍ أَبو عَبْدِ ٱللَّهِ العَبْدَرِي(260) مِنْ أَهْلِ مَيُورْقَةَ مِنْ بِلاَدِ الأَنْدَلُسِ شَابٌّ أَشْقَرُ قَصِيرٌ منْ حُفّاظِ القُرْآنِ العِزَيزِ، زعَمَ أَنَّه دَرَسَ قَدْراً من عِلمِ العَربية وأتْقَنَهُ، نزلَ حَلَبَ واستوطنَهَا يَسْترزِقُ من الوِراقَةِ والنَّسْخِ، وذَكَرَ أَنَّهُ وُلِدَ سنةَ عشر وست مئة ويقولُ الشِّعرَ، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ بحلبٍ، وكتبهُ لِي بِخَطِّه فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وستِّ مِئَةٍ :

عُجْ بالكئيبِ المُستهامِ وسرْ بِهِ مُتَيَّمـاً نَحْوَ العقيـقِ وَسِرْ بِـهِ
وانْشُدْ فُؤَاداً ضَلَّ فِيهِ، وقلْ لهُ ليسَ المُتيَّـمُ آمنـاً فِي سِرْبِـهِ
واسفحْ بِسفْحِ الأبرقيـنِ وتُرْبِـهِ سحب الدموعِ على تَشَتُّتِ حِزْبِهِ
فَلَعَلَّـهُ تُـقْضى لبانَــةُ نَــفْسِهِ منْ قَبْلِ أَنْ يَقْضِي بلوعة حبّهِ
يَا مدنفاً عبثَ السّقامُ بِجِسمِهِ وَمُتيّمـاً لـعِبَ الغـرامِ بِلُبِّــهِ

(260) لم أقف على ترجمة له في مصدر آخر.

وَطَوَى السّرورَ لبينهِمْ يَومَ النّوَى ... طَيَّ الأدِيبِ اللّوذعــيِّ لِكتْبــهِ
خَفِّضْ ـــ فَديتُكَ ـــ زَفرةً أبْديتهَا ... وَتَلافَ جَفْنكَ منْ إسَالةِ غَرْبِهِ
كَيْ لاَ يُقَالَ منَ الصّبابَةِ قَدْ صبَا ... وَتَضَرّمَتْ حُرَقُ الْجَوَى فِي قَلْبِهِ
وَمُهَفْهَفٍ، ملكَ القُلُوبَ بِحُسْنِهِ ... وَسَبَى العُقُـولَ بِتِيهِـهِ وَبِعُجْبِـهِ
لَدِنِ المَعاطِف كَالقضيبِ إذَا انْثَنَى ... حُلْـوِ المَـرَاشِفِ والمقبّـلِ عَذْبِـهِ
سَلِسِ المَقَالِ منَ اللّطافةِ سَهْلِهِ ... عَسِرِ الوِصالِ منَ القطيعةِ صَعبِهِ
يَقْـرِي المُعَنّـى سلـوةً وَتَجَهُّمـاً ... وَيَظَلُّ يُعْمِـلُ فِكـرهُ في خِلْبِـهِ
أهدَى السّقـامَ لجسمِـهِ ولطرفِـهِ ... فَرْطُ السُّهادِ وَصَدُّهُ عَنْ قُرْبِـهِ
يَا لاَئمَ الصَّبِّ الشّجي في حُبِّهِ ... أقْصِرْ بُلِيتَ بِدَائِـهِ مِـنْ عَتْبِـهِ
شَتّـانَ بينكُمَـا تَبِـيتُ مُنَعَّمـاً ... وَيبيتُ ملتهِبَ الحَشَا منْ كَرْبِهِ

وقال أيضا :

سَلاَمٌ يُبَارِي المِسْكَ والمندَلَ الرَّطبَا ... وَنَشْرَ نَسيمِ الرّوضِ عَنْ زَهْرِهِ هَبّا
عَلَيْكمْ يَبُثُّ الشّوقَ مِنّي إليكُمُ ... وَيَمْنَحُكمْ مَحْضَ المَوَدَّةِ والقُرْبَا
تَحِيّةَ نَائِي الدَّارِ والأَهْلِ مَا قَضَى ... لَهُ وَطَراً لكنْ قَضَى نَحْبَهُ نَحْبَا
يَحِـنُّ إذَا هَبَّ النّسيـمُ صَبَابـةً ... إلَيْكُمْ، وَسَلَّ البَرْقُ مِنْ وَمْضِهِ عَضْبَا
وَيَسْتَنْجِدُ الصَّبرَ الجميلَ إذَا جَرَى ... حَديثُكُمُ يوماً فَهاجَ لـهُ كَرْبَـا
لَعَمْرِيَ مَا تَأْخِيرُ كَتْبِيَ عن قِلًى ... ولا مَلَلٍ مِنّي فَأَستوجبُ العَتْبَا
ولكنَّ رَيْبَ الدَّهرِ يَا صاح مُولَعٌ ... بِتَشْتيتِ شَمْلِ المرء تبّاً لَهُ تَبّا
تُطَوِّحُهُ أيدي النّوى عن أُهَيْلهِ ... فترمِي به شرقاً، وطوراً به غَرْبَا
لَحَا اللّهُ من لا يقبلُ العذْرَ من أخٍ ... وَيوسِعهُ عفواً وإنْ قارفَ الذَّنْبا
عَليكُمْ سَلامُ آللّهِ مَا جَنَّ غاسِقٌ ... وَما حنَّ شوقاً عاشقٌ أوْ رَعى الشّهْبا
وَمَا شَرَّقَتْ شمسُ النهارِ وأشرقَتْ ... وَما صدّ احوى الماقِ عن مدنف عجبا

ولهُ أَيْضاً :

أَشَمُّ مُحَيّاً يُجْتلى وَجْـهُ أَغْيَـدٍ ... وأَحْلَى حَديث لاَ يُمَلّ عتابُـهُ
وأَحْسَنُ زَهْرٍ يُجتَنَى وَرْدُ خَدِّهِ ... وَأَعْـذَبُ ورْدٍ يُسْتَلَـذُّ رُضَابُـهُ

وله أيضاً :

خَلِيلَيَّ لُوما فِي الهَوَى الصَّبَّ أَوْ دَعَا فَليسَ وَإِنْ عَنَّفْتُمَا عنْهُ مُقْلِعَا

وَهَلْ يَرْعَوِي فِي الحُبّ حَرّانُ قَدْ غَدَا مِنَ الوجْدِ لاَ يُصْغِي إِلَى العَذْلِ مِسْمَعَا

وَهَلْ يَسْتطِيعُ الوَالِهُ الصّبُّ سلوةً وقدْ بانَ منْ يَهْوَاهُ عنْهُ وَوَدَّعَا

وَأَوْدَعَ ما بَيْنَ الجَوانِح جَذْوَةً فَضَرَّمَها دَاعِي التّفرُّقِ إِذَا دَعَا

وَقَلْقَلَ أَحْشَاءَ المُتَيَّم لوعَـةٌ فَأَصْبَحَ مَذْعُورَ الفُؤَادِ مُفَجَّعَا

يَهِيمُ بجيرانِ العُذَيْب إِذَا سَرَى نَسيمٌ عليكَ منهُمُ مُتَضَوِّعَا

تُمَازِجُهُ أَنْفَاسُهُمْ، فَكَأَنَّمَا تَحَمَّلَ مِسْكاً أَذْفراً فِيهِ مودَعَا

(7 : 367–370)

48 ـ نَاهِض بْن إِدْرِيس الوَادآشي[261]

يُنْسبُ إلى وَادِ آش منْ أعمالِ غَرناطة كانَ شاعرَ قُطرِهِ، وَأَشْعَرَ منْ ذُكرَ في عَصْرِهِ، يَقُولُ في [قَصْرِ] السّيّد أبي يَحْيَى :

أَلاَ حَبَّذَا القَصْرُ الَّذِي آرْتَفَعَتْ بِهِ عَلَى الماءِ منْ تَحْتِ الحِجَارةِ أَقْوَاسُ

هُوَ المَصنعُ الأَعْلَى الَّذِي أنف الثّرى وَرَفَّعَهُ عَنْ لَثْمِهِ المَجْدُ وَالبَاسُ

فَأُرْكِبَ مَتْنَ النَّهْرِ عِزّاً وَرِفْعَةً وَفِي مَوْضعِ الأَقْدَام لاَ يُوجَدُ الرّاسُ

فَلاَزَالَ مَعْمُورَ الجَنَابِ وبابُهُ يَغَصّ وَحافَى أُفْقَهُ الدّهْر أَعْرَاسُ

(9 : 137)

49 ـ هَاشِمُ بْنُ حَبِيبِ أَبُو الوَلِيدِ[262]

الأَدِيبُ الفقيهُ النّحويّ الخَطيبُ المُقْرِئُ الزَّاهدُ البَيْغيّ يُنْسبُ إلى بِيغُو[263]

(261) انظر فيه المغرب لابن سعيد 2 : 145 ونفح الطيب 1 : 470، 5 : 70–71.

(262) لم أقف عليه فيما رجعت إليه من المظان.

(263) بيغه (بالامالة) أو باغه مدينة أندلسية تقع بين قرطبة وغرناطة. انظر فيها المغرب 2 : 154 ومعجم البلدان (باغه) والروض المعطار : 122 وتسمى اليوم PRIEGO.

وهيَ قَلعةٌ حَصينةٌ مِنْ أَعْمَالِ غَرناطةَ. كَان أَبو الوليدِ يَتولّى خَطَابَتَهَا، وكانَ رَجُلاً من خِيَارِ عِبَادِ ٱللَّهِ الصَّالِحِينَ وَأُوليائِهِ الأبرَارِ العامِلِينَ، قارئاً للقرآن الكَريم، كَثيرَ التّلاوةِ لَهُ زاهداً مُتَعَبِّداً مُتَفَنِّناً فِي كُلِّ فَضْلٍ، قَيِّماً بالعُلوم الدّينيّةِ والأدبيّةِ لا يقْعُدُ عن شيءٍ مِنْهَا بَلْ يَقومُ بهَا أَحْسَنَ قِيامٍ، وكانَ قَدْ تَصَدَّرَ لقراءِتِها، وَإِفَادَتِهَا، والنَّاسُ يَغْشوْنَهُ، ويأْتونَ إليهِ وَيَقرؤونَ عَليهِ، ويستفيدُونَ مِنْهُ وَيَأْخُذون عَنْهُ، فَتَخرَّجَ بِهِ خلقٌ كثيرٌ، وكانَ لَهُ معَ ذلكَ النّصيب الوافِر والحظّ الوافِي في قَرْضِ الشِّعْرِ، وقالَ مِنْهُ قَصائدَ مُطوّلاتٍ، ومقاطِيعَ مُسْتحسنَاتٍ، وماتَ مقْتولاً اسْتشهِدَ على أَيْدي الفِرنْج في سنةِ اثنينِ وعشرينَ وستّ مئةٍ رضيَ اللَّهُ عنْهُ(264).

أَنْشدَنِي الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاسِ أحمد بن محمّد بن علي الأسَدي البَيْغي(265) المقرئ بحلب المَحْروسة في سنةِ ثمانٍ وأَرْبَعِينَ وستٍّ مئةٍ، قَالَ: أَنْشَدَنِي الشيخُ الأستاذُ الزَّاهِدُ أَبُو الوليدُ هاشم بن حَبيب البَيْغي لنفسِهِ من قصيدة أَوَّلُها:

بَانَ الخَليطُ وزودوك غرامَا ... فأبتْ جُفُونكَ أَنْ تَذُوقَ مَنَامَا
وَحَشَوْا فُؤَادك لَوْعَةً لاَ تنقضِي ... وَنَأَوا بِصَبْرِكَ ظَاعنينَ ظَلاَمَا

ومنها:

نَادَيْتُ دَارهُمُ، أَدَاراً لَمْ تَزلْ ... أَلْقَى بِهَا الغِزلانَ والآرامَا
يَا معهدَ اللّذّاتِ يا مُلْقى المُنَى ... كنت الشفاء فقد رجعت سقاما
يَبْكِي حَمَامُ الأَيك طولَ حَنينِهِ ... وَلَرُبَّ مُشتاقٍ يَهيجُ حِمَامَا

وله أشعارٌ كثيرةٌ إلاَّ أَنَّني لمْ يَقع إلي شيءٌ منهَا غَير ما أثبتهُ.
(186-185 : 9)

(264) في هذه السنة استولى الفنش على باغه بمساعدة المعروف بالبياسي والعياذ بالله. انظر الروض المعطار: 122 ويبدو أن المترجم كان ممن استُشهدوا في هذه الحادثة.

(265) لم أقف له على ترجمة، ويبدو أنه هو مصدر ابن الشعار في ترجمة بلديّه.

50 ــ الهَيْثَمُ بْنُ جَعْفَر

أَبو المتوكّلِ الإشْبِيلِيُّ(266) الأَدِيبُ الفَاضِلُ الشّاعِرُ، مِنَ المُجيدينَ في علمِ الأدبِ ونَظْمِ الشِّعْرِ بِقُطْرِهِ، يَفُوقُ أَهْلَ زَمَانِهِ فَضْلاً وَفَهْماً وَفَصاحةً ورجاحَةً.

ومنْ شِعْرِهِ مَا قَالَهُ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ :

بأَرْضِ رَيَّةَ(267) أَوْطانِي وَأَوطَارِي ... وَلِي هَوًى فيهِمُ عارٍ منَ العَارِ
سَمِيُّ يَحْيَى ولكنْ في لَواحِظِهِ ... عَصَا الكَلِيمِ، فَمَاذَا صُنْعُ سَحّارِ

وَقَوْلُهُ، وَهُوَ أَوّلُ شِعْرٍ قَالَه في المَكْتَبِ :

هَلْ تَبَدّى فِي النَّاسِ وَجْدٌ كَوَجْدِي ... بِهِلاَلِ المِلاَحِ يَحْيَى بْنِ رُشْدِ
لاَحَ عُذْرِي لِلاّهِي لِلّهِ مَا بِي ... مِنْ غَزَالٍ يَشِبّ وَجْداً بِوَجْـدِ
بَـدْرُ تِـمٍّ بَـدَا فَقُـلْـتُ تَعَالَـى ... جَدُّ رَبٍّ أَهْدَاكَ يَا رَبّ سَعْد

أراد بقوله : اللاهي من اللهو. (9 : 323-324)

51 ــ يَحْيَى بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ أَحْمَدَ

أَبُو زكريا الواعظُ الخُشنِي(268) مِنْ أَهْلِ غَرنَاطَةَ ذَكرهُ الصّاحبُ الوزيرُ أَبُو البَركاتِ المُسْتَوفي في تاريخِهِ(269) رحمهُ ٱللَّهُ تَعالى وَقَالَ : وَردَ إربلَ، وَعَقدَ بهَا مجالسَ الوَعْظِ، وَكانَ لهُ منَ العَامّةِ قَبولٌ عَظِيمٌ، كانَ يَجيءُ النّاس أكثرَ مَجالِسِهِ، فَيَتَكَفّفُهُمْ، وَصَلَهُ الفَقيرُ إلَى رحمةِ اللّهِ تعالَى أَبو سَعيدٍ كُوكْبُورِي ابنُ علي بكتكين بِصِلَةٍ وَأَرَادَ السَّفَرَ، فأَمرَ العامّةَ أَنْ يَطلُبوا منَ السُّلطانِ أن يُقيمَ عِندهُمْ، فأَجابهُمْ

(266) ترجمته في التكملة رقم 2023 والمغرب 1 : 258 واختصار القدح : 158 ورايات المبرزين : 18 وبرنامج الرعيني : 191-195.

(267) أرض رَيّة هي مالقة، ورية بالعجمية معناها الملكة.

(268) في تاريخ إربل : الحسنى.

(269) توجد ترجمة المذكور هنا لابن المستوفي ضمن هذا المجموع (ص 177).

إِلَى ذَلكَ فِي خامسِ جمادى الآخر مِن سنةٍ تسع عشرة وسِتٍّ مِئةٍ، ثُمَّ قَالَ :
أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ اِلْتَزَمَ فِي أَثْنَائِهَا الإِتْيَانَ بكلماتٍ مُنَوَّرَةٍ ذَكَرَها لِي تَبينُ إِذَا كُتِبَتْ بِلَوْنٍ غَيْر المِدَاد يَقُولُ منهَا :

يَا دَوْحَةَ البانِ منْ شَرْقِيِّ كَاظِمَةٍ سَقَاكِ منْ عبراتِ السُّحْبِ هَتَّانُ
لِسَاكنيكِ علينَا خدمةٌ ولنَا عَليهِمُ بالوَفَا عَهْدٌ وإيمَانُ
كَمْ أَعذلُ القلْب في تَذكَارِهِ لهُمُ دَنَوْا فَلَمَّا دَنَا وَصْلِي بهِمْ بَانُوا
هُمْ عَلَّمُونِي الهَوَى مَا كنتُ أَعْرِفُهُ حَتَّى إِذَا وَلَجُوا بَابَ الهَوَى خَانُوا
هُمُ الْذينَ بِسحْرِ اللَّحْظِ قَدْ سَفَكُوا دَمَ الهُمَامِ وشرعُ الحُبّ اذعانُ
فَإِنْ وَضَعْتُ يَدِي بالصَّدْر أَكْتُمُ مَا بِالقَلْبِ غَادَرَهُ صَبْرٌ وَكِتْمَانُ

(9 : 364–365)

52 ــ يَحْيَى بْنُ إِسْحَاق

الأَميرُ أَبُو زَكَرِيَّا المَيُورْقِيُّ[270] صَاحِبُ مَيُورقةَ وَودّانَ كانَ مشهوراً بِالبأْسِ والشَّجاعَةِ بطلاً من الأَبطالِ مِقداماً في الحُروبِ جَواداً سَخِيّاً، أَدِيباً بَليغاً، شاعراً فصيحاً، لمْ يقعْ إِلَيَّ منْ شِعرِهِ غيرُ بَيْتٍ مُفردٍ منْ قصيدةٍ، وهو :

حَفِيَتْ خَيْلُنَا، وَعَزَّتْ عَلَيْنَا فَجَعَلْنَا لَهَا الخُدُودَ نِعَالا[270م]

(9 : 367)

---

(270) من الأمراء المعروفين ببني غانية وكانوا ولاة على ميورقة في آخر عهد المرابطين فلما قامت دولة الموحدين كانوا شجى في حلقها وشنوا عليها الغارات في افريقية والمغرب الأوسط، وكان ليحيى المترجم هنا ووالده إسحاق دور كبير في هذه الغارات، وفي الرسائل الموحدية والمعجب والبيان المعرب والروض المعطار ورحلة التجاني ذكر لهما وانظر كذلك تحفة القادم ونفح الطيب.

(270م) بعد هذا بياض في الأصل تقديره نحو نصف صفحة.

53 ـ يَحْيَى بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مَكِّي

أَبُو زَكريا الكَاتِبُ التّميمي[271] مِنْ أَهْلِ بِجَايَةَ مِنْ بِلاَدِ المَغرب كانَ يَكْتبُ لِبَعْضِ بَنِي عَبدِ المؤمنِ المُستولينَ يومئذٍ على البلادِ المَغربيةِ، وكانَ منَ الأَفَاضِلِ في زَمَانِهِ أدباً وكتابةً وقولاً للشِّعْرِ وحفظاً للأشعَارِ ذا حَظٌّ جَزِيلٍ منْ عِلْمِ اللُّغةِ العَربيةِ.

حَدَّثني أَبُو مُحمّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُف الْقُرِّيَانِي بحَلَبٍ، قَالَ : اتّفقَ أَنِ اجْتمعَ جماعةٌ من غلمانِ صاحِبِ المغربِ وَخواصّهِ يَرْمونَ بالنَّشَّابِ، فَبينما هُمْ في ذَلِكَ إِذْ أقبلَ الأَميرُ حينئذٍ، ثُمَّ قَصدَ القِرطاسَ، فأزالَهُ مِنْ مَكَانِهِ، وَوضعَ يَدَهُ عِوضَهُ، وقالَ للرُّماةِ أَيُّكُمْ أَصَابَ يَدِي دَفَعْتُ إِلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ بعضُ الحاضِرِينَ، وقَالَ : أعيذُكَ أَيُّهَا الأميرُ منَ السُّوءِ، هذَا لاَ يمكنُ وإنّما نَجْعلُ مَوْضعَ يَدِ الأميرِ الهدفَ وَيُرْمَى، فَأَزَالَ يَدَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَابْتدرَ أحدُ الغلمانِ، وَرَمَى، فأصابَ الهَدفَ الَّذِي وُضِعَ، فَدفَعَ إِلَيْهِ الأميرُ ألفَ دينارٍ، فقالَ أَبو زكريا بدِيهاً في ذلكَ الوَقتِ، وكانَ حاضراً ذَلكَ كُلَّهُ :

يَاخَامسَ الخُلفاءِ[272] الرّاشدينَ عَسَى ... شَكْوَايَ تَقْبضُ فِي الأَيْدِي وتقْترِضُ
عَلَّمْتهَا البَسْطَ لِلجَدْوَى لِسائلِهَا ... حَتَّى منَ السّهمِ يَصْمِي لَيْسَ تَنْقَبِضُ
لم يُقصدِ السّهمُ إلاَّ كَيْ يُعَرِّفَنَا ... هَذَا الإِمامُ الَّذِي فِي كَفِّهِ الغرضُ

وأنشدني، قال : أَنْشَدَنِي أَبُو زكريا أيضا مِنْ شِعْرِهِ :

بكيتُ، فما أَغْنى البكاءُ، وَلاَ أَجْدَى ... فكيْفَ، وقدْ أَهْدى لِيَ البَيْنُ مَا أَهْدى
وَمَا فرقةُ الأَحْبابِ إلا رَزيَّـةٌ ... تُبيدُ الفَتَى هَمّاً، وتقتلُهُ وَجْدَا
هُمُ أَوْرَثُوا قَلْبِي الصَّبابَةَ والجَوَى ... وَهُمْ أَوْرَثُوا عَيْني المَدامعَ وَالسُّهْدَا
أَيَا هندُ لاَ كانَ الفراقُ وَيومهُ ... فقدْ طَالَ ما شق القُلوبَ ومَا هدّا

(271) له ترجمة في الذيل والتكملة 8 : 409.

(272) خامس الخلفاء الموحدين هو يوسف المستنصر، وقد ولي الخلافة، وسنه عشرة أعوام، والحكاية تدل على ذلك أيضا.

نَسيرُ وَمَا نَدْرِي لِفُرْقتنا مَـدىً ... سِوَى أَنَّ هذا ٱلْبَيْنَ مَا بَيْنَنَا جَدّا
أَيَا هندُ إنِّي غيرُ راضٍ بسلوةٍ ... وَلاَ نَافضٌ وُدّاً، ولا نَاقضٌ عَهْدَا
وَلَوْ كانَ لِي بدٌّ عنِ البُعدِ والنَّوى ... أَقمْتُ ولكنْ لمْ أجدْ عَنْهُمَا بُدّا
أَيَا هندُ لَوْ أَبصرتِ شَوْقِي ولَوْعتي ... لَجَدَّدْتِ لِي حُبّا وأَشْفَقْتِ لي وُدّا
أَعِنْدكِ أَنِّي فِي بُحورٍ منَ الأَسَى ... غَريقٌ، ولـمْ أبلغْ لغايتهَـا حَـدّا
فَهَاتِيكَ حَالِـي والديـارُ قَريبَـةٌ ... فَكَيْفَ إذا ما ازْدَدْتُ عَنْ دَاركُمْ بُعْدا؟

54 ـ يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ شَاؤُولَ

أَبُو زَكَرِيّا الحريزي(273) اليهودي منْ أَهْلِ طُليطلةَ، كانَ شاعراً قَوِيَّ القَريحَةِ غَزيرَ المَادّةِ، لَهُ شعرٌ كثيرٌ في المَدْحِ والهِجاءِ، وكَانَ بَذِيءَ اللِّسَانِ، خَبيثَ الطَّوِيَّةِ، مَا مَدَحَ أَحَداً إلاَّ وَعَادَ هَجاهُ، وَصَنَّفَ مُصَنّفاتٍ باللِّسانِ العِبْري كثيرة، منهَا (كتابُ المقاماتِ)، ومقامةٌ مفردةٌ سَمّاها (الرَّوضَةُ الأَنيقةُ) باللّسان العَربي، وكان ذَا قُدْرةٍ فِي الشِّعْرِ، وكانَ يعملُ قَصائِدَ أنصافُ أَبياتِهَا الأولى بالْعِبْرِيّ، وَالأَنْصَافُ الأَوَاخِرُ بالعَرَبِيِّ، وَكَانَ قَدْ طَافَ البُلْدَانَ، وجَالَ في أَقطارهَا ثُمَّ سَكَنَ بأَخَرَةٍ حَلَب، ولمْ يَزلْ بِهَا إلَى أَنْ مَاتَ لَيْلَةَ الأَربعَاءِ لِلَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ ذِي القِعْدَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَسِت مِئةٍ.

وَقَدْ ذَكَرَهُ الصَّاحِبُ الوزيرُ أَبُو البركاتِ المُسْتوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى وَقَالَ :

وَرَدَ إِرْبِلَ فِي العَشْرِ مِنْ مُحَرّمٍ مِنْ سَنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ وَسِتّ مِئةٍ، وَحَدَّثَني أَنَّ اسْمَهُ بِالعِبْرانِيّةِ يَهُوذا، وانّمَا نقلهُ إلى العربيّةِ، وكانَ طويلاً منَ الرِّجَالِ أَشْيَبَ ثَطّاً، سألتُهُ عنْ مَوْلدِهِ، فَقَالَ : عُمْرِي إلَى هَذه السّنةِ خَمسٌ وخَمْسونَ سَنَةً،

(273) هو مترجم مقامات الحريري إلى اللغة العبرية وواضع المقامات العبرية على غرارها. وتوجد حوله دراسات بالعبرية وغيرها ويبدو أن هذه الترجمة لم تكن معروفة لدى دارسيه.

(274) لا توجد هذه الترجمة في القسم المطبوع من تاريخ إربل.

فانْظُرْ مَتَى يَكُونُ مَولِدِي، ثمّ حَسَبَ مَعي، فَأَخطأَ في تَنْزيلِهِ، وَسَكَنَ بَيْنَ ظَهْرَانَي الفِرَنْجِ ، وَكَلاَمُهُ مَغْرِبِيٌّ، قَرِيبُ عَهْدٍ بالخُرُوجِ مِنْ بَلَدِهِ، تَرَاهُ كَأَنَّهُ يَعْتَرِيهِ سَهْوٌ، وَكُنْتُ أُخْبِرْتُ بِورُودِهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ مِن اليَهُودِ. وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي الحَرِيزي لِنَفْسِهِ في التّاريخِ الْمُقَدّمِ ذِكْرُهُ :

أَما إِنَّهُ لولاَ مُحجَّبَةُ الخِدْرِ ... لَمَا فَضحَتْ هَذِي المَدامعُ من سرِي
وَلَيْلٍ طَرقْتُ الحَيَّ في بردة الدُّجى ... فَنَمْنَمَ بُردُ الأفْقِ بِالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
سَرَيْتُ إِلَيْهَا، حينَ هَوَّمَ قَوْمُهَا ... كَمِثْلِ حَبابِ اسْتَدَارَ عَلَى خَمْرِ
تُحِيطُ بِهَا بيضُ الصّوارِمِ وَالقَنَا ... وأسْدٌ منَ الأَبْطالِ داميةُ الظفرِ
وَثَغْرُ المنايَا باسمٌ عن أَسنَّةٍ ... وَيُسْفِرُ عن خَدٌّ منَ السّيْفِ مُحْمَرٌ
وَقَدْ بَرَزَتْ فِي حُلّةٍ ذهبيّةٍ ... كَمَا اشْتبكتْ زُهْرُ النّجومِ عَلَى البَدْرِ
جَنَيْتُ بِهَا فِي جَنّةِ الحُسنِ زهرَها ... بِمُخْصِبِةِ الأَرْدَافِ مُجْدِبَةِ الخَصْرِ
لَثمْتُ بِهَا هَيفاء رِيمِيّةَ الطّلا ... مداميه الألمى حَبَابيةَ الثّغْرِ

ثُم قالَ أَبو البركاتِ : هَذَا منقولٌ منْ قَوْلِ المُعتمدِ محمد بن عباد ملكِ الأَنْدلسِ :

وَكَمْ ليلةٍ قَدْ بِتُّ أنعم جنحها ... بِمُخْصبَةِ الأرْدَافِ طيِّبَةِ النَّشْرِ(275)

(عاد شعر الطليطلي) :

وَبتْنَا بِفَرْشِ الوَصْلِ ليلاً وَفَوْقَنَا ... لِحَافُ فِراشٍ مَزَّقَتْهُ يَدُ البَحْرِ
وَقَدْ لاَحَ وَجْهُ الصبْحِ حُسْناً كَأَنَّهُ ... بَشَاشَةُ وَجْهِ ٱلْمَلْكِ ذِي النَّائِلِ الغَمْرِ
تَبَسَّمَ للقُصادِ جُوداً وَكَفُّهُ ... تَبَسَّمَ فِيهَا النَّصْلُ عَنْ مَبْسِمِ الثَّغْرِ
وَللسَّيْفِ فِي يُمنَاهُ لَمْحٌ كَأَنَّهُ ... شِهابٌ بِهَا يَنْقَضُّ أَوْ قَدَرٌ يَجْرِي
بِحَدَّيْهِ آثَارُ النَّجِيعِ كَأَنَّهَا ... شَقَائِقُ نُعْمَانٍ عَلَى ضِفَّتَيْ نَهْرِ
مَلِيكٌ يَلُوذُ الملك منه بِأَصْيَدٍ ... صَقيل فرند الحَمْدِ والعِرْضِ والبِشرِ
عَلَيْهِ يَمينٌ أَنْ تَجُودَ يَمِينُهُ ... بِبَذْلِ اليَدِ العَذْرَاءِ والفَتكَةِ البِكْرِ

---

(275) هذا البيت من قصيدة المعتمد التي أولها :

أَلاَ حَيِّ أَوْطاني بِشِلْبِ أَبا بَكر ... وَسَلْهُنّ هَلْ عَهْدُ ٱلْوِصَالِ كَما أَدْري

بِعَزْمٍ يَهُدُّ الطودَ هَدّاً وَنَجْـدَةٍ   تَهُزُّ قُدودَ السُّمْرِ في كِلَلٍ حُمْرِ

قال أبو البَرَكات : إلى هَاهُنا أُنشدني ولم أُسْمَعْ مِنْهُ، وأُنشدْتُهُ عنه قوله :

وَذِي قَلَمٍ إنْ صالَ يوماً بِكَفِّهِ   نَسِيتَ بِهِ فِعْلَ الرّدينيه السُّمْرِ
بَيَـاضُ مَعانِيـهِ بِسُودِ سُطــورِهِ   يُريكَ صَبَاحَ الوَصْلِ في لَيْلَةِ الهَجْرِ
لَبيبٌ فمَا تَدْرِي أرأيـا لحادِثٍ   يُدَبّر أمْ سَهْماً إلى غَرَضٍ يَبْري
تَقَسَّمَهُ جـودٌ يَفـيضُ وَهِمّــةٌ   فَمِنْ مَنْهَلٍ غَمْرٍ وَمِنْ جَبَلٍ وَعْرِ
رَمــيت بِآمــالي إلَيْـــهِ وإنما   حملت بها المرعَى الجديب إلى القطر

وأنشدني، قال : أنشدني الحريزي لنفسهِ يمدَحُ السلطانَ الملكَ الأشرفَ شاه أرمنَ مُظفّرَ الدينِ أبا الفتح مُوسَى بنِ أبي بكرٍ بن أيوبَ(276) رحمهُ الله تَعالى :

بِسُيُوفِ عَزْمتكَ القضاءُ يصولُ   وَمضاءُ بأسِكَ في يَديهِ نُصُولُ
لِفِرَنْدِ سَيْفِك مِنْ بهائكَ رَوْنَقٌ   بكَليهِمَـا مــاءُ الجلالِ يَجُــولُ
قَدْ حُزت بأسكَ مَعْ نَدىً لكليهما   أبـداً سيـوفٌ تـنْبري وَسُيُــولُ
فَلقَدْ ثنيت الليثَ وهْو فَريسَة   ولَقَدْ تركت الغيثَ وَهْو بَخيل
ولئن ذكرتَ على العدا يومَ الوغَى   من ذكركم نفسَ الكماة تَسيـل
ما لي وشرح خلالكم فخلالكم   كالصبح لا يُبْغَى عليه دليـل
لكن وصفك مفحم أهل النهَى   سِيــان فيــه عَــالم وجَهُــول
قالَ ٱلعِدَى مَا لِلْيَهُودِ وللنَّدَى   فأجـبتهم أخطـاكم التَّحْصيـــل
مَا شَقَّ مُوسَى بَحْرَ جُودٍ للوَرَى   إلاّ لِيَعْبُــر فيـــهِ إسرائيـــلُ

وأنشدني أبو الفتحِ مُحَمَّد بن أبي الخَيْر ابن أبي المعمر بن إسماعيل التبريزي باربلَ رحمهُ اللّهُ تعالى قالَ : أنْشدنِي أبو زكريا يَحْيى بْنُ سليمان الحريزي لنفسه :

أرضٌ سَقتْ غيطانَهـا أُعْطَانُهَـــا   وَزَهَتْ عَلَـى كُثْبانِهَـا قُضْبانُهَـا
سَلَبَتْ فُؤَادِي حُورُهَا ونُحورُهَـا   وَسَطَتْ بِنَـا وِلْدَانُهَـا وَلِدانُهَـا
ثَمِلَتْ بِكأسِ عُقارِهَـا أَزْهَارُهَـا   حَتّى اغْتـدى جيرانُهـا رِيحانُهَـا

(276) انظر ترجمة الملك الأشرف موسى الأيوبي الممدوح بهذه القصيدة والتي قبلها في وفيات الأعيان 5 : 330-336.

وَلَئِنْ جَـلاَ آثارهـا آذارُهَـا ... فَلَقَـدْ حَـوَى احْسانَهَا نيسانُهَـا
وَالشَّمْسُ بالجَملِ المُنيرِ تَزَيَّنتْ ... لَمّا رَأَتْ مَـا زَانَهَـا مِيزانُهَـا
وَكَوَاعِبٌ سَلَّتْ صَوَارِمَ لَحْظِهَا ... فَكأنّمـا أُجْفانُهَـا أَجفانُهَـا
وَلَقَدْ تَـلألأَ دُرُّهَـا بِنُحورِهَـا ... وَزَهَـا بِجِيـدِ قِيَانِهـا عِقْيَانُهَـا
فَتَكَتْ بِألبـابِ الكُمـاةِ فَسَيْفُهَـا ... مِـنْ طَرْفِهَا، وسنانُهـا وسْنَانُهَـا
لَمْ تُبْقِ شَخْصاً بالبسيطةِ سالماً ... إلاّ سَبَـى إنْسانَهـا إنسانُهَـا
خَـودٌ نَفُـورٌ نَافـرتْ أقراطهـا ... وَحَلَتْ بهَـا خلاَنُها خِيلاَنُهَـا
فَـاشربْ بـأرضٍ غازلتْهَا مُزْنَـةٌ ... فكأنَّمـا هَتَّانُهـا فَتَّانُهَـا
فَتَعَـاشَقَتْ وتعَانـقَتْ أفْنانُهـا ... وَتَصَافحتْ وتَنـاوحتْ أغصانُها
وَتَصاخَـبتْ وتجاوبتْ أُطْيارُهـا ... وتـداولتْ وتبـادلَتْ ألحانُهـا
وَتَـنَسَّمَتْ وتـبسَّمَتْ أَيَّامُهَـا ... وَتَهلَّـلَتْ وتكَلَّـلَتْ أَزْمانُهَـا
بِمُدِيرِهَـا ومُنِيرِهَـا ومُجيرِهَـا ... وَمُعيرِهَا حُسْناً جَـلاهُ عيانُهَـا
بحَكِيمِهَـا وَعَمِيمِهَـا وكَرِيمِهَـا ... وَزَعِيمِهَا عُقِـدَتْ لَـهُ تِيجَانُهَـا
دَوْحُ المُنَى عَذْبُ الجَنَى عَالِي السَّنا ... سحب الغنَى يُرْوَى بِهَا ظَمْآنُهَا
فَتَجَـدَّدَتْ بِبَهَائِـهِ أَيَّامُهَـا ... وَتَوَطَّـدَتْ بِعَلائِـهِ أَرْكَانُهَـا
جَادَتْ يَدَاهُ حَيا نَدَاهُ عَلَى النُّفو ... سِ وَمَا انْجَلَى حتّى انْجَلَى حِرْمَانُهَا
لَيثُ الشَّرَى غَيْثُ الوَرَى نَجم السُّرَى ... نَارُ القِرَى تَعْشُو لَهَا ضِيفَانُهَـا
فَجمالُـهُ أَعْمالُـهُ وَنَوالُـهُ ... أَمْوالُـهُ سُوَّالُـهُ خُزَّانُهَـا
شَهْمٌ غَدا هَدْيَ الهُدَى انْ أَوْقَدَا ... نَارَ النَّدَى قَلْبُ العِـدَا قُربانُهَـا
بِجَنَابِـهِ نَشَرَ الهُـدَى رَايَاتِـهِ ... فَحكَى قُلُوبَ عُدَاتِهِ خَفقَانُهَـا
عَزْمٌ سَمَا بَارَى السَّمَا مَاضِي الشبَا ... مهمى الظُّبَا ليسَ الدّمى غربانُها
يَا كاملاً بَلْ فاضلاً يا فاعلاً ... ما قَصَّرتْ عنْ فِعلهِ أعيانُهَـا
اِنعم بعيدٍ بل سَعيدٍ فِي مزيـ ... ـدٍ من أيادٍ أَيْنَعَتْ أفنانُهَـا
لكَ فِي المآثرِ دولةٌ بلْ صَوْلَـةٌ ... بلْ جَوْلَةٌ حازَ المَدَى فُرسانُها

(460-453 : 9)

55 ــ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الوَاحِدِ

ابنِ عُمَر بن يَحْيَى الأمِير أَبُو زكريا ابن أَبِي محمد الهِنْتَاتِي(277) ملكُ إفريقيةَ ذكرهُ صاحبُ الدُّرَّةِ الفائقةِ في محاسنِ الأفارِقَةِ، وَأثْنَى عليهِ جَمِيلاً، وَقَالَ عَقِبَ تَرْجَمَةِ أَبِيهِ الشّيخِ أَبِي مُحمّدٍ : «ومنهُمْ ولَدُهُ الطَّاهرُ النَّجيبُ الزَّكيُّ الأَرِيبُ السّلطانُ الأَعْظَمُ المَلكُ الهُمامُ المُؤَيَّدُ المُعَانُ المَنْصُورُ المُظفَّرُ لَمْ يرث المَجْدَ عَنْ كلالة، وَلَكَأَنّ المُلْكَ خُلِقَ إلاَّ لهُ، هَيْبَةٌ تنسفُ الجبالَ نسفاً، ورَحمةٌ تَسعُ أَهْلَ الأَرْضِ حَناناً وعطفَا، وشجاعةٌ يَنْثني بهَا الدَّهْرُ عنْ عَزائِمِهِ، وصَرامةٌ بطلتْ مَلَكَ الموت السلامة منْ صَوارِمِهِ، معَ ذكاءٍ كالنَّارِ، وخُلُقٍ ألين منَ الماءِ الجَارِ، وأدبٍ أغضّ منَ الرّياضِ، وَنَظْمٍ وَنَثْرٍ أَسْحر منَ الحَدقِ المراضِ، أَمَّ افريقية وقدْ نجمَ فيهَا النّفاقُ، وقامتِ الفِتْنةُ على ساقٍ، وخَلتْ منَ الأموالِ والرّجالِ، وَربعَ

(277) هو مؤسس الدولة الحفصية، له ترجمة أيضا في فوات الوفيات 2 : 632-633 وأخباره مبسوطة في كتب التاريخ ومنها البيان المعرب والعبر وغيرهما، وانظر على الخصوص الفارسية : 112 وتاريخ الدّولتين : 23-32 أما كتاب الدرة الفائقة فهو للتيفاشي ويعتبر في عداد الكتب المفقودة، وهذه الترجمة المنقولة منه تقدم أنموذجا لكتابة الترجمة عند التيفاشي وقد كان الأستاذ المرحوم محمد إبراهيم الكتاني أعطاني صورة من أوراق تشتمل على طائفة من أخبار أبي زكرياء وأشعاره وهي كما يلي : 1 ــ قصيدة يائية طويلة في سياسة مُلْكِه وأحواله مع العرب وأولها :

سلوا في التواريخ العصور المواضيا ... ألاَقَتْ لديها مِثْل ما في زمانيا

وهي تناهز للتسعين بيتا. 2 ــ قصيدة بائية تقع في أزيد من سبعين بيتا. 3 ــ أخرى رائية في ثلاثين بيتا. 4 ــ أخرى رائية أيضا في مخاطبة شيخ من العرب اسمه حامد بن يزيد. 5 ــ قطعة بائية في العرب وغدرهم. 6 ــ قصيدة رائية طويلة يذكر فيها وقائعه ووقائع الملوك السابقين. 7 ــ قطعة شينية في العرب. 8 ــ قطعة فائية في الغزل. 9 ــ قصيدة ميمية في الغزل أيضا. 10 ــ قصيدة ميمية أخرى في الغزل كذلك. 11 ــ تخميس. 12 ــ قصيدة يذكر فيها وقعة يوم غيلان.

هذا وقد ذكر ابن قنفذ في الفارسية (112) أن أبا زكرياء «كان معدوداً من العلماء وفي الشعراء النبلاء وله شعر مدوّن» ومن الغريب أن ابن الأبار ذكر في الحلة السيراء (2 : 279-292) بعض شعراء البيت الحفصي ولم يعد أبا زكرياء منهم وأغلب الظن أن هذا الشعر الذي ينسب إلى بعض هؤلاء هو من نظم كتّابهم على ألسنتهم.

فيهَا في الخُدُورِ ربّاتُ الحِجَالِ، فَأَمَّنَ سِرْبَهَا، وَأَزَالَ خَوْفَهَا وَجَدْبَهَا، وَأَعَادَ [خِصْبَهَا]، وضربَ بِعَرِبِهَا بَرْبَرَهَا، وَبِبَربَرِهَا عَرَبَهَا، حَتَّى فَرِحَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وجعلَ الذّئابَ وَالنَّقَدَ تَرِدُ فِي حَوْضٍ، وَجَنَّدَ الأَجْناد ورَتَّبَ بيتَ ٱلْمَال، وبَسَطَ عَلَى تُخومِ المَشْرِقِ يَدَهُ اليُمْنَى وَعَلَى تُخومِ المَغْرِبِ يَدهُ الشّمال، فأَمّنَ السُّبُلَ منْ بَابِ تُونسَ إِلَى ثَغْرِ الاسكندرية غاية الأَمَانِ، وقطعَ دابرَ المُفْسدين عرضاً منْ تُونس إِلَى أَبْوَاب تلمسان، فَدانتْ لَهُ البَربرُ والعَرَبُ وهُمَا المُتمرِّدانِ على المُلوكِ في القَديمِ والحَديثِ منَ الزَّمانِ، وصَارتِ الأندلُسُ تَسْتصرخُهُ والمغربُ الأَقْصى يَطْلُبُ منهُ الأمانَ، ثُم أَنْشَدَ منْ خَمْرياتِهِ :

وُضِعَتْ فِي الزُّجاجِ فَالْتَهَبَتْ وَكَسَتْهُ بَرقاً مِنَ اللَّهَبِ
وَعَلاَ فَوْقهَا الحَبابُ فَلَمْ تُبْصرِ العينُ مثلَ ذَا العَجبِ
ضَرَمُ النّارِ فَوْقَهُ بَرَدٌ كَائن عَنْه مِنْه فِي النَّسَبِ
مِثْلَ دُرِّ الجَمان نَظَّمَهُ نَاظِمٌ فوقَ عَسْجدِ الذَّهَبِ

وقالَ أيضاً :

حَنَانَيْكَ رِفْقاً كَمْ تُطيلُ صَبَابَتِي وَتَقْدَحُ نَاراً فِي الفُؤَادِ مُضَرّمَا
وَتذْكي غراماً أَوْهنَ ٱلصَّبَّ حَمْلُهُ وقلْباً رهيناً بالصّبابةِ مُغْرمَا
تقطع وجداً إذ تَنفس زَفْرَةً فَأَسْبَلَ دَمْعاً هَامِيَ السّكب مُسْجَما
أَأَحْبابَنَا بِالجزعِ والعِيسُ معرق وَحَبْلُ اتّصالِ الوَصْلِ مِنْكُم تَصَرَّمَا
أَجِدَّكُما هلْ لِلمشُوقِ لَدَيْكُمَا تعلل ذكر بالخيال فينعما
وَهَلْ تَذْكُرانِ العَهدَ وَالعهدُ نَازحٌ وَأَيَّامُنَا بِالوَصْلِ عقداً مُنَظَّمَا
أَمَالِكَةً قَلبَ العَميدِ تَعَطُّفاً وَسَاكِنَةً رَبْعَ الضُّلُوعِ تَرَحُّمَا
عَلَى هَائِمٍ أَعْيَاهُ حَمْلُ غَرَامِهِ وَأَعْقَبَهُ فَرْطُ الغَرَامِ تَأَلُّمَا
فَلَمْ يُبْقِ فِيهِ البَيْنُ إِلاَّ تَنَفُّساً وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُ الشَّوْقُ إِلاَّ تَوَهُّمَا
(9–6 : 10)

56 ـ يَحْيَى بْنُ غَانِمٍ

ابْنِ مُحمّدِ بن علي بن يُوسفَ بنِ صَالحٍ، أبو زكريا الخَزْرجيّ[278] من أهلِ غَرناطة. كانَ رَجُلاً منْ أهلِ القرآنِ والأدبِ وَيقول شعراً لابأسَ بِهِ، أنْشَدَنِي منْ شعرهِ أبو عبدِ آللَّهِ مُحمّد بن يوسف بن محمد الإشبيلي البرزالي[279] رحمهُ آللَّهُ تعالى بحلب، قالَ: أنْشَدَنِي أبو زكريا يَحْيَ بن غَانِم بن مُحمّد الخَزْرَجي الغرنَاطي لِنَفْسِهِ:

خَلِيلَـيَّ مَـا لِلْوَالِـهِ المُتَغَـرِّبِ ... بِأَرْضِكُمَا قَدْ فَاتَهُ كُلُّ مَطْلَبِ
خَلِيلَيَّ قُولاَ وَالحَدِيثُ كَمَا حَكَوْا ... شُجوناً وَدَهْرِي سَاخِرٌ بِكُمَا وَبِي
هَلِ الزّمَنُ المَاضِي بمَا قَدْ مضَى بِهِ ... يَعودُ ولو مِن كله بِالتَّقَـرُّبِ

ومنها في المَديح:

سَأَصْرِفُ آمَالِي إلى ذِرْوةِ العُلاَ ... وأوقفُهَا بِالأَسْعدِ بن مُقَـرِّبِ[280]
هُوَ المَلْجأُ المُفْضِي إِلَى كُلِّ غايةٍ ... بجد وجـــد أشربـــا بتهذبِ
إِمَامُ هُدىً أحيا بِهِ اللَّهُ شِرْعَةً ... منَ آلدّينِ قدْ نِيطَتْ إِلَى خَيْرِ مَذْهبِ
وَمَهْمَا دَجَا لَيْلُ الخِلافِ لِشُبْهَةٍ ... فَآراؤُه تَجْلُو دُجَى كُلّ غَيْهَبِ
أَيَا مَنْ لَهُ أَلْقَيْتُ كُلّ مَقَالِدِي ... وَجِئْتُ إِلَيْهِ سَبْسَباً بَعْدَ سَبْسَبِ
وَعَوَّلْتُ فِي نَوْمِي عَلَى يَقَظَاتِهِ ... فَهُنّ زُلاَلِي إنْ تَكَدَّرَ مَشْرَبِـي

---

(278) لم أقف على ذكر له فيما رجعت إليه من المظان.

(279) هو الحافظ الرحّال الملقب في المشرق بزكي الدين. له ترجمة في الوافي بالوفيات 5 : 262 وفي حاشية المحقق ذكر لمصادر ترجمته.

(280) وصفه ابن سعيد في الغصون اليانعة (89) بأنه «شيخ علماء الاسكندرية» وجاء في مستفاد الرحلة للتجيبي ما يلي (52) : «الشيخ الامام الحافظ العدل أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي الحسن مقرّب بن عبد الكريم بن الحسن بن عبد الكريم بن مقرب الكندي السكوني التجيبي الاسكندري المالكي.. ووفاته بها (الاسكندرية) يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر ثلاث وأربعين وستمائة» وانظر سنداً يرويه الماقري شيخ ابن عبد الملك عن هذا الفقيه المحدث بالإجازة في الذيل والتكملة 1 : 259، 8 : 379 وانظر فيه أيضا المقتطف لابن سعيد : 219.

أجِرْنِي فَإِنَّ الدّهْرَ مَا قَدْ عَلِمْتَهُ   وَهَذِي اللّيالي أُولِعَتْ بالتَّقَـلّبِ
بَقِيتَ مَدَى الأَيَّامِ تُرْجَى وَتُتَّقَى   وَلاَزِلْتَ ذُخْـرَ الوَالِـهِ الْمُتَغَـرّبِ
وَدُمْتَ دَوَامَ الدَّهْرِ فِي خَفْضِ عِيشَةٍ   وَتَبْلِيـغِ آمَـالٍ وَرِفْعَـةِ مَـنْصِبِ

وَأَنْشَدَنِي أَيْضاً قَالَ : أَنْشَدَنِي أُبو زَكَرِيَّاءَ لِنَفْسِهِ :

ٱلْحَمْـدُ لِلَّـهِ نَسْتَدِيـمُ بِـهِ   دَوَامَ عافِيـةِ الْمَوْلَـى وَرَاحَتَـهُ
والشُّكْرُ لِلَّهِ شُكْراً نَسْتَزِيدُ بِهِ   فِـي عُمْـرِهِ وَنَهْنيـهِ إقالَتَـهُ
يَا مَنْ بِهِ وَعَوَافِيـهِ أَضَاءَ لَنَـا   وَجْـهَ الزَّمَـانِ وَأولاَنَـا سَمَاحَتَـهُ
إنّ الزّمَـانَ أَرَانَـا مِـنْ تَصرُّفِـهِ   عَجَائِبـاً أَحْكَـمَتْ فِينَا إرادَتَـهُ
وَلَمْ يَزَلْ يَا سَلِيلَ الْمَجْدِ يَضْرِبُنَا   ظَهْـراً لِبَطْـنٍ وَيُولِينَـا نِكَايَتَـهُ
وَلَيْتَهُ إذْ سَطَا أَبْقَى وَلَوْ رَمَقاً   نَـأْوِي إلَيْـهِ وَنَسْتَسْقِـي بُلاَلَتَـهُ
وَمِثْلُكُمْ مَنْ شَكَا مِثْلِي إِلَيْهِ وَمَنْ   يُشْكِي الْغَرِيبَ وَيُرْعِيهِ رِعَايَتَـهُ
يَا مَنْ أَنَارَ مَنَارَ الْعَدْلِ فِي نَفَرٍ   كُلٌّ إلَى ضِدِّهِ قَدْ مَدّ رَاحَتَهُ
بَقِيت لِلْحَقِّ تُعْلِيهِ وَدُمْتَ أَبَـا   مُحَمّـد لِلْعُـلاَ تُعْلِـي إشَادَتَـهُ
مَا أَمَّ وِجْهَةَ بَيت ٱللَّهِ مُعْتَمِرٌ   يَمْحُـو بِخَطْوِ مَطَايَاهُ خطِيئَتَـهُ

وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّهِ قَوْلَهُ يَمْدَح الصَّاحِبَ الإمَامَ كَمَالَ الدِّينِ أَبَا القَاسِمِ عُمَرَ ابْنَ أَحْمَدَ بْنِ هِبَة ٱللَّهِ بْنِ أَبِي جَرَادَةَ الْفَقِيه الْحَنَفِيَّ الْعُقَيْلِيَّ(282) :

لَـوْلاَ مُلاَحَظَتِي عُيُـونَ الْعِيـنِ   ما كُنْتُ أَقْنَعُ فِي العُلَى بالدُّونِ
وَلَقَدْ يقال سَلاَ وَلَوْ كَانَ الَّذِي   قَالُوهُ مَا اسْتَنْجَزْتُ وَعْدَ ضَنِينِ
قُلْ لِلْغَوَانِي قَدْ كَبِرْت عَن الصِّبَا   وَغَدَتْ دَوَاعِي شَاخَتي تَدْعونِـي
وَتَرَكْتُ لِلشَّوْقِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَـا   وَقَصَدْتُ مُنْتَجِعاً كَمَـالَ الدِّيـنِ
رَبُّ الْحِمَى الأَحْمَى ٱلَّذِي نُزّالُهُ   أَلْفَـوْهُ بَيْـنَ قَـرَارَةٍ وَمَعِيـنِ
والْعَالِـمُ الصَّدْرُ الَّـذِي بِفِنَائِـهِ   مَأْوَى ٱلْغَرِيبِ وَرَاحَة ٱلْمِسْكِينِ

---

(281) من الصعب معرفة هذا الممدوح المذكور بكنيته فقط.

(282) هو ابن العديم مؤلف بغية الطلب في تاريخ حلب، وقد تقدم ذكره.

والْمُنْتَقَى مِنْ سَادَةٍ مَا مِنْهُـمُ إلاَّ مَكيـنٌ يَنْتَمِـي لِمَكِيـنِ
طَلْـقُ المُحَيّـا سَيِّـدٌ مُتـواضِعٌ بَـادِي السَّكِينَـةِ شَامِـخُ الْعِرْنِيـنِ
وَإلَيْكَهَا يَا ابْنَ الْعَدِيمِ عُجَالَـةً مِنْ ذِي غَـرَامٍ وَالِـهٍ مَحْـزُونِ
مُتَحَيِّرٌ مَا إنْ يَرَى مُسْتَحْسِنـاً وَكَأَنَّـهُ فِـي عقْـده التّسْعِيـنِ
وُقِّيتَ أَسْبَابَ الْفِرَاقِ وَدُمْتَ في دَعَةٍ وَلاَ حُمِّلْت مِثْلَ شُجُونِي
وَبَقِيتَ فِي حَلَبٍ عَلَى رَغْمِ الْعِدَى فِي كُلِّ خَطْبٍ مُنْجِدِي ومُعِينِي
(10 : 39–42)

57 ـــ يَحْيَى بْنُ مُحَمّدِ بْنِ عَلِيّ

ابن مُجَاهِدِ بْنِ مُجاهِدِ بْنِ عَبْد الرّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ خَلَفِ بْنِ عُبَيْد ٱللَّه ابْنِ عَبْدِ الرّحْمَن بْنِ سَمَاعَة بْنِ سَلَمَة بْنِ مازِنِ بْنِ مَالِكٍ أَبُو زَكَرِيّاء الْخَزْرَجِيُّ(283)، مِنْ أَهْلِ تِلِمْسَان، مِنْ بِلاَدِ الْغَرْبِ نَزَلَ حَلب وَسَكَنَهَا وَأَدَّبَ سُلْطَانَهَا الْمَلِكَ النَّاصِرَ صَلاَحَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ غَازِي، خَلَّدَ ٱللَّهُ مُلْكَهُ. شَاهَدْتُهُ بِحَلَبَ المَحْرُوسَةِ بِمَجْلِسِ الصَّاحِبِ الوزيرِ مُؤَيدِ الدِّينِ أَبِي نَصْرٍ إبْرَاهِيمَ ابْنِ يُوسُفَ بْنِ إبْرَاهِيمَ الشَّيْبَانِيِّ(284)، أَدَامَ ٱللَّهُ إقْبَالَهُ فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلاَثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ وِلاَدَتِهِ، فَقَالَ : لاَ أَتَحَقَّقُهَا، غيرَ أَنَّ لِي الآن ثَمانياً وَثَلاثينَ سَنَةً، وهو من أهل الأدبِ والفَضْلِ، ويَحفظُ القرآن الكَرِيمَ، ويقولُ الشِّعْرَ الحَسنَ، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِه يمدَحُ الصّاحبَ مؤيد الدين أبا نصر الشيباني أسعده الله تعالى :

سُرُورُكَ مَا هَبَّ النَّسِيمُ يَـدُومُ وَعِـزُّكَ مَمْـدُودُ الـرِّواقِ عَميـمُ

(283) لم أقف عليه في غير هذا المصدر؛ والملك الناصر الذي كان هذا الفقيه التلمساني مؤدّبا له هو آخر ملوك بني أيوب (627–659هـ) انظر ترجمته في الاعلام للزركلي 9 : 330–331.

(284) هو أخو الوزير جمال الدين ابن القفطي المؤرّخ المعروف. انظر ترجمته في الوافي بالوفيات 6 : 172 والمراجع المذكورة في الحاشية.

وَسَعْدُكَ ضَافٍ والمُؤَمَّلُ طَوعَهُ وَعَيْشُكَ صافٍ والزّمانُ خَديمُ
ثَنَتْ نَحْوَكَ الشُّهْبُ الجَواري سُعُودَهَا وَجَدُّكَ فِيهَا بالثّباتِ زَعيمُ
وَمنْ كَانتِ العَلْيَاءُ بعض خِلالِهِ تُشِيرُ إليهِ بِالسُّعودِ نُجُومُ
لَكَ الخَيْرُ ما ذرت شوارق أو سرى نَسيمُ صَباً قَدْ عَنبَرَتْهُ غُيُومُ
يَمُرُّ عَلَى زَهْرِ الرّياضِ مُغلِّساً تَصِحُّ بِهِ الأَنْفَاسُ وَهْوَ سَقيمُ
وَمَا طَرَبِي منْ سَاجِعٍ فَوْقَ أَيْكَةٍ يذَكِّرُنِي عَهْدَ الصِّبَا فَأَهِيمُ
وَيَعْتَادُني عيدُ الأَمَانِي الَّتِي خلتْ وَشَمْلُ لَذاذَاتي بهنَّ نَظيمُ
بِأَطْربَ مِنِّي والمؤَيَّدُ كَافِلٌ ذَوي الفَضْلِ يُحْيِي ذكْرَهُم ويقيمُ
فَتىً وُشِّحَ العَلْيَاءَ فَاحْتَلَّ رُتْبَةً حَواها لَهُ [وَجْهٌ] أغرُّ وَسيمُ
عَلاَ، فَعَلاَ نَادِيهِ أَبْهَجُ مِيسَمٍ وَسَادَ فَشَادَ المَجْدَ وَهْوَ فَطِيمُ
إِذَا خَطَّ فِي طِرْسٍ أَقَرَّتْ لِزَهْرِهِ وَزُهْرِ مَعَانِيهِ الحِسَانِ فُهُومُ
وَيَنْظمُ فِي سِلكِ الكَلاَمِ فَرَائِداً لَهَا فِي قُلُوبِ الحَاسِدِينَ كُلُومُ
إليهِ تَنَاهى الفَضْلُ والفَضلُ لَمْ يزَلْ لَهُ وعليهِ لِلثّنَاءِ رُسُومُ
عَليكَ بِهِ مَغْنًى يُكَسِّبُكَ الغِنَى فَقَلَّ امْرؤ بالمكرماتِ يَقُومُ
يُسَرُّ بِنُجْحِ الْحاجِ منْ كُلِّ قَاصِدٍ وَيَرْتَاحُ لِلعافينَ حَيْثُ يُقِيمُ
لَهُ خُلُقٌ راقٍ أرقُّ شَمائِلاً مِنَ المَاءِ إذ ما صَفَّقَتْهُ نَسيمُ
تُدَاوَى بِهِ مَرْضَى الهُمُومِ لأَنَّهُ إِذَا جَالَسَتْهُ الرُّوحُ فَهْيَ حَسومُ
أَمَوْلاَيَ خِلْنَا فِي مَعَاليكَ غِبطةً بِأَنَّ مُعاليكَ الغبيّ ذَميمُ
تَهَنَّ بِهَا فَذّاً، وَطُلْ وَاسْمُ سَيِّداً فَمَا لَكَ بَيْنَ الخَافِقَيْنِ قَسيمُ
وَدُمْ مَا بَدَا نَجْمٌ، وَأَيْنَعَ مُثْمِرٌ وَمَا ضَاعَ من وَادِي الأَراكِ شميمُ

وأنشدني لنفسه في الغزل :

وَمُنَزَّه الأَوْصَافِ عنْ نُظرائِهِ سَلَبَ العُقُولَ بِحُسْنِهِ وَبَهائِهِ
طَاوِي الحَشَا ألمى كأنَّ جُفُونَهُ فِي الذَّبِّ عَنْه صِرْنَ مِنْ رُقبائِهِ
مَا رُمْتُ مِنْهُ نظرة إلا آنثنَى مِنْهَا الفُؤادُ مُضَرَّجاً بِدمَائِهِ
بَيْنَ القُلُوبِ وَبَينها حربٌ متى يَرْنُو، وما إن هن من أعْدَائِهِ

لنْ تَفْعَلَ البيضُ الرّقاقُ ولا القَنَا كَفعالــهِ بِفــؤادِ صَبٍّ تَائِـــهِ
يَرْنُو فيكلـم، ثم يَجْبُرُ كلمــه بِرُنُـــوِّهِ فَــدَواؤه مِـــنْ دَائِـــهِ

وأنشدنِي أيضا قوله في غلامٍ شَهَرَ سَيْفاً :

وَمُهَفْهَفٍ سَاجِي الجُفُونِ أَحَمِّها دَانَتْ لِلَحْظَيْـهِ الظُّبَـا والذُّبَّــلُ
شَهَرَ الحُسام [أَمَامَنَا] كَيْمَا يَري مَا طَرْفهُ بِأخي الصّبَابةِ يَفْعَـلُ
أَنْشَدْتُـــهُ لَمَّـــا رأيتُ فعالَـــهُ: لَفُتُورُ طَرْفِكَ مَنْ حُسَامك أقْتَلُ

وأنشَدَني لنفسه في غُلام كَاتِبٍ :

أناملـهُ خَـطَّتْ بِسحـرٍ كأنمَـــا لَواحِظُـهُ تُـملي عليـــهِ فَيرسُمُ
فَمِنْ يَدِهِ سَطْرٌ عَلَى الطِّرْسِ مُعْرِبٌ وَمِنْ لَحْظِهِ سَطْرٌ بِقَلْبَي مُعْجمُ

وأنشدَني له في الشَّمْعَة :

وَباكيةٍ لمْ تَعْرِفِ الحُزْنَ والأَسَى وَلاَ شِدَّةَ الأَهْوَالِ كَيْفَ مِراسُهَا
تَكادُ بأَنْ تَقْضي لفَيْضِ دُموعِها وَتَحْيا إذا فِي الحينِ يقطعُ رأسُهَا

وأنشَدَنِي لنَفْسِهِ في الْبَنَفْسَجِ :

كُلُّ الأزاهـرِ إنْ حَسُنَّ نَضَارَةً فَهَـوَى فُـؤَادِي دُونَهُـنَّ بَنَـفْسجُ
أهْـواهُ دونَ جَميعِهِـــنَّ لأَنَّـــهُ يَحْكي خُدوداً بالعِضَاضِ تُضَرَّجُ

(56-52 : 10)

58 ــ يَحْيَى بْنُ مُعْطِي

ابنِ عبدِ النُّور بْنِ عَلِيّ بْنِ نَصْرِ بْنِ يَلُولَ بْنِ تَاشَفِينَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ بَزِيغ بْنِ حَنِيفَةَ أَبُو الحُسَيْنِ النَّحْوِيُّ الأدِيبُ الشَّاعِرُ الزّواوِيُّ[285]، وَزَواوَةُ قَبِيلةٌ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بِجَايَةَ، وَكَانَتْ وِلاَدَتُهُ فِي جَبَلٍ يُعْرفُ بجَرْجَرا.

---

(285) ترجمته في معجم الأدباء 6 : 2831 وفي حاشية المحقق سرد لمصادر متعدّدة في ترجمته، ولعل ترجمة ابن الشعّار هذه أوسع ما كتب عنه.

قَرأَ علْمَ النَّحْوِ والعربية بِالمغربِ علَى جَماعةٍ منهمْ ابنُ الحَدَّادِ وغيرهُ، ثُمّ ارْتحلَ إلى الدِّيارِ المِصريةِ، واشْتَغَلَ على أَبِي مُحمّدٍ عبدِ اللّهِ ابن بري، وسمعَ الحديثَ علَى عبد الحَقِّ صاحبِ كتابِ (الأحكامِ) ثُمَّ عادَ إلى المغْربِ وَجَدَّ فِي طلبِ العِلْمِ بَعْدَ أَنْ حَفِظَ القُرآنَ الكَرِيمَ، ولهُ نَحْوُ ثلاثَ عَشرة سنة على الشَّيخِ أَبِي مُوسَى عِيسَى بن عبدِ العزيزِ بن يللبخت الجَزُولي النّحْوي بِالجزائر، ثُمَّ رَجَعَ، ودخلَ دِيارَ مِصر فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِئَةٍ قَصْداً لِلِقَاءِ أَبِي مُحَمَّدِ ابْنِ بَرِّي، فَوَجَدَهُ لاَ يُنْتَفَعُ بِهِ، لأَنَّهُ عَجزَ عَنِ الإِقْرَاءِ، وَأَقَامَ بالاسْكَنْدَرِيَّةِ يَشْتَغِلُ بِالفِقْهِ مُدَّةَ عَامَيْنِ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الشَّامِ، فَكَانَ اشْتِغَالُهُ عَلَى أَبِي اليُمْنِ زَيْدِ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ الكِنْدِيِّ يَسْمَعُ عَلَيْهِ كُتُبَ الأَدَبِ وَالقِرَاءاتِ ثُمَّ إِنَّهُ آثَرَ العُزْلَةَ عَنِ النَّاسِ والانْفرادَ بِنَفْسِهِ فَوَضَعَ كُتُباً مِنْهَا (شَرْحُ الجُمَلِ) عَلَى سَبِيلِ الامْلاَءِ، وَكَانَ مِنْ أَقْدَرِ النَّاسِ عَلَى المَنْظُومِ وَصَنْعَةِ الرَّجزِ فَإِنَّهُ نَظَمَ قَصِيدَةً فِي القِرَاءَاتِ السَّبعِ، وَكِتَاباً مَضْمُونُهُ المُثَلَّثُ نَظْماً وَهُوَ عَلَى صُورَةِ الرَّجزِ مُزْدَوِجٌ، وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِنَظْمِ كِتَابِ (الصِّحَاحِ) لأَبِي نَصْرٍ اسْمَاعِيلَ ابْنِ حَمَّادِ الجَوْهَرِيِّ، فَنَظَمَ أَكْثَرَهُ، ونَظَمَ أَلْفَاظَ (الجَمْهَرَةِ) مِنْ جِنْسِ خُطْبَةِ كِتَابِ (الفَصِيحِ) لأَبِي العَلاَءِ المَعَرِّي، وَلَهُ مُقَدِّمَةٌ تُعْرَفُ بِالفُصُولِ مَنْثُورَةٌ، وَمُقَدِّمَةٌ تُعرَفُ بِالدُّرَّةِ الأَلْفِيَّةِ مَنْظُومَةً كَمُلْحَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ الحَرِيرِيِّ، وَلَهُ مُقَدِّمَةٌ تُعْرَفُ بِالقَبَسِ فِي عِلْمِ العَرُوضِ مَنْظُومَةٌ، وَبَدَأَ فِي مَنْظُومَةٍ جَامِعَةٍ سَمَّاهَا (الغَايَةُ فِي النَّحْوِ)، وَلَهُ كِتَابٌ فِي جَمْعِ أَبْيَاتِ سِيبَوَيْهِ بِاخْتِصَارِ مَنْظُومٍ يَجْعَلُ بازَاءِ كُلِّ بَيْتٍ [بَيْتاً] لَهُ يُضَمِّنُهُ مَا اسْتَشْهَدَ بِهِ فِيهِ، وَلَهُ فِي العَرُوضِ نَحْوُ ذَلِكَ، وَلَهُ قَصَائِدُ مُطَوَّلاَتٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ ثُمَّ فَارَقَ دِمَشْقَ وَسَافَرَ إِلَى الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ، وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ المَلِكِ الكَامِلِ نَاصِرِ الدِّينِ أَبِي المَعَالِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ ابنِ أَيُّوبَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَقَرَّبَهُ، وَحَظِيَ عِنْدَهُ ثُمَّ لَمْ تَطُلْ بِهِ الأَيَّامُ حَتَّى عَاجَلَتْهُ مَنِيَّتُهُ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ.

وَحَدَّثَنِي الإِمَامُ أَبو القَاسِمِ عُمَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي جَرَادَةَ الفَقِيهُ الحَنَفِيُّ، قَالَ : اجْتَمَعْتُ بِأَبِي الحُسَيْنِ يَحْيَى بْنِ مُعْطِي بْنِ عَبْدِ النُّورِ النَّحْوِيِّ، فَأَنْشَدَنِي مِنْ شِعْرِهِ وَشِعْرِ غَيْرِهِ، وَكَانَ شَيْخاً حَسَناً عَدْلاً مِنْ عُدُولِ دِمَشْقَ يَرْجع إلى دِينٍ وَوَرَعٍ، وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحُسَيْنِ لِنَفْسِهِ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ القَلْبَ مِنْكَ مُقَسَّماً   تَخَيَّرْتُ لِي قَلْباً يُطِيقُ جَفَاكَـا
أَيَحْسُنُ بِي أَنْ أَمْنَحَ الوُدَّ مَنْ لَهُ   هُنَا شَبَحٌ وَالقَلْبُ مِنْـهُ هُنَاكَـا
مُرَاعَاتُكَ الخِـلَّ القَدِيـمَ مُـرُوءَةٌ   فَدَعْنِـي لِخِـلٍّ أُصْطَفِيـهِ سِوَاكَـا
وَمَنْ وَجَدَ الدُّرَّ النَّفِيسَ فَبَاعَـهُ   بِبَخْسٍ فَلاَ يَرْبَحْ بِصَفْقَةِ ذَاكَـا

وَأَنْشَدَنِي قَالَ: أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ لُغْزاً فِي الكَعْبَةِ حَمَا ٱللَّهُ تَعَالَى حَوْزَتَهَا وَحَرَسَهَا:

وَلَمَّا تَبَدَّى لِي مِنَ السَّجْفِ حَاجِبٌ   وَمُقْلَةُ لَيْلَـى مِـنْ وَرَاءِ نِقَابِهَـا
بَعَثْتُ رَسُولَ ٱلدَّمْعِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا   لِتَأْذَنَ فِي قُرْبِي وَتَقْبِيـلِ بَابِهَـا
فَمَا أَذِنَتْ إِلاَّ بِإِيمَاضِ طَرْفِهَـا   وَلاَ سَمَحَتْ إِلاَّ بِلَثْمِ تُرَابِهَـا

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ: أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ:

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِي مَهَابَةً   وَلَوْ كَانَ إِنْصَافاً فَرَشْنَا خُدُودَنَا
وَمَاذَا عَلَيْكُمْ أَنْ نُرِيقَ دُمُوعَنَـا   وَنُجْرِيَ فِي تِلْكَ العُيُونِ عُيُونَنَا

وَأَنْشَدَنِي أَبُو سَعْدٍ قَيْسُ بْنُ عُمَر بْنِ عَمْرٍو الْغَرَابِيلِي الدِّمَشْقِيِّ، قَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو الحُسَيْنِ يَحْيَى بْنُ مُعْطِي بْنِ عَبْدِ النُّورِ النَّحْوِيُّ الزَّوَاوِيُّ لِنَفْسِهِ:

رَأَى القَوْمُ بِي فَضْلاً يُعَادِيهِ نَقْصُهُمْ   فَمَالُوا إِلَى ذِي الجَهْلِ وَالشَّكْلُ أَقْرَبُ
بَهَائِمُ لاَ تُصْغِي إِلَى شَدْوِ مَعْبَدٍ   وَتُصْغِي إِلَى جَافِي الحُدَاةِ فَتَطْرَبُ

وَأَنْشَدَنِي أَبُو السَّعَادَاتِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الهمامي الوَاسِطِيُّ النَّحْوِيُّ الفَقِيهُ الشَّافِعِيُّ بِإِرْبَلَ، قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي الحُسَيْنِ يَحْيَى بْنِ مُعْطِي الزَّوَاوِيِّ النَّحْوِيِّ بِدِمَشْقَ لِنَفْسِهِ كِتَابَ (الدُّرَّةِ الأَلْفِيَّةِ) مِنْ تَصْنِيفِهِ، وَرَأَيْتُ خَطَّهُ بِالقِرَاءَةِ عَلَيْهِ فِي ظَهْرِ الكِتَابِ [وَأَوَّلُهَا]:

يَقُـولُ رَاجِـي رَبِّـهِ الغَفُـورِ   يَحْيَى بْنُ مُعْطِ بْنِ عَبْدِ النُّورِ
الحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّـذِي هَدَانَـا   بِأَحْمَـدٍ دِينـاً لَـهُ ارْتَضَانَـا
فَلَـمْ يَـزَلْ يَنْمِـي بِـهِ الإِسْلاَمُ   حَتَّـى اسْتَبَانَـتْ لِلْهُـدَى أَعْـلاَمُ
مُؤَيَّـداً مِنْـهُ بِخَيْـرِ الكُـتُبِ   وَحْيـاً إِلَيْـهِ بِـلِسَانٍ عَرَبِـي
لِكَوْنِـهِ أَشْرَفَ مَـا بِـهِ نَطَـقَ   كَمَا الرَّسُولُ خَيْرُ مَخْلُوقٍ خُلِقَ

صَلَّى عَلَيْهِ ٱللَّهُ ثُمَّ سَلَّمَا وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَكَرَّمَا
وَبَعْدُ فَالعِلْمُ جَلِيلُ القَدْرِ وَفِي قَلِيلِهِ نَفَادُ العُمْرِ
فَابْدَأْ بِمَا هُوَ الأَهَمُّ فَالأَهَمْ فَالحَازِمُ البَادِىءُ فِيمَا يَسْتَتِمْ
فَإِنَّ مَنْ يُتْقِنُ بَعْضَ الفَنِّ يَضْطَرُّ لِلْبَاقِي وَلاَ يَسْتَغْنِي
وَذَا حَذَا إِخْوَانَ صِدْقٍ لِي عَلَى أَنِ اقْتَضَوْا مِنِّي لَهُمْ أَنْ أَجْعَلاَ
أُرْجُوزَةً وَجِيزَةً فِي النَّحْوِ عِدَّتُهَا أَلْفٌ خَلَتْ مِنْ حَشْوِ
لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ حِفْظَ النَّظْمِ وَفْقُ الذَّكِيِّ وَالبَعِيدِ الفَهْمِ
لاَسِيَّمَا مَشْطُورُ بَحَرِ الرَّجَزِ إِذَابِنِي عَلَى ازْدِوَاجٍ مُوجَزِ
أَوْ مَا يُضَاهِيهِ مِنَ السَّرِيعِ مُزْدَوِجِ الشُّطُورِ كَالتَّصْرِيعِ
فَقُلْتُ غَيْرَ آمِنٍ مِنْ حَاسِدِ أَوْ جَاهِلٍ أَوْ عَالِمٍ مُعَانِدِ
بِاللهِ رَبِّي فِي الأُمُورِ أَعْتَصِمْ القَوْلُ فِي حَدِّ الكَلاَمِ وَالكَلِمْ

وَهَذَا القَدْرُ فِيهِ كِفَايَةٌ ومقنعٌ مِنْهَا :

وَأَنْشَدَنِي أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الإِسْكَنْدَرِيُّ بِالمَوْصِلِ قَالَ : قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الحُسَيْنِ يَحْيَى بْنُ مُعْطِي بْنِ عَبْدَ النُّورِ النَّحْوِيُّ لِنَفْسِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا المَلِكَ الأَمْجَدَ مَجْدَ الدِّينِ أَبَا المُظَفَّر بهرام شاه بن فرخ شاه بْنِ شَهِنْشَاه بْنِ أَيُّوبَ بْنِ شَادِي صَاحِبَ بَعْلَبَكَ :

ذَهَبَ ٱلشَّبَابُ وَرَيِّقُ العُمْرِ الشَّهِي فَأَتَى المَشِيبُ وَرَوْنَقُ النُّورِ البَهِي
وَجَلاَ بِهِ لَيْلَ الذَّوَائِبِ فَجْرُهُ وَأَتَى بِنَاهٍ مَنْ نُهَاهُ مُمَوَّهِ
وَأَطَارَ نَسْرُ الشَّيبِ غِرْبَانَ الصِّبَا فَنَعَبْنَ فِي أَثَرِ الشَّبَابِ الْمُنْتَهِي
وَوَهَتْ قُوَى الآمَالِ مِنْهُ وَمَا وَهَتْ هِمَمٌ أَبَيْنَ عَلَى الحَوَادِثِ أَنْ تَهِي
قَالَتْ أُمَامَةُ والعمار يَرُوقُهَا بِئْسَ الثَّغَامُ تَحِيَّةً لِلْمُزْدَهِي
مَا تُنْكِرِينَ مِنَ الصَّبَاحِ جَلاَ الدُّجَى وَخِضَابِ أَسْحَمَ بِالملاَبِ الأَمْقَهِ
سُودُ العُيُونِ بِمَدْمَعٍ بَيَّضْنَ لِي سُودَ الذَّوَائِبِ وَالسُّرَى فِي المَهْمَهِ
وَنَعِيبُ أَغْرِبَةِ الحُدَاةِ بِبَيْنِهَا فَإِذَا زَجَرْتِ الوَصْلَ قَالَتْ : مَهْ مَهِ
وَبَوَارِحُ البَرْحِ اسْتَطَارَ لَهَا الحِجَى فَرَقاً فَنَادَتْهُ السَّوَانِحُ صَهْ صَهِ
فَسَخَا لَهُ دَمْعُ الغَمَامِ بِوَابِلٍ مِنْ غَيْرِ مِضْحَاكِ البُرُوقِ مُقَهْقِهِ

فَتَفَاوَحَتْ أَزْهَارُهُ وَتَنَاوَحَتْ أَطْيَارُهُ بِمُوَلْوِلِ وَمُوَهْوِهِ
وَافْتَرَّ ثَغْرُ الأُقْحُوَانِ بِدُرِّهِ لِعَقِيقِ مَطْلُولِ الشَّقِيقِ مُطَلَّهِ

وَمِنْهَا فِي المَدِيحِ :

مَلِكٌ تَظَلُّ الشَّمْسُ تَرْصُدُ وَجْهَهُ نَظَرَ المُحِبِّ إِلَى الحَبِيبِ المُلْتَهِي
إِنْ كَانَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ قَدِ انْجَلَتْ شَمْسُ المَعَالِي فِي سَنَاهَا فَهْوَ هِي

وَفِي آخِرِهَا قَوْلُهُ :

زَادَتْ عَلَى مِئَةٍ وَنَيْفٍ خمسها ....[285م]
لَمَّا تَكَمَّى فِي السِّلاَحِ عَنَتْ لَهُ جَبَهَاتُ صَيْدٍ قَبْلَهُ لَمْ تَعْقَهِ
وَدَعَاكَ مَجْدَ الدِّينِ دِينُ مُحَمَّدٍ لِلنَّصْرِ عِلْماً بِالشُّجَاعِ آلأَمْرَهِ

(95-87 : 10)

59 ـ يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ

أَبُو الحَجَّاجِ الأَنْصَارِيُّ المَنْصَفِيُّ[286]، وَالمَنْصَفُ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى بَلَنْسِيَّةَ[287] الشَّيْخُ الزَّاهِدُ الصَّالِحُ كَانَ مِنْ عِبَادِ آللَّهِ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَائِهِ المُتَّقِينَ حَافِظاً لِلْقُرآنِ

(285م) بياض في الأصل.

(286) انظر في أبي الحجاج المنصفي كتاب المغرب لابن سعيد (2 : 354) قال فيه : «زاهد مشهور سكن مدينة سبتة وأدركه والدي» ووارد له مثالين من شعره، وذكره أيضا في رايات المبرزين : 135 وذكره المقري في نفح الطيب مرتين وفي أزهار الرياض مرتين كذلك وقال إن له رحلة حج فيها ومال إلى علم التصوّف وله فيه أشعار حملت عنه وأورد ما قاله في وصف بليونش وما أمر به أن يكتب على قبره (نفح الطيب 3 : 595، 4 : 336 وأزهار الرياض 1 : 35، 36) وأما قبره المذكور فقد كان يقع بمقبرة أحجار السّودان وفيه يقول مؤلف اختصار الأخبار : قبر الشيخ الصالح الصوفي العارف ذي المنظومات الربانية و**التأبينات الحسينية** الحاج الشهير الشهيد يوسف المنصفي الأنصاري البلنسي نزيل سبتة».

(287) في المغرب لابن سعيد : «كتاب الخصر الأهيف، في حُلى قرية المنصف، من قرى بلنسية، منها أبو الحجاج يوسف المَنْصفي».

العَزِيزِ فَقِيهاً عَالِماً نَبِيهاً شَاعِراً بَارِعاً مُفْلِقاً جَلِيلَ القَدْرِ بِبَلَدِهِ مُبَرَّزاً فِي عِلْمِ الأَدَبِ وَالعَرَبِيَّةِ، وَنَظَمَ وَأَفْرَدَ مِنْ شِعْرِهِ مُجَلَّدَةً فِي الإِمَامِ الشَّهِيدِ أَبِي عَبْدِ ٱللَّهِ الحُسَيْنِ ابْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِمَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَرَاثِيهِ وَاسْتُشْهِدَ بِسَبْتَةَ بَعْدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ بِدَارِهِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّ مِئَةٍ رَحْمَةُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ.

أَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الوَاحِدِ الأَوْسِي السَّبْتِي مِنْ لَفْظِهِ وَحِفْظِهِ بِحَلَبَ قَالَ، أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ ابْن يُوسُفَ بْنِ مُحَمَّدٍ المَنْصِفِي الأَنْصَارِي قَالَ أَنْشَدَنِي وَالِدِي الإِمَامُ الزَّاهِدُ أَبُو الحَجَّاجِ يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ لِنَفْسِهِ :

بَيْنَ جَرْعَاءِ اللِّوَى وَالأَثَـلاَتْ مَرْبَـعٌ لِلَّحْـظِ فِيـهِ فَتَكَـاتْ
لِبَنِـي عُـذْرَةَ دَاءٌ لَـمْ يَـزَلْ بِالعُيُونِ الدُّعجِ مَحْمِيَّ الجِهَاتْ
الظُّبَا السُّمْرُ بِهِ سُمْرُ القَنَـا وَالمَهَا البِيضُ بِهِ بِيضُ الظُّبَاتْ
أَيُّهَـا الآمِـلُ نَجْـداً دُونَـهُ مَسْلَكٌ أَبْعَدُ مَا فِيهِ النَّجَـاةْ
لاَ تَشِمْ بَارِقَهُـمْ مُلْتَفِتـاً رُبَّ جِدٍّ بَيْنَ هَـزْلٍ وَالْتِفَـاتْ
بَـرْقُ ثَغْـرٍ خُـلَّبٌ تَحْسِبُـهُ كَمْ سَقَى الدَّمْعُ بِهِ من وَجَنَاتْ
لاَ وَرَكْبٍ نَزَلُـوا أُمَّ القُـرَى وَأَحَلُّـوا المَشْعَرَيْـنِ اليعمَـلاتْ
وَاسْتَقَلُّـوا بِالهَدَايَـا بُكْـرَةً عَـرَفَتْ عَـرْفَ شَذَاهَا عَرَفَـاتْ
لاَ أُطِيعُ الحُبَّ جَهْلاً بَعْدَمَـا غَيَّرَتْنِـي بِالـمَشِيبِ ٱلْخَفِـرَاتْ
يَـا حَمامـاً بِالحِمَـى أَرَّقَـهُ فَقْـدُ زغب بِالفَـلاَ مُرْتَهَنَـاتْ
ذَاتُ جِيـدٍ إِنْ بَـدَا تَحْسِبُـهُ قُزَحـاً اثْـرَ سَحَـابٍ هَاطِـلاَتْ
لَـمْ تَـزَلْ تُـرْسِلُ مَا تَكْرَعُـهُ مِـنْ سِقَـاءٍ أَوْكَأَتْـهُ اللَّهَـوَاتْ
وَاسْتَـدَارَتْ وَالهَـوَى يَقْتَادُهَـا أَغْلَبُ الشَّوْقِ اشْتِيَاقُ الأُمَّهَـاتْ
بَـانَ مُرْتَـاداً لَهَـا فِي مَـرْقَبٍ وَلأَفْـرَاخِ القَطَـا مِنْهَـا بَيَـاتْ
وارْتَـوَتْ مِـنْ دَمِهَـا مقصعـة يالأَفْـرَاخٍ عَلَيْهَـا ثَاكِـلاَتْ
أَنَا أَوْلَى مِنْكَ بِالحُزْنِ عَلَـى فَقْـدِ أَيَّـامِ الشَّبَابِ السَّالِفَـاتْ
أَعِـدِ السَّجْـعَ فَإِنِّـي دَنِـفٌ وَأَعِـرْ سَمْعِي تِـلْكَ النَّغَمَـاتْ
إِنْ يَكُنْ شَجْوُكَ مِنْ فَقْدٍ لَهَا فَكَـذَا الدَّهْـرُ اجْتِمَـاعٌ وَشَتَـاتْ

مَنْصَفِيٌّ تَدَّعِي الزُّهْدَ وَقَدْ عَلِقَتْ مِنْكَ أَكُفُّ الشَّهَوَاتْ
وَبِفَوْدَيْكَ مَشِيبٌ نَاصِعٌ لَكَ فِيهِ لَوْ تَذَكَّرْتَ عِظَاتْ
إِسْأَلِ اللَّهَ إِلَيْهِ تَوْبَةً قَابِلِ التَّوْبِ مُجِيبِ الدَّعَوَاتْ
وَعَلَى المُخْتَارِ مِنْ صَفْوَتِهِ أَحْمَدَ الطَّاهِرِ أَزْكَى الصَّلَوَاتْ
(10 : 495-497)

60 ـــ يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدِ

ابْنِ مَحْمُودِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ المُلَثَّم(288) كَانَ شَابّاً ذَكِيّاً مُتَوَقِّداً لَهُ خَطٌّ حَسَنٌ وَتَرَسُّلٌ قَرِيبٌ وَشِعْرٌ مَطْبُوعٌ، وَكَانَ بَذِيءَ اللِّسَانِ خَبِيثَهُ كَثِيرَ الْهَجْوِ أَفْحَشَ شُعَرَاءِ زَمَانِهِ هَجْواً، وَكَانَتْ لَهُ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ فِي الْهِجَاءِ نَظْماً وَنَثْراً، وَكَانَتْ فِيهِ قِحَةٌ وَقِلَّةُ حَيَاءٍ، هَجَا النَّاسَ وَنَفْسَهُ وَأَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَقَارِبَهُ، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ بِلاَدِ الْمَغْرِبِ، وَتَوَلَّى قَضَاءَ طَبَرِيَّةَ مِنْ بِلاَدِ الشَّامِ مُدَّةً، وَمَوْلِدُ يُوسُفَ بِدِمَشْقَ وَنَشَأَ بِسُمَيْساط(289) وَبِهَا تُوُفِّيَ فِي حُدُودِ سَنَة سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَلَمْ يَكُنْ عُمْرُهُ غَيْرَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً لاَ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ. وَلَهُ دِيوَانُ شِعْرٍ مَجْموع.

أَنْشَدَنِي الْمَوْلَى الأَمِيرُ الْكَبِيرُ الْعَالِمُ صَلاَحُ الدِّينِ أَبُو الْمُظَفَّرِ يُوسُف بْنُ مُوسَى بْنِ يوسُف بْنِ أَيُّوبَ بْنِ شَادِي(290) بِحَلَبَ الْمَحْرُوسَةِ بِمَنْزِلِهِ الْمَعْمُورِ أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ قَالَ : أَنْشَدَنِي يُوسُف بْنُ مُحَمَّد بْنُ الْمُلَثَّم لِنَفْسِهِ يَهْجُو قَبِيلَتَهُ الْمُلَثَّمَة بِبِلاَدِ الْمَغْرِب :

قَالُوا جُدُودُكَ أَقْيَالٌ مُلَثَّمَةٌ لاَ تَهْجُهُمْ قُلْت هَجْوِي مِدْحَةٌ لَهُمُ

---

(288) انظر بغية الطلب 10 : 444 والروض المعطار : 138.

(289) سُمَيْساط : مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم (ياقوت).

(290) تقدّم ذكره.

كَانُوا يُنَاكُونَ مُرْداً فَالْتَحواْ فَخَشَوْا أَنْ يَكْرَهَ الشّعَرَ ٱلْعُشّاقُ فَالْتَثَمُوا[291]

وَمِنْ شِعْرِهِ مَا كَتَبَهُ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَلِيّ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ العَطّار، وَكَانَ مُقِيماً بِإِلْبِيرَة فِي خِدْمَةِ الزَّاهرِ دَاوُد بْن يُوسُف مُتَصَرِّفاً فِي الْيَهُود، وكانَ يوسُف بْنِ الْمُلَثّم يَتَرَدَّدُ مِنْ سُمَيْساط إِلَى إِلْبِيرَة ويَنْزِلُ فِي دَارِ صَدِيقِهِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ الْعَطَّار، فَأَتَى مَرَّةً فَلَمْ يَجِدْ أَبَا عَلِيٍّ حَاضِراً فَنَزَلَ عَلَى عَادَتِهِ وَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالَ لَه بَعْضُ أَقَارِبِهِ إِنَّهُ قَدْ عَرَضَ لَه حُمّى وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى ظَاهِرِ ٱلْبَلَدِ إِلى بُسْتانٍ لَهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

لاَ تَحْسِبِ الْقَلْبَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكَ خَلِي أَبَا عَلِيٍّ مَعَاذَ ٱللَّهِ لاَ وَعَلِـي
وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا عِنْدِي إِلَيْكَ كَمَا قَلْبِي عَلِيمٌ بِمَا قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِي
وَقِيلَ شَكْوَاكَ مِنْ حُمَّى وَمَا فَهِمُوا هذَا حَرَارَةُ فِكْرٍ مِنْكَ مُشْتَعِلِ
وَلاَ تَرَى بَعْدَ هَذَا الْبَوسَ ثَانِيَةً «ورُبّما صَحَّتِ الأَجْسَادُ بِالعِلَلِ»[292]

وَكَتَبَ إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيةً وَقَدْ أَتَى عَلَى عَادَتِهِ وَلَمْ يَجِدْه فِي الدَّارِ وَكَانَ فِي ظَاهِرِ البَلَدِ فِي البُسْتَان وَكَانَتْ عَادَتُهُ إِذَا جَاءَ مِنْ سُمَيْسَاطٍ يُقِيمُ أَيَّاماً كَثِيرةً وَلاَشَكَّ أَنَّهُ ٱجْتَازَ تِلْكَ المَرّة مُسْتَعْجِلاً فَقَالَ :

شَوْقِي إِلَيْكَ أَبَا عَلِـي تَفْصِيلُـهُ لَـمْ يُجْمَـلِ
مَـا هَكَـذَا عَوّدتَنِـي مِـنْ مِنَّـةٍ وَتَـفَضُّلِ
أَيَجُوزُ أَنْ تَمْضِي وَلَـمْ تَطْرُق برحْلِكَ مَنْزِلـي
حَاشَاكَ أَنْ تَمَـلَّ مَـودَّ ةَ صَاحِبٍ لَكَ أَوَّلِ

وَلَهُ وقَد عَمِلَ فِي المَلِكِ الزَّاهِرِ قَصِيدَة مَدْحٍ وَأَنْشَدَهُ إِيَّاها وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أن يَرسم لَهُ بخِلْعَةٍ ونَفَقةٍ فأَرْسَلَ لَهُ عَلَى يَدِ صاحِبِهِ أَبِي عَلِيّ بْنِ العَطَّارِ نَفَقة

(291) كأنه قلب قول القائل فيهم :

قومٌ لهُمْ دَرَكُ ٱلعُلا في حِمْيرٍ وإن انْتَمَوا صنهَاجـةً فَهُـمُ هُـمُ
لمّا حَوَوْا إحـراز كـلّ فضيلـةٍ غَـلَبَ الحيـاءُ عَلَيْهِـمُ فتلثّمـوا

وانظر ما ورد في هجاء الملثمين أيضا كتاب زاد المسافر : 78.

(292) هذا شطر بيت للمتنبي.

بِغَيْرِ خلْعَة فَلَمَّا أَتَاهُ بِهَا قَالَ يَا صاحِبِي : لَوْ أَنّها أَلْفُ دِينَارٍ مَا ظَهَرَتْ عَلَيّ بِغَيْرِ خِلْعَة فَارْدُدْهَا وَائْتِنِي بِخلْعَةٍ بِغَيْرِ نَفقَةٍ، فَقَالَ لَهُ : اعْمَلْ شَيْئاً يَكونُ مَعِي مِفْتاح الكَلامِ في ذلكَ فقالَ ارْتِجالاً :

يَـا مَـلِكَ الْعَالَـمِ يَـا مَـنْ ... فَخَـارُهُ أَصْلاً وَذُرّيـهْ

لبْسَتِي بِتَشْرِيفِكَ فِي عَوْدَتِـي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ مِصْرِيّـهْ

فَلَمَّا أَوْصَلَهَا المَذْكُورُ إِلَى المَلِكِ الزاهِرِ وأَنْشَدَه البيْتَيْن أَمَرَ لَهُ بخِلْعَةٍ سَنِيَّةٍ مَعَ النَّفَقَة.

وقالَ يَهْجُو الْعِمادَ بن النوري قاضي إلْبيرة وَكَانَ الْمَذْكُورُ عِنْدَ المَلِكِ الزَّاهِرِ فَحَضَرَ شَكْوَى بَيْنَ نَفَرَيْنِ : أَحَدُهُما سارِقٌ والآخَرُ زَانٍ فَتَوَسّطَ الْقَاضِي لِلزَّانِي بالحَصْبِ وللسّارِق بالْقَتْلِ :

قُلْ لِعِمادِ الدِّينِ يَا قَاضِيـاً ... يَحْكُـمُ فِـي إِلْبِيـرَةَ بالطَّبْـعِ

يَحْكُـمُ لِـلسَّارِقِ مِـنْ عِلْمِـهِ ... بالـحَصْبِ وَلِلزَّانِـي بالقَطْـعِ

مَذْهَبُ ٱبْنِ إِدْرِيسَ قَدْ أَصْبَحَتْ ... أَرْكَانُـهُ هَادِمَـةَ الرَّبْـعِ

لَـوْ أَنَّ لِلْمَـذْهَبِ عَيْناً بَـكَتْ ... عَلَى ٱلَّذِي قَـدْ تَـمَّ بِـالشَّرْعِ

(10 : 497-502)

61 ـ يُونُس بْنُ مُوسَى أَبُو الوَلِيد الأَنْصَارِي[293]

مِنْ أَهْلِ سَلاَ، مِنْ بِلاَدِ المَغْرِبِ، كَانَ شَاعِراً مُنْتَجِعاً، صَارَ إِلَيّ مِنْ شِعْرِهِ هَذِهِ القَصِيدة يَمْدَحُ بِهَا الأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ مَحْمُودَ بْنِ قُلَيجٍ الحَلَبي :

أَمْلَلْتَ سَمْعِيَ مِنْ عَذْلٍ بِتَنْدِيدِ ... فَبَعْضَ شَأْنَيْكَ مِنْ لَوْمٍ وَتَفْنِيدِ

قَدْ كُنْتَ تَبْقَى وَإِنْ لَمْ تَبْقَ مِنْ شَفَقٍ ... لَوْ كَانَ قَلْبُكَ فِي أحشاء مَعْمُودِ

لاَ دَرَّ دَرُّكَ مِنْ لاَحٍ أَلَحَّ عَلَى ... ضَعْفِي، وَجَارَ عَلَى لِينِي بِتَشْدِيدِ

(293) لم أقف له على ذكر فيما رجعت إليه من مصادر.

أَمَا نَهَاكَ ضَنَى وَجْدٍ مُنِيتُ بِهِ — أَبْلَى شَبَابِيَ مِنْ سُقْمٍ بِتَبْدِيـدِ
فِي ذِمَّةِ آللَّهِ نَفْسٌ مَا يُذَمُّ لَهَا — خُلْقٌ، وإنْ عَزَّ مِنْ طَرْفٍ وَمِنْ جِيدِ
وَفِي رِضَى الحُبِّ قَلْبٌ قَلَّبَتْهُ عَلَى — جَمْرِ الغَضَا خَطَرَاتُ الخُرَّدِ الغِيَدِ
سَنَحْن يَوْمَ الكَثِيبِ الفَرْدِ مِنْ كَثَبٍ — وَمَا سَمَحْنَ لَنَا إلاَّ بِتَبْعِيـدِ
يَخْفِضْنَ فِي المَشْيِ مِنْ خَطْوٍ وَقَدْ رُفِعَتْ — حُمْرُ القِبَابِ عَلَى الحُمْرِ الجَلاَعِيدِ
بِيضٌ أَوَانِسُ فِي سِرْبٍ أَوَانِسُهُ — شَرَّدْنَ نَوْمِيَ عَنْ عَيْنِي بِتَسْهِيدِ
بُدُورُ حُسْنٍ حَوَتْهُنَّ الخُدُورُ وَقَدْ — أَشْرَقْنَ فِي الكُثْبِ مِنْ قُضْبٍ أَمَالِيدِ
يَحْمِلْنَ دُرّاً ثَوَى فِيهِنَّ مِنْ صَدَفٍ — طَافٍ بِبَحْرِ سَرَابٍ غَيْرِ مَوْرُودِ
يَا لَلْبَرَاقِعِ كَمْ فِيهِنَّ مِنْ قَمَرٍ — سَارٍ وَسِرٌّ جَمَالٍ فَوْقَ تَوْرِيـدِ
وَمِنْ عُيُونٍ نَفَثْنَ السِّحْرَ فِي كَبِدِي — كَالسُّمِّ تَجْنِيهِ مِنْ بِنْتِ العَنَاقِيدِ
عَدِمْتُ صَبْرِيَ إنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِهِ — مَا ضَلَّ مِنْ جَزَعٍ عَنِّي وَتَبْلِيدِ
فَكَيْفَ أُبْقَى عَلَى مَا بِي وَهَا رَمَقِي — يَفْنَى بِفَنَّيْنِ مَعْدُومٍ وَمَوْجُـودِ
أَمَّا الفِراقُ فَأَرمِي فِي النَّوَى وَرَمَى — خَدِّيَ مِنْ فَيْضِ أَجْفَانِي بِتَخْدِيدِ
وَلَجَّ فَابْتَزَّ أَوْطَانِي وَأَوْطَانِـي — مَوَاطِيءَ العَسْفِ مِنْ هَمٍّ وَتَنْكِيدِ
بُعْدٌ مِنَ المَغْرِبِ الأَقْصَى لِمَشْرِقِهِ — يقرب العِيسَ مِنْ وَخْدٍ وَمِنْ بِيدِ
كَأَنَّ فِي كُلِّ قُطْرٍ لِي مَدَى أَرَبٍ — لاَ يقتضَى بِسِوَى المَهْرِيَّةِ القُودِ
تَغَـرُّبٌ وَمَشِيبٌ نَـازِلٌ وَأَسىً — قَرْحٌ، وَفَقْدُ حَبِيبٍ غَيْرُ مَرْدُودِ
وَسَاءَنِي، أَنَّ عُمْرِي ضَاعَ أَكْثَرُهُ — بَيْنَ الأَنَامِ وَلَمْ أَظْفَرْ بِمَقْصُودِ
وَلاَ حَمِدْتُ رَحِيلِي لاَ ولاَ زَمَنِي — حَتَّى حَلَلْتُ بِشَمْسِ الدِّينِ مَحْمُودِ

وَقَالَ أَبُو النَّجْمِ فَرْقَدُ بْنُ عَبْدِ آللَّهِ بْنِ ظَافِرِ بْنِ عَبْدِ الوَاحِدِ الكِنَانِيُّ الإِسْكَنْدَرِيُّ، أَنْشَدَنِي أَبُو الوَلِيدِ يُونُسُ بْنُ مُوسَى الأَنْصَارِيُّ السَّلاَوِي لِنَفْسِهِ لَمَّا رَجَعَ المَلِكُ الظَّاهِرُ غَيَّاثُ الدِّينِ غَازِي بْنُ يُوسُفَ[294] مِنْ مُحَاصَرَةِ دِمَشْقَ إِلَى حَلَبَ خَائِباً وَكَانَ مَعَهُ ابْنُ الحُصَيْنِ الوَزِيرُ وَابْنُ أُخْتِهِ النَّظَّامُ أَبُو الوَلِيدِ مُحَمَّدُ ابْنُ الحُسَيْنِ الطُّغَرَائِيُّ[295]، وَكَانَ أَحْوَلَ وَالقَاضِي بَهَاءُ الدِّينِ أَبُو المَحَاسِنِ

(294) انظر ترجمة هذا الملك في وفيات الأعيان 4 : 6.

(295) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى 8 : 360–362.

يُوسُفُ بْنُ رَافِعِ بْنِ تَمِيمِ المُوصِلِيُّ وَيَعْرِفُهُ الفُقَهَاءُ بِالأَحْمَرِ، وَكَانَ الوَزِيرُ ابْنُ الحُصَيْنِ أَحْمَرَ العَيْنَيْنِ :

قُلْ لِلْمَلِيكِ الظَّاهِرِ اسْتَبْصِرِ دُهِيتَ فِي المُلْكِ وَلَمْ تَشْعُرِ
بِالأَجْهَرِ المَطْرُودِ مِنْ وَاسِطٍ وَالأَحْوَلِ المَشْؤُومِ وَالأَحْمَرِ
ثَلاَثَةٌ لَوْ بَرَزُوا دَفْعَةً لِلشَّمْسِ أَوْ لِلْبَدْرِ لَمْ تَظْهَرِ
وَلَوْ تَوَلَّى وَاحِدٌ مِنْهُمُ تَدْبِيرَ ذِي القَرْنَيْنِ لَمْ يُنْصَرِ

الأَجْهَرُ : الَّذِي لاَ يَنْظُرُ إِلَى الشَّمْسِ. (10 : 572)

62 ــ يَزِيدُ بْنِ صقْلاَبٍ

أَبُو بَكْرٍ الْمَرِيّي[296]، كَانَ رَجُلاً كَبِيرَ القَدْرِ جَلِيلَ المَنْزِلَةِ، سَمْحاً ذَا مُرُوءَةٍ وَأَرْيَحِيَّةٍ، وَكَانَ مُشَارِفَ الدِّيوَانِ بِالْمَرِيَّةِ، وَيَرْجِعُ إِلَى أَدَبٍ وَفَضْلٍ وَنَبَاهَةٍ وَمَعْرِفَةٍ، وَقَوْلِ الشِّعْرِ الرَّائِقِ الحَسَنِ، أَخْبَرَنِي الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الفَاسِي المُقْرِي بِحَلَب، قَالَ : شَاهَدْتُ يَزِيدَ بْنِ صقْلاَبٍ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّ مِئَةٍ بِالْمَرِيَّةِ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الإِشْرَافَ بديوانها وَذَكَرَهُ ذِكْراً جَمِيلاً، وَوَصفَهُ وَصْفاً حَسَناً، وَقَالَ : «لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ أَكْرَمَ مِنْهُ نَفْساً وَلاَ أَجْوَدَ كَفّاً» هَذَا آخِرُ كَلاَمِهِ. أَنْشَدَنِي الصَّاحِبُ الوَزِيرُ أَبُو البَرَكَاتِ الإِرْبِلِيُّ بِهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ أَنْشَدَنِي أَبُو الرُّوحِ عِيسَى بْنُ مُحَمَّدٍ التَّاكُرُنِّي القُرْطُبِيُّ، قَالَ أَنْشَدَنِي يَزِيدُ ابْنُ صقلاَبٍ لِنَفْسِهِ :

أَهْدَى التَّحِيَّةَ بِالإِشَارَةِ وَاضِعاً بَعْدَ التَّحِيَّةِ فَوْقَ أُصْبُعِهِ فَمَا
فَعَجِبْتُ مِنْهُ ثُمَّ قُلْتُ لِصَاحِبِي أَتَرَاهُ سَلَّمَ أَمْ تَرَاهُ تَخَتَّمَا

وَلَهُ أَشْعَارٌ وَرَسَائِلُ لَمْ يَقَعْ إِلَيَّ مِنْهَا شَيْءٌ غَيْرَ مَا ذَكَرْتُهُ.

(10 : 575)

(296) انظر ترجمته وطائفة من أشعاره في تحفة القادم : 124، 135، 136، 173، 178، 180 وقف عند الحاشية رقم 1 في ص 178.

تراجم مغربية

من تاريخ إربل لابن المستوفي

1 ـ أبو عبد الله الزُّهري

هُو أَبو عبد اللَّه مُحمد بْن أَحْمَد بن سُلَيْمَان الزُّهري الأَنْدَلُسِي[1]، وَرَد إِرْبِل وَسَمع شَيْخَنا أَبَا المُظفَّر المُبَارَك بْن طَاهِر الخُزَاعِي. وَرَحَلَ فِي طَلَبِ الحَدِيث إِلَى نَشَاوُور[2] وَغيرها. وَكَانَ أَقَام بِالمَوْصل مُدَّة فِي طَلَب الحَدِيث، وَسَمع وَكَتَبَ، وَهُو إِلَى الآن ـ كَما ذُكِر لِي ـ بِبِلاَد العَجَم[3]. وَسَمِع شُيُوخ بَغْداد، ولقي بأَصْبَهَان جَمَاعَة مِنْ أَصْحَابِ أَبِي عَلي ابن الحَدَّاد.

أَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو عَبْد اللَّه مُحَمَّد بنُ سَعِيد بنُ أَحْمَد بن زَرْقُون الأَنْصَاري[4] قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو طَاهِر ابنُ أَبِي الرُّكَب[5] :

جَاءَتْكَ من عُدَد العُلاَ زِنْجِيَّةٌ فِي حُلَّةٍ من حِليةٍ تَتَبَخْتَرُ
سَوْدَاء صَفْرَاء الحُلِيِّ كَأَنَّهَا جُنْحٌ تُطَرِّزه نُجُوم تُزْهِرُ
حُمِلَتْ بأَصْفَر من نِجار حُلِّيهَا تُخْفِيه أَحْياناً وَحِيناً يظْهِرُ
خَرْسَانُ إلاَّ حِين يَرْضَعُ درهَا فتراه ينطِق ما يَشاء ويُخبِرُ[6]

وَأَنْشَدَنا لِنَفْسِه فِي أَبِي مُحمد عَبد القَادِر الرُّهَاوي[7] :

---

(1) ترجمته أيضا في قلائد الجمان 6 : 133-136 (ص 117 من هذا المجموع) وفي الذيل والتكملة 5 : 644-645 والذيل لابن الدبيثي 2 : 242 والوافي بالوفيات 2 : 104 والمحمّدون للقفطي : 336-359 وبغية الوعاة 1 : 25-26.

(2) هي نيسابور، والعامة تسميها نشاوور كما في معجم البلدان لياقوت.

(3) يقصد بها هنا بلاد فارس.

(4) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 6 : 203-208.

(5) ترجمته ومصادرها في تحفة القادم : 34-36 (د. إحسان عباس) وفيه بعض مرويات ابن زرقون الأب عن ابن أبي ركب.

(6) الأبيات في تحفة القادم أيضا مع شيء من الاختلاف في الرواية.

(7) محدث مشهور. انظر ترجمته ومصادرها في تكملة النقلة 2 : 332.

أتـيتُ الزُّهَـاوِيَّ فِـي دَسْتـــهِ فَأُلفيتُ شخصاً لئيماً وخِيمـا
فَلَيس الفَتَى مَنْ حَوى مَنْصِبـاً ولكنَّ مَنْ حَازَ مَجْداً وَخِيمَـا

وَأَنْشَدَنِي أَبُو الحسَن عَلي بن شَمّاس الصَّاحب، قَالَ : أَنشَدَنِي الزُّهري بالكَرَج لنَفسه، وكانَ أقَام بها وتأَهَّل بها :

أنَـا مـأسُورٌ بِحِيطـان الكَـرَجْ في عنـاءٍ أسأَلُ اللّـهَ الفَـرَجْ
لـيْس بالمَغْبُـوطِ مَـنْ يسكُنُهَـا إنّما المَغْبُوطُ مَنْ مِنْهَا خَـرَجْ

شَرَحَ «كِتَاب الإيضَاح»[8] وَكِتَاب «العُتْبـي اليَمِينـي»[9]، قتلـه التتـر بِبَرُوجِرْد[10] في / شَهْر رجَب سَنَة سَبع عَشَرة وستمِائَة.

2 ـــ ابْنُ هِلاَلَة المَغْرِبي

هُو أبُو مُحمد عَبد العَزيز بن الحُسين بن عَبْد العَزيز بن هِلاَلَة المَغْرِبي الأَنْدَلسي ويُعْرف بابن هِلاَلَة[11]. وَأَخْبَرَني مَسْعود بن عَبْد اللّه التَّكْرُورِي[12] غلامه، إنّ مَوْلِده بطَبِيرة[13] من الأَنْدَلُس. وَحَدَّثَنِي أَبُو الخَير بَدل بن أَبِي

(8) هو كتاب الايضاح لأبي علي الفارسي وكان للأندلسيين عناية بدرسه وشرحه.

(9) هو كتاب في تاريخ يمين الدّولة محمود بن سبكتكين لمحمد بن عبد الجبار العتبي وقد «أدرج فيه دقائق عربية ولطائف دينية» ولهذا شرحه أكثر من شارح، راجع كشف الظنون.

(10) بلدة بين همذان وبين الكرج، وفي المطبوع : «قتله التتر وجُرّد» ولست أدري كيف وقع محقق الكتاب في هذا الغلط.

(11) ترجمته أيضا في التكملة (رقم 1769) ومعجم البلدان (مادة طبيرة) وقال فيه ياقوت : صاحبنا أبو محمد، وانظر كذلك شذرات ابن العماد 5 : 78 ويبدو أن لابن هلالة المترجم هنا علاقة بابن هلالة الثائر بطبيرة عند نهاية حكم الموحّدين بالأندلس، وقد يدل على ذلك أنه كان له غلام يرافقه، انظر نفح الطيب 1 : 301-302.

(12) نسبة إلى التكرور، وتطلق على بلاد وشعب التكرور في السودان الغربي، والتكرور معدود من مملكة مالي القديمة.

(13) طبيرة مدينة معروفة في غرب الأندلس واسمها اليوم Tavera.

المُعَمَّر، إنَّه أُخْبر بوفَاتِه بالبَصْرَة في رمضان سَنَة سَبع عشرَة وَستمائَة، وحَدَّثَنِي غَيره، أَنَّهُ تُوفِّي في تَاسِع رَمَضَان بالبَصْرَة وَدُفِن بِهَا.

رَحَل في طَلَب الحَديث إِلَى نِيسَابُور وخُوارزم وغيرهما، وسَمع من مَشَايِخِهَا، وحصَّلَ جُملة من أُصُولِهَا، وَعَادَ فوردَ إِرْبل في ....، وسَمع علَى الفَقِير أَبِي سَعِيد كوكَبورِي بن عَلِي بن بُكْتُكِين مُسْنَدَ أَهْلِ البَيْت ـــ عَليهم السَّلام ـــ وسَافَر إلى دمَشْق لِسَمَاع كتاب تَاريخِهَا الَّذِي أَلَّفَهُ أَبُو القَاسِم عَلِي بن الحَسن بن هِبَة اللَّه ابن عَسَاكر، ووصَلَه بجُمْلَة وَأنفذَ لَهُ مِثْلَها إِلَى دمَشْق، وَصَارَ ذَلِكَ لَهُ رَسْما عَلَى صَدقَتِه.

3 ـــ الفقيه الصَّنْهَاجي

هُو أبو الخَير مُعاذ بن عَلِي بن يُونس بن المَنْصُور[14] الفَقِيه المَغْرِبي الصَّنْهَاجي. وَرَد إِرْبِل في / سَنَة ثلاث وَتِسْعِين وَخمسمائة. كان يَلبس لبس الصُوفية، مختصر الثياب. حَدَّثني في صَفر من سنة ثلاث وتسْعِين وخمسمَائة ـــ وأكثر اللفظ لِي ـــ قال : حَدثني غير واحِد ممن أدرك عَبد المؤمن أمير المَغرب، قال : كان عبد المؤمن رجلا عالما ورعا فقيها. وكان لا يخلو مَجْلسه من العُلَماء بكُل فن من فُنُون العِلم، ومتَى خَاضُوا فَنّاً خَاض مَعُهم فِيه كأحدهم. فاتفق أن حَضَر مَجْلسه خلق كَثِير من العُلَماء والفُقَهَاء والشُّعَراء، فجرت مسألة فسكتوا لاستمَاع كَلاَمه. فقَالَ لَهُم : لِمَ لا تَتَكَلَّمون ؟ فَابْتَدَرَ أحدُهُم فَقَالَ : ﴿لاَ عِلْمَ لَنا إلاَّ مَا علَّمتَنَا﴾. فَسَمِعَهُ بَعْض مَنْ كَانَ حاضراً، فَكَتَبَ في الحَال رقْعَة لَطِيفة، فِيهَا :

يَا ذَا الَّذِي قَهر العِبَاد بسيفِهِ ... مَاذَا يصُدُّك أَنْ تكونَ إِلَهـا ؟
انْطِقْ بِهَا فِيمَـا ابتـدعْتَ فَإِنَّـه ... لَمْ يَبْقَ شَيءٌ لم تَقُلْهُ سِوَاهَـا

(14) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.

ثُمَّ أَلْقَاهَا فِي غُمَار المَجْلس، من غَير أن يَعلم أحد. فَلَما قَامُوا لَمحَهَا عَبْد المُؤْمن فَدَعا بها واعْتَقَد أَنَّها لمَظْلوم أو طَالِب حَاجة. فَلَما قَرَأها أَمَر بكُل مَنْ يُعرف بقَوْل الشِّعْر أَنْ يُحْبَس، فَحُبس جَمَاعَة كَثِيرة. فَلَمَّا رَأى ذَلِك قَائِلُها، لَم يَر أن يُؤْخَذ به غَيْره مِمَّن ليس لَهُ ذَنْب، فَطَالَعَ عَبْد المُؤْمِن بِذَلِك. فَدَعَاهُ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْن يَدَيه، قَالَ لَهُ : «مَا الَّذِي دَعَاكَ إِلَى هَذا ؟» فَأَعْلَمه أَنه فعلَه غَيْرةً على دِينِه، ولم يَرْض مَا خُوطِب به من قَول القائل : «لاَ عِلم لَنا إلاّ ما علَّمْتَنا»، إذ هَذا خِطاب المَلائكَة لِلَّه ـــ جَلَّ وَعَلاَ ـــ فقال : يا شيخ مِثْلك مَنْ نَبّه على حسن وَنَهى عَنْ مَكْروه، وَوصله بصلةٍ حَسَنة، وَلَمْ يهجه مَا خاطَبه به من قَوله : «انطق بِهَا فِيمَا ابتدعت»، ولا أنكره عَلَيْه.

4 ـــ البرزالي[15]

مُحمد بن يُوسف البَرْزَالي، مِن طَلبة الحَديث الَّذِين سَافَرُوا فِيه، دَخَل بِلاد العَجَم، وَسمع الكَثِير، وَهُو مِن أَهْل إشْبيلية.

5 ـــ أبو محمد عبد الله الأنصاري

هُو أَبو مُحمد عَبد اللَّه بن عَبْد الرَّحْمن بن مُحمد المِينَارِي[16] بْن عَلِي بن هِشَام بن عَلِي الأَنصَارِي السَّلاَوِي، مِنْ مَدِينَةِ سَلاَ من أَقْصَى بِلاَدِ المَغْرِب.

(15) هذه ترجمة مختصرة جدّاً هنا، وهي مطوّلة في التكملة لابن الأبار (رقم 1012) وقد تتبّع محقق تاريخ إربل مصادر ترجمة البرزالي (2 : 502–503) ولهذا الإمام المحدث الذي استقر بالشام خلف أصبحوا من أهل دمشق منهم بهاء الدين البرزالي الوافي 5 : 264 وأبو محمد القاسم البرزالي.

(16) كذا في المطبوع ولعلها المنْياري أو الفنْزاري.

وَرَد إِرْبل وَسَكَن دَارَ الحَدِيث بِهَا. سألتُه عَن المِينَارِي، فَقَال : مَنْسوب إلى مَدِينة تُسَمَّى «مينَارَة»[17]. عِنده من كُلِّ فَنٍّ طَرَف مِنْه.

أَنْشَدَنِي لِنَفْسِه :

أَأَحْبَابَ قَلبي، هَل سَبيلٌ إليكُمُ ؟ فجِسْمَي عِندي والفؤادُ لَدَيْكُمُ
وإنْ لم يكنْ ذَنبٌ فردُّوا تحيَّتِي فَقَد طَالَ مَا قلتُ: السَّلاَمُ عليكُمُ

وأنشدني للسيِّد أبي إسْحَق بن عَبْد المُؤمِن[18] :

كَيْف التَّصَبُّرُ والأشْوَاقُ تزدادُ والدَّار تَنْأَى ومَا للوَصْلِ مِيعَادُ
والدَّهْر قَدْ عاق عن لُقْيَاكُمُ جَسداً والبَيْنُ جيشٌ له الأفْكَارُ أَجْنَادُ[19]
فكلَّما قَرُبتْ مِنِّي دِيَارُكُمُ يَنْأَى المَزار كأنَّ القُرب إبْعَادُ
وكلّما رُمتُ أن أنسَى تَذَكُّرَكُمْ تأبَى الطِّباع فما تَنْفَكُّ تزدَادُ
فَالقَلْبُ فِي حُرَقٍ والجَفْن في أرقٍ ولِلْجوانِح[20] إصْدارٌ وَإِيرادُ
والدَّمع يُزْري بقَطر المُزْن وابلُه وللبلابل[21] إبْراقٌ وإرعاد[22]

6 ـــ أبو عبد الله السَّلاوي[23]

هو أَبُو عَبد اللَّه مُحمد بن مُوسى بن عِمْران بن سُلَيْمان القَيْسي مِن سَلا،

(17) لعلها تحريف فنزارة، وهي مدينة كانت قريبة من سلا، انظر وصف إفريقيا للوزّان : 209-210.

(18) ذكر المؤرخون أن السيد أبا إسحاق إبراهيم بن عبد المومن كان واليا على قرطبة ولكنهم لم يذكروا أنّه قال شعرا كما أن من تتبّعوا أمراء الموحدين الشعراء لم يعدوه منهم، والأبيات موجودة في ديوان الأمير أبي الربيع ص 66 مع شيء من الاختلاف في الرواية.

(19) في ديوان أبي الربيع : والبين جيش والأفكار أجناد.

(20) في الديوان : وللبلابل.

(21) في الديوان : وللجوانح.

(22) بعد هذا البيت أربعة أبيات في الديوان.

(23) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.

أَقْصَى بِلاَد المَغْرب[24]. وَوَجدت بخطِّه : يُعرف بِابْن السَّرَّاج. وَرَد إربل وَسَكَن دَارَ الحَدِيث بِهَا.

أَنْشَدَني لِنَفسِه :

أَلاَ يَا غَزَالَ السِّرب هل فِيك مَطمعٌ   لِمُحترِقِ الأَحْشَاءِ دَامِي المَحَاجِرِ
بِه ظَمأٌ بَرْحٌ وَوِرْدُكَ وِرْدُهُ   فَمَاذَا تَرَى في رِيِّ ظمْآن شَاكِرِ ؟
تعرَّض يصطاد الظِّباء فصِدْنَه   ولا شَرَكٌ إلاّ عيون الجآذر
كأنّ فُؤَادِي — كلّما لاَحَ بَارِقٌ   وَهَبَّ نسيمٌ — في قَوادم طائر[25]

وَأَنْشَد لأبِي زَيْدٍ الفَازَازي المَرَّاكُشي[26]، قال : سمعته من لَفْظه :

لعَمْري لقد ظَنُّوا الظّنون وأيقَنُوا   ببعض إشاراتٍ تنمّ عن الصَّبّ
فقالوا اكشفوا بالبحث عن أصل وَجْده   فلا فَلَكٌ إلاّ يدور على قُطب
سلوه وراعوا لَفْظَه مِنْ خِطابه   لتُفْهَم عَن فَحْواه داعِيَةُ الحُبّ
وقومٍ رأوا مِنِّي مُخادعة الهوى   أشدّ عَلَيْهِمْ مِن مُخَادَعَة الحَربِ
يقرّ قرارُ السِرِّ عِنْدِي كأنَّه   غَريبُ ديَارٍ قَالَ : في وَطَنٍ حَسْبِي
أَلاَ بِأَبِي من جُمْلة الغِيد وَاحِدٌ   فَهَل عَلمُوا ذَاكَ الغَزال من السِّربِ ؟
قُتِلْتُ فلا وَٱللَّهِ أذْكُرُ قَاتِلِي   فَأَخذ قِصاصي منه بَيْن يَدَيْ رَبِّي[27]

---

(24) هكذا كان يظنّ بعض الجغرافيين القدماء، ومنهم ياقوت الحموي.

(25) مأخوذ من قول قيس بن الملوح :
كأن القلبَ لَيْلة قيلَ يغدى   بلَيلى العامرية أو يراحُ
قطاةٌ عَزّها شرَكٌ فباتت، تجاذبُه وقَدْ عَلِق الجَنَاحُ.

(26) هكذا نسبه صاحب الترجمة بناءً على مكان وفاته، ونسبه بعضهم إلى قرطبة التي ولد فيها، ونسبته الفازازية تدلّ على مغربيته، وقد ترجم ابن عبد الملك لأخيه أبي عبد الله في قسم الغرباء وهم الداخلون إلى الأندلس من أهل المغرب وغيرهم.

(27) هذه القطعة من شعر أبي زيد الفازازي جديدة وهي تضاف إلى الموجود من شعره في برنامج الرعيني والذيل والتكملة وغيرهما وقد ظهر جزء مخطوط في مكتبة ليدن بهولندا يشتمل على طائفة من شعره ونثره، وكنت حصلت على صورة منه بعد أن نشرت السفر الثامن من الذيل والتكملة ولذلك لم أتمكّن من الاستفادة منه في المقابلة، وقد نشر هذا الجزء مؤخرا بتقديم وتحقيق السيد عبد الحميد الهرامة، ولا توجد فيه القطعة الواردة هنا.

7 ـــ الواعظ المَغربي

هو أَبُو زَكَريا يَحْيَى بن أحمد بن يُوسُف بن أَحْمد الحَسَني الأندلسي الغَرْناطِي[27م] وَرد إرْبل وَعَقَد بها مَجَالس الوَعْظ، وَكَانَ لَه من العَامة قَبُول عَظِيم، كَانَ يَجيءُ النَّاسُ أَكْثَرَ مَجَالِسه وَيَتكففهم. وَصَله الفَقِير أَبُو سَعِيد كوكَبُوري بصلة، وَأَرَادَ السَّفَر فَأَمَرَ العامَّة أَنْ يَطلبوا من السُّلْطان أَنْ يُقِيم عِنْدَهم، فَأَجَابَهُم إِلَى ذَلِك.

فِي خَامِس جُمَادى الآخر من سَنَة تِسع عَشرة وستمائَة، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِه :

يَا دَوحةَ البَان من شرقِيِّ كاظِمَةٍ ... سقَاكِ من عَبَرات السُّحْب هَتَّانُ
لساكنيكِ علينَا خِدمةٌ وَلَنا ... عَلَيْهِمُ بالوَفَا عَهْدٌ وَأَيْمَانُ
كَم أَعذلُ القَلبَ فِي تَذْكارِهِ لَهُم ... دَنَوْا فلمَّا دَنَا وَصْلِي لَهُمْ بَانوا
هُمْ علَّموني الهوى ما كنتُ أَعرفه ... حتَّى إِذَا وَلجوا بَابَ الهَوَى خَانُوا
هُمُ الَّذِينَ بِسِحر اللَّحْظِ قَدْ سَفَكوا ... دمَ الهُمام وشَرْعُ الحُبّ إذْعَانُ
فَإِنْ وضعتُ يَدِي بالصَّدْر اكتُمُ ما ... بالقَلب غادَرهُ صَبْرٌ وكتمانُ

وهي كما ذكر طويلة، التزم في أثنائِها الإتيان بكلمات مَسْتُورَةٍ ذكرها لِي تبين إذا كتبت بلون غَيْر المِداد.

8 ـــ المغربي الطنجي

هُو أَبو عَبْد اللَّه مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن يُوسُف الطَّنْجِي[28]، مِنْ أَهْل الوَرَع. أَنْشَدَنِي أَبُو العَبَّاس أَحْمَد بن أَبِي القَاسِم الإِسْكَندَرِيّ، قَالَ : أَنْشَدَنِي الطَّنْجِي لِنَفْسِه بِإِرْبِل :

يَا طَنْجَةٌ جَمَعتْ رِيماً وغِزْلاَناً ... تُراكِ جامعةً شَمْلِي كَما كَانَا ؟

(27م) تقدمت ترجمة ابن الشعار له ص 145.

(28) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.

لَئِنْ أَنا عشْتُ حتَّى تَرتَوِي مُقَلِي ... مِمَّنْ أُحبّ بِهَا أَهْلاً وَجِيرَانَـا
لأَشْكُـرَنَّ إلـهَ العـرشِ خَالِقَنَـا ... وَأَقْطـعُ الدَّهْـر تسْبِيحـاً وَقُرآنَـا

وَأَنْشَدَنِي القَيْسِي، قَالَ : أَنْشَدَنَا مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم لِنَفْسِه، يَقُولُهَا بِبِلاَدِ الرُّوم[29] حِينَ أَرَادَ الخُروجَ مِنْهَا :

تَرَكْتُ بلادَ الرُّوم والقلب مُوقِنٌ ... ومازَالَ مُولَى الخَلْق يَحْمِي وَيُحْسنُ
بلاَدٌ بها الفُسّاق قد بَلَغوا المُنَى ... تَرى الخَمْرَ في الأَسْوَاقِ والفُحْشَ يُعلَنُ
فَلاَ يقْبَلُ آللَّهُ صَلاَةَ امرِىءٍ بِهَا ... كَمَا جَاءَ نَصٌّ في الحَدِيثِ مبَيّنُ

9 ـــ ابن خَوْلَة

هو أَحمَد بن مُحَمَّد بن أَحْمَد السُّلَمِيّ، أَبُو جَعْفَر المَغْرِبيّ الأَنْدَلُسِي، يُعْرف بِابْنِ خَوْلَة[30]، مِنْ أَهْلِ غَرْنَاطَة، شَرْقِي الأَنْدَلُسِ. فِيهِ فَضْل، رَحَلَ إِلَى بَغْدَادَ وَبِلاَدِ فَارِس وَكِرْمان والغور وَغَزْنَة[31]، وقطعَة مِن بِلاَدِ الهِنْد، وَدَخَلَ سَمَرْقَنْد، وَسَكَن هَراة. وامتَدَح المُلُوكَ واكْتَسَبَ مَالاً، وَرَوَى فِي تَطْوَافِه. قَالَ ابن الدبِيثِي : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِه، وَأَجاز لِي ابن خَوْلَة كِتَابَةً :

إذا مَـا الدَّهْـر بَيَّتنِـي بجَـيْشٍ ... طليعَتُـهُ اهتِمَـامٌ وَاكْتِئَـابُ
شَنَنْتُ عَلَيْه من جَلَدِي كَمينـاً ... أَمِيراه الذُّبالـةُ والكتَـابُ
وبتُّ أنصُّ مـن شِيَم اللَّيَالِـي ... عَجَائبَ فِي حَقَائِقِهَـا ارتِيَـابُ
أُرِيـدُ بِهَـا التَّسلِّـي مُستَـرِيحاً ... ولَيْس عَلَى الزَّمَان بِهَا عِتَـابُ

قَالَ ابن الدُّبيثِي : سأَلْتُهُ عَنْ مَوْلِدِه، فَقَالَ : فِي شَهْر رَمَضَان سَنَة ثَلاَث

(29) تطلق بلاد الروم على مدن ملطية وغيرها من المدن المتاخمة للشام.
(30) له ترجمة أيضا في الوافي بالوفيات 8 : 145 والتكملة لابن الصابوني ص 89.
(31) كرمان : تطلق على البلاد المتصلة ببلاد فارس وعلى مدينة كرمان قصبتها، وغزنة : مدينة من مدن خوارزم، والغور : جبال وولاية بين هراة وغزنة.

وَخَمْسِينَ وَخَمْسُمائَة بغَرْنَاطَةَ. وَبَلَغَنا أَنَّهُ قَتَلَهُ الكُفَّارُ[32] بهَرَاة فِي رَبِيعِ الأَوَّلِ سَنَةَ ثَمَان عَشرة وَسِتِّمائَة.

10 ـــ أبو الرُّوح الأَنْدَلسي

هو أَبُو الرُّوح عِيسَى بنُ عَبْد اللَّه بن مُحَمَّد بن مُوسَى بن مُحمَّد بن عَبْد اللَّه ابن إِبْرَاهِيم بنُ خَلِيل الحِمْيَري الأَندلسي[33]، مِنْ تَاكُرُنَّا[34] ـــ بضم الكاف والراء وتخفيفها وشدّ النُّون ـــ من نَظَر قُرْطُبَة. وَرَدَ إِرْبل فِي ثَامِن شَوَّال مِنْ سَنَة سبع وعِشْرِينَ وَسِتِّمائة. شَاب خَفِيف العَارِضَيْن واللّحْيَة، ذَكِي لَطِيف الأَخْلاَقِ فَاضِل.

أَنْشَدَنَا لِنَفْسِهِ فِي مخل[35]، قَالَ : وأَتْمَمْتُها عَلى بيت أَنْشَدَهُ لِنَفْسِه مُحَمَّد ابن المفرض المِصْرِي ـــ بالفاء والضَّاد المُعْجَمَة ـــ وهو :

بَرَكَاتُ يَحكي البَدر عِنْدَ تَمَامِهِ   حاشَاهْ بَلْ شَمْس الضُّحَى تَحكِيهِ

[فَقُلْتُ] :

هَذَا الكمالُ فَقُلْ لمَنْ قَدْ عَابَه   حَسَداً، وآيةُ كلّ شَيْءٍ فِيهِ
لم تذو إِحْدَى زَهرتيهِ وَإِنَّمَا   كمُلت بِذَاكَ مَلاحَة التَّشْبِيهِ
فَكَأَنَّه رَامٍ يُغَلّق جفْنَه   ليُصيبَ بالسَّهْم الَّذِي يَرمِيه

(32) يقصد بالكفار التتر، جاء في الروض المعطار : «وفي سنة ثمان عشرة وستمائة نزل التتر على هراة، وهي إحدى أمهات خراسان فاستولوا عليها وقتلوا منها خلقاً عظيماً، وجرى التتر على عادتهم المذمومة من قتل الأطفال والعبث وقتلوا في جامعها المشهور بالخير من العلماء والصالحين والمنقطعين عدداً كثيراً».

(33) له ترجمة أيضاً في قلائد الجمان 5 : 473-474 ونفح الطيب 2 : 606-607 وراجع ص 103 من هذا المجموع.

(34) تاكُرُنّا : كورة جبلية في الأندلس منها مدينة رندة.

(35) كذا في المطبوع، وفي نفح الطيب أنّ الشعر قيل في غلام اسمه بركات.

أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِي كَاتب :

إن أَوْدَع الطِّرْسَ مَا وَشَّاه خَاطِرُهُ أَبْدَى لعَيْنَيْكَ أَزْهاراً وأَسْحَارا
وإنْ تهدّدَ فِيهِ أَوْ يعِدْ كَرماً بثَّ البَرِيّةَ آجالاً وأعمارا(36)

وأنشدني لنفسه :

أوصيتُ قلبِي أنْ يفرَّ عن الصِّبَا ظنّاً بأنِّي قَدْ دَعوْتُ سميعا
فأجَابَنِي: لا تَخْشَ مِنِّي بعدمَا أفلتّ من شَرَك الغَرَام وُقُوعا
حتَّى إذا نادَى الحبيبُ رأيتَه آوَى إلَيْهِ مُلَبِّياً وَمُطِيعاً
كذُبالةٍ أخمدتَها فَإِذَا دَنَا منها الضِّرَامُ تَعَلَّقَتْهُ سَرِيعاً(37)

وأنشدَنِي لنَفْسِه في أُضْحِية سَوْدَاء :

يا رُبَّ أُضْحِيةٍ سَوْدَاءَ حالكةٍ لم تَرعَ في البِيدِ إلاَّ الشّمسَ والقَمَرا
تَخَالُ باطنَها في اللَّوْن ظاهرَهَا فَهْيَ الغدَاة كزنجِيٍّ إذَا كَفَرَا(38)

وأنشدنا لنفسه :

سفرتَ عن حُرّ وَجْهٍ أَوْ جَلوتَ ذُكاً وَفرعَ نَاصِيَةٍ أَسْبَلت أَوْ حَلَكا
قولاَ لِخَصْرَيْهِ لَمْ يَظْلِمكُمَا كَفَلٌ الحسْنُ أَخصبه والحِسُّ أَنحَلَكَا
رُحْمَاكَ هَدْهِدْ فُؤَادِي لِمْ تُعذِّبُهُ وَما دَعاهُ الهَوَى يَوْماً فَأَهْمَلَكا
بَل أنتَ مِلْءُ جفُونِي والفُؤَادِ معاً وأَنْتَ آيَةُ قَلْبِي أَيَّةً سَلَكَا
فَيَا جبَال ضُلُوعِي أَوِّبِي مَعَه ويَا نسيمَ الجوَى سِرْ حيثُ أَرسلَكَا

وأَنْشدنا لِنَفْسِه :

يا قَلبُ ما لَكَ لاَ تُفِيقُ مِنْ الهَوَى أَوَ مَا يَقَرُّ بِكَ الزّمَانَ قَرارُ
أَلكلِّ ذِي وَجهٍ جميلٍ حنَّةٌ ولكلِّ عَهْدٍ سالفٍ تِذْكَارُ

(36) البيتان في نفح الطيب أيضا.
(37) الأبيات في نفح الطيب أيضا.
(38) البيتان في نفح الطيب أيضاً.
(39) الأبيات في نفح الطيب أيضاً.

وأنشدنا لنفسه :

وَزَائِرٍ زَارَني واللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ والطِّيبُ يفضحهُ والحَلْيُ يُشهِرهُ
أَمْسكتُ قلْبَي عَنْهُ وَهْوَ مُضطربٌ والشَّوْقُ يبعثُه والصَّوْنُ يَزجرُهُ
فبتُّ أَصْدَى إلَيِ مَنْ لاَ يُحَلِّئني والوِرْدُ صافٍ ولا شيءٌ يُكَدِّرُه
تَرَاهُ عَيْنِي وَكَفِّي لا تُلامسُه حَتَّى كَأَنِّي فِي المِرْآةِ أَنْظُرُه[39م]

وأنشدني للإمام أبي عَمْرو بن غِيّاث الأَنْدَلُسي الشْرِيشِي[40]، قَالَ : سَمِعْته ينشُد لِنَفْسِه :

صَبوتُ وهَل عارٌ على الحُرِّ إنْ صَبا ؟ وقِيدَ بعشْرِ الأَرْبَعِينَ إِلَى الصِّبَا
وقالوا: مشيبٌ، قلت واعَجَباً لَكُمْ أَيُنْكَرُ صُبْحٌ قَدْ تَخَلَّل غَيْهَبا ؟
وَلَيْس مشيباً مَا تَرونَ وإنَّما كُمَيت الصِّبَا مِما جَرَى عادَ أَشْهَبا[41]

وكان من الديانة في غاية، ومن الدُّعَابة [بلا نهاية]. ومَات في عَشر التسْعِين سَنَة عشْرِين وستمَائَة.

وأَنْشَدَنَا، قَالَ : أُنْشَدَنَا أَبُو عمْرو :

أَوْدِعْ فُؤَادِي حُرَقاً أَوْدِعِ نَفسَكَ تُوذى أَنْتَ في أَضْلُعِي
أَمْسِكْ سِهَامَ اللَّحْظِ أَوْ فارْمِهَا أَنْتَ بمَا تَرْمِي مُصَابٌ مَعِي
مَوقعُهَا القَلْبُ وأَنْتَ الَّذِي مَسْكَنُهُ في ذَلِك المَوضعِ[42]

وأَنْشَدَنا، قَالَ : أَنْشَدَنا أَبُو الحَسَن مُطَرِّف[43] مِن أَهْل غَرْنَاطَة ــ ويُقَال أَغرنَاطَة ــ :

أَنَا صَبٌّ كمَا تَشَاءُ وَتَهْوَى شَاعِرٌ مَاجِنٌ كَرِيمٌ جَوَادُ

(39م) انظر ص 36 من هذا المجموع.
(40) ترجمته في تحفة القادم والمصادر المحال عليها : 181.
(41) الأبيات في تحفة القادم وغيرها.
(42) الأبيات في نفح الطيب أيضاً.
(43) ترجمته ومصادرها في تحفة القادم : 143.

سُنَّــةٌ سَنَّهَــا قَــدِيماً جَمِيــلٌ وَأَتَى المُحدثون مِثْلِي فَـزَادُوا[44]

وَأَنْشَدَنا، قَالَ : أَنْشَدنَا مُطَرِّف لِنَفسِهِ :

وَفِـي فُــرُوعِ الأَيْكِ وُرْقٌ إِذَا بَــلَّ النَّــدَى أَعْطافَهــا تَسْجَـعُ
أَوْ هَزَّهَــا نَفــحُ نَسِيم الصَّبَــا شَاقَكَ مِنْهَــا غَــرِدٌ مُبْــدِعُ
كَأَنَّمَــــا أَمكنَــــه مِنْبَــــرٌ وَهْـو خَطـيبٌ فَوْقَهـا مِصْقَـعُ
إِنْ شبّهــا فِي طَـرَفٍ لَوْعَـــةٌ جَرَى لَهَا فِي طَرَف مَدْمَـعُ[45]

قال : أخذهُ مِن قَوْل عَبْد الوَهَّاب بْن عَلِي المَالقِي الخَطِيب[46] :

كَــأَنَّ فُــؤَادِي وَطَرْفِــي مَعــاً همَــــا طَرَفــــا غُصُنٍ أَخْضَرِ
إِذَا اشْتَعَـل النَّـارُ فِـي جَــانبٍ جَرَى المَاءُ فِي الجَانِبِ الآخَرِ

وأَنْشَدَنا لأَبِي عَبْد اللَّه مُحَمَّد بْن إِدْرِيس، شُهر بابْن مَرج الكحْل[47]، مِن جَزِيرَة شُقْر مِنْ شَرْق الأَنْدَلُس، مِنْ نَظَر بَلَنْسِيَة، وَسَمِعَه مِن فِلْقِ فِيه لِنَفْسِه :

وَعِنْـدِي مِـن مَعَاطِفهـا حَـدِيثٌ يُخبِّـــرُ أَنَّ رِيـــقَتها مُـــــدَامُ
وَفِـي أَعْطَافِهَـا السَّكـرى دَلِيــلٌ وَلاَ ذُقْنـا ولا زَعـم الهُمــامُ
تَعالى اللَّهُ مَـا أَجْـرَى دُمُوعِـي وَأَطْرَبَنِـي إِذَا غَنَّـى الحَمَــامُ[48]

وأَنْشَدَنَا، قَالَ : أَنْشَدَنَا أَبُو عَبْد اللَّه المَذْكُور، وَكَتَبَ بِهِ إِلَى أَبِي عَمْرو بْنِ غِياث المَذْكور :

أَبَا عَمْرو مَتَى تَـقْضِي اللَّيَالِــي بِلُقْيَاكُـمْ وَهُــنَّ قَصَصْنَ رِيشِي
أبتْ نَفْسِي هَـوىً إِلاَّ شَرِيشاً وَيَا بُعْدَ الجَزِيرَةِ مِـن شَرِيش[49]

سأَلْته عَن مَوْلِدِه، فَقَال : ولدْت في ذِي الحجَّة من سَنَة تِسْعِين وَخمسمَائة

(44) البيتان من قطعة موجودة في المغرب لابن سعيد.
(45) القطعة موجودة أيضا في نفح الطيب نقلاً عن ابن المستوفي.
(46) ترجمته في الذيل والتكملة 5 : 75–94.
(47) ترجمته في الذيل والتكملة 6 : 110–117.
(48) الأبيات في زاد المسافر : 82 ونفح الطيب 5 : 53.
(49) البيتان في زاد المسافر والذيل والتكملة وغيرهما.

فِي تاكُرُنّا المَذْكُورة قَبْل. وَأَنْشَدَني ــ أيَّده اللَّه ــ من حفظه وَكَتَبَهُ لِي بِخَطِّه، قَالَ : أَنْشَدَنِي الشَّيْخ الفَاضِل الحَافِظ أَبُو الحَسَن رضَا بن أَحْمَد المَالِقِي الهَمْدَانِي(50)، قَالَ : أَنْشَدَني أَبو عَبْد اللَّه النَّفْزي(51)، قَالَ : أَنْشَدَني خَالِي غَانم الأَدِيب(52) لِنَفْسِهِ :

الصَّبـرُ أَوْلَـى بِوَقـار الفَتَــى ... مِـن قَلَـقٍ يَهتِك سِتْرَ الوقـارْ
مَـنْ لَـزِم الصَّبْرَ عَلَى حَالـه ... كَـانَ عَلَـى أَيَّامِـهِ بالخِيَـارْ(53)

وأَنْشَدَنِي أَيْضاً عَنْه بالسَّنَد المَذْكُور :

صَيِّرْ فُـؤَادَكَ للمَحْبُـوبِ مَنزلـةً ... سَمُّ الخِيـاط مجالُ للمُحِبَّيــن
وَلاَ تُسامحْ بغيضاً في مُواصلـةٍ ... فقلَّ ما تَسعُ الدُّنيا بَغِيضَيـنِ(54)

وأَنْشَدَني، قَال أَنْشَدَنِي الشَّيْخ الفَاضِل أَبو مُوسَى عِيسَى بْنُ يُونُس الغَسَّانِي بِبَرْجَة ــ حَرَسَها اللَّه ــ مِن مُدن الأَنْدَلُس، عَنْ ذِي المَعَارِف ابْن شَرَف لِنَفْسِه :

مَواعِيدُكُمْ لم تَدنُ إِلاَّ تَبَاعَدَتْ ... وَلاَ أُطمعتْ إلاَّ وَأَعْقَبَها اليأسُ
كَمَا لاَحَ فِي المِرْآة شَخْصٌ لِنَاظرٍ ... قَرِيباً ولكنْ ليس يُدْرِكُهُ اللَّمْسُ

وَأَنْشَدَني عَنْه أَيْضاً، ولِنَفْسِه :

صَنَمٌ مِن الكَافُور بَات مُعانقِي ... في بُـرْدَتَين تَعفُّـفِ وتكـرُّم
وذكرتُ في حين الوِصال صدودَه ... فجَـرَتْ بَقَايا أَدْمُعِـي كالعَنْـدَمِ
فَطَفِقتُ أمسحُ مُقلتـيَّ بجيـدِهِ ... إذ عادةُ الكَافُورِ إمْساكُ الدَّمِ(55)

---

(50) ترجمته في تحفة القادم : 110-111 والوافي بالوفيات 14 : 131 والمغرب 1 : 426.

(51) هو أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي، ترجمته في التكملة : 487 وغاية النهاية 2 : 148.

(52) هو أبو محمد غانم بن الوليد المالقي، وترجمته وأخباره في عدد من المصادر، ومنها كتاب الصلة لابن بشكوال والذخيرة وغاية النهاية ومعجم الأدباء وبغية الوعاة ونفح الطيب.

(53) البيتان في نفح الطيب 3 : 398.

(54) البيتان في بدائع البدائه : 366 ونفح الطيب 3 : 265، 398، 447، 596، 4 : 28.

(55) هذه الأبيات نسبها ابن دحية في المطرب (71) لأبي عبد الله ابن شرف، ونسبها العماد في الخريدة إلى أبي الفضل وذكر أنها تروى أيضا لأبيه.

وَأَنْشدنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي الإِمَام الثِّقة أَبُو الحَسَن ثَابت بْنُ ثَابِت الكَلاَعِي[56]، قَالَ : أَنْشَدَنِي الإِمَام أَبُو الفَضْل بنُ أَبِي الحَجَّاج الأَعْلَم[57] لِنَفْسِه :

وعَشيّـةٍ كالسَّيْـف إلاَّ حَـدَّهُ   بَسَطَ الربيعُ بِهَا لِنَـعْلي خَـدَّهُ[58]
عَاطيتُ كَأْسَ الأُنْسِ فيهَا وَاحِداً   ما ضَرَّه إنْ كَانَ جَمْعاً وَحْدَهُ[59]

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَيْضاً بالسَّنَد المَذْكور، عَن الإِمَام الحَافِظ المُجْتَهِد أَبِي مُحَمَّد ابن حَزْم، لِنَفْسِه فِي نَّمام :

أَنمُّ من المِرآة فِي كُلِّ مَا دَرَى   وَأَقْطعُ بينَ النَّاسِ مِنْ قُضُبِ الهِندِ
كَـأَنَّ اللَّيـالِي والمَنَايَـا تَعَلَّمـا   تَحَيُّلَه في القَطْعِ بينَ ذَوِي الوُدِّ[60]

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي الشَّيْخ الفَاضِل أَبُو عَبْد اللّه السَّبْتِي بدارِه بالمَرِيَّة[61] لِنَفْسِه ـــ قال : والبَيت الأَوَّل أُنْشِدْتُهُ في النَّوم ـــ :

يُـخبرك الدَّمْـعُ وَهْـوَ مَـاءٌ   بـأَنَّ عَيْـنَ المُـحبِّ عيـنُ
وينكـرُ الخِـلُّ قَـولَ صَبٍّ   لا بَخـلتْ بالبُكَـاءِ عيـنُ
هـل أَثـرُ الدَّمْـعِ مُضْمحِـلٌّ   إنْ ثَبـتتْ للبُكـاءِ عيـنُ
فقُـلْ لنجـلاَءَ قَـدْ تَحَـامَتْ   بصَارِمٍ لم يَصُغْـه قَيْـنُ
ذودي ظُبا اللّحظِ مِن قَـريبٍ   لاَ حَـانَ بالبُعْـد منكَ حَيْـنُ
وانْتزِحِـي مـن ذُرَى عَـذولٍ   فالقُـرْبُ مـن ساحَتَيـهِ شَيْـنُ

---

(56) من المقرئين والنحويين المشهورين في زمنه وعليه درس ابن مالك صاحب الألفية وغيرها، وترجمته في التكملة 1 : 236 وبغية الوعاة 1 : 482 ونفح الطيب 2 : 231.

(57) أبو الفضل جعفر هو حفيد الأعلم وليس ابنه كما ذكر هنا، انظر أخباره وأشعاره على سبيل المثال في المغرب 1 : 396-397 ومطمح الأنفس : 64 ونفح الطيب 4 : 31-35، 73-74.

(58) في المطبوع : لشغلي.

(59) البيتان في نفح الطيب 4 : 74.

(60) البيتان في طوق الحمامة : 58 وقد ذكر ابن حزم أنهما من قطعة.

(61) لم أتمكن من معرفته الآن.

غُيِّرَ أَهْـلُ الهَـوَى بسُقْـمٍ والسُّقْمُ عِنْـدَ المُـحبِّ زَيْـنُ
إنِّـي وديـنِ الهَـوَى لبـاكٍ بِنَشْـرِ دمـعٍ أَجْـرَاهُ بَيْـنُ
فَما قَضَى البعضُ من حقـوقٍ عَلَـيَّ مِنْهَـا للوَجْـدِ دَيْـنُ

وَأَنْشَدَنا، قَالَ : أَنْشَدَنَا الشَّيْخُ الفَاضِلُ المُعَمَّرُ أَبُو عِيسَى لُبّ بْنُ مُحَمَّد[62]، قَالَ : أَنْشَدَنِي الفَاضِلُ أَبُو إسحَق بْن خفَاجَة الجَزِيرِي ــ جزيرة شُقْر مِنَ الأَنْدَلُس ــ لِنَفْسِهِ :

وعَشيٍّ أُنْسٍ أَضْجعَتْنِـي نَشْوَةٌ فِيـه تُمَهِّـدُ مَضْجَعِـي وَتُـدمِّثُ
خَلعتْ عَلَيَّ بِهَا الأَرَاكَةُ ظِلَّها والغُصْنُ يُصْغِي والحَمَامُ يُحَدِّثُ
والشَّمْسُ تَجْنَحُ للغُروبِ مَريضَةً والرَّعْدُ يَرْقِي والغَمَامةُ تَنْـفُثُ[63]

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي لِنَفْسِه أَيْضاً، وَعَنْهُ :

يُدِيرُ للأَعْيُنِ من وَجْهِهِ كَعبةَ حُسْنٍ حيثُ مَا دَارَا
وَلِي بِهِ عَيْنٌ مَجوسِيَّـةٌ تعبدُ من وَجنتِهِ نَـارَا[64]

وأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي له أَيْضاً، وَعَنْهُ :

كلّمـا مـرَّ قـاصراً مـن خُطـاهُ يَتَهـادى كَمَـا يمرُّ الْغَمَـامُ
سلَّمَ الغُصنُ والكثِيبُ علينَـا فَعلَى الغُصنِ والكَثِيبِ السّلامُ[65]

وعَنْه بالسَّنَد المَذْكور :

تَعَلَّقتهُ ريَّـانَ مِـن خَمـر رِيقـه له رَشْفُها دُوني ولِي دُونَهُ السُّكْرُ
تَرَقْـرَقَ مـاءُ مُقْلَتَـايَ ووجْهُـهُ وَيُذْكَى عَلَى قَلْبِي وَوَجنتِهِ الجَمْرُ
فَلِي وَلَه من وَجْهِهِ وَمَدَامِعـي عَلَى وَجْهِهِ رَوْضٌ وَفِي وَجنَتِي نَهْرُ
ولا عَجَبٌ إنْ فَاحَ نَشْراً وهَذِه مَحَاسِنُه فِي غُصنِ قامتِهِ زَهْـرُ
أرقُّ نَسيبـي فِيـهِ رِقَّـةُ حُسْنِـهِ فلَم أَدرِ أَيِّي قَبْلَهَا مِنْهُما السِّحرُ

---

(62) أديب من أهل شاطبة، له ترجمة في التكملة، رقم 350 والذيل والتكملة 5 : 579.

(63) الأبيات في الديوان ص 285.

(64) البيتان من قصيدة وردت مرتين في الديوان ص 12 ص 125–126.

(65) هما في الديوان ص 62.

وَطِبْنَا معاً شِعْراً وَثَغْراً كَأَنَّمَــا لَهُ مَنطِقِي ثغرٌ وَلِي ثَغرُهُ شِعْرُ[66]

وأنشدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي الإِمَام السَّيِّدُ الفَاضِل الثِّقَة، أَبُو عَلِي عُمَر بْنُ عَبْد المَجِيد بْن عُمَر الأَزدِي[67]، عَنْ أَبِي عَبْد اللّه الرُّصَافِي[68] لِنَفْسِهِ :

ومُهَفهــفٍ كالــغُصن إلاَّ إِنَّــهُ تَتَحيَّــر الأَلْبــابُ عِنْــدَ لِقَائِـــه
أَضْحَى يَنَامُ وَقَدْ تَحَبَّبَ خــدُّهُ عَرَقاً، فَقُلْتُ : الوردُ رُشّ بِمَائِه[69]

وعَنْه بالسَّند المَذْكُور :

بَدَا الشَّفَقُ البَادِي بُعَيْد أَصِيلِ يُجرِّر بالآفَـاقِ حُمْـرَ ذُيُـولِ
وَفِي عَرْضه الأَقْصَى هلالٌ كَأَنَّمَا يجُرُّ مِنْهُ النَّسرُ ضِلْـعَ قَتِيـلِ[70]

وعنه بالسَّند المَذْكور :

وَمُرقرقِ الشَّطَّيْن تَـحسَبَ أَنَّــه متَسايــلٌ مــن دُرَّةٍ لصفائِــــه
فاءَتْ عَلَيه مع الظهيرة سَرْحـةٌ صَدِئَتْ لفَيـئتها غلالــةُ مائِـــه
فتراه أبـيضَ في غِلالـة سُمْـرةٍ كالدَّارع اسْتَلْقَى بظلٍّ لوائــهِ[71]

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي أَيْضاً بالسَّند المَذْكُور، وَقَدْ رَأَى صبيّا يبلُّ عينيه بريقه ليُرَى أَنَّهُ يَبْكِي :

عَذيـرِيَّ مـن جـذلاَنَ يَبْكِـي كَآبـةً
وَأَضْلُعــهُ مِمَّــا يحاوِلُــه صِفْـــرٌ
يبـــلُّ مآقِـــي زَهْرتيـــه بِرِيقِـــهِ
وَيَحْكِي البُكَا عَمْداً كَما ابتَسَم الزَّهرُ

---

(66) القطعة في الديوان ص 353.

(67) له ترجمة مطولة في الذيل والتكملة 5 : 450–454 وانظر حاشية المحقق في ذكر مصادر ترجمته.

(68) هو الشاعر الأندلسي المعروف وقد جمع شعره ونشره الدكتور إحسان عباس وطبع مرتين.

(69) البيتان في الديوان، وعجز البيت الأول فيه :

سلت التثني التوْمُ عن أثنائه

(70) لا يوجدان في الديوان.

(71) رواية هذه الأبيات هنا مختلفة عن رواية الديوان ص 27.

أُيوهِـمُ أنَّ الدَّمْـعَ بــلَّ جُفُونَـــه
وهَلْ عُصِرتْ يَوْماً من النَّرجِس الخَمْرُ[72]

وَأَنْشَدَنِي، قَالَ : أَنْشَدَنِي الفَاضِلُ أَبُو المُتوكّل الهَيْثَم بْن جَعْفَر الإشْبِيلِي الأَنْدَلُسي[73] لِنَفْسِهِ عَلَى لِسَانِ غَيْرِه :

بأَرض رَيَّةَ[74] أَوْطَانِي وَأَوْطَـارِي وَلَى هَوىً فيهُمُ عارٍ عِنِ العَارِ
سَمِيٌّ يحيى ولكنْ في لَواحظـِهِ عَصَا الكَلِيم فَمَاذا صُنْعُ سَحّارِ ؟

وأَنْشَدَني لِنَفْسِه : قَالَ : وَهُو أوَّل شِعْر قلتُه في المَكْتَب :

هَل تَبَدَّى في النَّاسِ وَجْدٌ كَوَجْدِي بهلال المِلاَح يَحْيى بـن رُشْدِ
لاَحَ عُذْري لِـلاَهِ لِلَّـهِ مـابي[75] من غزالٍ يَشبُّ وَجْداً بِوَجْدِي
بَدْرُ تِـمٍّ بَـدَا فقـلتُ : تَعَالَــى جَدُّ رَبٍّ أَهْدَاكَ يَا بَدْرَ سَعدِ

كَذَا أَنْشَدَه : «للاه»، قَالَ : وأردتُ اللاّهي من اللهو، فقلت غيره، قَالَ : كَذَا قلته.

وأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

سَلاَمٌ لساعات التَّـلاقِي مـن الهَـوَى
محلاًّ وأيـامِ الشَّبــاب مــن العُمْــرِ
أُخصُّ بـه مَعنـى الكَمَــال وَشَخْصَهُ
وَسَبَّــاقَ غايــات الفَضَائِــل والفَخْــرِ
أَبَـا البَرَكَـات الأَلْمعيَّ الـذي غَــدا
[بِطَلْعَتِهِ] يُربى على الشَّمْس والبَـدرِ[76]

---

(72) الأبيات في الديوان : 67.
(73) أديب معروف بسعة الحفظ والاقتدار في فنون الشعر، انظر فيه تحفة القادم : 166.
(74) رية هي مالقة.
(75) ورد محرّفاً في الأصل، وراجع ص 145.
(76) يبدو أن أبا البركات المذكور في البيت الأخير هو ابن المستوفي الإربلي مؤلف الكتاب.

وأَنْشَدَنِي لِنَفْسِه :

يَا ماجِداً مَلأَ الزَّمَانَ فَضِيلَةً   وسيادَةً تَخْتَال تَحْتَ سُعُودِ
إنِّي رَجوْتُك للزَّمَانِ فَإِنَّهُ   زَمَنٌ أَلَحَّ عَلَيَّ بالتَّنْكِيدِ
وَعَدِمتُ صَبرِي، فَادَّرِكْنِي إنَّنِي   يَا كَعبَةَ الآمَالِ حِلْفُ فَقِيدِ[77]

11 ـ أَبو علي الأندلسي

هُوَ أَبُو عَلِي الحَسَن بْن مُحَمَّد بن الحَسن بْن عَبْدِ ٱللَّهِ بْن عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ بْن عَبْد السَّيد[78]، من حصن بَيْرة[79] ــ بفتح الباء الموحدة وتسكِين اليَاء المثنَاة من تحت وَبالرَّاء المُهْمَلَة ــ شرقيّ الأَنْدَلُس. وَرَد إِرْبل في ذِي القِعْدَة مِنْ سَنَة سَبع وَعِشْرِينَ وَستمَائَة، وَكَانَ وَرد إربل يُعرِّفُ الفَقِير إِلَى ٱللَّه ــ تَعالى ــ أَبَا سَعِيد كوكبُورِي بنُ عَلِي[80]، خَبر مَيورْقة التي أَخذَهَا الفِرَنج عُنوة، واستغاثَة الأَسْرَى به لفَكَاك ما يُقدِّر اللَّه فَكاكه، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِك، وَقَالَ : أَنَا أَحَقّ مَنْ يُلَبِّي دعوتهم[81]. وحدثني أَنَّ الفِرنج نزلُوهَا فِي شَوَال من سَنَة ستٍّ وعِشْرِين وستمائَة، وملكهم البرشنوني[82]. وكان ابن هود لمَّا استوْلى على الأَنْدَلُس خَاف

(77) يبدو أن هذه الأبيات في مدح أبي البركات أيضاً.

(78) لم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.

(79) بيرة Vera من مدن مملكة غرناطة التي وصفها ابن الخطيب في معيار الاختيار، وهي ــ كما ذكر هنا ــ تقع في شرق مملكة غرناطة.

(80) هو السلطان مظفر الدين صاحب إربل وقد كان مشهورا بفعل الخيرات وكثرة الصدقات ومنها إنفاقه على افتكاك أسرى المسلمين من أيدي الكفّار. انظر ترجمته في وفيات الأعيان 4 : 113-121.

(81) لا نعرف هل رجع هذا المترجم إلى الأندلس أم لا ولا نعرف كذلك هل أنفق ما قد يكون دفع إليه من مال في وجهه أم لا، ومهما يكن من أمر فإن الخبر يدل على التراحم الذي كان بين المسلمين، ومثل صنيع صاحب إربل ما عرف عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان يسعى في فكاك أسرى المسلمين.

(82) أي البرشلوني نسبة إلى برشلونة، والمقصود به خايمي الأول ملك أرغون.

صاحبُ مَيُورْقَة، وَهُوَ أَبو يَحْيَى عَلَى مَيُورْقة من أَجْنَادِها ــ وَكَانُوا مِنَ الأَنْدَلُس ــ فَقَتل مِنْهُم خَلْقاً، وَهَرَبَ مَنْ هَرَبَ إِلَى الجِبَالِ والحُصُون، وخَلَتْ المَدِينَة مِن كَثِير مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَ عَلَيْهَا البَرْشَنُوني وحَاصَرَهَا فِي شَوَال سَنَةَ ستّ وعِشْرِين وستِمَائة، وتَسَلَّمها في أَوَّلِ يَوْم مِن شَهْر يَنِّير مِن سَنَة سَبع وَعِشْرِينَ وستمَائِة[83].

أَنْشَدَنَا لِنَفْسِهِ فِي أَوَاخِرِ ذِي القِعْدَة مِن سَنَة سَبْع وَعِشْرِينَ وَسِتِّمَائة :

يا مَاجِداً يُجْلِي بغُرَّة وَجْهِهِ سُدَفَ الخُطُوبِ عَلَى القُلُوب فَتَنْجلِي
وَمُعَوَّداً قَبْضَ اليَمِينِ وَبَسْطَهَا إِسْدَاءَ عارفَةٍ وَجَلْوَةَ مُشْكِلِ
وابنَ الأَكَابِرِ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ لَم يُخْطِ آخرُهُمْ طَرِيقَ الأَولِ
يَا أَيُّهَا الحَبْرُ السَّنِيُّ المُرْتَضَى مِن مَحْتد الشَّرَفِ الفَصِيحِ الأَطْوَلِ

قوله : «الفصيح» من المعاظلة مع ما قبله وما بعده.

كانَت لعَبدك في لقائِكَ بُشْرةٌ يَرْجو ادامَتَها مَعَ المستقبَلِ
وعليكَ بعد اللّه مُعْتَمَدِي بِهَا وَنَدَاكَ يَمْحو كلَّ خَطْبٍ مُعضِلِ
وَإِذَا تُوُسِّم للعَظِيمِ بِفَضْلِهِ نَجحتْ لَدَيْهِ مَطَالِبُ المُتَوَسِّلِ[84]

وَأَنْشَدَنا، قَالَ : أَنْشَدَنَا الإِمَام المحقّق، بقيّة السّلف فخر الدين أَبو الحسن علي ابن أحمد الحَرَالّي[85] التجيبي الأندلسي، ثم المراكشي، لنفسه بمحروسة القاهرة في جارية لَهُ سَوْداء اسْمُها «رشيقة» :

وهويتُ نَجلاَءَ العُيون غَرِيرةً لا تَنثَني نَحْوَ الوِصَال تَوَحُّشا
مِثلَ الغزَالَة نَالَهَا صيّادُهَا فلها نِفَارُ جهالةٍ عَمّا يَشَا
مَهلاً أَغصنَ البَانِ مِيلي لِلْجَنَى عطْفاً وعُودِي للتأنُّس يَا رَشَا

(83) انظر تفصيل الكلام على كائنة ميورقة في دراستنا، أبو المطرف أحمد بن عَميرة المخزومي : 287-292.

(84) يبدو أن المخاطب بهذه الأبيات هو ابن المستوفى الإربلي مؤلف الكتاب، وقد كان وزيراً لدى السلطان مظفر الدّين صاحب إربل.

(85) ترجمة الحرالّي موجودة في مصادر متعدّدة، ومنها نفح الطيب 2 : 187-190.

فبديعُ شخصك من فؤادي صُنْعُه وأنيقُ لونك من سُوَيداه نَشَا
إنْ كنتِ غُصْن نقاً فَرَوْضُك ناظِري أوْ ظَبْيةً فكِنَاسها مِنِّي الحَشَا
أرشيقَةَ الأوْصاف حُسْناً كَاسْمها ومَليحةَ الأعْطَاف كَالبَانِ انتَشَا
مَا لِي سِوَاكِ وما لغَيْركِ قَيِّمٌ غَيْري فكُونِي لِي أكُنْ لَكِ مَا نَشَا

وأنشدنا، قَالَ : أنْشَدَنا عَلِي بن أحْمَد لنَفْسِه :

بأبِي مَنْ لَه من البَذل مَنْعٌ ولَه في الوِصال لَمحةُ صَدٍّ
يَلبِس الأُنْسَ مُعْلَماً [بِجَفَاءٍ] [ثُمَّ] يُخْفي الدُّنُوّ في طَيِّ بُعْدِ
ويبلُّ الاوامَ مِنْه بكَأْسٍ مَازِجاً سَوْرَة العُقَار بشَهْدِ
فَلَه فِي جَنَى التَّوَاصُلِ مَعْنًى جَمَعَ الضِدَّ فِيه لُطْفاً بضِدٍّ[86]

12 ــ محمد بن يحيى المغربي

هُو أبو عَبْد اللَّه مُحَمَّد بن يَحْيَى بن مَعنصر بن أبي مضر بن يُكساس بن علي بن أبي عَلي المَغْربي[87] قُسَنْطِيني، قَالَ : وتَعرف بقسنْطِينية الهَوَاء[88] التُلُكَّاتِي الحِمْيَري، ولد بها سنة أربع وستمائة. وَرَد إرْبل فِي صَفَر مِنْ سَنَة ثَمان وعِشْرين وستِّمائَة.

أنْشَدَنَا لنَفْسِه في تَاسع رَبِيع الأوَّل :

إن جُزتَ بالعَرَصات من يَبْرِينِ فاشرَحْ غَراماً كَادَ أنْ يبريني
لأهَيْل ذَاك الحَيِّ وابْثُثْ عِنْدَهُمْ وَجْدِي وَبَعض صَبَابتي وأنِيني
وقُلِ المُتيَّمُ عَن هواكُمْ مَا سَلاَ دَنِفٌ وبالعَبَرات غَيرُ ضَنِينِ
يَحْنِي جوارحَه عَلَى جَمْر الغَضَا ويَئِنُّ أنَّةَ عَاشِقٍ مَحْزونِ

(86) لم أقف على هذه الأشعار في مصدر آخر.
(87) له ترجمة في عقود الجمان لابن الشعّار، راجع ص 125 من هذا المجموع.
(88) هكذا تسمّى في كتب البلدان، وسميت كذلك لعلوّها.

مُذْ حلَّ بالحَدبَاء[89] قَد عَلِق الضّنا ... بفُؤاده وأُسِيغ كَأْسَ مَنونِ
بِجوار مَنْ رَفَض الدِّيَانَةَ والتُّقى ... وقد اقْنِعُوا في دِينِهِمْ بالدُّونِ
حُمِّلتُ فوقَ الوُسع منهُمْ بَعْدَما ... ذُوِّقتُ أَنْوَاعَ العَذَاب الهُونِ

وَأَنْشدنا لِنَفْسِه :

لو كنتَ تَعْلم مَا يُجِنُّ فُؤَادِي ... لأَخذتَ فِي وَصْلِي وتَركِ عِنَادِي
لكنَّ قلبك ما أَلَمَّ بِهِ الهَوَى ... فجَهِلتَ ما يلقاه قَلْبِي الصَّادِي

وأَنْشدَنا، قَالَ : أَنْشَدنا شَيْخي أَبُو العَبَّاس أَحْمَد بن مُحَمد الشَرِيشي المُرَّاكشي لِنَفْسِه :

لَوْ لم تكُنْ سُبُلُ العَلاء بَعِيدةً ... لاَ تُنْتَحى إلاَّ بعَزْمة مَاجِدِ
لتَوَارَد الضِدَّان : أَرْبابُ العُلا ... والأرذلون عَلَى مَجَرّ وَاحِدِ

وَأَنْشَدَنا، قَال : أَنْشَدَنا أَبُو العَبَّاس لِنَفْسِه :

تُكلِّفني كِتْمان أَمْر صَبَابَتي ... وَفِي مُقلَتِي عُنْوَانُها ودَلِيلُها
وَتَخْشى عَلَيْهَا إنْ شَهَرْتُ بحُبِّها ... مَقَالةَ أَهْل الحيِّ أَنِّي خليلُهَا
فتهجُرُنِي والهَجْرُ لا شَكَّ قَاتِلِي ... وإنْ مُتُّ قَالوا إنَّ هَذا قتِيلُها
وقالوا: أَمَا تَشْفي فؤادك من جَوىً ... ورُوحَك من بَلْوىً مُذيبٍ غَليلُها
وأنتَ ــ كما قَد قيل ــ في الطبِّ أَوْحدٌ ... تُباشِر أَدواءَ الوَرى وتُزِيلها
فقلْت لَهَا: إنَّ الصَّبَابَة حُكْمُها ... مَع السُّقْم أَنْ لاَ يَسْتَفيقَ عَليلُها
وعِنْدِي إذَا حَدَّثتُ نَفْسيَ سَلْوةً ... غَرامٌ يُنَافيها وشَوْقٌ يُحِيلها
وبَايعتُها طَوْعاً فلَستُ أُقِيلُها ... ولو أَنَّهَا جَارتْ ولا أَستقيلُها

مَعنّصر ــ بفَتح المِيم والعين والنُّون مُشدَّدة، والرَّاء مُهْملة ــ وذكر أَنَّهُ من قَبِيلة من حِمْيَر تُدْعى «تُلُكَّاتة»، مَضْمومة التَّاء الأُولى المثناة واللاَّم، مُشدَّدة الكَاف، وبَعْدَ الأَلِف تَاء مُثناة.

---

(89) الحدباء هي الموصل.

(90) انظر فيه الذيل والتكملة 1 : 387.

13 ــ أبو القاسم الأنْصاري

هُو مُحمد بن مُحمد بن إبْرَاهيم بن الحسين بن سُرَاقة الأنْصاري الأنْدَلُسي[91] من شَاطِبة، مَالِكي المَذْهب، خَتَم القُرآن الكَريم، وَسَمع الحَديث عَلَى أَبي حَفْص عُمر بن كَرَم الدِّينوَري، وَأَبي عَلي الحسن بْنِ المُبارك بن مُحمد الزَّبيدي، وَأَبي الفَضْل عَبْد السَّلام بن بكْرَان بِبَغْداد. وَأَخذ في قِرَاءة كِتَاب «البَسِيط» للواحدي عَلى أَبي الخَيْر بَدل بن أَبي المُعَمَّر. وَرَد إرْبل فِي شَهْر رَبيع الأَوَّل سَنَة سِت وَعِشْرِين وَستِمائَة. أَنْشَدَني لِنَفْسِه.

إلَى كَمْ أُمنِّي النَّفْس ما لا تَنَالُهُ … فيذْهَبُ عُمْري والأَمَانيُّ لاَ تُقضَى ؟
وقَد مَرَّ لي خَمْسٌ وَعِشْرون حجَّة … ولَم أرضَ فِيهَا عِيشتي فَمَتى أَرْضَى ؟
وأَعْلـمُ أنِّـي والثّلاثــون مُــدَّتي … حَر بمَغاني اللَّهْوِ أوسعِهَا رَفضا
فماذا عَسى في هَذِه الخمسِ أرتَجي … وَوَجْدي إلى أَوْب من العشر قد أَفْضَى؟
فَيا رب عَجِّلْ لِي حَيَاةً لذِيذَةً … وإلاّ فبَادِرْ بِي إلى العَمَل الأَرْضا

عَمَّى له أبو عَلي حَسن بن عَلي بن شَمَّاس الإرْبلي بِحُروف وضعهَا عَلَى طَريق التَرْجمة، قَوله :

تلك نُعْمٌ لو أَنْعمتْ بِـوِصالٍ … لشَكرنا في الوَصْلِ إنعَامَ نُعْـمِ

فَقَال :

بأَبِـي مَـنْ أَرَاد خِبرة فَهْمـي … بمُعَمّـًى فديتُـه مـن تَعَمّـي
فانْجَلى ما عماه عن بَيت شعرٍ … مُحْكمٍ من أرقّ مَعنًى ونَظمِ
تلْك نُعْمٌ لو أَنْعمتْ بِـوِصالٍ … لشَكرنـا الـوِصالَ إنعـامَ نُعْـمِ

وأَنْشَدَني لنَفْسِه :

لِقَـاؤك عِيـدٌ بالنَّجَـاح بَشِيـرُ … وَتقبيـلُ يُمْنـى رَاحَتَيك حُبُـورُ
بهاؤُك فِي لَحْظِ المَواسِمِ مَوْسِمٌ … وَنَشْرُك في رَيّا العَـبير عَبيـرُ
وما عادَنا من عِيدنا غيرُ وَافِدٍ … يحول عَليه الحَـوْلُ ثُـمّ يـزُورُ

(91) تقدمت ترجمته بين تراجم ابن الشعّار السابقة ص 123.

له أملٌ في لَثْم يُمْناك مُدركٌ وطَرْفٌ بما يرْنو إلَيْك قَريرُ
سَرَى نحوكُمْ مُذْ عامٍ أولِ جاهداً يجوبُ عِراصَ البيدِ وَهْيَ تَفورُ
فَبُشْراؤُه في النَّفْس ملءُ فُؤادها سروراً وإنْ أعيتْ وطَالَ مَسيرُ
وناجيتُ نَفْسي والهَوى يبعثُ الهَوَى فَطال بيَ التسْويف وَهْوَ غُرورُ
أأترك موسَى[92] ليسَ بَيْني وَبَيْنه سِوى لَيلةٍ إنِّي إذاً لصَبورُ
فملتُ بُودِّي وَانْجياشي وهِمَّتي إلَيْك وَفِيهَا عَن سِوَاك نُفُورُ
وَأيْقنتُ إنّي إنْ أخذتُ بحبلكُمْ عَلَى رَيْبِ دَهرِي مَنْ أشاءُ أُجيرُ
هُما مُنْثَنى الأعْنَاق نَحْو عَلائِهِ كَالٌ بأهْواءِ النُّفوسِ جَدِيرُ
يَنوبُ عَن الدُّرِّ النَّفيس كَلامُهُ وَمَا نَابَ عَن جَدْوَى يَدَيه بُحورُ
إذا صَفِرتْ أيْدِي السَّحاب فكفُّه سَحابٌ بِآفاقِ السَّماحِ دَرُورُ

مولده بشاطِبة في رجَب سَنَة اثنَتَين وتِسْعِين وخمسمائة.

14 ــ أبو عَلي الدَّكالي

هُو أبو عَلي الحَسن بن أبِي مُحَمَّد عَبْد الصَّمَد بن الحُسين بنُ عَبْد الحَلِيم ابنُ أبِي الحَرْث ــ بسكون الرَّاء ــ بن عَتِيق اللَّه بن يُوسف المَاجري[93] الدُّكالِي[94]، مولده وَمَنْشأه بِمَدِينة تُسمَّى «أسَفِي»[95] عَلى ساحِلِ مرَّاكُش، وَهِي آخر مَرَاسِي البَحْر المُحِيط، تَصل إلَيْه المَرَاكب مِن بَر الأنْدلُس وغيرها منْ بِلاَد الشَّرق. وَرد إربل فِي شَهْر رَبيع الأوَّل مِن سَنَة سِت وَعِشْرين وستِّمِائة. شَاب سَمع الحَدِيث بالمَغْرب وَغَيْره. سَمع عَلَى أبِي الخَير بدل بن أبِي المُعَمَّر.

(92) موسى الممدوح في هذه القصيدة هو أحد السادة الموحّدين وقد رجّحنا أن يكون المقصود به أبو عمران بن أبي عبد الله بن أبي يعقوب بن عبد المومن، راجع ص 124.
(93) الماجري نسبة إلى بني ماجر وهم بطن من دكالة قديما، انظر دراستنا حول الماجريين.
(94) الدّكّالي نسبة إلى دُكّالة وهي قبيلة من القبائل المشهورة في المغرب.
(95) أسفي من مدن المغرب المشهورة ومراسيه المهمة.

أُنْشَدني لِنَفسه :

أَلاَ مُبْلِغٌ عَني صِحَابِي [بما رمت] نَوىً في فُؤَادي بعدهُمْ من عَجَائِبِ
وخبِّرهُـمُ عَنِّـي بِأَنِّـيَ بعدهُـمْ مُقيمٌ عَلَى وَلاَئهُمْ غيرُ نَـاكِبِ
وإنِّي وإنْ شَطّتْ بِنا الدَّار ذاكِرٌ فَضَائلَهُمْ [بَلْ] لستُ عَنْها بِغَائِبِ
وأُدٌّ رِسالاتِي خُصوصاً إلى الَّتِي بِهَا تَقتدِي فِي الحُسْن كُلُّ الكَوَاعِبِ
إلَيْها انتمتْ فِي الوَصْف لَيلى وَعِنْدها عَفافٌ عَن الفَحْشا وكلٌّ الأَجَانِبِ
لَدَيْها فُؤَادِي مُوثَقٌ فِي حِبَالِهـا تروحُ بِه أَوْ تَغتدي غيرَ عَازِبِ
تُقَلِّبُـهُ في الـحُبِّ أَيَّ مُقـلَّبِ عَلى بُعْدها مِنِّي بأَقْصى المغارِبِ
بهَا إنْ ذكرتها أطيبُ وإنْ أَنَا بَعيدُ المَدَى عَنْها طَوِيلُ المَذَاهبِ
بِهَا طَاب عَيْشي في صِبايَ وَكُلُّ مَا يُراد لَدَيها فَاغْنَ عن كلِّ كاعِبِ
تَخالُ ضياءَ الشّمس من حُسْن وَجهها وبدرَ الدُّجَى ثاوٍ لها في التَّرائِبِ
تُميتُ وتُحْيِي تَارةً بسُيُوفهـا مُحدِّقةً من بَيْن خَدّ الحَوَاجِبِ
وَتَرمي بسَهْمٍ صَائِبٍ عَن لِحاظِها تُصيبُ بِهِ قَلب المُحبِّ المُصاحبِ
أُيُرجَى لَنَا فِيهَا التَّلاَقِي فنَرْتَجِي أمِ الدَّهرُ حَوْلٌ بينَنَا والمَطالبِ ؟
عَلَيْها سلامُ اللَّهِ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ بِعَدّ الرِّمال والحَصَى والكَوَاكِبِ

وهذا شعر يَنْبغي أَن يُطَّرح، ولكنِّي كتبتُه لغَرابة نَسب قَائِله وَبُعْدِ منزله :

يُقِيم الرِّجـالُ الأَغْنِيـاءُ بأَرْضِهِـمْ وَترمِي النَّوَى بالمُقْترين المَرامِيـا

مولده سنة أَرْبع وتِسْعِين وخَمسمَائة.

تراجم مغربيّة
من بغية الطلب لابن العديم

1 ـ أحمَدُ بن مسْعُود بن محمَّد

أبُو العَبّاس الأنْصاري الخَزْرَجي القُرطبي الشافعي[1] تفقَّه على مذهَب الشافعي وكان متفنّنا في عدّة من العُلُوم عارفا بالحساب والفرائض عالما بِتَفْسير القُرآن العزيز والقراآت والحديث والأصُول واللُّغة والنحو والعَرُوض وأنواع الأدَب وكان ينظم شِعْراً جيدّاً وسَافر إلى بِلاد الهِنْد وجالَ في الأقطار وقدم حَلَب سنة ستمِائة ثُم سَكن دُنيْسر وَدَرَّسَ بِها الفِقْه على مذهب الشَّافعي رضي اللَّهُ عنه بالمَدْرسة الشهابيّة وأقام بها إلى أنْ ماتَ وكان له مصنَّفات حسنة مفيدَة منها كتاب في علم الأُصُول في ثَماني مجلَّدات سمَّاه تَقْريب المطَالِب وَكِتَاب القَوانين في أُصُول الدِّين وكتَابٌ في النَّحْو وَكِتَاب سَمَّاهُ الاخْتيار فِي عِلم الاخْبَار. روَى عَنْهُ شيئاً من شعره أَبُو الفَتح مسعُود بن أَبي الفَضْل النَّقَّاش الحَلبي الشاعر[2] وكان بينهُما مقارضَة بالشِّعْر وأُنْشَدَه بِحَلَب وَأَبو الحَسن علي بن يُوسُف بن مُحمَّد الصَّفَّار الماردِيني الشاعر[3] وأبو حَفْص عمرُ بن أحمد بن اللمَش الدُّنَيْسري[4].

قال أُبو الفَتْح مسعُود بن أبي الفَضل النقَّاش الحَلبي الشَّاعِر ونقلْتُه من خطِّه أو من خط من نقَلَه عنه أُنْشَدَنِي أحمد بن مسْعُود الخزرجي لنفسِه في يَوم الخَميس الحَادي عشر من رَبيع الآخر سَنَة ستمِائَة بِظاهر حَلَب :

أُعَانِقــه غُصْنــاً وأَلْثُمــهُ بــدراً   وأرْشُف وهناً من لَمَى فمِهِ خَمْراً

(1) راجع ترجمة ابن الشعّار له (ص 28 من هذا المجموع)، وفي هذه الترجمة فوائد جديدة.

(2) راجع ترجمته في بغية الطلب 10 : 295.

(3) ترجمة ابن الصفار الماردِيني مع الإحالة على مصادرها في الوافي 22 : 247.

(4) هو كمال الدين عمر بن الخضر الدّنيسري الشافعي المولود في سنة 574هـ والمتوفى في حدود 640هـ، راجع ترجمته في الوافي بالوفيات 22 : 458 وعقود الجمان 5 : 360.

وَأَهْصِرُ منْـهُ حين تثنيـه نشْوَة   تهادت بِه تيهاً وماسَتْ بِهِ سُكرا
كَتمْثالِ نُور في ظَـلاَم ذَوَائِبٍ   إذا ما توارت شمسُهُ أُطلع البَدْرا

ومنْها :

وَنمَّتْ بنا في اللّيْل أنْوارُ وجهِهِ   فمَـدَّ علينَـا من ذَوائبِـه سِتْـرا

ومن شعرِه مَا قرأْتُهُ في ديوان شعر أَبِي الفَتْح النقَّاش الحَلبي قَال : وكَتب إلَيَّ الشَّيخ وجيهُ الدين أبو العبّاس أحمد بْن مَسْعُود بن محمَّد الأنْصاري عنْدَ قُدومِه مِن الهِنْد ونُزُوله بظاهر حَلَب بعد إقامَتِهِ أياماً لاَ نَرَاهُ لاشتغاله بتِجَارتِه في سَنَة ستِّمئَة هَذِه الأبيَات :

أَبَا الفَتْح تَاج الدِّين لا تَنْسَ وُدَّنا   هَلُـمّ نجدد بالتذكـرِ عَهْدَنـا
فَقَد كادَ قلبي أنْ يَطير بقالبي   إليك اشتياقاً فاشف بالوَصْل وَجْدَنا
وإن لم تَكُن في الوَصْل شمْساً لعائقٍ   فكن منه بَدْراً واطلُع اللَّيْل عندنا

فقَال في جَوابه ولم يذكر الأبْيَات.

أَنْشَدَني أَبُو السَّعاداتِ المُبَارك بن حَمْدان الموصلِي[5] قال أَنْشَدَنِي أَبُو الحَسن عَلِي بن يُوسُف بن محمد بن الصفار الكَاتِب الشَّاعِر المَارِدِي باربل قَال أَنْشَدَنِي أبو العَباس الخزرجي لنفسه :

وفي الوجنات ما في الرَّوْض لكن   لرونـق زهرهـا معنـى عجـيب
وأَعْجب ما التعجب منـه أني   أَرَى البُسْتـان يَحْمِلُـه قَضيب

وأَنْشَدَني أَبُو السَّعادات قال أَنْشَدَني أَبو الحسن قال أَنْشَدَني أبو العبَّاس من شعره :

يا ظَبي سنجار أما تـرثي لمن   قد صارَ من أجلِكَ في كفِّ الأَجَل
قد كانَ مَشْغُولاً بِدَرس علمه   فاليوم لا علم بقي ولا عَمَل

ومن جيِّد شِعْره قَوْله وَرَوَاهُ النَّقاش عَنْهُ :

رَاضٍ بحُكْـم هـواك واجِـد   فَعَـلاَم أَنْتَ عَلَـيَّ وَاجِـد

(5) هو ابن الشعّار مؤلف عقود الجمان، راجع ص 125 من هذا المجموع.

مَـا كَـانَ لِـي ذَنْبٌ سِوَى أَنِّـي سَهِـرْتُ وَأَنْتَ رَاقِـد

نقَلْت من خَطٌ أبي حَفْص عُمَر بن الخَضر بن اللمِش بن ألدِزُمش التُّركي المتطبب الدُّنيسري[6] في كتابه الذي وسمَهُ بحليَة السَّرِيِّين، من خَواص الدُّنَيْسرِيِّين[7] قال في ذكر أبي العباس الخزرجي هو أوَّل من دَرَّسَ بالمدرسة الشهَابيَّة بدُنيسر، فَقيهٌ فاضِل مُتَفَنِّنٌ عارف بكَثير من عُلوم الأُصُول والفقه والنَّحو وسائر الآداب شهد لَهُ بذلك جَماعَة من العُلماء قال قال لي أبو محمد بن عربد النحوي كان أبو العباس رحمه الله حديد النظر سديد الفكر عَجيب الفقر غَريب السِّير حَسَن التبحُّر في العُلُوم سَلِيم التَّصوُّر فيما يُبدي من المنثور والمَنْظُوم جَيِّد الفُكاهَة متزيِّد النَّزاهَة لَطِيفَ الشَّمَائِل ظَرِيف المَخَائِل لم أَرَ في عُلماء عَصره ومعشره أتمّ من بحثِه ولا أَدَقَّ من نَظَرِهِ وَلَهُ تَصَانِيف في فُنُون كَثِيرة وَشِعْر كَثِير ولم يَظْهَرْ لَهُ عِنْدَنا سَماع حَدِيثٍ على طَرِيق الزَّوَائِد السِّتَّةَ بل كان يذكر لَنَا أَنَّ لَه سماعات كَثِيرة وقَد أَنْشَدَنِي كَثِيراً مِنْ شِعْره ثم قَال وتُوفِّي رَحمَهُ ٱللَّهُ تَعَالى في سَنة إحْدَى وستِّمائة بدُنَيْسَر ودُفن بالمقبرة القبليَّة بِهَا[8].

(133-130 : 3)

2 ــ أحمد بنُ يُوسف

أَبُو العبَّاس التيفَاشي القَاضِي[9] وتيفاش[10] قريَةٌ من قُرَى قفصَة إحْدَى بِلاَد

(6) تقدّم ذكره، وقد قيل فيه في أول الترجمة : عمر بن أحمد.

(7) سماه ابن سعيد والصفدي ومرتضى الزَّبيدي : تاريخ دنيسر وأورد السخاوي في الإعلام بالتوبيخ اسمه كما هو هنا، وهو من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(8) انظر تاريخ دنيسر.

(9) تعد هذه الترجمة أفضل ما كتب عن التيفاشي قديما وفي الوافي بالوفيات (8 : 288-291) ترجمة جيدة للتيفاشي أيضا، وتعتبر الترجمة التي حرّرها له المرحوم ح.ح. عبد الوهاب مثالاً ممتازا في التقاط أخبار الرجل من تآليفه المخطوطة والمطبوعة، وقد توسع الدكتور إحسان عباس في تتبع مصادر ترجمته وتحليل شخصيته (مقدمة سرور النفس).

(10) ذكر صاحب الروض المعطار أن بينها وبين الأربس مرحلة ووصفها ونص على نسبة التيفاشي إليها وقد ذكرها أيضا ياقوت في معجمه.

إفريقيَّة وكان أُبو العَباس قَاضِي قَفْصَة[11] وكان شَيخاً حسناً فَاضِلاً عارِفاً بالأُدَب وعُلُوم الأوائِل ولَهُ شعر حَسَن ونثر جَيِّد ومُصنَّفَات حَسَنة في عدَّة فُنون كَثِيرة ٱلْفَائِدَة اجْتَمعتُ بِهِ بالقَاهِرة وقَد تَوَجَّهت إليها رَسُولاً فَوَجَدْتُه شَيْخاً كَيِّساً ظَرِيفاً حَرِيصاً على الاستفادَة لما يُورِدُه في تصانيفِهِ ويودِعُه مجَامِيعَه وَأَوْقَفنِي على شيء من تَصَانيفِه الحسَان وأَهْدى إليّ بخَطِّه منها كتاباً وسمَه بالدرَّة الفائِقَة في محَاسِن الأَفارقة[12] وأَنْشَدني مقاطِيع من شِعْرِه وَذَكر لِي أَنَّهُ وُلد بقفصَة من بلاد افريقية وأنَّه خرج وهُو صَبي واشتغل بالديَار المِصريّة على شيخنا أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف البغْدادي[13] ورحل إلى دمشق وقرَأ بِهَا عَلَى شيخنا أَبِي اليمن زيد بن الحَسَن الكندي[14] وأحَبّ المقَام بِها ثم إن نفسَهُ اشتَاقَتْ إلى الوَطَن فعَاد إلى قَفْصة ثم أنّه حنَّ إلى المشرق وَطالَبَتْهُ نفسه بالمقام بدمشق فبَاعَ أمْلاكَه وما يثقُلُ عَلَيْه حَمْلُه وأَخذَ مَعَه أولادَه وزوجَه ومَالَهُ وركِبَ البَحْر في مَركب اتَّخذه لنَفْسِه فَغَرق أَهْلُهُ وَأَوْلاَدُهُ وَخَلَصَ بحشَاشَة نَفْسِه وَخَلَّص عَرَب بَرقَة بعض مَتَاعِه فخرج معهم متنكِّراً خوفاً منْهُم أن يهلكوه، وَيَأْخُذوا متاعه وسبقهم إلى الاسكندرية وَتَوَسَّلَ بعمل مقامةٍ ذَكَرَ فيها ما جَرَى لَه في طَرِيقِه وعرَف الملك الكامِل أَبو المَعَالي محمد بن الملك العَادِل أبي بَكر بن أَيُّوب ملك الدِّيَار المِصْرِيَّة بِذَلِك فَكتب لَهُ إلى الاسكندرية فِي تَخْليصِ ماله فخلص لَهُ مِنْهُ جُمْلَة ثم إنه لما رَحَل المَلك الكامل إلى آمد وافتتحَها[15] توجَّه إلى دمَشْق ومنها إلى حَلَب ومنها إلى آمِد فوجد المَلك الكَامل رَاجِعاً إلى الديَّار المِصْرِيَّة فَعَاد مَعَه

---

(11) من مدن تونس المشهورة، وفي الاستبصار والروض المعطار مادة كبيرة حولها.

(12) كان هذا الكتاب معروفاً في المشرق، فقد ذكره ابن العديم هنا، ونقل عنه ابن الشعّار ترجمة أبي زكرياء الحفصي، وقد ذُكر في كشف الظنون وهدية العارفين وهو الآن مفقود.

(13) هو العالم الموسوعي صاحب التصانيف المتعددة، انظر ترجمته في الوافي بالوفيات 2 : 16−19.

(14) ترجمته في وفيات الأعيان 2 : 339 والوافي بالوفيات 15 : 50 وفي حاشية الترجمة فيهما إحالة على مصادر أخرى.

(15) كان افتتاحها سنة 629 ودخلها الملك الكامل سنة 630. انظر ترجمة الملك الكامل في وفيات الأعيان 5 : 81.

إليها وشكره بها وذكر لي أنَّ مولدَه بِقَفْصة في سنة ثمانين وخمس مائة وأنَّ ولايَتَهُ ٱلْقضَاءَ كَانَتْ بَعْدَ رُجُوعه من المشْرق إليها وحَكَى لي غيره أن سبَبَ عَزله عن القضاء أنَّهُ وجد في داره خمر فعزل بسبب ذلك، وسمعتُ صاحبنا نور الدين أبا الحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد يحكي أن أبا العباس التيفاشي لما حصل مع عرب برقَة وخاف منهم كتَم نَفْسَه وسَألوه من هو وَمِنْ أيْن هو ومَا صَنْعَته فقال لَهُم أَنَا قَوّاد فَقَالوا : ٱللّه الأَحَد ! وَأَنِفُوا مِنْهُ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَب خَلاَصِه مِنْهُمْ.

أَنْشَدَنِي شَرَفُ الدِّين أَبُو العَباس أحمْد بن يُوسُف التيفَاشِي بالقاهِرَة في أَبِي الحَسَن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي يشير إلى كتاب أبي الحسن الَّذِي جَمَعَه في محاسن المغرب وسماه المُغْرِب :

سَعِدَ الغَرْب وازْدَهَى الشَّرْقُ عجباً وابتهاجاً بمغرب ابن سَعيد
طلعتْ شمسُه من الغَرْب تُجْلَى فَأَقَامَتْ قيامَةَ التفنيد
لم يَدع للمؤرخين مقالاً لاَ ولاَ للرُّواة بيتَ نَشِيد
إن تلاهُ على الحَمَام تَغَنَّتْ مَا عَلَى ذَا فِي حُسنه من مَزِيد

وَأَنْشدني أَبُو العَبَّاس التيفَاشي لنفسِه فِيهِ :

يَا طَيِّب الأَصل والفرع الزَكي كما يبدُو جَنَا ثَمرٍ من أَطيب الشَّجَر
ومن خلائقه مثلُ النسيم إذا يهْفُو على الزهْر حول النهر في السَّحَر
ومن مُحيَّاهُ واللّه الشَّهيد إذا يبدوا إلى بَصَرِي أَبْهَى من القَمَر
أَثقَلْتَ ظَهْرِي ببر لا أَقُومُ بِهِ لَوْ كُنْتُ أَتْلُوه قُرْآناً مَعَ السُّوَر
أهدَيت لي الغرب مَجموعاً بعَالَمِهِ في قابِ قَوْسَيْنِ بين السَّمْع والبَصَر
كَأَنَّنِي الآنَ قَد شَاهَدت أَجْمَعَه بكلِّ من فِيه من بَدوٍ ومن حَضَر
نَعَم ولاقَيْت أَهْل الفَضْل كُلّهُمُ في مُدَّتي هَذِه والأَعْصُر الأُخَر
إن كُنْت لم أَرهُم في الصدر من عُمْري فَقد ردَدت عَلَيَّ الصَّدر من عمري
وَكُنت لِي واحداً فيه جميعُهُم ما يُعجز اللّهَ جَمْعَ الخَلْقِ في بَشَرِ
جزيت أَفْضَل ما يُجْزى به بشرٌ مفيد عمر جديد الفَضل مبتكَر

بَلَغني أن أَبَا العَبَّاس التيفَاشي نَزَل الماء إلى عينَيْه فعمي فقدحهما وابصر وكتب وعوفي من ذلك ثم شربَ مُسْهِلاً وأَعْقَبَهُ بِآخَرَ فَمَاتَ بِذَلِك يَوْم السَّبت ثالث عَشر مُحرّم سنَة إِحْدَى وَخَمْسِين وستمائة بِالقَاهِرَةِ.

(3 : 309-312)

3 ــ خالص بن أَحْمَد بن خالص

ابن عبد الله بن خالص أبو القاسم بن أبي العَباس الغافقي الإشْبيلي ثم الشُقْري[16] قدم حَلب وصحب بها محمد بن علي بن العَربي[17] وتوجه منها صحبته إلى بلد الرُّوم ولم يَتّفِق لي به اجتماع حين وَرَد حلب وكان شاعراً مُجيداً كتب عَنْه رفيقُنَا رشيدُ الدين محمد بن الحافظ عبد العَظِيم المنذري[18] وقرأْتُ بخطِّه أَنْشَدَنِي الشَّيْخ الجَلِيل الفَاضِل أَبُو القَاسم خَالص بن أَبي العَباس أحمْد بن خَالص بن عَبد الله بن خَالص الغَافِقي الأَندلسِي الإِشْبِيلِي الأَصْل الشُّقْرِي المَوْلد مولده بجَزِيرَة شُقر سَنَةَ تسع وَثَمَانِين وخَمْسِ مائة ظنا بالقَاهِرة فِي مُسْتَهَل جَمَادَى الآخِرَة سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِين وستِّمَائَة قَالَ أَنْشَدَنِي ٱلأَدِيبُ أَبُو ٱلْحَسَن عَلِي بَنُ أَحْمَد بن حَرِيق[19] لِنَفْسِه بمُرسِيَّة فيما أظن وقد سمعتُ منه كثيراً من شعره :

يَا ليلةً جَادتِ الأَمَانِي بهَا عَلَى رَغْمِ أَنْفِ دَهْرِي

(16) في التكملة لابن الأبار (313) ترجمة لمن اسمه خالص الاشبيلي، كان مكتّبا يقرىء القرآن بإشبيلية وكان رجلا صالحا قال ابن الأبار : «أخذ عنه بعض شيوخنا وقال لي : توفي في نحو الستمائة» ويبدو أن بين هذا والمترجم له قرابة ما.

(17) هو الشيخ محيي الدين.

(18) له ترجمة في الوافي بالوفيات 3 : 264-265 وقد توفي شابا سنة 644هـ أي بعد روايته المذكورة هنا بثلاث سنوات.

(19) ترجمته مع الإحالة على بعض مصادرها في الذيل والتكملة 5 : 275-277 وانظر أيضا نفح الطيب 1 : 180، 2 : 116، 3 : 371، 409، 410، 464، 4 : 56، 112.

أسبَلَ فِيهَا عَلَى نُعمـي   يقْصرُ عَنْهَا طَوِيلُ شُكْرِي
إِذْ بَاتَ فِي مَنْزِلِي حَبِيبِي   وَقَـامَ فِي أَهْلِـه بعُـذْرِ
فَبِتُّ لاَ حَالَةَ كحَالِـي   ضَجِيع بَدْرٍ صَرِيعَ خَمْرِ
يَا لَيلَةَ القَدْر فِي ٱللَّيَالِي   لأَنْتِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرِ[20]

ونقلت من خَطِّه أيضا أَنْشَدَنِي أبو القَاسِمِ خَالِص المذكُور لنَفْسِهِ فِي التَّارِيخ أَعْلاَهُ من قَصِيدَة :

سَرَت عُطلا خَوْفَ العُيُون الرَّواصِد   وجَرس حُلِيٍّ في الفَضيحة جاهِد
وخافت تَفَرِّي الليلِ عن صُبْح وَجْهِهَا   فَلاَذت ولم تحْفل بارسَالِ وَارِدِ
ولولا نَسِيم الرِّيح عرّف عَرفهـا   لَنِيلَ وصالٌ دون واشٍ وحَاسِدِ
وكَمْ حيلَةٍ للهائِم الصبِّ في الهَوى   يكيد بها والدَّهْرُ جَمُّ المَكَائِـدِ
ومازَالَ هَذَا الدَّهر يعتامُ بالمُنى   مُنانـا ويسقينَـا سمام الأساوِدِ
يُريد بنا ما لا نُريـد سَفَاهَـةً   ويوردنـا لا كان شرّ الموارِدِ

ونقلت من خطه وأنشدنا لنفسه في ذم دِمشق :

لأَهْل دِمَشْق في الدُّنيـا شقَـاءٌ   بسُكْنَاهَـا وَهُـونٌ غير هَيْـنِ
مَسَاكن من مساكِنِهِم وإن لم   يحسُّوا وَهْـيَ شرُّ الشِقْـوَتَين
فـإن لم تغْتفَـر لهُـمُ ذُنُـوب   بـه دَخلـوا جَهَنَّـم مرَّتَيْـن

تُوفي أَبو القَاسم خَالص بن أحمد....

(7 : 252-253)

4 ــ أَبو النَّجا الأندلسي

من المشائخ الزُّهاد الصالحين الأولياء المعروفين أَخبرني قطبُ الدِّين أبو عبد الله محمد بن شيخنا أبي العبَّاس أحمد بن علي القسطَلاني[21] أن أَبَا النَّجاء

(20) توجد هذه القطعة أيضا في المغرب 2 : 319 ونفح الطيب 3 : 409-410.
(21) له ترجمة مطولة في الوافي 2 : 132-134 وانظر فيه الإحالة على بعض مصادر ترجمته.

الاندلسي حَجَّ وعَاد على العراق وقَدِمَ المَوصِل واجتمع بها بقَضِيب البانِ(22) ووصَلَ إلى الشّام فدخَل حَلَبَ ودمشق ومضَى إلى الدِّيَارِ المصريَّة وسَكَن جَزيرة فُوة(23) وماتَ بها ودُفن قال وَلَه بها عقبٌ. قَالَ لي أبو عبد الله بَلَغني عن الشَّيخ أبي النَّجَا أنَّهُ لَمَّا حَجَّ وَقَدم المَدِينَة جَاءَ إلَى الشُبَّاكِ الَّذِي عِند أَرجُل الصَّحَابَة وَسَلَّم مِنْهُ عَلَى ٱلنَّبي ﷺ ولم يَدْخُلِ ٱلْمَسْجِدَ احْتِرَاماً لِلنَّبي ﷺ قَالَ وَكَانَ مُوسِراً فكَانَ يُسَافِر بالجِمَال الكَثِيرة والأَحْمَالِ ٱلْكَبِيرة وكَانَ إذَا دَخَلَ بَلَداً سَيَّر من يخْطب لَه امرأَةً وَيَسْتَأْجِرُ لَهُ دَاراً وَسَيَّر مَنْ يكتري لَه للسَّفَرِ فَأَيُّ الأَمْرَين تَيَسَّر لَهُ فَعَلَهُ مِنْ سَفَرٍ أَو إقَامَةٍ قَال وَكَانَ أَبُو النَّجا مِن تَلاَمِذة ابن العَرِيف(24) قَالَ وتوفي أَبو النَّجا بعد السبعين والخمس مائة بفوة.

(385-384 :)

---

(22) من متصوّفة عصره، انظر ترجمته في تاريخ إربل (ترجمة رقم 274) وراجع ما كتبه محقق الكتاب في القسم الثاني ص 576.

(23) قال ياقوت : بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد.

(24) هو الصوفي الأندلسي أبو العباس أحمد بن العريف مؤلف كتاب محاسن المجالس التي نشرها أسين بلاسيوس وكتاب مفتاح السعادة الذي نشرته الدكتورة عصمت دندش.

تراجم مغربيّة
مِنْ مَسالك الأبصار للعمري

1 ـ إبْرَاهِيم بْنُ مُحَمَّد السَّاحِلي

المَعْرُوف بالطُّوَيْجن أُبو إسْحَاق(1).

مَنْبَعُ زُلالٍ عَذْبِ ٱلْمَاء، قُطْب ٱلأَرْضِ والسَّماء، أَزْهَرَ نَجْماً،....، فَفَاءَتْ لَهُ ظِلال، وَفَاتَ عامُهُ كُلَّ قَمَرٍ وَهِلاَل.

قَدِمَ مِصْرَ وَنَزَلَ بِهَا عَلَى بَنِي ٱلأَثِيرِ(2) فِي فَلَكٍ عَلاَء، وَمَلَكَ بِهِمْ جَزِيلَ آلاَء، وَجَرَتْ مُكَاتَبَاتٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لاَذَ بِهِمْ مِنَ ٱلْفُضَلاَء، وَمَتَّ إِلَى عَلِيِّهِمْ(3) بِالْوَلاَء، وَأَتَى دِمَشْقَ بِكُتُبٍ مِنْهُمْ إِلَيّ، وَسَبَبِ كَرُمَ مَوْقِعُهُ لَدَيّ، وَمَدَحَنِي بِعِدّة قَصَائِد، وَتَرَدَّدَ إِلَيَّ مُدّة أَيّامٍ، وَرَأَيْتُ لَهُ بَياناً تُنْصَبُ مِنْهُ ٱلمَصَايِد، وَلِسَاناً لَهُ ٱلأَغْرَاضُ حَصَائِد، وَأَخَذَ مِنِّي كُتُباً طَافَ بِهَا أَكْنَافَ ٱلشَّام، وَطَارَ بِهَا إِلَى كُلِّ بَارِقٍ يُشام، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرٍ وَأَتَانِي دَاعِي ٱلسُّلْطانِ إِثْرَ عَوْدِهِ فَأَتَيْتُ مِصْرَ فَوَجَدْتُهُ قَدْ غَابَ عَنْهَا غَيْبَ ٱلْحَيْنِ، وَرَحَلَ لاَ إِلَى أَيْنَ، لاَ يُعْرَفُ مِنْ خَبَرِهِ إِلاّ مِثْلُ عَنْقَاءَ مُغْرِب، أَوْ أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغَرِّب، ثُمَّ وَافَتِ ٱلأَخْبَارُ بِأَنَّهُ قَصَدَ بِلاَدَ ٱلتَّكْرُور(4)، وَقَضَى بِهَا مَا أَرَادَ مِن السُّرور، وَقَالُوا ـ والعُهْدَة عَلَى ٱلنَّاقِلِ ـ أَنَّهُ سَمَّ ٱبْن ٱلْكُوَيْكِ(5) حينَ حَلّ بِنادِيهِ، وَجَزَاهُ وَلَكِنْ بِكُفْرِ أَيَادِيهِ، هَذَا عَلَى مَا حُكِيَ لِي

---

(1) انظر دراستنا حول إبراهيم الساحلي، وهي من منشورات معهد الدراسات الإفريقية (19).

(2) بنو الأثير أسرة حلبية الأصل استقرت في مصر وكان أفرادها في خدمة السّلاطين المماليك.

(3) هو علاء الدين علي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن الأثير (680-730هـ) كان كاتب السر في عهد السلطان الناصر، انظر ترجمته في الدّرر الكامنة 3 : 14-15.

(4) المقصود بها هنا بلاد مالي، وقد فصلنا الكلام على رحلته مع السلطان منسا موسى وإقامته في بلاطه في دراستنا عن الساحلي.

(5) ابن الكويك تاجر مصري من أسرة بني الكويك المشهورة في عصر المماليك، والمذكور هنا هو سراج الدين أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية في وقته، وكان أقرض السلطان منسا موسى سلطان مالي ورجال حاشيته وذهب هو وولده إلى مالي ليقتضي ماله فأضافه الساحلي=

بِمِصْرَ مِنْ إِكْرَامِ آبْنِ ٱلْكُوَيْكِ لَهُ، إِذْ أَتَى مِصْرَ لاَ يَمُصُّ بَلَلاً، وَلاَ يَجِدُ مَا يَسُدُّ خَلَلاً، وَلاَ يَعُدُّ بيتاً يَأْوِي إِلَيْهِ إِلاَّ رَآهُ طَلَلاً، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَعْلَقَ بِحِبَالَةِ بَنِي ٱلأَثِيرِ، وَيَظْفَرَ بِحِبَاءِ ذَلِكَ ٱلْمَدَدِ ٱلْكَثِيرِ.

وَمِنْ شِعْرِه :

وَٱلْخَالُ نُقْطَةُ مَرْكَزٍ فِي وَجْنَةٍ   دَارَتْ عَلَيهِ دَوَائِرُ ٱلأَحْدَاقِ

وَمِنْهَا :

فِي لَيْلَةٍ أَدْجَى وَأَدْجَنَ جَوُّهَا   لَيْلاَنِ مِنْ صُدْغَيْكِ أَوْ أَشْوَاقِي
إِنْ أَطْلَعَتْ بَدْراً أَنَرْت ثَلاَثَةً   لِلثَّغْرِ أَوْ لِلْخَمْرِ أَوْ لِلسَّاقِي
يَا ظَبْيَ أُنْسٍ لَمْ يُرَعْ بِتَقَنُّصٍ   وَهِلاَلَ أُفْقٍ لَمْ يُشَنْ بِمُحَاقِ
أَنِّي خَفِيتَ وَتَحْتَ شَعْرِكَ كَوْكَبٌ   لِلْخَدِّ مَطْلِعُهُ مِنَ ٱلأَطْوَاقِ
بِتْنَا وَخَمْرَتُنَا لَمىً فِي طَيِّهَا   نَفْثُ ٱلْحُبَابِ وَقُوَّةُ ٱلدِّرْيَاقِ
مُتَقَسِّمَيْنِ كُؤُوسَهَا فَالسَّقْيُ مِن   أَخْلاقِها والسُّكْرُ مِنْ أَخْلاَقِي

وَقَوْلُهُ مِنْ أُخْرَى :

تَأَلَّقَ ٱلْبَرْقُ مُجْتازاً عَلَى إِضَمٍ   فَبِتّ أَعْشو لِوَقْدٍ مِنْهُ مُضْطَرِمِ
وَصَافَحَ ٱلسَّفْحَ مِنْ أَكْنَافِ كَاظِمَةٍ   وَسَالَمَ ٱلدَّوْحَ مِنْ عَلْيَاءِ ذِي سَلَمِ
بِحَيْثُ أَجْرَى دُمُوعِي فَوْقَ دِمْنَتِهِ   ماءً تَوَلَّدَ مِنْ لَفْحٍ وَمِنْ ضَرَمِ
وَحَيْثُ أَوْطَأْتُ خَدّي تُرْبَهُ كَرَماً   وَظَلْتُ أَقْفُو عَلَى آثارِهِ بِفَمِي
دَعْنِي وَنَجْداً أُنَادِيهَا عَلَى خَرَسٍ   مِنْ رَبْعِهَا فَأُنَاجِيهَا عَلَى صَمَمِ
وَأَسْأَلُ ٱلرِّيحَ هَلْ جَرَّتْ مَطَارِفَها   على المُحَصَّبِ أَوْ أَرْسَتْ عَلَى ٱلْعَلَمِ
عَاطَتْ كُؤُوسَ ٱلْهَوَى صِرْفاً مُعَتَّقَةً   فَأَبْرَزَتْ حَبَباً يَطْفُو عَلَى لِمَمِ

= فحدث أنه توفي في تلك الليلة فقيل إنه مات مسموما واتهم الساحلي بذلك ولكن ولد ابن الكويك قال : «إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكنه انقضى أجله» انظر رحلة ابن بطوطة : 202 وقد كان ابن الكويك هذا تاجرا وعالما، انظر ترجمته في الدرر الكامنة 2 : 405 وترجمة ولده أبي جعفر في المصدر نفسه 4 : 24–25 وترجمة ولده الثاني أبي اليمن في المصدر نفسه 4 : 25، وانظر في وفاة سراج الدين ابن الكويك أيضا مسالك الأبصار 27 : 409.

وَمَالَ بِي عَنْ مُعَاطاةِ ٱلصِّبَا زَمَنٌ أَدَّى إِلَى شَيْبَةٍ أَدَّتْ إِلَى هَرَمِ
وَاهاً لِعُمْرٍ قَطَعْنَاهُ عَلَى خُدَعٍ مِنَ ٱلْهَوَى وَأَضَعْنَاهُ عَلَى كَرَمِ
قَضَّيْتُ عُمْرِي وَعَيْنُ ٱلْغَيِّ مُبْصِرَةٌ طَرِيقَ لَهْوِي وَزَهْوِي وَالرَّشَادُ عَمِي
وَصُمّ سَمْعِي كَأَنْ لَمْ يَأْتِهِ نَبَأٌ لِلدّهْرِ حَدّثَ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
فَيا أَخا ٱلْعِيسِ يُزْجِيها مُحَـلأَةً لَمْ تَشْكُ مِنْ سَهَرٍ يَوْماً وَلاَ سَأَمِ
تَرْوِي بِدَمْعٍ مِنَ ٱلأَجْفَانِ مُنْبَجِسٍ وَتَصْطَلِي بِلَظًى فِي ٱلْقَلْبِ مُضْطَرِمِ
مُذْ شَارَفَ ٱلرَّكْبُ أَكْنَافَ ٱلْعَقِيقِ وَمَا أَرَقَّ هَضْبَاهُ مِنْ بَانٍ وَمِنْ سَلَمِ
وَأَظْهَرَتْ طَيْبَةُ ٱلطِّيبَ ٱلَّتِي نَسَمَتْ عَنْ تُرْبَةٍ حَلّ فِيهَا أَشْرَف النَّسَمِ
قِفْ بالضّرِيحِ وَمَا ضَمّتْ صَفَائِحُهُ مِنَ ٱلنَّبِيِّ ٱلرّضِيِّ الطَّاهِرِ ٱلشِّيَمِ
أَنْوَارُه غُرّةٌ فِي ٱلْمَجْدِ نَيِّـرَةٌ وَفَخْرُهُ شَمَمٌ فِي مَعْطِسِ ٱلْكَرَمِ
وَلاَحَ مِنْ نُورِهِ مَعْنًى أَضَاءَ بِهِ مَقَامُ آدَمَ... وَهْوَ فِي ٱلْعَدَمِ.

2 ــ مُحَمَّد بْنُ مُحَمّد ٱبْنِ مُحَمَّد الطَّائِي الْقَفْصِي

مَا نَهْنَهَ فِي ٱلدَّأْب، وَلاَ قَصَّر بِهِ إِلاَّ حِرْفَةُ ٱلأَدَبِ، قَدِمَ مِصْرَ وَأَقَامَ بِٱلْقَاهِرَةِ لاَ تَسَعُهُ شَوَارِعُهَا، وَلاَ تُجَرِّعُهُ مَشَارِعُهَا، وَهِيَ عَلَى مَجْمَعِ نَاسِهَا، وَمَسْبع أَخْيَاسِهَا، لاَ تُبَيِّتُهُ إِلاَّ عَلَى سَغَبٍ، وَلاَ تَسْكُنُ لَهُ إِلاّ عَلَى شَغَب، كَانَ بِهَا يَسْتَجْدِي بِالشِّعْرِ، وَلاَ يُجْدِي عَلَيْهِ رُخْصُ ٱلسِّعْر، وَكَانَ فِيهَا يَخْمُد كُلّما ٱلْتَهَبَ، وَيَطْلُبُ نُحاسَةً وَهُوَ يُنْفِقُ الذَّهَبَ، فَآهاً لِتَصارِيفِ ٱلأَيَّامِ، وَإِحْوَاجِ ٱلْكِرَامِ إِلَى ٱللّئَام، فَلَقَدْ طُوِيَتْ بِهِ مَحَاسِنُ طَيّ لاَ بَلْ هُدّتْ قَواعِدُها، وَهَدَأَتْ رَوَاعِدُهَا....

وَمِنْ بَدِيعِ شِعْرِه قَوْلُهُ فِي ٱلسَّفِينةِ[6] التي عَلَى قُبَّةِ ٱلإِمَامِ ٱلشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

(6) قبّة الإمام الشافعي من أفخم القباب في مصر وهي من إنشاء الملك الكامل الأيوبي، وماتزال =

سَقَى قُبّة الشّافِعي ٱلإمَام ... مِنَ ٱلْكَوْثَر ٱلأَعْيُن ٱلْجَارِيَهْ
لَهُ قُبّة تَحْتَها سَيِّدٌ ... وَبَحْرٌ لَهُ فَوْقها جارِيَهْ

3 ـ خلَف بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيز

ابْنِ مُحَمَّد بْنِ خَلَف بْنِ خَلَف بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيز بْنِ مُحَمّد الْغافِقي الْقَبْتوريّ[7] ٱلأَصْل ٱلإشْبيلِيُّ ٱلْمَوْلِدِ وَٱلْمَنْشأ.

هَبّت بِمِصْرَ ريحُه مرّةً على مَرّة، وشَبّتْ فِيها مَصَابيحُه كَرّةً عَلَى كَرّة، وَحَجّ في الأُولَى يَلْطِم بِأَيْدِي ٱلْعِيسِ وَجْهَ ٱلسَّبْسَب، وَيَطَأُ عَقَارِبَ ٱللّيل وَلَوْ أَنَّهُ بِزُبَانَاهَا يُلْسَب، حَتّى قَضَى نَفَثَه، وَتَطَوّفَ بالبَيْت ٱلْعَتِيقِ لاَ يَخَافُ رَفَثَهُ، وَسُمِع عليهِ هُناكَ مِنْ شِعْرِه، وَأَجِدُ عَلَى خاطِرِي مِنْ ذِكره، ممّا أَنْشَدَنا شيخُنا أبو حَيّان قولَه :

وَاحَسْرَتا لأُمُورٍ لَيْسَ يَبْلُغُهَا ... مَا لِي وَهُنّ مُنَى نَفْسِي وَآمَالِي
أُصْبَحْتُ كَالآلِ لاَ جَدْوَى لَدَيّ وَمَا ... ٱلْوتُ جِدّاً وَلَكِنْ جَدّي ٱلآلِي

4 ـ جَعْفَر بْن مُحَمَّد بْن عَبْد الْعَزِيز[8]

مِنْ وَلَدِ إدرِيس ٱلْمتأيِّد[9] بْن يِحْيى الْمُعْتَلِي الحَسَني.

= السّفينة فوقها موجودة، ويقال إنها تسع قدر نصف أردب لإطعام الطيور وهي ترمز كما قال الشاعر هنا إلى الإمام الشافعي الذي كان في علمه كالبحر.

(7) ترجمته أيضا في الوافي بالوفيات 13 : 371-372، وانظر المصادر المشار إليها في الحاشية وليس فيها المسالك.

(8) هذا من الأدارسة الذين استقروا بمصر، وترجمته في الوافي بالوفيات 11 : 151-152 وفي مصادر أخرى ذكرها المحقق في الحاشية وليس فيها مسالك الأبصار، وقد تقدمت ترجمة والده ضمن هذا المجموع (ص 119).

(9) انظر في هذا الملك الذي هو المتأيّد الإدريسي الحَمّودي الاعلام للزركلي.

قَمَرٌ لَهُ أَدَبٌ يَكادُ غُصْنُهُ يُهْتَصَرُ، وَمُزْنُهُ يُعْتَصَرُ، طَالَ بَاعُ قَصَائِدِهِ فَمَا فِيهَا قِصَرٌ، وَلاَ جَفَّفَ بَلَلَ فِيهَا حَصَر، إِلَى مَحاسنَ لَوْ نُشِرَتْ لَجَلَتْ كُلَّ بَصَر، وَلَحَلفَتْ أَنْ تَدَعَ لِلزّلالِ إِلاّ ما فَضَلَ من خَصَر عَلَى أَنّها لَمْ تَخْلُ مِن كَلِمٍ بِهَا يُنْتَصَر، وَحِكَمٍ لَهَا طَرِيقٌ إِلَى ٱلْقُلوب مُخْتَصَر، يَنْمِي فَرْعُهُ إِلَى مَلِكٍ كَانَ لاَ يُحْرَمُ سَائِلُه، وَلاَ يَعْظُمُ إِلاَّ ٱلْبَحْرُ وَنَائِلُهُ، نُكِسَتْ لَهُ رُؤُوسُ أَعْدَائِهِ الصُّعْر، وَأَمِنَتْ رَعِيتُهُ مِنَ ٱلذُّعْر، وَغَلّتْ مَهَابَتُهُ أَيْدِي ٱلطُّغَاةِ فَلَمْ تَمْتَد، وَأَلاَنَتْ حَصَاةَ تَأَلُّبِهِمْ فَلَمْ تَشْتد، وَلَقَدْ كَانَ آمِلُه يَسْتَقبلُ ٱلْعُمْرَ جَديداً، وَيَسْتَقِلُّ النُّجومَ عَديداً، وَيَستقِرُّ حيْثُ رَأَى المَرْعَى خِصْباً وَالظِّلَّ مَدِيداً، وَمِمّا على ذِكْري مِنْ شِعْرِهِ مِمَّا أَنْشَدَ شَيْخُنَا أَبُو حَيّان قوله :

يَا أَهَيْلَ ٱلْحَيِّ مِنْ كَاظِمَةٍ ... قَدْ لَقينا مِنْ هَواكُمْ نَصَبا
قُلْتُمُ جُزْ لِتَرانَا بالْحِمَى ... وَمَلأتُمْ حَيّكُمْ بِالرُّقَبا

5 ــ محمّد بن أَحْمد بن إبراهيم الصَّدَفي الإشْبيلي(10)

هُو الصَّدَفِيّ الَّذي لاَ يُخْرِجُ إِلاّ الدُّرَّ ٱلْيَتيم، ولا يومَنُ حَتَّى يُلْمَسَ جانب العِقْد النّظيم، ما ولَدَتْ مِثْلَهُ إِشْبِيلِيَّةٌ وَلاَ أَكَنَّهُ دَهْرُهَا، وَلاَ أَجَنّهُ جَنّاتُها وَلاَ سَقَاه نَهْرُها، وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا :

مَا بِي مَوَارِدُ حُبِّي بَلْ مَصَادِرُهُ ... ٱللَّحْظُ أَوَّلُهُ وَٱللَّحْدُ آخِرُهُ
يُبَاشِرُ ٱلْوَشْيُ مِنْ أَعْطَافِهِ بَشَراً ... يَكَادُ يَجْرَحُهُ قَوْلِي يُبَاشِرُهُ
هُوَ ٱلْحَدِيقَةُ لَكِنْ رُبّما كَمَنَتْ ... مَكَانَ حَيّاتِها مِنْهُ غَدَائِرُهُ

(10) ترجمته في المغرب 1 : 263 وفي الحاشية ذكر لمصادر متعدّدة في ترجمته ولا ذكر للمسالك فيها.

6 ـــ الْكَساد ٱلإشْبيلي[11]

لِلّه هُو مِنْ كَسادٍ هو النِّفاق، وَواحِدٍ في طريقِهِ على كَثْرَة الرِّفاق، وجالِب دُرٍّ وَقَفَ حالُه حَتَّى عُرِف بالْكَساد، وألِف الزّمانُ لَهُ ٱلْكِياد، لأنَّهُ لَمْ يُعْرف لِما مَعَهُ قيمَة، وَلاَ وُجِدَ زَبونٌ تَنْفُق عَلَيْهِ تِلْكَ ٱلْفَرَائِدُ ٱلْيَتيمَة، وَلَهُ فِي مَليحٍ حُلِق رَأْسُهُ لِيُكْسَى قُبْحاً، فَمَحَا لَيْلَهُ وَبقِيَ كُلّهُ صُبْحاً، مِمَّا أَنْشَدَهُ لَهُ شَيْخُنَا أَبو حَيّان :

كَـانَ مُـوسَى كَهِـلاَلٍ نَيِّـرٍ لَيْلُــهُ إِذْ يَتَبَـدّى الشّعَــرُ
فَبَـدَا مُــذْ حَلَقُــوا لِمّتَــهُ مِــنْ مُحَيّـاه صَبَـاحٌ مُسْفِــرُ
كانَ إِلاَّ قَمَراً تَـحْتَ ٱلدُّجَـى فَانْجَلَـى ٱللَّيْـلُ وَلاَحَ ٱلْقَمَــرُ
أَوْ كَزَهْـرٍ فِـي كِمامٍ كَامِــنٍ شُقِّــقَت عَنْــهُ فَنَــمّ الزّهَــرُ

7 ــ محَمّد بن إدْريس الْقَلّوسِي[12]

مِنْ أَهْلِ ٱلْغَرْبِ، جَازَ ٱلأَنْدَلُس تَجْري بِه السُّفُنُ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَيَبْتَلِعُه ثُعْبَانُ ٱلْيَمّ وَما أَلْقَى لَهُ مِنْ عِصيٍّ وَحِبالٍ، حَتَّى عَلِق بِمَلِكٍ لَوْ رَامَ الْبَحْرُ أَنْ يَتَشَبَّه بِهِ لَرَامَ ٱلشَّطَطَ، أَوْ دَنَا النَّجْمُ مِنْ رُتَبِهِ لَحَلّ أَشْرَفَ الخِطط، أَوْ اسْتَنار الْمَحْدودُ بشُهُبِهِ لَتَجَلّى حَظّهُ الغطط، أو اتَّصل الزَّمان بِسَبَبِهِ لَمَا قُطّ شَعَر لَيْله القطط، وله شِعْرٌ فائِقٌ، مِنْه مِمّا أَنْشَدَه له شَيْخُنا أَبُو حَيّان :

لاَ تُنْكِـرَنّ تَشَارِيطـاً بوجْنَتِــهِ فَإِنّهـا أَثَـر الأَلْحـاظِ وَالْفِكَــرِ
فَطَالَمَا جُرِحَتْ باللّحْظِ وَجْنَتُـهُ وَالْجُرْحُ لَيْسَ لَهُ بُدٌّ مِنَ ٱلأَثَرِ[13]

---

(11) ترجمته في المغرب أيضا 1 : 288 وفي الحاشية ذكر لمصادر ترجمته ماعدا المسالك.

(12) توجد ترجمته في الإحاطة وغيرها من المصادر المغربية، ومن المصادر المشرقية الوافي بالوفيات 2 : 184.

(13) مهد لهما الصفدي بقوله : «أنشدنا له الخطيب أبو عبد الله محمد بن رشيد السبتي بالقاهرة قال : أنشدنا لنفسه في مشروط.

8 ـــ محمدّ بن أحْمد بن حسن
ابن عامر التجيبي[14]

مِنْ أَهْل بلّش، فَقيهٌ طالَما شُيِّدَ به دَرْس، وجُدِّدَ غرس، رَحَلَ مِنَ ٱلأَنْدَلُسِ إِلَى مِصْر وَسَكَنَ ٱلْقَاهِرة، وَقَصَر هَواهُ عَلَى رُبوعِها الزاهِرَة، ونَزَلَ بِها في الْمَدارِس، وَنُزِّهَ بِبُحوثِهَا في أَزْكي ٱلْمَغارِس، وَكانَ ظاهِرَ ٱلصّلاح، زاهِر المِصْباح، يُقَطِّعُ ٱللّيلَ إِحْياءً، وَيُعِيدُ أَمْوات الْقُلُوب أَحْياءً، وَمِنْ شِعْرِهِ ممّا أَنْشَدَ شَيْخُنَا أَبو حَيّان قَوْلُهُ فِي مَلِيحٍ لَه رَقيبٌ أَحْوَل :

أحوى الْجُفونِ لَهُ رَقيبٌ أَحْوَلٌ ٱلشَّيء فِـي إِدْراكِــهِ شَيْئـــانِ
يَا لَيْتَهُ تَرَكَ ٱلَّذِي أَنَا مُـبْصِرٌ وَهْوَ ٱلْمُخَيَّرُ فِي ٱلْغَزالِ ٱلثَّانِـي

9 ـــ أَبو مُحَمّد عَبْد الصَّمَد
ابْنُ مُحَمّد التّوْزَرِي[15]

شابٌّ تشِبّ مَعَهُ ذُكَاؤُه، ويهبّ خَاطِرُهُ بما يَتَوَقَّدُ بِهِ ذَكاؤُهُ، يَتَوَسَّمُ كَالزَّرْعِ زَكَاؤُهُ، وَيَتَبَسَّمُ أَثَرُ يَرَاعِهِ إِذَا جَدَّ بُكَاؤُه، جَلِيسٌ مُمْتِعُ المُذاكَرةِ، مُمْرِعُ ٱلْمُحاضَرَة، وَإِلَى أَنْ رَأَيْتُهُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلاثِينَ وَسَبْعِمِائَة مَا بَقَلَ وَجْهُهُ بِنَبَاتِهِ، وَلاَ بَقِي لِلنّجوم إِلاّ ما لَفَظَ مِنْ أَبْياتِهِ، أَوْقَفَنِي عَلَى قِطَعٍ مِمّا جَمَعَهُ لِلنَّاسِ، وَمَنَعَهُ بِما يَحْمِي بِهِ ظَبْيِ ٱلْكِناس، ضَنّا تَعْتَزُّ بِهِ ٱلأَبْكار، وَظَنّا أَنْ يَحْصُلَ بِأَدَبِه ٱلْمُشَعْشِع ٱلإِسْكار.

---

(14) ترجمته أيضا في الوافي بالوفيات 2 : 140 والصفدي يروي ما ذكره من خبره وشعره عن أبي حيان مثل العمري.

(15) لم أقف له على ذكر في مكان آخر.

أَتَى فِي ٱلرَّكْبِ ٱلْمَغرِبِيّ، لِحَجِّ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ وَزِيَارَةِ ٱلنَّبِي، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعاً، وغرَبَ كَوْكَبُهُ ٱلَّذِي أَشْرَقَ لَمّا شَرّق طَالِعاً؛ وَكَتَبَ إِلَى مُسْتَجيزاً، كَلاَماً وَجِيزا، وهُو : وَعَدَ سَيِّدي... الدَّهْرِ وَأَبْنائِهِ، وَمُعْلِي صَرْحِ ٱلْفَخَارِ وَمُشَيِّد بِنَائِهِ،..... وَهَبَهُ ٱللَّهُ عُمْراً طَوِيلاً، وَذِكْراً جَمِيلاً لاَ يَبْغِي عَنْهُ تَحْوِيلاً، وَنَصَرَهُ نَصْراً عَزِيزاً مُعَجّلاً، وَمِثْلَهُ مُؤَجّلاً، بِإِجَازَةِ خَدِيمِهِ ٱلْمُتَطاوِل...

فَفِي ٱلْوَقْتِ أَجزْتُهُ، وَعَجَّلْت لَهُ ٱلْوَعْدَ وَأَنْجزْتُهُ، فَكَتَبَ إِلَيّ :

وَصَلَنِي أَعَزَّ ٱللَّهُ سَيِّدي من إِجَازَتِهِ مَا تهتُ بِهِ عُجْباً وَفَرَحاً، وَمَشَيْتُ بِهِ مُخْتالاً مَرِحاً، إِذْ أَمْطَانِي كَاهِلَ ٱلشِّعْرَى ٱلْعَبُور، وَأَرَانِي وَجَوارِي ٱلأَفْلاَكِ دُونِي تَدُور، وَأَبَانَ لِي قُصُورَ شُكْرِي وَأَنَا جِدُّ شَكور، وَقَامَ بِي فَنَهَضْتُ عَلَى رَغمِ ٱلْجَدِّ ٱلْعَثُورِ، وَقَدْ يَجِدُ هَذَا ٱلْمُصْطَنِعُ مَنْ يُقَرِّبُهُ، ويغالِي هَذَا ٱلْمُصْطَنَعُ وَلاَ يَقْدِر عَلَى أزيد مِنْ أَنَّهُ يُحِبّهُ، وَلَوْلاَ أَنَّهُ مِنْ حَرَكَةِ ٱلأَوْبَةِ عَلَى أَوْفازٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَهُ إِلاّ وَقْفَةُ مُجْتَازٍ، لَقَرَنَ هَذِهِ ٱلْبَرِيّة إِلَى ذَلِكُم ٱلْجَناب بِمَدْحَةٍ يطوّلُها وَلاَ يبلغ قُصَارَاه، يَتَعَرَّضُ بِها الآنَ لِمَنْ رَآه، وَسَيَتَأَتَّى ذِكْرُهُ مِنْ ثَغْرِ ٱلأَسْكَنْدَرِيةِ المَحْروس إِنْ أَقَامَ بِهَا ٱلرَّكْبُ يَوْمَيْن، بِمَا يَخْلُو مِنْ زورٍ وَمَيْن، والسّلام ٱلأَزْكَى، ٱلْمُفْتَرُّ كالزّهْرِ ضحْكاً، النّاصِعُ طِيبُهُ الفائِحُ بِالْعِطْرِ مَا سَحَبَتْ بِهِ جَلاَبِيبُهُ، عَلَى ذَلِكُم ٱلْمَجْدِ ٱلأَشْرَف، وَٱلْجَنابِ ٱلأَرْحَمِ ٱلأَرأَف، وَرَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكَتَبَ إِلَيّ مِنَ ٱلإِسْكَنْدَرِيّةِ كِتاباً مَعَ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي جَهَّزَها، وَعَقِيلَتِهِ ٱلَّتِي مِثْلَ ٱلْعَرُوسِ أَبْرَزَهَا كِتَاباً طوّلَهُ... بِهِ وَأَرْسَلَهُ، وَمِنْهُ : وَهِيَ قَصِيدَةٌ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى إِطَالَتِهَا فَقَصرّهَا، وَعَلَى أَنَّهُ يَقْدُر بها حَقّ تِلْكُم الْجَلاَلَة فَمَا قدّرها وَتَوَهّمَ أَنّه مُقَدِّمٌ بِهَا وَسَائِلَهُ فَأَخّرَهُ لَمّا رَأَى تَأَخّرَها، عَلَى أَنَّ تِلْكُم السّيادَة أَشْرَف مِنْ كُلّ ما يُقال، وَتِلْكُم الْمَجادَةُ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَخَيَّلُهُ فِكْرٌ أَوْ يَدُورُ عَلَى بَالٍ، وَمَا ٱلْمَادِحُ لَهَا وَإِن أَطْنَبَ، والْوَاصِفُ لَها وإِنْ خَيّمَ على السُّهَى وَٱلْفَرْقَدِوَطَنَّب، إِلاّ مُقَصِّراً غَيْرَ مَعْذُور، وَشَاكِراً مُبالِغاً غَيْرَ مَشْكور، لأَنَّهَا لاَ تُعْطَى حَقّها وَلاَ تُوَفّى، والسّاكِتُ فِي مَقَامِ جَلاَلَتِهَا أَبْلَغُ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّم فَإِنّ نُور الشَّمْسِ لاَ يَخْفَى.

10 ـ أَبُو عَبْد اللَّه مُحَمَّد

آبنُ عَبْدِ ٱلْوَاحِد ٱلْعَقِيلي[16] ٱلْبَيْرِي. مِنْ وَلَد عَقيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. كَانَ قَدْ بَلَغَنِي صيتُه، ثُمَّ سَوَّغَني الدَّهْرُ أَنِّي لَقِيتُه، فَرَأَيْتُهُ عَذْبَ ٱلْجَنَى، حُلْوَ ٱلْمُنَى.

إلاّ أَنَّهُ ذُو مَخاريقَ يَخْلُب بِهَا ٱلْعُقول، وَيَسْلُبُ بِهَا صُرَّةَ ٱلدِّرْهَمِ ٱلْمَعْقُول، أُمُورٌ أَعْلَمَها للإِغْرَابِ وَتَعَلَّمَها مِنْ مَكْرِ ٱلْغُرَابِ، وَرَاوَغَ بِهَا مُرَاوَغَةَ ٱلثَّعْلَب، وَغَاوَرَ فِي طَلَبِها مُغَاوَرَةَ ٱلسَّلُوقِيِّ لِلأَرْنَب.

قَدِمَ مِصْرَ بِوَفْرٍ مِنَ ٱلْبَلاَغَةِ عَمِيمٍ، وَوَقْرٍ مِنَ ٱلإِفْكِ مَا مِنْهُ وَمِنْ أَوْلاده به إلاَّ عَليم، وَسِحْرٍ سَحَرُوا بِهِ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ واسْتَرْهَبوهُمْ، وخَلَبوهُمْ في وَسَطِ بُيُوتِهِمْ وَسَلَبُوهُمْ، وَأَتَوْا مِنْ ذَهَبِ ٱلأَدب بِمَا يَثْرَى بِهِ كُلُّ غَريمٍ، وَخَلَطُوا بَيَانَهُمْ بالمَخَارِيقِ فَجاءُوا بِسِحْرٍ عَظيمٍ.

وحَدَّثَنِي أَنَّهُ كَتَبَ لأَبِي عَلِيّ عُمَر بْنِ ٱلسُّلْطانِ أَبِي سَعِيدٍ، وأَنَّهُ غَمَرَه بإِحْسانٍ ما عَلَيْهِ مَزِيد، وَبَقِيَ مَعَهُ حَتّى ظَفِرَ به أَخُوه السّلطانُ أبو الحسن علي وأَسْكَنَهُ قيد ثَلاثَةِ أَدرُعٍ في البيدِ، وَأَمْسَكَ ٱلْعَقِيلِيّ هَذَا واعْتَقَلَهُ وثَقَّفَهُ بِٱلْحَدِيدِ، ثُمَّ أَمَرَ بِتَسْرِيحِهِ، وَأَطْلَقَهُ مِنْ مُعْتَقَلٍ ظَنَّهُ باطِنَ ضَرِيحِهِ، وَأَطْبَقَهُ فِي ٱلتُّراب تَحْتَ صَفِيحِهِ، ثُمَّ ٱسْتَكْتَبَهُ فِي إِنْشائِهِ، واسْتَصْحَبَهُ لقرب قَلِيبِهِ وَطولِ رَشائِهِ، لأَنَّهُ رَجُلٌ خُلِقَ مِنْ أَدَبٍ لاَ يَتكَلَّفُهُ، وَلا يَعِدُ مَوْعِداً فَيُخْلِفُهُ، وَحَضَرَ مَعَهُ فَتْحَ تِلِمْسانَ وَكَتَبَ فِي بَشائِرِها، وَأَتَى بِغَرَائبَ فِي عَجَائِبِ بِلادِها وَعَشائِرِها، ثُمَّ خَرَجَ حاجّاً وَرَكِبَ ثَبَجَ ٱلْبَحْرِ فَغَرِق مَا مَعَهُ وَنَجا بِبَدَنِهِ، وَأَتَى وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، سِوَى فُنونِ أَفَنِهِ، وَأَوّل

---

(16) لم أقف على ترجمته وإنما وقفت على أبي عبد الله محمد بن علي بن الصباغ العقيلي الغرناطي وأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق بن محمد بن الصبّاغ العقيلي الغرناطي. انظر الكتيبة الكامنة : 228 ونفح الطيب 5 : 129، 6 : 257، وتشتمل هذه الترجمة على فوائد جديدة، وقد استفاد العمري كثيراً من هذا الكتاب المريني وروى عنه في المسالك أخباراً جغرافية وتاريخية وأدبية متفرّقة.

مَا دَخَلَ القاهِرَة أتَى إليّ وَنَزَلَ في دَارٍ كَان فِيها جارِي، وتردّدَ عَلَيّ لِسَماعِ مَا بَلَغَهُ في المَغْرِب مِنْ أشْعَارِي، وكانَ جَمّ الاسْتِحْضارِ، إذَا حَضَرَ عَنِ ٱلْحُضّار، وإذا سابَقَ جَدّ في الإحْضار، مَعَ أَدبٍ طَرِيّ، كأنّه بُرودُ عَبْقَرِيّ.

وكتب إليّ مَعَ قَصيدَةٍ :

أَبْدَيْتُها أَعْلَى ٱللَّهُ قَدْرَكَ خَجَلاً، وَأَهْدَيْتُها عَجلاً، وَفَضْلُكَ يُشَرِّفُها بالْقَبولِ، والاِعْتِناء المَبْذولِ، فَقَبولُكَ لَها يُشَنِّف آذانها، ويُلْحِقُ بِزُهْرِ النّجومِ خَوْدَانَها، عَلَى أنّني فِي وَصْفِ حُلاكَ، ونَشْرِ عُلاَكَ، كَمَنْ كاثَرَ الْبَحْرَ بِصُبابَة وَكَابَرَ اللّيْثَ بِذُبابَة، لكن فَضْلَكَ يَصْفَحُ ويُغْضِي وَيَسْمَحُ، أَبْقاكَ ٱللَّهُ سَنَناً لِلْمُتّقين، وَسَنَداً لِلْمُعْتَفين، وَأَدامَ عُلُوّكَ، وَوَصَلَ ارْتِقَاءَكَ وَسُمُوّك، والسّلاَمُ ٱلْبَهِجُ ٱلْبِشْر، الأَرِجُ النَّشْر، يَخْتَصّ كَمالَكَ، وَيَعْتَمِدُ جَلاَلَكَ مِنْ مُعَظِّمٍ قَدْرِك، ومُنَظِّم قَلائِدِ فَخْرِكَ، فُلان، ما أَعْرَبَتْ عَنْ لِينِ ٱلْغُصْنِ حَرَكاتُه، وَرَحْمَةُ ٱللّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَكَتَبْتُ جَوَابَ قَصِيدَتِهِ وَكَتَبْتُ مَعَها : أَتْحَفْتَنِي أَعَزَّكَ ٱللَّهُ بِعَقِيلَةٍ عَذْراء، وَخَمِيلَةٍ غَرّاء، ما اكْتَحَلَ طَرْفُ نَاظِرٍ بِمِثْلِها، وَلاَ تَخَيّلَ طالِبٌ بِأَغْزَرَ مِنْ فَضْلِها، وَشْيِ سَحابٍ مُنْهَمِر، وَدَرّ حابٍ مُقْتَدِر، جبَاها نَوْض، وَجَنَاهَا رَوْض، السِّحْرُ حَشْوُ مُقَلِها، والكُحْلُ فَاضِلُ كَحَلِها، جَاءَتْ مِنَ ٱلْمَغْرِب، بالفَضْلِ المُغْرِب.

فَقُلْتُ : أَهْلاً بِأَسَدٍ غَضَنْفَرٍ جاءَ مِنْ خِيسِه، وَقُمْتُ آخُذُ مِنَ ٱلْغَرْبِ مَا أَودَعَهُ ٱلشَّرْقُ مِنْ دُرَرِ ٱلْكَوَاكِبِ فِي كِيسِهِ، وَطَفِقْت أَعْتَرِفُ لِلْغَرْبِ بِفَضْلِهِ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَمّا بعثَ تِلْكَ العقيلَة تَتَهادَى في تِرْبِها، عَفَّرَ الهِلاَلُ جَبِينَهُ فِي تُرْبِها، فَرَأَيْتُ أَكْبَرَ آياتِها وَلاَ ضَيْرَ، وطلعَت الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها وَمَا تَمَّ إلاَّ ٱلْخَيْر.

قُلْتُ : وَلَقَدْ أَضْرَبْتُ عَنْ أَبْيَاتِ ٱلْقَصِيدَتَيْنِ إذْ كَانَتْ قَصيدَتُه تَتَضَمَّنُ فِيَ مِنَ ٱلْمَدْحِ، مَا لَوْ أَثْبَتُّهُ لَمْ آمَنْ فِيَ مِنَ ٱلْقَدْحِ، فَمَا تَرْكُها هِيَ وَجَوَابُها لِقُصورٍ فِيهِمَا، وَلاَ لِشَيْءٍ بِسَبَبِهِ أُخْفِيهِما، إلاّ لِما قالَ فِي قصيدتِهِ فِيّ مِن الْمَديح، وإنّني لاَ أَقْنَعُ مِنَ ٱلزّمْرِ بِريحٍ، فهَذِهِ حالُ قَصِيدَتِه، فَأَمّا قَصيدي فَإنّها جَواب، وإيرادُها مِمّا لاَ يَقْتَضِيهِ الصّواب، عَلَى أَنّه غَيْرُ بِدْعٍ إذَا سَتَرْتُ عوارِي وَكُنْتُ لَهُ أُوَارِي.

ثُمَّ نَعودُ إلَى ذِكْرِ ٱلْبَيْري فَنَقولُ : وَمِنْ نَثْرِهِ قَوْلُهُ : وَكِتابُنَا هَذَا إلَيْكُمْ وَجانِبُ

هَذا آلأَمْرِ قَد اتّسَعَ مَجالُهُ، ونُصِرَتْ أَنْصارُهُ وَرِجالُه والْعَدُوّ قَدْ بَدَتْ أَوْجالُهُ، ودَنَتْ بِعَوْنِ آللَّهِ آجالُه، والْفَتْحُ آلْمُبِينُ قَدْ خفقَتْ أَعْلامُهُ، وَسَيْفُ آللَّهِ قَدْ رَاعَ آلأَعْدَاءَ ابْتِسَامُه، والمَنْحُ قَدْ لَذّ ابْتِسامُهُ، والدَّوْلَةُ قَدْ تَوَلّى آللَّهُ رَفْعَ مَنارِها، وارْتِفاعَ نارِها، وإِشْراقَ أَنْوارِها.

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّا كُنَّا [توجَّهْنا] نحو بلاد دَرْعَة حَرَس آللَّهُ سَاحَتَها، وعَمَر بالْعافِية مِساحَتَها، لِنُمَتِّعَ فِيهِمْ نواظِرَ طَرَفَهَا الشّوق، وَنَجْبُرَ مِنْهُمْ قُلُوباً أَدْنَفَها إِلَيْنَا الشَّوْق، وَقَصَدْنا تَدْويخَ الْبِلاَدِ السُّوسية كَيْ نُقِرّ أمرها فِي نِصابِهِ، وَنَنْتزِعَ حَقّنا فيها مِنْ أَيْدي غُصّابِه، أَخَذْنا نَسْتَجْلِبُهُمْ بِأَتَمِّ وُجوهِ الاسْتِجْلاَبِ، وَنَحُضُّهُمْ عَلَى آلْجَمَاعَةِ آلَّتِي هِيَ رَحْمَةٌ وَنُحَذِّرهُمْ مِنَ آلْفُرْقَةِ آلَّتِي هِيَ عَذَاب، إِلَى أَن آنْقادَ والْحَمْدُ لِلَّه للطاعَةِ عَصِيُّهُمْ، وأُلْقِيَتْ دُونَ آلْقِتَالِ حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ، وَقُرّبَ دانِيهِمْ وَقَصِيُّهُمْ، صُنْعاً مِنَ آللَّهِ كَرِيماً، وَفَضْلا مِن لَدُنْهُ عَظِيماً، ﴿ذَلِكَ آلْفَضْلُ مِنَ آللَّهِ وَكَفَى بِآللَّهِ عَلِيماً﴾، ثُمّ عُدْنا بالجَيْشِ آلْمُوَقّرِ، وَآلْجَمْعِ آلْمَنْصورِ الْمُظَفَّرِ، بما يَروقُ رُوَاء، وَيَحْسُنُ فِي نُصْرَةِ آللَّهِ غَنَاءً.

وَمِنْهُ قَوْلُه : «وَعَرَّسْنا بوادِيهِ، وَخَيَّمْنا بنادِيه، فَألْجَأْنَاهُ إِلَى حِصْنِهِ آلَّذي يَعْتَصِمُ بِذِرْوَتِهِ، وَيَمْتَنِعُ بِصَهْوَتِهِ، فَأَلْفَيْنَاهُ قَدْ فَتَحَ مِنَ آلْكِبْرِ آلَّذي أَتَى عَلَيْهِ مِنه أكبر باب، ووشج بينَه وبَيْن الشّقوة انتِسَاب، وهَيْهات هَيْهات مِمن لم يَرُعْهُ أَوْعارُ الجِبال وَلاَ آقْتِحامُ آلْبِحار وَلاَ آعْتِسافُ آلْيِباب، فَساعَةَ وُصُولِنا نَاصَبْنَاهُ الْقِتال، وَزَحَفْنا إِلَى جِلاَدِهِ بالخَيْلِ والرّجال، وَأَسْغَنْاهُ، زُعافَ الْقِراعِ والنِّصال، فَنَفَقَتْ يَوْمَئِذٍ سوقُ الآجالِ، وَازْدَحَمَتْ فِيهِ آلرِّجالُ عَلَى آلرِّجالِ، والنِّصالُ علَى النّصالِ، وَكَثُرَ الْقَذْف بِالْحِجَارَةِ والرَّمْيُ بِالنِّبال، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَمْ يَمَسَّ أَوْلياءَنَا قَرْح، وَلاَ تَخَطّى صَفْقَتَهُمْ رِبْح، بَلْ كانَ النّصر مِن أَوّلِ صَدْمَة صَدَموها، والظّفرُ لأوليائِنا عَلَى الْعادةِ الَّتي أَلِفوها وَعَلِموها، ونَاجزنا الشّقيّ غير بَعيد، وَأَرَيْناهُ العذابَ مِنْ غَيْرِ وَعيد، وأذقناه وَمَنْ مَعَهُ حَرّ الْحَديد، وأَنْزَلْنا بِهِمْ بأْسَه الشّدِيد، فَلَمّا رَأَى مِنْ أَمْرِ آللَّهِ مَا رَاعَهُ وَهَالَهُ، وَضَاعَفَ حُزْنَهُ وَأَوْجالَهُ، لَمْ تَجِدْ فِي آلتَّماسُكِ مَطْمَعاً، ولا قَالَ قَائِلٌ لَهُ مِنْ عَثْرَتِهِ لَعاً، فَقَالَ بِلِسانِ حالِهِ لِنَفْسِهِ آلْخَبِيثَة : أَيَّتُها

النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعاً، فغصّتْ لَهَوَاتُهُ بالْحِمَام، وَقَرَعَتْ ظَنَابِيبَهُ حُبُكُ الْحُسام، ووَطِىءَ بَلَدَهُ الْجَيْشُ الْعَرَمْرَمُ، وَشَفى أُوامَهُ مِنْهُمْ... اللّهْذَم، وحصلنا الذّخائِر والأَمْوَال، والْعُدَد والأَثْقَالِ، والقَنَاطِير الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، والخَيْلِ المسَوّمة والأَنْعام مِمّا ضيّق عَلَى رَحْبِ ٱلْمَكَانِ أَرْضَه، وَفي أَسْرَع مِنْ كَسْرِ الطّرْف، لاَ بَل أَقْرَب منْ لَمْحِ الطّرْف، مَلأَ ٱللَّهُ الأَيْدِي مِنْ طارِفِهِمْ وَتِلاَدِهِمْ وَأَعَادَ إِلَى ٱلْقِلّة والذِّلّةِ وافِرَ أَعْدَادِهِمْ، فاقْرَأُوا هَذِهِ ٱلْبُشْرَى فِي نَوَادِيكُمْ، وابْعَثُوا مِنْهَا نُسخاً إِلَى بَوَادِيكُمْ، واشْكُروا ٱللَّهَ عَلَى هَذَا ٱلْفَتْح ٱلَّذِي نَظَم شَمْلَ الْبَشَر، وَنَثَر سلْكَ الْمَكْرِ وَالشّرّ، فالشُّكْرُ مِفْتَاحُ ٱلْمَزِيد، وَعُنْوان الْخَيْرِ ٱلْعَتِيدِ، وَتَيَقّنوا أَنَّ حَبْلَ الله هو الأَقْوَى، وَأَنّ العاقِبَة للتَّقْوى.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ :

وَأَمَرْنا أنْ تأخُذُوا فِي مَحْوِ هَذا ٱلْحِصْنِ مِنْ ديوانِ الْوُجود، وأنْ نُنْزِلَ بِهِ أُمَّ الْمَنَايا السُّود، ثُمَّ إذَا أَتْمَمْنا بِمَنّ ٱللَّهِ هَذَا ٱلْعَمَل، المُفْضِي بِقُوّة ٱللَّهِ إِلَى بُلُوغِ ٱلأَمَل، نأخذُ في الإِياب وَنُسْرِعُ في الانْقِلاب.

11 ــ أَبُو عَبْد اللَّه مُحَمَّد بْنُ مُحَمَّد ابْنِ أَبِي الْبركات السَّلاَلِجي[17]

قَدِمَ مِصْرَ وَأَوَى إِلَيّ، وَثَوَى حوالَيَّ، وَبَقِيَ بُرْهَةً أَنِيسَ وَحْدَتِي، وَجَلِيس مَوَدّتِي، وَكان ظريفاً فِي هَيْئَتِهِ، لَطِيفاً بِخِلاَف فِئَتِهِ.

وَكَانَ ٱلْمُوسِيقِي جُلَّ مَا يَعْرِفُه، وَقَلّ أَنْ لاَ يَأْلَفُهُ، قَالَ لِي : إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ

(17) لا توجد له ترجمة في مصدر آخر وهو من البيت السلالجي المشهور كان بفاس، وقد روى عنه العمري مراراً في المسالك وتحرف اسمه في المطبوع والمخطوط من هذا الكتاب وقد تحدثت عنه في بحث لي حول المصادر الشفوية المغربية في كتاب مسالك الأبصار.

ثَوارَثَهُ بنوه، وَتَدَبَّرهُ بَعْدَ جدّه أبوه، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ انْقِطاع، ما فِيهِمْ مَنْ خَدَمَ ٱلسُّلْطَانَ فِي مَنْصِب، وَلاَ نَالَ مِنْهُ جَنَى مُجْدِبٍ وَلاَ مُخْصِبٍ.

أَتَى حاجّاً وَقَضَى نُسْكَه، وَمَضَى عَلَى أَثَرِهِ فِيمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْلُكَه، فَأَقَامَ بِٱلْقاهِرَةِ ثُمَّ تَعَرَّفَ بِي، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى قُرْبِي، وَتَأَكَّدَتْ بَيْنَنا ٱلْمَعْرِفَةُ حَتَّى صَارَتْ صُحْبَة، ثُمَّ سَارَتْ بِهِ قَدَمُهُ إِلَى حَيْثُ قَضَى نَحْبَهُ.

بَلَغَنِي أَنَّهُ مَاتَ بِقَابس، وَحَبَسَهُ بِهَا لِلْمَنِيَّةِ حَابِس.

وَكانَتْ لَهُ فِي ٱلأَدَبِ مُشَارَكَة مَا قَصُرَ فيهَا وَلاَ طَالَ، وَلاَ وُصِفَ فيهَا سَحابُه بِجَهامٍ وَلاَ هَطّالٍ.

وَكَتَبَ إِلَيّ : رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلسِّيادَةِ السَّنِيَّةِ، والْمَجادَةِ السَّرِيّة، الْمَطيرَةِ ٱلسَّحابِيّة، الْخَطِيرَةِ ٱلشِّهابِيّة، الْعَلِيَّةِ الْعُمَرِيَّةِ، نَسَبٌ يَجُرُّ عَلَى ٱلْمَجَرَّةِ ذَيْلَهُ، وَيُجْري فِي مَيْدَانِ الافْتِخارِ نُجُبَهُ وَخَيْلَهُ، فَازَ مُجَلِّياً خِصالَ سَبْقِهِ، وَجَازَ مُوالِياً أَكَارِمَ غَرْبِهِ وَشَرْقِه، وَمَن ادّعَى الجَمْعَ فَفارُوقُه سَمَى على تحقيق فَرْقِهِ، عِلْمٌ وَآداب، يُرْبِى على الزُّهْرِيّ ابْنِ شِهَاب،..............................

وبَعْدُ، فَلَمّا تَنَسَّمَ عَبْدُكُمْ نَسَماتِ هَذِهِ الْخَمائِلَ، وتَعَرَّفَ مِنْ شَمَائِلِها ما ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطافَةِ تِلْكَ الشَّمَائِل، أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ نَتَقَرَّبَ بمِدْحَةٍ مسْكِية نَسَماتُها، شَمْسِيَّةٌ قَسَماتُها، أَعْطافُها أَغْصَانٌ، وَأَرْدافُها كُثْبَانٌ، وَوَجَناتُها لِجَنَى ٱلْقُطوفِ بُسْتَان، يمْدَحُ بِهَا فَتَى قُرَيْشٍ وابْنُ كَهْلِها، وَوَاحِدُ الدُّنْيا وابْنُ واحِدِها هكذا جدّا بَعْدَ جَدٍّ بَيْنَ أَهْلِها، وَأَكْمَلِها جوداً، وَأَسْعَدِهَا جُدوداً، وَمَا أَنَا يا سَيِّدي أَدامَ ٱللَّهُ نَصْرَك، وَأَعْلَى قَدْرَك، إلاّ كَجالِبِ التّمْرِ إِلَى هَجَر وَلَكِنَّنِي رَدَدْتُ ٱلْبِضَاعَةَ لِمُبْضِعِهَا، وَٱلأَمَانَةَ لِمَوْضِعِها، إن أَحْسَنْتُ فَإِرْتضاؤُكُمْ يُظْهِرُهُ وَيُبْدِيه، وإن أَسَأْتُ فإغْضاؤكم يَسْتُرُه ويُخْفيهِ.

وَكَتَبَ مَعَها إِلَيّ قَصِيدَةً وَمِن غزلها مما افتتحها به من أَوّلها :

بَادِرْ إِلَى ٱلرَّوْضِ ٱلأَنِيقِ ٱلزَّاهِرِ   واسْرَحْ بِلَحْظِكَ فِي رِيَاضِ أَزَاهِرِ
فَالطَّلُّ مِنْ فَوْقِ ٱلْغُصونِ كَأَنَّهُ   دُرٌّ يُنَظَّمُ في عُقُودِ جَآذِرِ
وَبَنَفْسَجُ ٱلرَّوْضِ ٱلنَّضِيرِ كَأَنَّهُ   زُرْقُ العُيُونِ بَدَتْ لِعَيْنِ ٱلنَّاظِرِ

مَعَ سَوْسَنٍ رَاقَ النُّهَى كَأَنَامِلٍ قَبَضَتْ عَلَى تِبْرٍ بِهَا مُتَناثِـرِ
أَيْقِظ نَديمَكَ مِنْ كَرَاه وعاطِهِ كَأْسَ الحُمَيّا كَالصّباحِ السّافِـرِ
مِنْ كَفِّ أَحْوَرَ بَابِلِـيٌّ لَحْظُـهُ يَسْبِي ٱلْعُقُولَ لَهُ بِطَرْفٍ سَاحِرِ
إن كانَ يَجْحَدُ سَفْكَ سَيْفِ جُفُونِهِ فَبِخَـدِّهِ أَثَـرٌ يَبِيـنُ لِنَاظِـرِ
(186 : 13)

12 ــ أَبو عَبْد اللَّه مُحَمَّد ٱبْن الصَّائغ القُرَشِيُّ ٱلأُمَوِي(18)

أَغْزَرُ مَن أَعْرِفُ أَدباً، وَأَكْثَرُ فِي تَحْصِيلِهِ دَأْباً، وَأَنْقَدُ مَنْ رَأَيْتُ لِمَعْنَى، وَأَوْقَدُ مَنْ رَضِيتُ ذِهْناً، هُوَ فِي ٱللُّغَةِ إِمَامٌ مُبَرِّز، لِجَمِيعِ كَلاَم العَرَب مُحْرِز، مَعَ نَحوٍ مَا تَرَكَ مِنْهُ شعبا، وَلاَ خَلَّى منَ العَربيَّة ذَلُولاً وَلاً صَعْباً، مَلَكَ نَوافِر الملك حَتَّى اقْتاد جَوَامِحَها، وارْتَادَ مَسَارِحَهَا، وَسَدَّ فِي الْعَرُوضِ خَلَلَ ٱلْخَلِيل، وَبَرَّزَ عَلَى التَّبْريزي فِي مُصَنَّفه الْجَليل وَطَرَفَ قُدَّامَهُ ٱبْنُ ٱلْحَاجب حَاجباً، وانْقَطَعَ ابْنُ ٱلقَطَّاع وَمَا أَدَّى وَاجباً، وَرَكِبَ بُحُورَهُ وَلَمْ يَخْشَ ٱلْغَرَق، وَأَتَى بِقَوَافِيهِ وَمَا أَزْعَجَهَا فِي أَمَاكِنها الْقَلَق، وَلَهُ فِي ٱلصِّنَاعَتَيْن مَا فَاقَ ٱلدُّرَر، أَدَّبَ وَلَدَيّ، وَبَثَّ فَرَائدهُ لَدَيّ، طَالَما ٱجْتَنَيْتُ مِنْهُ ثَمَراً، وَاخْتَلَيْتُ قمراً، وَاجْتَلَبْتُ مِنْهُ بالمُذَاكَرَة سَمَرا، وَهُوَ مِمَّنْ يَأْوِي بِالمَرِيَّةِ إِلَى بَيْتٍ عَريق، وَأَصْل مَرْوَانِيٍّ أينَع لَهُ غصُنٌ وَرِيق، ذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ هِشَام ابْن عَبْد ٱلْمَلِك، وأنّه منَ النَّسب الأمويّ في السنّام لاَ فِي الوَرِك، وَهَا هُوَ الآنَ بالقَاهِرَة أَحَدُ أعلاَمِها، المطبّب لسقَام آلامِها والمُطْنِبُ فِي مَحَاسِنِ كَلاَمَهَا، وَمَا النِّيلُ مِنْ خَلاَئقهِ الحسْنَى بأعذَب، ولاَ المَغْنَاطِيسُ مِنْ إبْدَاعِهِ بِأَجْذَب، وَمِنْ نَثرِهِ قَوْلُه :

وَقَفَ ٱلْحَجّاجُ وَوَقَفْنَا دُونَ مَا عُهِدَ إِلَيْنَا

(18) له ترجمة جيدة في الوافي بالوفيات 3 : 375-378 وقد أثبت له الصفدي قصيدة لزومية طويلة تدل على قدرته الشعرية العالية، وترجمته أيضا في الدرر الكامنة 3 : 484-486، والكتيبة الكامنة 88-90 والإحاطة 2 : 433-442.

وَسَعُوا وَسَعيْنَا فِيمَا تَعُود لأئِمَتُهُ عَلَيْنَا

وَقَوْلُه :

نَفَرُوا وَانْقَلَبْنَا بالوِزْر عَن الارْتِكَاض
وَأَفَاضُوا وَأَفَضْنَا بِقِداح القَدْح فِي الأَعْراض

وَقَوْلُه :

رَانَ ٱلْهَوَى عَلَى القَلْب فَفَسد
وَسَرَى الحَسَدُ فينَا سَرْيَ الرُّوح فِي الجَسَد

وَقَوْله :

قسَت القُلُوب فَما تَتَأَثَّر لزجر زَاجِر
وَحَضَرت مَجالس الذكر وَكَأَنِّي لَسْتُ بالحَاضِر

وقَوله :

اسْتَيْقِظُوا فَقَدْ لاَحَ نُور الصَّبَاح
وَأَجِيبُوا فَقَد حَيْعَل دَاعِي ٱلْفَلاَح
وَأَصْلِحُوا أَحوَالكم فَقَدْ فَازَ بِالجَنَّةِ أَهْل الفَلاح

وَقَوْلَه :

وَاضْرعُوا إلى ٱللَّهِ فِيمَا يُنْجِيكُم
وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ يُطْمِعُكُمْ فيمَا لديه وَيُرجّيكم

وَمن شعره قوله :

بَرْقُ الثَّنِيَّةِ أَمْ ثنَايَاكَ الَّتي خُطِفَ الفُؤَادُ بِبَرْقها الخطّاف
مَرْآكِ بُسْتَانِي وَذِكْرُكِ مُطْرِبِي وَهَوَاكِ سُكْرِي لاَ كُؤُوس سُلاَف
سَلْسَالُ وَرْدٍ لَوْ يُبَاحُ لِظَامِىءٍ وَرِيَاضُ وَرْد لَوْ دَنَتْ لِقِطَاف
عَارَت فَغَارَتْ مِنْهُ أَقمَارَ الدُّجَى لَمَّا ٱنْجَلَى فِي فَرْعِ لَيْلٍ صَافِي
تَقْسُو عَلَيّ وَمَا بِهَا لَو أَنَّهَا رَقَّت لِرِقَّةِ قَلْبِي التَّرجَاف
سَائِل رِيَاضَ الْحُسْنِ مِنْ وَجَنَاتِهَا مَا أَنْبَتَ الأَغْصَان فِي ٱلأَخْفَاف

وقولُه :

بُعْدُ ٱلْمَزَارِ وَلَوْعَةُ ٱلْمُشْتَاقِ حَكَما بِفَيْضِ مَدَامِعِ ٱلآمَاقِ
أَمُعَلِّلِي أَنَّ ٱلتَّوَاصُلَ فِي غَدٍ مَنْ ذَا ٱلَّذِي لِغَدٍ فَدَيْتُكَ بَاقِ
عُجْ بِٱلْمَطِيِّ عَلَى الْحِمَى سُقِيَ ٱلْحِمَى صَوْباً كَصَيِّبِ دَمْعِيَ الرَّقْرَاقِ
فِيهِ لِذِي ٱلْقَلْبِ السَّلِيمِ وِدَادُهُ قَلْبٌ سَلِيمٌ مَا لَهُ مِنْ رَاقِ
قَلْبٌ غَدَاةَ فِرَاقِكُمْ فَارَقْتُهُ لاَ كَانَ فِي ٱلأَيَّامِ يَوْمُ فِرَاقِ
(47-44)

13 ـــ محَمَّد بن محمد بن عبد الرحمن

آبن يُوسف الإِمَام العَلاَّمةُ المْتقِن جَامعُ أَشْتَات الفَضَائل رُكنُ الدِّين أَبُو عَبد اللَّه ابن القُوبَع القُرشي[19] الهَاشِمي الجَعفَرِي المَالِكي التونُسِي لَبِيبٌ مُبصِرٌ لاَ يَخاف منه التخبيط، وطبيبٌ مُكثِرٌ لا يُوتَى عَلَيه من التخليط، أَتْقَن العِلم إِتْقاناً وَدَرَبَ العملَ إذ كَانَ لاَ يغبّ له اتيانا هَذا إلى فَضلٍ مُتسع وسيفٍ وراهُ كل مُتَّبع جَدَّ فِي الطَّلَب حَتى كان جديله الْمُحَكَّك وعُذَيقة المرجَّب لاَ يُشَكَّكُ، وكانَ حِين وَخطَ المَشِيبُ عَارِضَه واسكتَ معارِضَه أَشَدَّ مَا كَانَ عَارِضَة وَأَشَدَّ مُعَارَضَة لَمْ يَمتدَّ مَعَه لمجادلٍ نَفَس وَلاَ رَفَع رَاسَهُ نَحْو مُناظِرٍ إلاّ نكس لثاقِب فكرةٍ حُطَّ عنها قناعُها وكَثر لكل قريع ٱلْحَزْمِ قراعها فتَقهقَر كل متقَدِّمٍ عَن مَكَانِه وَعَلِمَ أن دُونَهُ مَا فِي امكانِه لَم أَرَ لَهُ نَظِيراً فِي مَجْموعِهِ واتقانِهِ واستحضارِه واطلاعِهِ كَانَ مُجِيداً في الأُصُولِ والحَدِيث والفِقْه والأَدَب واللُّغَة والنَّحْو والعرُوضِ وأَسْمَاءِ الرِّجَال والتَّارِيخ والشِّعْر يحفظ للعَرب والمولدين والمتأخرين غاية في الطبّ والحكْمة ومعرفة الخطوطِ خصوصاً خطوط المغاربة قد مَهَر في ذلك وبَرَع وإذا تَحَدَّثَ فِي شَيْءٍ مِن ذَلِك كله تكلم على دقائِقِه وَغَوَامِضِه ونُكَتِهِ حتى يظن سَامعه إنما أَفْنى عمرَه في ذلك الفَن قَالَ شَيْخُنَا العَلاَّمَةُ قَاضِي القُضاة أَبو الحَسَن السُّبكي[20] وَهو مَا هُو ما اعرِف أَحَداً مِثل الشيخ ركن الدين أو كما قالَ وقد

(19) له ترجمة موسعة في الوافي بالوفيات 1 : 238-247 والدرر الكامنة 4 : 181-184.
(20) هو والد مؤلف طبقات الشافعية، انظر تعريف ولده به في الطّبقات 10 : 139-339.

رَأى جماعَةً مَا أَتى الزّمان لَهُم بنظيرٍ بَعْدهُم مثل الشيخ وحكى أَبو الفتْح ابن سَيِّدِ النَّاس[21] أَنَّهُ لَمَا قَدِمَ إِلَى ٱلدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ وَهُو شَابٌّ حَضَر سوق الكُتب وابن النحاس[22] شَيخ العَربيَّةِ حَاضِرٌ وَكَانَ مَع المُنَادي ديوَان ابن هَانِي المَغربي فَأَخَذَه الشيْخ رُكن الدين وَأَخَذَ يترنَّم بقول ابن هَانِي :

فَتكَات لحظكِ أم سُيُوف أَبيكِ　　وَكُؤُس خَمْرك أَمْ مَراشِف فِيكِ

وكَسَرَ التَّاء وَفَتَحَ الفَاءَ والسِّينَ والفَاءَ فالتفتَ إليه ابنُ النحاسِ وقَالَ لَهُ مَاذَا إلاّ نَصبٌ كثيرٌ فقالَ لَهُ الشيخُ رُكْن الدِّين بِتلْكَ الجِدة المَعْرُوفَةِ مِنْهُ والمعرفة انا ما أُعْرِف الذي يريد من رَفْع هَذِهِ الأَشْيَاء عَلَى أَنَّها أَخْبار لمبتدآت مقدَّرة أي أهذِه فَتكَات لحظك أم كَذا أم كَذا وأنا الذي أقوله أغزل وتقديره أأقَاسي فَتكات لحظك أم أُقَاسي سُيُوف أَبيكَ وأَرْشف كُؤُس خَمْرِك أم مراشف فيك فأخجل ابن النحاس وقال يَا مَوْلاَنا فلم لا تَتَصَدَّرُ وتُشغِل النَّاس فَقال استِخْفَافاً بالنحو واحتِقاراً وإيش هُو النَّحو في الدُّنيا أو كما قال حَكَى أيضا قال كنت أنا وابن الاكفاني نأخذ عليه في المباحِث المشرقِيَّة فأبيتُ ليلَتِي أُفَكِّر في الدَّرْس الَّذِي نُصبح نأخذه عنْه واجهدُ قريحتي وأعمل بعقلِي وَفَهْمِي إلى أن يظهر لي فيه شيء اجزم بأن المراد به هذا فإذا تكلم الشيخ ركن الدِّين كُنت أَنَا فِي وَادٍ وَهُو فِي وَادٍ أُو كَما قَالَ وَحَكى المُراكُشي قَال قَالَ لِي الشيخُ ركنُ الدِّين لَمَّا أَوْقَفَني ابن سَيِّد النَّاس على السِّيَرة الَّتي عملهَا علَّمتُ فِيها عَلَى مِائة وَأَرْبَعِين موضعاً أو ستة وَعِشْرِين السَّهْو منِّي أو كما قَالَ وَلَقَدْ رَأيتُه مَرَّات يُوَاقف ابن سَيِّد النَّاس فِي أَسْمَاء رِجَالٍ ويكشف عليهَا فيظهَر مَعَهُ الصَّوَاب قَالَ أَبُو ٱلصَّفا[23] وكُنْت يَوْماً أَنَا وَهُو عِنْدَ ابنِ سَيِّدِ ٱلنَّاسِ فَقَالَ قَالَ الشَّيْخ تَقِي ٱلدِّين ابن تيمِيَّة[24] عَمل ابن الخَطيبِ أُصولاً في الدِّين الأصول أعُوذ بِٱللَّه منَ الشَّيْطَان الرَّجِيم بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَن الرَّحِيم قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ إِلَى آخِرِهَا فَنَفَرَ ٱلشَّيْخُ رُكنُ الدِّينِ وَقَالَ قُلْ

(21) له ترجمة مطولة في الوافي بالوفيات 1 : 289-311.

(22) انظر ترجمته في بغية الوعاة 1 : 13-14.

(23) هو خليل بن أيبك الصفدي.

(24) هو أشهر من أن يعرّف به.

لَهُ يَا عُزَّة عَمل الناس وصَنَعُوا وما افكروا فيك ونهض قَائما وَوَلَّى مُغضباً قَال وأخبرني الشيخ فَتح الدين قَال جَاء إِلَيْهِ إنْسَانٌ يصحح عليه في أمالي القالي فأخذ الشيخ ركن الدين يُسَابِقُه إِلَى ألْفاظِ الكتابِ فبهتَ ذَلِك الرَّجُل فَقَال لي نَحو عِشْرين سَنَةً مَا كَرَّرْت عليها وكَانَ إذا أَنْشدَه أَحَدٌ شَيْئاً في أي معنًى أَنْشد فيه جملةً للمتقَدِّمين والمتأخِّرين كأنَّه كَان يُكرر عَلَيه تلك اللَّيْلة؛ وَتَوَلَّى نيابة الحُكْم للقَاضِي المَالكي بالقَاهِرَة مُدَّةً ثم تَرَكَهَا تَدَيُّناً مِنْه وَقَالَ يَتعَذَّر فِيهَا برآءَة الذِّمَّةِ وَكَانَ سيرتهُ فيها حَسَنَة مَرضِيَّة وَكَانَ يدرسُ فِي المَدْرَسَةِ المُنكتمرِيَّة بالقاهِرَة ويدرِّسُ الطبّ بالبيمارستان المنصوري وينام أول الليل ثم يستفيق وقد أخذ راحَة وقد أخذ كتاب الشفَا لإبن سِينَا يَنظر فيهِ لاَ يَكَاد يخلّ بذلك قال الشَّيخ فَتح الدين قلتُ لَهُ يَوْماً يَا شَيْخ رُكن الدِّين إلى مَتَى تَنظر في هَذا الكِتابِ فَقَالَ إِنَّما أُرِيدُ اهتَدِي وَكَانَ فِيه سَآمَة وَمَلَل حتَّى في لَعِب الشَّطْرَنج يكون في وسطِ الدَّستِ وقد نفضَهُ وَقَطَع لذَّة صاحبه ويقُول سئِمْت سئمْتُ وكَذَلك في بَعْضِ الأَوْقَات في بَحثٍ وقد حرَّر لَك المسأَلَة وكَادَت تنضَجُ فيتْرك الكَلاَم وَيَمْضِي وكَانَ حَسَن التوَدُّدِ يَتَوَدَّد إِلَى النَّاسِ ويُهنِّيهم بالشُّهُور والمَوَاسِم من غَيْر حَاجَةٍ إِلَى أَحَدٍ لأَنَّهُ كَانَ مَعَهُ مَالٌ لَهُ صُورَةٌ مَا يُقَارِبُ الخَمْسِينَ أَلْف دِرهمٍ وَكَانَ يَتَصَدَّق سِرّاً على نَاسٍ مَخْصوصين ولثغته بالرَّآءِ قَبيحَة يجعلها همزةً وكَانَ إِذَا رَأَى أَحداً يَضْرِبُ كَلْباً أو يُؤْذِيه يُخَاصمُه ويَنْهَره وَيَقولُ لَهُ لمَ تَفْعَلُ هَذَا أَمَا هُوَ شَريكَكَ في الحَيوانية وكان خطه عَلَى وَضع المغارِبَة وليسَ بحسنٍ وسمعَ بدمشقَ سنةَ إحدَى وتسعِينَ وست مِائة على المُسندِ تقي الدِّين ابن الوَاسِطِي واستجَزتُهُ سنةَ ثمان وعشرين وسَبع مائة بالقَاهِرَة بِاستدعَآءٍ فيهِ نَثر وَنَظَم فَأَجَابَ وَأَجَازَ وَأَجَادَ نَثْراً وَنَظْماً أَنشدَني لِنفسِه إجَازَةً :

جَوىً يَتَلظَّى في الفُؤَادِ استعارهُ ... ودَمعٌ هَتُون لاَ يكفُّ انهِمَارُه
يحاوِلُ هَـذَا بـرد ذَاكَ بِصَوبـه ... وليسَ بمَآءِ العَيْـن تُطْفَأُ نَـاره
ولُوعاً بِمَن حَازَ الجمال بأسرِه ... فَحَـازَ الفُـؤَاد المُستَهـام اساره
كَلِفتُ بِهِ بدري مَا فَوْق طَوقِهِ ... ود عصيّ ما يُثني عَليه إزارُه
غَزَالٌ لَهُ صَدري كناسٌ ومرتَعٌ ... وَمِن حَبِّ قَلْبِي شيحُه وعرَارُه

جَرَى سَابِحاً مَآء الشَّباب بِرَوْضِه فازْهَــرَ فِيــهِ وَرْدُه وَبَهَـــارُه
يَشِبُّ ضِراماً في حشاي نَعيمُه فَيبدُو بِأَنْفَاسِ الصعــاد شراره
وينظمُ دَمعِي منه نَظم مُـوشَّرٍ كنورِ الأَقاحِي حَفَّهُ جُلَّنَــاره
يُعَلّ بعذبٍ من بـرودِ رُضابِـه تَفَـاوَحَ فِيــه مسكُـهُ وعقَــاره
ويسهرُ أجْفَاني بوسنَـان أدعَـج يحيّر فكري غنجهُ واحْـوِرَاره
حكانِي ضعفاً أو حكَى منهُ موثقاً وخصراً نحيلاً غال صَبري احتضاره
مُعَنّـًى بـردفٍ لا يَنُـوءُ بِثقلِــه فيا شَدَّ ما يلقَى منَ الجارِ جاره
تالفَ في هَذا وذا غصن بانه تَـوافَتْ بـِهِ ازْهـارُهُ وَثِمَــارُهُ
زلالٌ وَلَكِن أَيـنَ منِّــي وُرُودُه وَغُصن ولَكِن أَيْنَ مِنِّي اهْتِصارُه
وسِلسَال رَاحٍ صَدَّ عَنِّي كاسُهُ وَغُودِرَ عِنْدِي سُكرهُ وخمَــارُه
دَنَـا وَنَـاي فالـدَّار غَير بَعِيـدَة وَلَكِــنَّ بُعــدا صَدُّهُ وَنفــارُهُ
وَحِين دَرَى أن شَدّ أَسريَ حبُّه أحَلَّ بِي البَلْوَى وَسَآءَ اقْتِـدَارُهُ

مِنهَا :

حَكَتْ لَيْلَتي مِن فَقدِيَ النَّوْمَ يَومَها كَمَا قَدْ حَكَى لَيْلِي ظَلاَماً نَهَارُه
كَتَمْتُ الهَوَى لكن بِدَمعِي وزَفرَتِي وسُقمِـي تَسَاوَى سِرُّهُ وَجهَــارُه
ثَـلاَث سجـلات علـيَّ بأَنَّنــي أمام غَرَامٍ قَلَّ فِيكَ اسْتِتَــارُه
أرَوِّي بنظْمِي في العِذَار وَتَـارَةً بمن ان يُغَنِّي القُرط اصغي سوارُه
وَجلَّ الَّذِي أَهْوَى عن الحلى رُتبةً ولَمَّا يقارب ان يَدُبَّ عــذارُه
ارَاحَة قَلبي كَيْفَ منكَ عذَابُهَا وَجَنَّة قلبِي كَيْفَ منكَ استِعَارُه

وَتُوفي الشَّيخ رُكْنُ الدين المذكُور بالقاهِرة في تَاسِع ذي الحجة سَنَة ثمان وثلثين وسبع مِائَة واعتلَّ يومين ومضى إلى رَحْمة رَبِّه الرَّحِيم ومولدُهُ سَنَةَ أَرْبَع وستين بتُونس ولَه من التَّصَانيف التي دَوَّنَهَا تَفسِير سُورَة ق في مجلدة ولما تولَّى الإعادَة في المدرسَة الناصرِيَّة عملَ دَرساً في قَوله إن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَعَلَّق مَا أَمْلاَهُ في ذَلِكَ وَكَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدْ قَرَأَ النَّحو عَلَى يَحْيَى بن الفَرَج بنِ زيتُون والأصُول عَلَى مُحَمَّد بْن عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ قَاضِي تُونُس وَقَدِمَ مِصْرَ عَامَ تِسْعِينَ وَسَمِعَ بِدِمَشْقَ مِنِ آبْنِ الوَاسِطِي وَابْنِ القَوَّاسِ.


ملحق

ملحق

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيّ

أَبو عَبْدِ ٱللَّهِ النَّحْوِيّ المَزْدغِيّ الفاسِيّ[1]، يُنْسَبُ إِلَى مَزْدَغَة، وَهِيَ قَبِيلَةٌ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ، كَانَ أَدِيباً نَحْوِيّاً فاضِلاً عارِفاً بالأَدَبِ وَالْعَرَبِيّة، قرأ عَلَى أبي ذَرٍّ مُصْعَب ابْنِ محمّدٍ الْجَيّانِيّ، وأَخَذَ عِلْمَ ٱلأُصولِ عَنْ أبي عَبْدِ ٱللَّهِ الْكَتّاني ٱلْفاسِي وَقَرَأَ عِلْمَ ٱلنَّحْوِ عَلَى أبي القاسم بْنِ زانِيف، وتَميّزَ في ٱلْعُلُوم، وَتَصَدَّرَ لإِفادَتِها وكانَتْ لَهُ يَدٌ طُولَى فِي عِلْمِ ٱلتَّفْسير والْقِراءَاتِ والآداب وَغَيْرِ ذَلِك.

وَلَهُ شِعْرٌ حَسَنٌ، وَمِنْهُ ما أَنْشَدَني الصّاحِبُ الإِمامُ أبو القاسِم عُمَرُ بْن أَحْمَد ابْنِ هِبَةِ ٱللَّه بْن أَبي جَرادة الفَقيهُ ٱلْحَنَفِيُّ أَيَّدَه ٱللَّهُ تعالى قال : أَنْشدَنِي عُبَيْد ٱللَّهِ بْنُ يوسُف الْمَرّاكشي بِسيواس، قالَ : أَنْشَدَني أَبو عَبْد ٱللَّهِ محمد بن علي ٱلْمَزْدغي لِنَفْسِهِ فِي أَخَوَيْنِ : أَحَدُهُما جَميلُ ٱلصّورَة وَٱلآخَرُ أَحْدَبُ طَويلُ السّاقَيْنِ كانا يَحْضُرانِ مَعَنا ٱلْحَلْقَةَ عنده :

فِي ابْنَيْ عَلِيّ إن نَظَرْتَ عَجائبٌ ... أَخَوانِ : ظَبْيٌ أَحْوَرٌ وَحُوَارُ
فَمِنَ ٱلْجَمَالِ بوجْهِ ذاكَ مَحاسِنٌ ... وَمِنَ ٱلْجِمال بظَهْرِ ذَا آثارُ[2]

(7 : 396)

---

(1) ترجمته ومصادرها في الذيل والتكملة 8 : 365.

(2) روى ابن عبد الملك المراكشي أنهما لابن عابد الفاسي، الذيل والتكملة 8 : 335.

فهرس الآيات

فهرس الأعلام

— ت —

— ج —

— ح —

— خ —

— د —

— ر —

— ز —

— س —

— ش —

ــ ك ــ

ــ ل ــ

ــ م ــ

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

فهرس الأماكن

فهرس الأشعار

فهرس الكتب

مراجع المقدمة والتحقيق

ـــ أبو المطرف ابن عميرة، دراسة جامعية لمحمد بن شريفة، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1966.

ـــ الإحاطة، في أخبار غرناطة لابن الخطيب 4 أجزاء، نشر محمد عبد الله عنان، ط. القاهرة 1973.

ـــ اختصار الأخبار، عما كان بسبتة من سني الآثار للأنصاري، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، الطبعة الثانية.

ـــ اختصار القِدْح المعلّى لابن سعيد، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة 1959.

ـــ أزهار الرياض للمقري، ط. القاهرة 1939–1942.

ـــ الاستقصا للناصري، ط. دار الكتاب، الدارالبيضاء 1954.

ـــ إعتاب الكتاب لابن الأبار، تحقيق د. صالح الاشتر، دمشق 1961.

ـــ أعلام مالقة لابن عسكر وابن خميس (مصورة خاصة).

ـــ أعمال الأعلام لابن الخطيب، ط. دار المكشوف، بيروت 1956.

ـــ أمثال العوام في الأندلس 1–2 دراسة وتحقيق د. محمد بن شريفة، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس.

ـــ برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق إبراهيم شبوح، ط. دمشق 1962.

ـــ بغية الطلب لابن العديم، إصدار فؤاد سزكين.

ـــ بغية الملتمس للضبي، ط. مجريط.

ـــ بغية الوعاة للسيوطي 1–2، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

ـــ البيان المعرب لابن عذارى، قسم الموحدين.

ـــ تاريخ إربل لابن المستوفى.

ـــ تاريخ الدولتين للزركشي، ط. تونس 1966.

ـــ تحفة القادم لابن الأبار، تحقيق الدكتور إحسان عباس.

ـــ التكملة لابن الأبار 1-2، نشر الحسيني.

ـــ التكملة لابن الأبار 1-2، ط. مجريط.

ـــ الحلة السيراء 1-2، تحقيق د. حسين مونس، مصر 1963.

ـــ الدرر الكامنة لابن حجر، ط. مصر 1966.

ـــ ديوان ابن خفاجة، تحقيق السيد غازي، دار المعارف 1960.

ـــ الذخيرة لابن بسام، تحقيق الدكتور إحسان عباس.

ـــ الذيل والتكملة لابن عبد الملك 1-2-8، تحقيق د. محمد بن شريفة.

ـــ الذيل والتكملة لابن عبد الملك 4-5-6، تحقيق د. إحسان عباس.

ـــ رايات المبرزين لابن سعيد، تحقيق د. النعمان 1973.

ـــ الروض المعطار للحميري، تحقيق د. إحسان عباس.

ـــ زاد المسافر لأبي بحر التجيبي، تحقيق ع. محداد، بيروت 1939.

ـــ صلة الصلة لابن الزبير، الرباط 1937.

ـــ صلة الصلة لابن الزبير، نشر وزارة الأوقاف.

ـــ طبقات الحفاظ للسيوطي، القاهرة 1973.

ـــ عنوان الدراية للغبريني، ط. الجزائر 1910.

ـــ غاية النهاية لابن الجزري، ط. القاهرة 1932-1933.

ـــ الغصون اليانعة لابن سعيد، تحقيق إبراهيم الأبياري.

ـــ الفارسية لابن قنفذ، الدار التونسية للنشر 1968.

ـــ فهرسة ابن خير، ط. بيروت 1963.

ـــ فوات الوفيات لابن شاكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

ـ قلائد الجمان لابن الشعار، إصدار فؤاد سزكين 1990.
ـ مسالك الأبصار للعمري، إصدار فؤاد سزكين.
ـ المطرب لابن دحية، تحقيق الأبياري ومن معه، القاهرة 1954.
ـ معجم البلدان لياقوت الحموي.
ـ نفح الطيب للمقري، تحقيق الدكتور إحسان عباس.
ـ الوافي بالوفيات، نشر جمعية المستشرقين الألمانية.
ـ وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عباس.

فهرس التراجم والفهارس



الايداع القانوني رقم : 1996/1370
ردمك 9981 - 9943 - 2 - 4

هذا الكتاب

مجموع يشتمل على نحو مائة من أعلام المغرب والأندلس، جلهم ممن رحلوا في القرن السابع الهجري إلى المشرق، وقد انتقوا من مصادر مشرقية خطية ؛ والمجموع يحفل بكم ضخم من الأخبار والأشعار الأندلسية والمغربية التي لم يسبق نشرها، وهي تنفع الباحث في الأدب والتاريخ بالأندلس والمغرب، ويعتمد عليها المهتم بالتواصل بين المغرب والمشرق.